العدوان الصليبي على بلاد الشام

هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة

جوزيف نسيم يوسف

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٧١

دار الكتب الجامعية



طبعات الكتاب

الطبعة الأولى ١٩٥٦

الطبعة الثانية ١٩٥٩

الطبعة الثالثة ١٩٧١

الإهداء

الى أولئك العرب الأبطال
الذين جاهدوا في سبيل قضية
فلسطين في عصورها المتعاقبة

مقدمة الطبعة الثالثة

فى عام ١٩٥٦ ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب تحت اسم « لويس التاسع فى الشرق الأوسط : قضية فلسطين فى عصر الحروب الصليبية » .
وفى عام ١٩٥٩ ظهرت الطبعة الثانية تحمل نفس العنوان . ويسعدنا أن نقدم اليوم لقراء العربية هذه الطبعة الجديدة التى آثرنا أن يكون عنوانها « العدوان الصليبى على بلاد الشام : هزيمة لويس التاسع فى الأراضى المقدسة » ، حتى يصبح أكثر اتساقا مع المحتوى والمضمون . وهذه الطبعة الجديدة مزيدة بما أضفناه إليها من زيادات تبدو بصفة خاصة فى الفصل الأول الذى تناولنا فيه مصادر البحث بالدراسة والنقد والتحليل ، وكذلك فى ثنايا الفصول الأخرى ، فى ضوء العديد من الكتب والمراجع المتعلقة بالموضوع والتى صدرت أخيرا . كما ذيلناها بفهرس أبجدى عام بأسماء الأعلام والأماكن والآثار وما إلى ذلك .

وغنى عن القول إن موضوع الكتاب يكشف أن قضية فلسطين ليست مشكلة اليوم فحسب ، بل إن أصولها ترجع إلى عدة قرون مضت ، فى عصر التوسع الصليبى ضد العالم العربى ، عندما قام الغرب الأوروبى بحملاته الاستعمارية المعروفة ضد بلدان المشرق والمغرب العربيين بقصد بسط نفوذه وسيطرته عليها . وكان من بينها تلك الحملة التى قام بها الملك الفرنسى لويس التاسع على بلاد الشام تحقيقا لأهداف العدوان ، فى فترة هامة من التاريخ ، فكان نصيبها الإخفاق والخذلان أمام تيار الإفاقة العربية الذى جرف فى طريقه محاولات الغرب الفاشلة لإثارة عدوان جديد . وحقق العرب النصر ضد قوم معتدين ، وما النصر إلا من عند الله ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » .

الاسكندرية فى نوفمبر ١٩٧٠ — **جوزيف نسيم يوسف**

تقديم

الطبعة الأولى

بقلم

الاستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية

مدير المعهد العالى للدراسات القبطية بالقاهرة
واستاذ الدراسات الاسلامية الزائر لاكاديمية العصور الوسطى الامريكية
بجامعة متشيجان بأمريكا
والاستاذ السابق بجامعات بون بالمانيا وليفربول ولندن بانجلترا وجامعة الاسكندرية

نشطت المكتبة التاريخية العربية فى أيامنا نشاطا ملحوظا بفضل اجتهاد المجتهدين من مؤرخى العرب فى اقطار الشرق الاوسط ، فقام عدد منهم بنشر آثار قدامى الكتاب من الأصول التاريخية للدول الاسلامية نشر علميا ، كما اضطلع آخرون بالبحث التاريخى البحت وكتابة المؤلفات فى الموضوعات الغامضة التى يعوزنا العلم بها . ولا شك ان هذه النهضة المباركة تسير قدما فى خطوطها الرئيسية على منهاج قويم سليم ، ولا ينقصها إلا المزيد ، إذ أننا إذا ما عقدنا موازنة بين محصولنا الفكرى ومحصول أى أمة من أمم الغرب فى هذا الميدان أدركتنا الحسرة على ما نحن فيه من قصور أو تخلف فى الكم والكيف على السواء . وها هى مادة تاريخ الشرق الأوسط تعج بمختلف الأسانيد الخطية والموضوعات البكر فى انتظار نظرة ممن حباهم الله بنعمة العلم والمقدرة على البحث. فالدرب أمامنا طويل والحقل خصيب والحاجة إلى أيدى العاملين فى مساس. إذن وجب على كل من أتم

عملا أو بحثا أن لا يتوانى فى اظهاره على الملأ بالنشر الحر الجرىء ، لخدمة العلم لوجه الله والوطن واجبة على كل قادر عليها .

والكتاب الذى بين يديك أيها القارىء الكريم مثل من أمثلة الجهاد والاجتهاد الطويل لتحقيق الغاية النبيلة التى ذكرناها . عرفت مؤلفه الدكتور جوزيف نسيم يوسف أثناء ماضيه الجامعى الطويل ، ووجدته فى كل مراحل دراسته يمتاز بالنشاط الفائق والأمانة والاخلاص والتفانى فى تحصيل العلم . حصل على اجازة الليسانس فى الآداب من قسم التاريخ (شعبة العصور الوسطى) بمرتبة الشرف الأولى، وعمل لدرجة الماجستير فجازها ، ثم الدكتوراه فى الآداب فأحرزها . ولما كان من القلائل الذين اختصوا بدراسة العصور الوسطى الغربية من أبناء هذا الجيل فى بلادنا ، فقد توفر على بحوث من النوع الذى لا يكفى فيه الرجوع إلى المصادر العربية فحسب ، بل كان عليه أن ينقب فى أسانيد الغرب اللاتينية والفرنسية القديمة التى درسها بجده المعروف . وإذا أمعنا النظر فيما سبق أن نشر فى موضوع هذا الكتاب ، لاحظنا على الفور أن كتاب الغرب عالجوه على أساس النصوص الغربية دون العربية ، كما أن كتاب الشرق على قلتهم اختصوا بالاصول العربية دون الغربية . وعلى ذلك نستطيع أن نعلن أن دراسة تاريخ لويس التاسع فى الشرق الأوسط على ضوء الوثائق المعاصرة فى الغرب والشرق على السواء تظهر بطريقة جامعة مانعة فى هذا السفر لأول مرة فى أدبنا التاريخى. وليس على القارىء إلا أن يقلب الطرف فى زوايا حواشى هذا الكتاب ، وهى تزخر بالمراجع الاوروبية وغير الاوروبية حتى يخلص منها إلى صدق هذه الشهادة التى نسجلها بضمير علمى نقى .

ومهما اختلفنا مع الكاتب — وأنا أول من خالفه فى بعض رأيه ونظرياته —

فانه لا يسعنا إلا أن نقول أن هذا البحث كسب واضح للمكتبة العربية ولن يستغنى عنه طالب التاريخ واستاذه فى مصر وفى كل الأقطار الشقيقة من دول الشرق العربى . وأنه ليسعدنى أن أتقدم بالكتاب ومؤلفه إلى قراء العربية فى الشرق والغرب ، عسى أن يكون هذا البحث باكورة طيبة لبحوث أخرى نسد بها بعض الثغرات الجسام فى دراستنا لتاريخ العلاقات بين أوروبا والشرق الأدنى فى العصور الوسطى .

تحريرا فى بآن آربور (متشيجان)

فى منتصف شهر يناير سنة ١٩٥٦

عزيز سوريال عطيه

محتويات الكتاب

الخرائط

الفصل الأول

عرض وتحليل لمصادر البحث

فى أواخر سنة ١٢٤٨ م خرج لويس التاسع ملك فرنسا فى جيش ضخم قاصدا مصر للاستيلاء عليها ، والتمهيد بذلك لاعادة بيت المقدس إلى دولة اللاتين بعد أن فقدتها قبلئذ عام ١٢٤٤ م. ولكن محاولته هذه أخفقت إخفاقا تاما ، وغادر هو وحملته الأراضى المصرية يجرون وراءهم أذيال الخزى والخذلان . ومع ذلك لم يقفل الملك الفرنسى عائدا إلى بلاده ، وإنما وجه ركبه شطر الأراضى المقدسة ذاتها ، حيث أقام أربع سنوات كاملة من مايو ١٢٥٠ م إلى ابريل ١٢٥٤ م ، وهو يناضل نضالا عنيفا لتحقيق أغراضه العدوانية وتعويض ما فاته فى حملته المشئومة على مصر .

وموضوع بحثنا هو دراسة أحداث هذه السنوات الأربع التى أقامها لويس فى سورية ، وإبراز معالمها وخباياها ، وما أداه خلالها من أعمال ، ومحاولة استجلاء الخطة التى رسمها وسار عليها ، واستقصاء دقائقها وتفاصيلها ، والكشف عن نتائجها .

وهذا الموضوع حلقة من حلقات ذلك الصراع الطويل بين الشرق والغرب الذى يزخر به تاريخ الانسانية منذ أقدم عصوره حتى يومنا هذا . وهو إلى جانب هذا يلقى ضوءا على فترة هامة دقيقة فى تاريخ الحركة الصليبية نفسها ، وتاريخ مصر والشام آنئذ ، عندما تحالفت المصالح والأهواء أحيانا ، وتعارضت أحيانا أخرى ، والملك الفرنسى لويس التاسع واقف فى هذا البحر الخضم يحالف قوة ويهدد ثانية ويلوح لثالثة بالاتفاق مع منافسيها وهكذا ، ولا هم له من وراء ذلك كله سوى خدمة القضية الصليبية ولا شىء غير هذه القضية .

وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع فهو لا يزال بكرا لم يدرس بعد دراسة وافية ، ولم يظهر فيه للآن مؤلف مستقل قائم بذاته ، شرقيا كان أم غربيا . وكل ما هنالك نتف أو شذرات مبعثرة هنا وهناك لا تفى بحاجة الباحث ، ولا تصلح أساسا لدراسة علمية محققة .

من أجل ذلك أصبح تناول هذا الموضوع ملزما باقتفاء آثار أحداثه وتطوراته فى بطون الأصول الأوروبية والعربية على حد السواء ، ومناقشة مختلف الروايات والأسانيد والنصوص المتضاربة ، وموازنتها أملا فى استخلاص الحقيقة التاريخية المطلة من بين خطوطها المتشابكة المتداخلة فى بعضها ، واستنباط النتائج التى يتمخض عنها النقد التاريخى السديد . وقد جهدنا فى توخى هذا النهج فى بحثنا ، فرجعنا إلى مصادر المعاصرين لهذه الفترة من شهود العيان وغيرهم ، ومن جاء بعدهم فى العصور التالية من المتأخرين والمحدثين ، ومن نقل منهم عن أصل مفقود أو موجود ، معروف أو مجهول .

ولحسن الحظ أن منابع هذا البحث على جانب كبير من الوفرة فى كتب الحوليات والوثائق الرسمية باللغة العربية واللاتينية والفرنسية الوسيطة ، وهى تشمل أمثلة من الطراز الأول نخص بالذكر من بينها من صاحب لويس وكان شاهد عيان لأحداث هذه الفترة كجوانفيل ، وجرفروا دى بلييه ، ووليم دى شارتر ، وغيرهم . وكانوا يحضرون مجالس الملك الفرنسى ويساهمون فى أعماله وتوجيهاته بنصيب ملحوظ ، ثم يسجلون ذلك كله بعدئذ فى مذكراتهم وتآليفهم . ويلاحظ أن معظم المصادر الأوروبية لا تزال بلغاتها الأصلية التى كتبت بها وهى اللاتينية أو الفرنسية الوسيطة أمثال تآليف وليم دى نانجى ، وبدوين دافسن ، ووليم دى شارتر ، وروتلان ، وهرقل ، وحوليات الأراضى المقدسة. وقليل منها ما نقل إلى اللغات الأوروبية الحديثة مثل كتاب جوانفيل ، وتاريخ

متى البارزى ، ورسالة لويس التاسع . وتلى الأصول المسيحية فى الأهمية المصادر الاسلامية التى اعتمدنا عليها فيما كتبناه عن أحوال العالم الاسلامى فى ذلك الحين، وهى ناحية لا يمكن إغفالها عند التعرض لموقف لويس من المسلمين أيوبيين كانوا أم مماليك ، شيعة أم سنة.

ويمكننا اعتبار مؤلف جوانفيل عن « تاريخ القديس لويس » أهم المصادر الأوروبية المعاصرة عن العصر الذى نحن بصدده . فهو يختلف عن غيره بأنه لم يتبع نظام الحوليات الشائع وقتئذ ، وإنما توخى تدوين أخبار سيده خلال هذه السنوات الأربع فى شيء من التدقيق والايضاح والتعليق والتحليل .

ويستحق جوانفيل ومؤلفه وقفة لاغنى عنها فيما نحن بصدده. فهو ينحدر من إحدى الأسرات العريقة بمقاطعة شامبانيا بفرنسا التى برز كثير من أفرادها على مسرح السياسة فى فرنسا خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى . وقد ثار الخلاف حول السنة التى ولد والتى توفى فيها جوانفيل. يقول البعض إنه ولد سنة ١٢٢٠ م ، ويرى آخرون أن ذلك كان سنة ١٢٢٤م ، وثمة فريق ثالث يرى أن مولده كان فى سنة ١٢٢٨ م . وتاريخ وفاته غير معروف هو الآخر على وجه اليقين، وإن كان يغلب على الظن أنه توفى حوالى سنة ١٣١٨م، لأن أملاكه ومقاطعاته انتقلت فى تلك السنة إلى ابنه . وعلى هذا يمكن القول إن جوانفيل ولد حوالى سنة ١٢٢٤م وتوفى حوالى ١٣١٨م عن ٩٣ سنة تقريبا.

كذلك لا نعرف عن سنى حياته الأولى سوى القليل . فقد كان صغير السن عندما اشترك فى حملتى لويس التاسع على مصر والشام ، إذ لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره وقتذاك . ويمكن أن نستشف شيئا عن حياة مؤرخنا وأخباره مما أورده هو نفسه فى مذكراته عن مليكه . ففيها يروى مغامراته وأسفاره وحروبه منذ قيامه من فرنسا فى ١٢٤٨ م إلى حين مغادرته الأراضى

المصرية إلى عكا فى مايو ١٢٥٠ م ، والفترة التى أمضاها فى الأراضى المقدسة قبل عودته إلى أرض الوطن عام ١٢٥٤ م . ونعرف من مذكراته أيضا أنه كان من أشد المقربين إلى الملك الفرنسي وموضع رعايته ومحبته وثقته . ولهذا أهمية خاصة فى دراسة كتابه كمرجع أساسى لا غنى عنه لتاريخ حملتى لويس التاسع على مصر والشام . على أى حال ، نرى جوانفيل بعد عودته إلى فرنسا يهتم بشئون مقاطعته ، وتظل علاقته بمليكه على ما كانت عليه إبان السنوات الست التى قضاها خارج فرنسا . ونراه يقوم ببعض المهام الدبلوماسية التى كلف بها خير قيام ، حتى لقد كان فى الفترة الأخيرة من حياته شعلة متقدة من الحركة والنشاط الزائدين والعمل الدائب المتواصل .(١)

ولمذكرات جوانفيل التى خلفها لنا عن سيرة سيده أهمية كبرى . فقد كان شاهد عيان لأحداث ذلك الزمان ، واشترك بشخصه فى معظم المواقع والحوادث

(١) لمؤلف جوانفيل قصة طريفة . فقد كان فى بادىء الأمر يروى قصصه وذكرياته عن الحملة ولا يكتبها ، وكلما تقدمت به السن ازداد الاعجاب بها كذكرى عن ماض متباعد . كان يروي بلذة ولعجاب ، ولكن بحرية مطلقة أيضا ما استرجعه من أعمال الملك وأحاديثه ، عندما طلبت منه جين دى نافار Jeanne de Navarre ملكة شامبانيا وزوجة الملك الفرنسى فيليب الرابع الذى يعرف بفيليب الجميل تدوين مذكراته عن القديس لويس وأعماله تخليدا لذكراه . فبدأ جوانفيل ، وكان فى الثمانين من عمره وقتذاك ، فى كتابة مذكراته . ولكن الملكة جين ماتت سنة ١٣٠٥ م أثناء تدوينه لمذكراته ، فأهدى جوانفيل الكتاب بعد فراغه منه إلى ابنها لويس العاشر سنة ١٣٠٨ م ، وهو ملك شامبانيا وكونت نافار ، والذى أصبح فيما بعد ملكا على فرنسا بوفاة أبيه فيليب الجميل فى ١٣١٤ م . وهكذا انتهى مؤرخنا من كتابة مذكراته وهو شيخ جاوز الخامسة والثمانين من عمره ، وبعد أن أمضى أكثر من نصف قرن على الحوادث التى تناولها . أنظر عن ذلك Joinville (ed. Wailly), 2 , 4 n. 2 - 1 ; Joinville (Johnes' tr.), 343-347; Paris, op. cit., 105 ; Sepet, St. Louis, 40 - 7 , 60 - 2.

خلال السنوات التى أمضاها مع الملك الفرنسى فى مصر والشام . وكان يشغل فى الجيش منصبا رفيعا ، ويعتبر أحد أكابر بطانة لويس التاسع ، وغدا بعد وفاته من بطانة ابنه لويس العاشر . ويتناول جوانفيل المعارك التى قامت بين المصريين والصليبيين بتفصيل وإسهاب ، ويورد الكثير من الملاحظات الدقيقة التى قلما عنيت بها المصادر المعاصرة لتلك الفترة من الزمن من عربية وأجنبية . ومما يجعل لهذه التفاصيل قيمة خاصة أن الذى وضعها جندى عليم بفن الحرب والقتال ، ورجل له مكانته ، وشاهد عيان خاض غمار الوقائع بنفسه من البداية إلى النهاية. وفوق هـذا فقد كان من المقربين إلى الملك الفرنسى ، إذ لازمه زهاء اثنتين وعشرين سنة كان خلالها موضع ثقته وتقديره . وكثيرا ما كان لويس يستشيره فى أمور الحملة الهامة ، وفى مختلف الشئون العامة التى تعرض له ، بل وفى أموره الخاصة أيضا ، (١) مما يجعل لروايته قيمة تاريخية كبيرة . ونجد مثالا واضحا لذلك عندما استشاره الملك فى أمر العودة إلى فرنسا أو البقاء فى الأراضى المقدسة بعد هزيمته فى مصر ورحيله وفلول قواته مدحورا إلى عكا . ثم إن توكيله أياه فى كل ما يتعلق بشئونه العائلية لدليل واضح على ذلك . وعلى هذا يمكن القول إن كتاب جوانفيل يعتبر ، بلا شك ، من أهم المصادر المعاصرة ، شرقية كانت أم غربية ، عن حملتى لويس التاسع على الديار المصرية والبلاد الشامية فى أواسط القرن الثالث عشر ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق .

لقد دون جوانفيل كتابه هذا باللغة الفرنسية القديمة السائدة وقتذاك . وقد نقل إلى اللغات الحديثة ومن بينها اللغتين الإنجليزية والفرنسية . وظهرت له

(١) Cf. Joinville (Johnes' tr.), 347, 349; Paris, Mediaeval French Literature, 104, 106.

طبعات عديدة إعتبارا من النصف الثانى من القرن الثـامن عشر ، منها طبعة كابرونييه Capperonnier سنة ١٧٦١ ، وطبعة جونز أوف هافورد Johnes of Hafod سنة ١٨٤٨ ، وطبعة جيمس هاتون James Hutton سنة ١٨٦٨ ، وطبعة فرنسيس ميشيل Francisque Michel سنة ١٨٨١ ، وطبعة ديـكانج Du Cange سنة ١٨٦٨ ، وطبعات أخرى عديدة مثل طبعات ايفانز Evans ، وجون موراى John Murray ، وباركر Barker . وأهم هـذه الطبعات من حيث تحرى الدقة والأمانة العلمية فى نشر الأصـل الفرنسى القديم مع الترجمة الفرنسية الحديثة هى طبعة ناتاليس دى واى Natalis de Wailly سنة ١٨٧٤م. وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن للطبعات الأخرى أهميتها التى لا تنـكر نظرا لما تتضمنه حواشيها من معلومات وتعليقات تاريخية هامة ، فضلا عن المقـدمات الخاصة بهذه الطبعات والدراسات القيمة التى احتوتها. وكان من حسن حظ المـكتبة العربية أن نقل هذا السفر الهام إلى العربية الزميل الدكتور حسن حبشى بعد أن زوده بمقدمة تاريخية قيمة وبالعديد من الحواشى التـاريخية . وصدرت الترجمـة العربية تحت اسم « مذكرات جوانفيل : القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ـ طبع القاهرة سنة ١٩٦٨ » .

هذا عن أهم طبعات الـكتاب ، وإذا انتقلنا إلى محتوياته نجد أن المؤلف يمهد له فى بضع صفحات بتحليل شخصية لويس التاسع وميوله وطبـاعه مع الإشادة بصفة خاصة بفضائله وتقواه ، وهذه سمة عامة فى تآليف العصر الوسيط فى الشرق والغرب على السواء . ثم يعـرض جوانفيل فى إيجـاز لحالة فرنسا الداخلية والخارجية وقتذاك ، أى منـذ أن تولى لويس التاسع العرش فى سنة ١٢٢٦ م بعد وفاة أبيه لويس الثامن ، إلى أن تعهد بحمـل الصليب الاستيلاء على بيت المقدس أثر مرض خطير ألم به سنة ١٢٤٤ م . ويتناول بعد ذلك الحـديث عن

حملتي الملك الفرنسي على مصر والشام ، وهو يشغل الحيز الأكبر من الكتاب . فيعرض لتفاصيل حملة مصر ودقائقها منذ قيامها من فرنسا إلى حين مغادرتها الأراضي المصرية فاشلة إلى عكا ، وما جرى خلال ذلك من معارك وأحداث إنتهت بهزيمة الصليبيين الغربيين ووقوعهم فى أسر المصريين ، ثم النهاية الأليمة التي منيت بها الحملة . ويتحدث جوانفيل بعد ذلك فى شيء من التوسع والتحليل والتعليل عن الفترة التي أقامها الملك الفرنسي فى الأراضي المقدسة بعد رحيله عن مصر ، والتي امتدت من مايو ١٢٥٠ م إلى ابريل ١٢٥٤ م ، ومحاولاته خلال هذه السنوات الأربع القيام بحملة صليبية أخرى تعوض هزيمته فى المنصـــورة وعلى ضفاف النيل ، ثم استغلاله فى ذكاء ودهاء الخلاف الذى نشب بين بقايا الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر بعد مقتل السلطان المعظم توران شاه لصالح قضيته الصليبية التي كرس نفسه وحياته من أجلها . وكذلك اتصالاته بكل من الإسماعيلية فى الشام والتتار فى الشرق الأقصى لتحقيق نفس الهدف ، وأخيرا عودته إلى فرنسا بعد كل هذه المناورات والاتصالات فى عام ١٢٥٤ م يجـــر وراءه أذيال الخيبة والفشل والخذلان. ويختتم مؤرخنا كتابه ، كما بدأه ، بعرض موجز للفترة الأخيرة من حياة القديس لويس بعد عودته إلى بلاده ، وقيامه بحملته الصليبية الثالثة على تونس فى الشمال الإفريقي عام ١٢٧٠ م حيث قضى نحبه على أبوابها دون أن يتأتى له أن يمحو عار هزيمته على ضفاف النيل .

لقد امتاز كتاب جوانفيل بقيمته التاريخية الفائقة نتيجة لصدق ذاكرته وإخلاص خلقه وقوة ملاحظته . فإن المتصفح له يدرك أنه كان يتحرى الدقة البالغة مع ذكر الحقيقة البحتة فيما يكتب ، ولو كان ذلك فى غير صالح الفرنج أنفسهم . فهو ، مثلا ، يأخذ على الصليبيين فى صراحة تامة إنقسامهم على أنفسهم وإهمالهم وتهورهم وعدم اتحاد كلمتهم وعصيانهم لأوامر قائدهم وانغماسهم فى

اللهو والملذات ، مما كان له أكبر الأثر فى تخـاذلهم وهزيمتهم آخر الأمر . (١)
ونلمس صدقه أيضا عندما تعرض لموقف جمـاعة الرهبان الداوية من الملك الفرنسى بعد وقوعه فى أسر المصريين فى مصر ، إذ رفضوا إمداده بالمال اللازم لدفع قيمة الفدية المطلوبة التى اتفق عليها مع المصريين نظير إطلاق سراح الأسرى الصليبيين . فنراه يتشاجر معهم ويتهمهم بالبخل والجشع والشراهة مع أن من أولى مبادئهم الفقر والطاعة والحرمان . (٢)

ثم هو لا يجد من جانبه غضاضة فى امتداح الجانب الاسلامى والثناء عليه ، إذا كان هناك ثمة ما يدعو إلى ذلك . فنراه يحـدثنا عن قوة الجيش المصرى وحسن نظامه ودقة تدريبه وتفوق أساليبه فى الحرب والقتال ، ثم يعرض لتلك المقذوفات النارية التى عصفت بتحصينات الصليبيين وصفوفهم أثناء حملتهم على مصر ، وكانت فى النهاية من أقوى الأسباب التى أدت إلى هزيمتهم وارتدادهم عن البلاد . وهو يصف هذه القذائف وصفاً دقيقاً شائقا ، ويصور ذعر مواطنيه عند رؤيتها ومدى اضطرابهم واستغاثتهم منها . وهو يعترف للمصريين بالتفوق فى الناحية الحربية على أهل الغرب اللاتينى . وهو أيضا لا ينسى أن يذكر المصريين فى أكثر من موضع فى كتابه بالمروءة والكرم والشهامة . ولعل أقرب مثل إلينا ما ذكره جوانفيل عن ذلك العربى النبيل الذى أنقذه من موت محقق عندما وقع فى أسر الأسطول المصرى خلال التراجع من المنصورة إلى دميـاط ، ثم حسن معاملة ضباط الأسطول المصرى له بعدئذ حيث اعتنوا به وضمدوا له جراحه . والمؤرخ لا ينسى الإشارة إلى تلك المعاملة الكريمة التى لقيها لويس التاسع نفسه

---

(١) أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصـر — هزيمه لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور ، (الاسكندرية ١٩٦٩) ، ص ٢٤٩ — ٢٥٦ .

(٢) Joinville (ed. Wailly) , 206 - 210.

فى فترة الأسر بمصر [١] ، حتى لقد صدق أحد المؤرخين الغربيين الحديثين ، وهو البارون دى لاباستى Baron de la Bastie ، عندما قال إن جوانفيل لم يكن له أى مقصد سوى أن يسجل للأجيال التالية الحقيقة البحتة التى لا يتطرق إليها أدنى شك [٢] .

وغير هذا فقد كان جوانفيل دقيقا فى وصف الحوادث التى اشترك فيها بنفسه وتلك التى كان شاهد عيان لها . فهو يسرد بتفصيل وإسهاب كل المجالس التى اشترك فيها والمعارك التى خاض غمارها وما أكثرها . ويتناول كل هذا بدقة ووضوح وقوة ملاحظة تدعو إلى الإعجاب . [٣] فمن المعارك التى أسهم فيها وأجاد فى وصفها المناوشات التى وقعت بينه هو ورجاله وبين المصريين فى جيزة دمياط عقب نزولهم إلى الشاطىء المصرى ، ومعركة أخرى كان فيها فارس الميدان وقد اشتبك فيها ضد القوات المصرية التى أطبقت عليه بعد عبوره ورجاله بحر اشموم فى صباح ٨ فبراير ١٢٥٠ م . وغير ذلك فقد صور لنا جوانفيل التكتيك الحربى لموقعة يوم الجمعة الشهيرة (١١ فبراير ١٢٥٠ م) تصويرا رائعا ؛ إذا كان هو نفسه على رأس إحدى الفرق التى اشتركت فى قتال ذاك اليوم . ثم هو يتناول قصة أسر الصليبيين الذين تراجعوا عن طريق النيل من المنصورة إلى دمياط بتفصيل وإيضاح ، فقد كان واحداً منهم وشاهد بعينيه ما جرى لهم . كذلك أعطانا صورة تنبض بالحياة عن حال الصليبيين عندما تفشت المجاعة والوباء بينهم مما أدى إلى إنهاك قواهم وضعف الروح المعنوية عندهم ورفعهم راية الاستسلام فى نهاية الأمر . وهنا يجب ألا

(١) لمزيد من المعلومات أنظر كتابى : العدوان الصليبى على مصر ، صفحات ١٥٧ — ١٥٨ و ٢٠٩ و ٢١٣ .

(٢) Joinville (Johnes' tr.), 349.

(٣) Cf. Paris, op. cit., 105.

تغفل رواية جوانفيل عن مقتل توران شاه سلطان مصر على ساحل النيل بفارسكور ، فقد كان على ظهر إحدى السفن الراسية بالقرب من الشاطىء ، وشهد بنفسه كل ما حدث ودونه فى مذكراته ، مما يجعل لروايته فى هذا الموضوع قيمة خاصة . فجوانفيل هو المؤرخ المعاصر الوحيد الذى كان شاهد عيان لهذه الحادثة ، فنقلها إلينا فى مذكراته كما رآها تماما ؛ بل إن روايته فى هذا الصدد تفوق تلك التى جاءت فى الأصول العربية المعاصرة لتلك الفترة أمثال مفرج الكروب لابن واصل ومرآة الزمان لابن الجوزى والذيل على الروضتين لأبى شامة .

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن جوانفيل ترك لنا صورة قلمية نابضة بالحياة للاجتماعات الثلاثة التى عقدها لويس فى عكا بعد مغادرته مصر مع كبار مستشاريه لتداول الرأى فى أمر العودة إلى فرنسا أو البقاء فى الأراضى المقدسة لمواصلة العدوان . فقد اشترك فى هذه الجلسات وسجل كل ما قيل وكل ما دار فيها ، كما كشف القناع عن المحاولات التى كانت تبذل من وراء الستار لحمل لويس على العدول عن فكرة البقاء فى الأراضى المقدسة . وتتضح أهمية روايته بهذا الخصوص إذا علمنا أن المصادر الغربية الأخرى لم تشر إلى جلسات عكا إلا فى أسطر قليلة تافهة ، فى حين أن الأصول العربية أغفلتها إغفالا تاما .

هذا ، وعندما يتعرض جوانفيل لواقعة لم يشترك فيها بشخصه ، كان يحرص كل الحرص على ذكر اسم الشخص الذى رواها عنه مع نسبتها إليه . ولعل هذا دليل آخر على ملازمته جانب الصراحة والصدق والأمانة ، وعدم إثباته للوقائع إلا بعد تأكده من صحتها . فقد روى لنا موقعة الثلاثاء ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م التى دارت جنوبى بحر اشموم وبين أزقة المنصورة وشوارعها ، والتى قتل فيها روبرت كونت ارتوا شقيق لويس ومن معه من رجال المقدمة الذين عبروا بحر

اشموم إلى الضفة الجنوبية نقلا عن غليوم دى سوناك رئيس الداوية الذى اشترك فى الموقعة وخرج منها بعين واحدة . كما حفظ لنا قصة جوشيه دى شاتيون Gaucher de Châtillon الذى قتل وهو يدافع عن الملك الفرنسى ضد المصريين فى قرية منية ابى عبد الله التى أسر فيها الملك، كما رواها له شاهد عيان هو الفارس جان دى مونسون Jean de Monson . وسجل أيضا كيف سقط لويس أسيرا فى قبضة المصريين هو وأولئك الذين تراجعوا معه عن طريق البر نقلا عن الملك الفرنسى نفسه . كذلك حفظ لنا المباحثات التى دارت بين الملك لويس ورسل السلطان توران شاه نقلا عن بعض الصليبيين الذين اشتركوا فى هذه المباحثات ، وهم جى دبلين وبلدوين دبلين وفيليب دى منتفرت . وعند عودة لويس إلى بلاده عقد فى مدينة صيدا مجلسا فى أوائل عام ١٢٠٤ م ، وهو الذى تقرر فيه عودة الملك إلى فرنسا . ولم يحضر جوانفيل هذا المجلس ، وإنما علم بما دار فيه والقرار الذى اتخذ من القاصد الرسولى وهو ممثل البابا الرومانى فى الحملة. ويقول المؤرخ عن نفسه فى معرض الكلام عن حملة لويس على تونس ، إنه لم يعمل على تسجيل واقعة لم يكن واثقا من صحتها . (١)

وثمة ملاحظة أخرى وهى أن جوانفيل انفرد بذكر وقائع لم ترد فى تآليف غيره . من ذلك ما رواه عن سفارة الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق إلى لويس فى عكا ، وعن رسل كومنين العظيم أمير طرابيزون الاغريقى إلى الملك الفرنسى . كما انفرد بايراد جانب كبير من المعارك التى وقعت بين المسلمين والصليبيين عقب الصلح بين الناصر يوسف وبين المعز ايبك سلطان مصر . وغير خاف ما لكتابه من قيمة تاريخية خاصة فى الكشف عن حقيقة العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام فى ذلك الحين . وقد اعتمدنا فى إحياء تاريخ ذلك

(١) Joinville (ed. Wailly), 400.

الفصل على ما أورده جوانفيل عن البعثات المتبادلة بين لويس وشيخ الجبل والمفاوضات التى دارت بينهما ، فى حين أن ما ذكر غيره من مؤرخى الغرب أمثال روتلان فى هذا الشأن لا يعدو بضعة أسطر لا قيمة لها . بينما لم تتعرض المصادر الإسلامية بكلمة واحدة عن هذا الموضوع الهام .

وغير هذا فإن بعض المعلومات التى سجلها جوانفيل فى مذكراته كانت أكثر تفصيلا ووضوحا عما ورد فى المصادر الغربية الأخرى مثال ذلك البيانات التى ذكرها عن جلسات مؤتمر عكا الصليبى الذى أسلفنا إليه . وترجع قيمة هذه المعلومات إلى أن جوانفيل حضر جلسات المؤتمر وأدلى فيها برأيه ، واختلى به الملك مرة للتداول معه بهذا الخصوص ، كما حفظ مضمون الخطب والأحاديث التى ألقاها باقى الأعضاء . بينما لا يمدنا بعض المؤرخين الآخرين المعاصرين لتلك الفترة أمثال وليم دى نانجى Guillaume de Nangis ، وروتلان Rothelin ، وبدوين دافسن Baudoin d'Avesnes ، إلا بالنزر اليسير عن المؤتمر .

كذلك عنى جوانفيل بإبراز تقوى لويس وفضائله وتعداد خلاله من محبته لرجاله إلى رعايته للعهود وصلابته فى الحق وتمسكه بالأخلاق الفاضلة وسعيه لخدمة اللاتين والعمل على تعزيز ممتلكاتهم فى الشرق . على أنه لم يحمل بإجلاله ومحبته لمليكه إلى الإغضاء المطلق عن كل نقد صادق . فهو ينقد حيث يرى موضعا لذلك ، ويعرض رأيه وحكمه الخاص دون مواربة . فنراه ، مثلا ، يعلن عن دهشته واستيائه لجمود الملك إزاء زوجه وطفليه الذين كانوا معه فى سورية ، ولا يقف عند هذا الحد من الملاحظة والنقد الشجاع ، بل نراه يبدى معارضته حينما اعتزم لويس القيام بحملته الأخيرة على تونس سنة ١٢٧٠ م ، ويبين له خطأ هذه السياسة وما قد تجره عليه وعلى فرنسا من الويل، الأمر الذى حدث بالفعل.[1]

---

(١) أنظر عنان : مواقف حاسمة ، ص ١١٣ — ١١٤ .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على استقلال جوانفيل برأيه ، واعتـــداده بشخصيته ، وحرصه على إسداء النصح للآخرين ، وإن كان هو نفسه على استعداد لتقبل نصائح الغير متى وجدها معقولة(١).

وعلى الرغم من أن جوانفيل جمع مذكراته لتكون سفرا عن حياة القديس لويس وأعماله ، إلا أن قوة شخصيته وصفاء أسلوبه وطريقة عرضه لأحداث ذاك الزمان ، أظهرت شخصيته حتى كادت تطغى على شخصية مليكه فى بعض المواقف .(٢) فهو عندما يتحدث عن الوباء الذى تفشى فى المعسكر الصليبى فى عكّا يذكر ما أصابه هو وأتباعه الخصوصيين ؛ وعنـــدما يروى محن اللاتين فى بلاد الشام يروى متاعبه الذاتية أيضا . وعندما يتعرض للمعارك التى نشبت بين المسلمين والصليبيين بعد الصلح بين مصر والشام أثناء إقامة لويس التاسع فى الأراضى المقدسة ، يتكلم عن الدور الذى قام به فى هـذا الميدان والمخاطر التى اكتنفها وضروب البطولة التى أظهرها فى قتاله مع قوات الشام ، مثلما حدث عندما أنقذ فارسا مسيحيا وجياده الثلاثة من موت محقق اثر سقوطه فى مستودع ماء قديم، وعندما أسرع فى مناسبة أخرى لإنقاذ أحد الفرسان الصليبيين وكان قد وقع تحت ثقـــل جـواده عند الهجوم على مدينة بانيـــاس ، إلى غير ذلك من الأعمال والمغـامرات . ويـكفى أن قال فيه الـكاتب جاستون باريس Gaston Paris إن جوانفيل كان يغالى ـ لا شعوريا ـ دوره فى الجملة .

وعلى الرغم مما يبدو فى كتاب جـوانفيل أحيـانا من إهمال ولبس وغموض قد نصفه بالشدة ، فإن الأمثلة على ذلك قليلة لا يصح أن نجعل منها حكما عاما على

---

(١) Sepet, op. cit., 56-57.

(٢) Paris, op. cit., 105.

الكتاب فى مجموعه . فهو يذكر مثلا أن الصليبيين بعد أن أبحروا من قبرص وصلوا قبالة البر الغربى لدمياط يوم الخميس ونزلوا إلى الشاطىء المصرى يوم الجمعة . والثابت تاريخيا أنهم وصلوا يوم الجمعة ، ونزلوا إلى جيزة دمياط يوم السبت . كذلك خلط جوانفيل بين المعاهدة التى عقدها لويس مع المعظم توران شاه ، وتلك التى عقدها الملك الفرنسى مع الأمراء البحرية بعد مقتل السلطان للتفاوض فى أمر الرحيل ومغادرة الديار المصرية . ثم إن القصة التى أوردها فى مؤلفه حول تقدم بعض المصريين بتاج السلطنة للملك الفرنسى يكتنفها — هى الأخرى — الغموض والإبهام ، ولا يمكن أن يقبلها العقل . كذلك كانت المعلومات التى أوردها عن طبيعة نيل مصر وموعد زيادته ونقصانه ، وعن البدو وعاداتهم ، وعن إسماعيلية الشام وعقيدتهم ، غير صحيحة فى مجموعها [1] . وقد يعزى السبب فى ذلك إلى جهل الفرنج بهذه المسائل أو قلة معلوماتهم عنها . وعلى أية حال ، فإن مثل هذه الأخطاء يمكن أن تغتفر له ، خصوصا إذا عرفنا أنه لم يدون مذكراته عن الحملة إلا بعد انتهائها بسنوات عديدة ، وقد أوضح هو ذلك فى مستهل الكتاب .

مما سبق يتضح أن كتاب جوانفيل ليس كغيره من حوليات ذاك الزمان التى كانت تعنى بسرد الحوادث سردا زمنيا جافا دون العناية بالدقائق والتفصيلات ودون الغوص فى الأحداث ومحاولة تفسيرها . فقد نحا مؤلفنا نحوا جديدا مغايرا ؛ إذ صور لنا تاريخ الحملة وما قام به الملك الفرنسى من أعمال البطولة وما تحلى به من صفات مجيدة — صور لنا كل هذه الموضوعات وغيرها بطريقة جديدة

---

(١) تعرضت لذلك بتفصيل وإسهاب فى كتابى « العدوان الصليبى على مصر — هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور » .

تخالف تلك التى سار عليها غيره من المؤرخين القدامى من أصحاب الحوليات .
وقد تعرض لهذه الناحية بالدراسة والبحث أحد نقاد القرن التاسع عشر وهو البـــارون دى لاباستى فى تعليقه على كتاب جوانفيل فى مطلع الترجمة الإنجليزية للكتاب (طبعة جونز أوف هافود) .

ويعتقد الكاتب الفرنسى جاستون باريس أن فكرة الكتابة خطرت لجوانفيل بعد قراءته لتاريخ فيلماردوان Villehardouin الذى تزوج من أسرته ، وهـذا التاريخ عن الحملة الصليبية الرابعة . ولكنه يرى أن الكتابين يختلفان باختلاف مؤلفيهما . فقد كان هدف جوانفيل أن يدون مذكراته الشخصية التى علقت بذهنه عن حملتى لويس على مصر والشام، وبصفة خاصة المصير الأليم الذى لاقته الحملة التى أسر فيها الملك وتعرض للموت أكثر من مرة . بينما استهدف فيلماردوان سرد أحداث الحملة الصليبية الرابعة التى انتهت بالاستيلاء على القسطنطينية وتأسيس إمارة لاتينية بها .

وكيفما كان الأمر فإن كتاب جوانفيل يعتبر ، بلا شك ، أثرا أدبيا نادر المثال فى هذا العصر النائى [1] . وهو فى جملته عبارة عن مرآة صافية انعكست عليها صور رائعة صادقة عن ضـــروب الفروسية فى المجتمع الغربى الوسيط ، وعن الإقطاع هناك وهو فى ذروته ، وعن النظم الإدارية والعسكرية فى فرنسا، وعن حياة المؤلف نفسه والعصر الذى عاش فيه ، ومآسى الهزيمة التى حلت بالفرنج فى مصر والشام ، مما سيجعل الكتاب يقرأ على مر الدهور . ولا نغالى إذا قلنا إن مؤلف جوانفيل جاء على هذا الأساس أقرب إلى التاريخ الصحيح منه إلى السرد والرواية ، حتى أصبح مصيره الخلود بين وثائق الحروب الصليبية .

---

(١) Cf. Kitchin, History of France, I, 352; Paris, op. cit., 105.

وإذا كان كتاب جوانفيل أثرا أدبيا وتاريخيا نادر المثال في هذا العصر الثاني[١] ، فقد زودنا بمادة من الطراز الأول لايمكن بحال التقليل من شأنها ونحن نؤرخ لفترة إقامة لويس التاسع فى بلاد الشام .

وهناك مصدر آخر يكاد يطاول سابقه في القدر وهو تاريخ روتلان Rothelin الذى عاصر هو أيضا تلك الأحداث . وكتب كتابا يمكن اعتبـــاره تتمة لتاريخ وليم الصورى Guillaume de Tyr ، تناول فيه الفترة من سنة ١٢٢٩م إلى سنة ١٢٦١ م . إلا أنه يجـــدر بالذكر أن ما رواه روتلان عن لويس فى سورية ، ومفاوضاته مع سلطانى دمشق والقاهرة لا يزيد عما كتبه جوانفيل[٢] . ولكنه مع ذلك كان يتعرض أحيانا لوقائع لم يذكرها جوانفيل أصلا ، مثل روايته عن سفارة يوحنا الثالث فاتاس امبراطور نيقية الإغريقى إلى لويس . كما أن اهتمامه بتاريخ الأراضى المقدسة نفسها إبان إقامة لويس التاسع فيها يضفى على كتابه قيمة ملحوظة[٣] . ويمكن القول بأن الواحـــد منهما يكمل الآخر ، وقد علق عليهما المؤرخ الفرنسى المعروف جوزيف فرانسوا ميشو (١٧٦٧ — ١٨٣٩ م) ، بقوله إنه لولا مذكرات جوانفيل لاصبح تاريخ روتلان المرجع الأول لدراسة السنوات الست التى أقامها لويس التاسع فى الشرق[٤] .

ومن المؤرخين الغربيين الذين يتناولون بالكلام هذا الموضوع راهب دومينيكانى إسمه جوفروا دى بلييه Geoffroi de Beaulieu وكان أبا الاعتراف الشخصى للملك . وقد رافقه فى حملته على مصر وبقى إلى جانبه فى سورية واكتسب

---

(١) Cf. Kitchin, Hist. of Fr., I, 352 ; Paris, op. cit., 105.

(٢) Michaud, Bib. des Crois. (Paris, 1829), I, 388.

(٣) Cf. Molinier, III, 122.

(٤) Cf. Michaud, op. cit., I, 383 – 4.

ثقته التامة . ووضع تاريخه عن لويس تخليـــداً لذكراه ، بناء على طلب البابا جريجورى العاشر ، فى مارس سنة ١٢٧٢ م [١] . ومما يؤسف له أن هذاالتاريخ لا يمدنا بتفصيلات أو معلومات جديدة ، إذ لا يتعدى ما دونه عن هذه الفترة صفحة واحدة . وقد أشار بخاصة إلى اهتمام لويس بتحصين المدن اللاتينية فى الأراضى المقدسة ، وحزنه على موت أمه بلانش القشتالية ، والمخـــاطر التى اكتنفت عودته إلى فرنسا . ويلاحظ ، بصفة عامة ، أن الذين لازموا الملك الفرنسى قد انصب اهتمامهم فيما كتبوه عنه على التنويه بتقواه والإشادةبفضائله ، وما عدا ذلك فلم يوجهوا إليه العناية اللازمة . فنرى بلييه مثلا يخصص عدة فصول من مؤلفه فى امتداح تقوى لويس وخشوعه وبساطته وتواضعـــه ، ويستخلص من حياته العامة وأعماله أمثلة للتدليل بها على ذلك ، منها ما ذكره عن زيارة لويس الدينية لمدينة الناصرة وغيرها من الأماكن المقدسة [٢] .

ومن هؤلاء المؤرخين أيضـــا وليم دى شارتر Guillaume de Chartres وهو كاهن لويس الخاص ، ومن الرهبان الدومينيكان أيضـا . ويعتبر مؤلفـه عن حياة مليكه وأعماله تتمة لكتاب جوفروا دى بلييه . وقد ساهم هو الآخر فى الأحداث الهامة فى حيـــاة لويس التاسع . إذ كان مع الملك فى مصر وسورية ، كما ذهب برفقته إلى تونس ، وتوفى قبل سنة ١٢٨٢م بقليل. ووقف طويلا مثل زميله أمام فضائل الملك وسجاياه . فنراه يثنى على موقف لويس من ضحايا معركة صيدا اللاتين ، وتحمسه الزائد لدفنهم . ولـكنه مر سريعا على وفاة لويس ، وكان شاهد عيان له . وكل ما سجله فى هذا الصدد ما هتف به الملك وهو يحتضر « هيا إلى بيت المقدس » . [٣]

(١) Michaud, Crois., VI, 199, 208 — 9 ; Molinier, III, 116.
(٢) Michaud, Crois., VI, 209 — 210.
(٣) Michaud, Crois., VI, 211 — 2, Cf. Molinier , III, 117.

وينبغى أن نذكر فضلا عما تقدم من المصادر كتاب وليم دى سانت باثوس Guillaume de Saint - Pathus ، الذى كانت الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع تعترف عليه . وبعد موتها فى ١٢٩٥ م ، أصبح رائدا لإبنتهـــا بلانش . وقد وضع مؤلفه عن حياة القديس لويس ومعجزاته بناء على رغبة إبنته. ومؤلفه عبارة عن سرد عام لحيـاة الملك منذ مولده إلى وفاته . ولم يتحـدث عن نشاطه الصليبى إلا عرضا وفى ثنـايا كتابه ، وبالرغم من أنه لم يغفل الفـترة التى أقامهـا الملك الفرنسى فى بلاد الشام [١] .

ولا يجب أن ننسى فى هذا المقام كتاب « فضائل القـديس لويس وأعمـاله » لوليم دى نانجى Guillaume de Nangis ، فهو ليس بأقل نفعـا مما ذكرنا من المصادر . ولا نـكاد نعرف عن نانجى شيئا ، كما أن المؤرخـين المعـاصرين له لم يشيروا إليه ، وإن كان قد ذكر هو نفسه فى مقدمة كتابه أنه كان راهبا فى دير القديس دنيس بفرنسا . وقد أهدى مؤلفه بعد فراغه منه إلى الملك فيليب الجميل (١٢٨٥ — ١٣١٤ م) . واعتمد فيه على كتابى جـوفروا دى بلييه ، وجيلون دى ريمز Gilon de Rheims الذى فقد ولم يعد له وجود ، كما اعتمد على غيرهما من المؤرخين . ويلاحظ أنه توخى الدقة فيما نقـله عن بلييه ، مما يحملنـــا على الاعتقـــاد بأنه كان أمينـا فى نقله عن جيلون دى ريمز . وكتب نانجى مؤلفه باللاتينية ، ثم نقله بنفسه إلى الفرنسية السارية فى ذلك العصر [٢] . وقد أفـرد عدة فصول تناول فيها فترة إقامة لويس فى سورية ، والأعمال التى أداها لصالح

---

(١) Michaud, Crois., VI, 212. وفيما يتعلق بسيرة سانت باثوس ومؤلفه راجع أيضا:
Saint - Pathus, Miracles de St. Louis, XI - XVI.

(٢) Michaud, Crois., VI, 198 - 9; Molinier, III, 102.

القضية الصليبية . ولقد كان هدف دى نانجى الأساسى عرض الحملات الصليبية التى قام بها لويس ، لكننا نأخذ عليه ، كغيره من مؤرخى هذا الملك ، إهتمامه بتصوير تقوى لويس ومآثره دون العناية بدقائق نشاطه الصليبى[1] . هذا ، وقد ترك لنا وليم دى نانجى فضلا عن ذلك تاريخا زمنيا يسمى Chronicon يبدأ من سنة ١٢٢٦ م وينتهى بسنة ١٣٠٠ م ، وتاريخا مختصرا يبدأ منذ خلق العالم وينتهى إلى سنة ١٣٤٠ م تحت إسم Chronique Abrégée أو Chronique des Rois de France . ولا يمدنا فيها بشىء أكثر مما جاء فى تاريخه الكبير[2] .

ونذكر من بين أصحاب الحوليات القدامى ممن اعتمدنا عليهم الراهب الإنجليزى متى الباريزى الذى يعتبر من كبار كتاب القرن الثالث عشر الميلادى . ولا نعرف شيئا عن تاريخ ميلاده أو عن سنى حياته الأولى . وكل ما وصلنا عنه ما ذكره هو نفسه فى كتابه من أنه فى ٢١ يناير سنة ١٢١٧ م إنخرط فى سلك الرهبنة حيث اشتهر بتقواه وتدينه . وقد كلف بالذهاب إلى بلاد النرويج للعمل على إصلاح نظم الرهبنه والديرية هناك والتى كان قد أصابها التدهور والانحلال . كذلك ذكر متى الباريزى أنه كان مقربا إلى هنرى الثالث ملك انجلترا ، لا يكاد يفارقه ، ويتناول الطعام على مائدته الخاصة ، فاكتسب ثقته ومودته وتقديره . وقد اشتهر بحكمته وعدالته حتى أن الناس كانوا يلجأون إليه لفض منازعاتهم وخلافاتهم والعمل على إزالة أسباب شكاياتهم . وقد ترسل لدى ملوك الغرب أكثر من مرة ؛ بل كانوا هم أنفسهم يسعون إليه . وقد حدث أن كلفه لويس التاسع ذات يوم بتسليم عدد من المراسلات إلى ملك النرويج الذى كان يكن للراهب الإنجليزى كل احترام . ويكشف كتاب « تاريخ انجلترا » على أن صاحبه كان واسع الاطلاع

---

(١) Michaud, Crois., VI, 202.

(٢) Cf. Molinier, III, 102 - 3.

غزير الثقافة أمينا منصفا فيما يكتب (١) .

لقد وضع متى تاريخه المعروف عن انجلترا باللاتينية تحت إسم « Historia Anglorum » بناء على طلب ملكها هنرى الثالث . ويبدأ الكتاب بعد موقعة هاستنجز Hastings إعتبارا من سنة ١٢٣٥ م وينتهى فى سنة ١٢٥٩ م وهى السنة التى مات فيها المؤلف. وأكمل هذا التاريخ حتى سنة ١٢٧٣ م راهب بدير القديس ألبان بانجلترا يدعى وليم ريشانجيه Guillaume Rishanger (٢) .

ولتاريخ متى البارزى أهميته بالنسبة لموضوع البحث. إذ أحسن معالجة أحوال دول الغرب الاوروبى وظروفها فى أواسط القرن الثالث عشر ، أى فى فترة إقامة لويس التاسع فى مصر والشام، وبخاصة حالة كل من انجلترا وفرنسا، والنزاع المعروف بين البابوية والإمبراطورية،مما يجعل لمؤلفه فى هذه الناحية قيمة تاريخية خاصة .

ومما يذكر عن هذا الرجل أن له آراء حرة صريحة فى البابا الرومانى ورجال الدين تحمل طابع السخرية والتهكم والمرارة ، وتكشف فى الوقت ذاته عن الفساد فى النظام الكنسى برمته من أصغر كاهن حتى البابا نفسه ، وتلقى الضوء على بعض مشاكل البحث (٣) . يقول إن البابا لم يكن يعنيه التبشير بحملة صليبية إلا بالقدر الذى يخدم أطماعه ويحقق مصالحه العلمانية . وهو يرى أن البابا قد سبب الكثير من القلق والاضطرابات فى العالم ، وأنه بدلا من أن يحذو حذو القديس بطرس إقتفى خطى الإمبراطور قسطنطين ؛ بمعنى أنه بدلا من أن ينهج نهج

(١) أنظر عن ذلك Michaud, Crois , VI, 533.

(٢) Cf. Matt. Paris, II, 410 - 411; Matt. of Westminster, II, 316 - 317; Michaud, op. cit., VI, 533 534.

(٣) Cf., Matt. Paris, II, 391, 400, 403, 498.

الرسل والقديسين دخل فى صراعات علمانية متشبها بالحكام العلمانيين . وتدل مثل هذه الآراء الصادرة عن متى البارىزى ، وهو من رجال الدين الذين يعرفون الجهاز الكنسى البابوى ومساوئه ومواطن الضعف فيه ، على أنه كان لديه من الجرأة والشجاعة ما يكفى لقول الحق فى تلك العصور السحيقة التى عاش فيها الفرد فى المجتمع الغربى الوسيط داخـــل دائرة ضيقة مغلقة لم يكن من السهل الإفلات منها (١) .

ولكن على الرغم مما لكتاب متى البارىزى من مكانة عظيمة ، فإنه لم يتحر دقة البحث فى بعض المسائل التى تعرض لها ، بدليـــل ما ذكره من أن حركة الرعاة التى قامت بفرنسا اثر هزيمة لويس فى مصر ، كانت من صنع سلطان مصر بقصد إشاعة الفوضى فى فرنسا حتى يجـــد لويس نفسه مضطرا لمغادرة الشرق والعودة إلى بلاده .

أما عن تأريخ متى البارىزى لفترة إقامة لويس التاسع فى بلاد الشام فيجب قبوله بشىء من التحفظ والحذر ، لأنه لم يكن شاهد عيـــان لأحداثها ، وكان يدون ما يصل إلى الغرب عن طريق الخطابات أو أحاديث الرواة والحجـــاج العائدين من الشرق ، دون تحقق من صحته أو زيفـــه . وكثيرا ما تكون هذه الأخبار غير صادقة أو مبالغا فيها . مثال ذلك ما انفرد بذكره عن المقابلة التى تمت بين الملك الفرنسى وسلطان مصر بعد عقد معاهدة قيسارية ، وما أعقب ذلك من قيام الفرنج والمصريين بحملة مشتركة ضد صاحب حلب ، باء فيهـــا الأخير

(١) أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : العـــرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى — ط . ثانية (الاسكـــندرية ١٩٦٧) — ص ٩٨ و ٣٠٥ — ٣٠٦ و ٣٣٨ ، و « المدوان الصليبى والرأى العام الغربى » — محاضرة فى سلسلة المحاضرات العـــامة لجامعة الاسكندرية للعام الجامعى ٦٧ / ١٩٦٨ (الاسكندرية ١٩٦٨) — ص ٥٠ .

بالهزيمة . والطريف أن متى الباريزى أدرك ذلك من تلقاء نفسه ، فذكر تحت حوادث سنة ١٢٥٠ م أنه على الرغم من صدق الرسائل والمكاتبات التى كانت تصلهم من الأراضى المقدسة ، إلا أنهم كانوا يبدون ارتيابهم وتشككهم فيها.(١)

يضاف لتلك المصادر الغربية المعاصرة التى أجملناها عدد من الرسائل والوثائق والقصائد الشعرية التى تتصل مباشرة بموضوع البحث . نخص بالذكر منها خطاب لويس التاسع الذى أرسله إلى الشعب الفرنسى بعد خلاصه من الأسر ، ورحيله وفلول قواته إلى عكا وكانت آنذاك فى قبضة اللاتين ، ويستعرض فيه تاريخ السنوات الست التى أقامها فى الشرق . وهذا الخطاب مكتوب باللاتينية ، وقد ترجم إلى الفرنسية الحديثة . وله أهمية خاصة ، إذ نجد فيه مادة متوفرة فيما يتعلق باستعدادات لويس ودعوته إلى حملة عسكرية جديدة تعوض خسارته فى أرض النيل.(٢) وهناك أيضا وثيقة نفيسة ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى تعدد بتفصيل المبالغ التى أنفقها لويس خلال السنوات الثلاث الأول التى أقامها فى سورية (١٢٥٠ — ١٢٥٣ م) . ووثيقة أخرى توضح تنقلات الملك الفرنسى إبان إقامته فى الشرق . ومن التراث الشعرى قصيدة بالفرنسية القديمة ، يبدو أنها من نظم جوانفيل ، يحث فيها لويس على البقاء فى الأراضى المقدسة للمحافظة عليها ، وهى تعتبر ذات شأن فى هذا الموضوع . بينما وضع

---

(١) « ... and from that time we held the letters which arrived [from the Holy Land] , even though they were true, in greater **suspicion and detestation.** », cf. Matt. Paris, II, 344.

(٢) أنظر الترجمة العربية لهذا الخطاب فى جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر — الملحق الثالث ص ٣٠٥ — ٣١٤ .

شاعر غربي آخر معاصر للويس يسمى وليم رتيف Guill. Rutebeuf قصيدة من طراز مغاير، يستهجن فيها فكرة الانخراط في سلك حملة صليبية لتحرير الأراضي المقدسة [١] .

وهناك فئة أخرى من الكتاب الغربيين الذين عاصروا أحداث هذه الفترة وكتبوا عنها أمثال هرقل Eracles الذي يعتبر تاريخه تكملة لتاريخ وليم الصوري، وقد عنى فيه بذكر أحوال الإمارات اللاتينية في سورية وقتذاك . والمؤرخ المجهول صاحب المؤلف المعروف باسم « فضائل القديس لويس التاسع » Gesta alia Sancti Ludovici noni ، وقد استعرض فيه مساعي الملك لإطلاق سراح الأسرى الفرنج بمصر [٢] . ومن بين الكتب الأخرى التي يجدر بنا الإشارة إليها «حوليات الأراضي المقدسة» التي تتناول الفترة من سنة ١٠٩٥م إلى سنة ١٢٩١ م والتي قام بنشرها كل من رهرشت Röhricht ورينوه Raynaud ؛ و « حوليات دير القديس دنيس بفرنسا » ، التي تتضمن التاريخ الرسمي للملكية الفرنسية منذ أقدم عصورها إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي . [٣] وكذلك مؤلفات بدوين دافسن Baudoin d'Avesnes ، وفنسان

---

(١) حول رتيف وقصيدته ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين — ص ٩٨ — ٩٩ و ٣٠٥ — ٣٠٦ و ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢) Michaud, Crois., VI, 202—3. ومما يذكر أن مؤلف هذا الكتاب كان راهبا بدير القديس دنيس بفرنسا . وكتابه في الواقع عبارة عن مدح في لويس التاسع واستعراض لأعماله وفضائله . وقد تناول نشاط لويس الصليبي في فصلين مقتضبين . ولكن ما ذكره المؤرخ المجهول عن لويس بعد عودته إلى الغرب واستعداده لحملة جديدة وقيامه بها ثم موته ، لا يتعدى صفحة من مؤلفه ، بينما خصص فصلا كاملا للوصايا التي تركها الملك لابنه فيليب عند موته . (أنظر نفس المرجع والصفحة) .

(٣) Cf. Molinier, III, 97-101.

دى بوفيه[1] Vincent de Beauvais ، ووليم دى بادوا Guill. de Padua ، ففيها جميعا معلومات عظيمة نفيسة .

وثمة مسألة جديرة بالتسجيل عند استعراض الأصول الأوروبية المعاصرة ، وهى أن المؤرخين المسيحيين كانوا على إلمام لا بأس به بأحوال العالم الإسلامى آنذاك ، وتتبعوا مراحل الخلاف بين المسلمين فى مصر والشام بالقدر الذى كان يعنيهم ، وأن رواياتهم فى هذا الصدد تعطينا فكرة طيبة عن هذا النزاع من وجهة النظر المسيحية . بل لقد انفرد بعضهم أحيانا بذكر أحداث أغفلتها المراجع العربية إغفالا تاما على الرغم من أهميتها وصلتها بتاريخ الشرق العربى . من ذلك معاهدة قيسارية التى عقدت بين لويس التاسع وأمراء مصر ضد صاحب الشام ، والسفارات المتبادلة بين لويس وبين كل من الأيوبيين والمماليك واسماعيلية مصياف ، والمعارك التى وقعت بين الصليبيين والمسلمين بعد الصلح بين الناصر والمعز .

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام أنه لما كان هذا البحث يرتبط ارتباطا واضحا بتاريخ الحركة الصليبية باعتباره مرحلة من مراحلها وحلقة من حلقاتها ، فقد رجعنا إلى كثير من مصادر تلك الحركة السابقة لعصر لويس التاسع واللاحقة له ، من أمثال المؤلفات التى خلفها لنا امبرواز الانجليزى Ambroise ، والكاهن جريجوار الأرمينى Grégoire le Prêtre والراهب روبرت الأرمينى Robert le Moine ، وجاك دى فيترى Jacques de Vitry ، ووليم الصورى ، ومارينو سانوتو Marino Sanuto . فقد حصلنا منها ومن غيرها على فوائد

(١) من الرهبان الدومينيكان ، ولا نعرف عنه سوى القليل ، ويحتمل أنه ولد فى بوفيه بفرنسا . وقد تلقى علومه فى باريس وله مصنفات عديدة أهمها كتابه المسمى "Speculum historiale" ، وتوفى سنة ١٢٦٤ م . وفيما يتعلق بسيرته وتآليفه راجع: Molinier, III, 93-4.

تذكر يبدو أثرها جليا فى ثنايا الكتاب .

وليس معنى هذا أن المصادر العربية المعاصرة لأحداث الفترة التى نعنى بدراستها تعتبر ثانوية بالنسبة لنا . فمن الإنصاف القول بأن فيها مادة ممتازة من الدرجة الأولى فيما يتعلق بأحوال العالم الإسلامى آنذاك ، وتطور النزاع بين مسلمى مصر والشام عقب اغتيال المعظم توران شاه ، إلى أن انتهى الأمر بالصلح بينهما بعد توسط الخليفة العباسى المستعصم بالله . وقد استعنا على بحث هذه الناحية بشىء غير قليل من المخطوطات التى لم تنشر بعد . هذا ، عدا المصادر الأخرى المطبوعة .

وإذا كان جوانفيل قد حظى بقدر غير قليل من الاهتمام باعتباره من أهم المصادر الغربية عن فترة إقامة لويس التاسع فى مصر والشام ، فإن ابن واصل يستحق نفس القدر من العناية . هو جمال الدين أبو عبد الله بن محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل قاضى حماة . ولد عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، ومات بحماة فى ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م عن ٩٣ سنة ، فقارب بذلك عمر زميله جوانفيل . قدم صاحب «مفرج الكروب» القاهرة أكثر من مرة ، ويهمنا أنه كان موجودا بها خلال الحملة الصليبية عليها فيما بين عامى ٦٤٧ و٦٤٨ هـ (١٢٤٩ — ١٢٥٠م) حسبما يتضح مما ذكره فى أكثر من مناسبة فى كتابه تحت حوادث العامين السالفين . كذلك استدعى إلى الديار المصرية ثانية عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ، وبعثه بيبرس فى مهمة إلى صقلية عند الملك منفرد الألمانى Manfred . ثم جاء إلى القاهرة مرة أخرى فى عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م فى صحبة الملك المظفر .

كان إبن واصل ملما بالأخبار وأيام الناس ، وكان ولعه بالتاريخ شديدا ، فقد عكف على الاشتغال به حتى ذاع صيته . ومن مصنفاته فى التاريخ كتابا

« مفرج الكروب » و « التاريخ الصالحى » . الأول يتناول أخبار بنى أيوب ، وقد نشر المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال جانبا منه (حتى سنة ٦١٥ هـ) ، ولا يزال القسم الذى عاصره إبن واصل مخطوطا لم ينشر بعد . ويقوم الآن الزميل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بنشر هذا الجزء المتبقى نشرا علميا محققا . أما «التاريخ الصالحى» فهو كتاب موجز فى التاريخ العام لم ينشر بعد ، يبدأ بذكر آدم وينتهى إلى ذكر مناقب الملك الصالح نجم الدين أيوب . ولم يتعرض فيه المؤلف إلى حملة لويس على مصر وفترة إقامته فى بلاد الشام بكلمة واحدة . وتوجد نسختان خطيتان من هذا الكتاب الأخير : إحداهما بالمتحف البريطانى بانجلترا ، والثانية بمكتبة فاتح باستنبول . والنسخة الأخيرة توجد منها صورة شمسية بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

لقد أجمع المؤرخون أمثال الصفدى والسيوطى على أن إبن واصل كان مؤلفا واسع المعرفة ، وأنه مصدر موثوق به ، وكتبه يمكن الاعتماد عليها . ويكفى أن قال الصفدى فى مؤلفه « نكت الهميان فى نكت العميان » إنه « من بقايا من رأيناه من أهل العلم الذين ختمت بهم المائة السابعة » . لقد كان إبن واصل فى كتابة التاريخ تلميذا لأبى شامة ، إذ كان الأدب يمتزج فى مؤلفاته بالتاريخ إمتزاجا واضحا ، وإن كان هو نفسه أقل المؤرخين عناية باختيار الألفاظ [1] .

وأما عن كتابه الذى يهمنا وهو « مفرج الكروب » فتوجد منه نسختان خطيتان : الأولى فى المكتبة الأهلية بباريس وتقع فى مجلدين كبيرين تحت رقم

(١) أنظر عن ذلك الصفدى : نكت الهميان ، ص ٢٥٠ — ٢٥٢ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ، ص ٤٤ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « ابن واصل » .

١٧٠٢ ، وتبتدئ بسنة ٥٣٠ هـ وتنتهي إلى سنة ٦٨٠ هـ ؛ وتوجد صور شمسية منها بدار الكتب المصرية بالقاهرة وبمكتبة جامعة الاسكندرية . والنسخة الخطية الثانية توجد باستانبول ، وهي تختلف عن مخطوطة باريس كثيرا وتتلوها في القيمة والأهمية . إذ تبتدىء بنهاية حكم صلاح الدين الأيوبي وتنتهي إلى سنة ٦٣٥ هـ. وهذه النسخة الثانية لم تصل إلى عهد الصالح أيوب ، ولهذا لم تتعرض لحملة لويس على مصر وفترة إقامته في الأراضي المقدسة . هذا ، ويعرف الكتاب باسمين. فقد كتب على اللوحتين الأولى والثانية من النسخة الشمسية التي توجـــد تحت أيدينا أن اسمه « تاريخ الواصلين في أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين المعروف بتاريخ ابن واصل » ، وفي فهرس المكتبة الأهلية بباريس جاء في الجزء الأول أنه يسمى « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » . ولعل المؤلف سماه باسمين، ولكن التسمية الثانية ـ على أية حال ـ هي الأكثر شيوعا .

وجدير بالملاحظة أن مؤرخنا وضع كتابه على غرار نظام الحوليات ، وكان نظاما شائعا في ذلك الحين . فسرد تاريخ وحوادث كل سنة على حدة ، ولكنه ربط الحوادث والوقائع ببعضها . ويتناول الكتاب ذكر من ملك مصر من الأيوبيين وبداية المماليك ، وما وقع خلال عهودهم من أحداث وتطورات حتى نهاية القرن السابع الهجري . ويعتبر هذا الكتاب مصـــدرا أساسيا معاصرا للنصف الثاني من دولة بني أيوب وبداية دولة المماليك البحرية ، لما يتضمنه من المعلومات التاريخية الدقيقة ، فضلا عن الإشارات العديدة التي ينفرد بذكرها دون غيره من مصادر العصر ، ومما يضفي على الكتاب أهمية مضاعفة أن مؤلفه كان معاصرا لتلك الأحداث وشاهد عيان لها وعلى صلة بأولي الأمر في البلاد .

وهذا الكتاب يعتبر ـ بحق ـ من أهم المصادر العربية المعـــاصرة عن الفترة

موضوع البحث . فصاحبه كان مقيما بمصر وقتذاك ، ويعتبر حجة لا يستهان به في تاريخ العصر الأخير من دولة بنى أيوب وصدر دولة المماليك البحرية ، حيث اتصل بالبلاط في عهد الصالح ايوب وابنه توران شاه وأرملته شجر الدر وكذلك الملك المعز عز الدين ايبك . وغير ذلك فإن ما أورده إبن واصل عن الحملة على مصر في كتابه يعتبر أكثر دقة وتفصيلا ووضوحا عما جاء في الأصول العربية الأخرى . كذلك عاصر التغيير الكبير في نظام الحكم بمصر الذى انتهى باغتيال المعظم توران شاه ، وانتقال السلطة في البلاد من الأيوبيين إلى المماليك البحرية . وقد وقعت كل هذه الأحداث الجسام خلال حملة لويس على البلاد ، ثم رحيله مهزوما إلى سورية بهدف مواصلة العدوان . فكل هذه الاعتبارات تجعل لمؤلفه قيمة تاريخية خاصة لا يمكن إغفالها .

كنا قد ذكرنا أن إبن واصل كان مقيما بمصر خلال الفترة موضوع البحث ، مما أكسب روايته طابعا من الطراز الأول . وقد استنتجنا ذلك مما ذكره هو نفسه في عدة مناسبات في مؤلفه . فقد قال في صدد الكلام عن وصول الفرنج إلى الديار المصرية وامتلاكهم دمياط ، أنه (أى إبن واصل) كان عند الأمير حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة عندما وردت إليه بطاقة بخبر استيلاء العدو على المدينة . وذكر في مناسبة أخرى أنه خرج هو والأمير حسام الدين من القاهرة للقاء المعظم توران شاه عندما تواترت الأخبار بقرب وصوله إلى مصر قادما من حصن كيفا ، فالتقيا به عند الصالحية . وقال في موضع ثالث إنه حضر في خدمة المعظم توران شاه بعد وصوله إلى المنصورة حيث جرت بينهما مباحثات في العلوم والآداب ، وإنه قفل بعد ذلك عائدا إلى القاهرة بصحبة الأمير حسام الدين بعد استقبالهما للسلطان . ويقول إبن واصل في مناسبة أخرى إنه في يوم الإثنين الموافق ٢٨ محرم من سنة ٦٤٨ هـ غادر القاهرة إلى المعسكر

المصرى بالمنصورة لحضور استرداد المصريين لدمياط من الفرنج ، ولكنه سرعان ما عاد ثانية إلى العاصمة المصرية عندما بلغه نبأ مقتل المعظم وهو فى الطريق . فكل هذه القرائن وغيرها لا تدع مجالا للشك فى أن مؤرخنا كان مقيما بمصر خلال عامى ٦٤٧ — ٦٤٨ ﻫ (١٢٤٩ — ١٢٥٠ م) . فكان بذلك المؤرخ الإسلامى الوحيد الذى عاصر الحملة الصليبية على مصر ، وكان شاهد عيان لكثير من أحداثها وعلى مقربة من ميدان القتال فيها ، وذلك بعكس غيره من المؤرخين المسلمين من أمثال ابن الجوزى وأبى شامة اللذين كانا فى الشام وقتذاك ، فأمدنا كل منهما بمادة من الطراز الأول عن الأحداث التى كانت البلاد الشامية مسرحا لها خلال تلك الحقبة من الزمن .

لقد أعطانا ابن واصل صورة واضحة عن الحملة الصليبية على مصر وعن مراحلها وحالة مصر آنذاك وتقدير مدى استعدادها لمواجهة الغزاة . وحتى بعد هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ورحيله وفلول قواته إلى بلاد الشام مهزوما ، نجد فى مؤلف ابن واصل من الشواهد ما يوضح أنه كان لا يزال مقيما بمصر . من ذلك ما ذكره من أنه شاهد الملك المعز أيبك والأمير حسام الدين والعساكر المصرية عند دخولهم القاهرة بعد انتصارهم فى معركة العباسة الشهيرة التى جرت بين المماليك فى مصر وبقايا الأيوبيين فى الشام .(١)

وثمة ملاحظة أخرى وهى أن المتصفح لكتاب « مفرج الكروب » يلاحظ أن مؤلفه كان من الزم الناس إلى الأمير حسام الدين بن ابى على نائب السلطنة بالقاهرة وقتذاك ، حتى أن جانبا كبيرا من أخبار تلك الفترة رواه نقلا عنه . نضرب مثلا لذلك بما ذكره عن أحوال مصر والشام فى ذاك العصر ، وعن

---

(١) أنظر ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، لوحة ٣٨٣ ب .

سيرة الصالح أيوب وموقفه من الغزاة الفاتحين ، وعما إذا كان هذا السلطان قد أوصى بالملك لابنه توران شاه أم لا ، وعن تسليم دمياط للمصريين، والمباحثات التي جرت بين حسام الدين والملك الفرنسي لويس التاسع في هذا الشأن . فكل هذه المعلومات وغيرها قد استقاها من الأمير حسام الدين ، كما نص على ذلك في مؤلفه ، وكذلك ما يتعلق بمعركة العباسة بين المماليك والأيوبيين . [1] ولروايته هنا قيمة خاصة ، إذ اشترك حسام الدين بشخصه في هذه المعركة ، وكان يروى لصديقه المؤرخ مشاهداته وتفاصيل القتال التي حفظها لنا في كتابه.

وإن كثرة اعتماد ابن واصل على الأمير حسام الدين — فيما يتعلق بتاريخ هذه الفترة — يدفعنا إلى التساؤل عن مدى علاقته به . ونعرف من « مفرج الكروب » أن مؤرخنا كان من أقرب المقربين إلى حسام الدين ، وأنه لازمه طيلة الفترة التي كان مقيما فيها بالقاهرة . ويغلب على الظن أنه كانت بين الرجلين مودة قديمة وعلاقات طيبة ، حتى أننا نلاحظ أن في أقوال مؤرخنا في بعض الأحيان تحيزا ظاهرا لحسام الدين ؛ وذلك في صدد بعض الإشارات التي انفرد بذكرها دون غيره من المؤرخين المعاصرين له ومن أتى بعدهم من المتأخرين مثال ذلك ما أكده في أكثر من مناسبة من مؤلفه من أن الصالح أيوب لم ينص على من يقوم بالأمر بعده ، وأنه لو أوصى لما خرج عن حسام الدين ، إذ لم يكن يعتمد على أحد غيره . وما أوضحه في موضع آخر من الكتاب من أن الأمراء والمماليك البحرية كانوا قد عرضوا منصب مقدم العسكر بعد اغتيالهم توران شاه على حسام الدين ، ولكنه رفض قبول هذا المنصب .

(٢) أنظر مفرج الكروب ، ج ٢ ، لوحات ٣٨٢ أ — ب و ٣٨٣ أ و ٣٨٣ ب — ٣٨٤ أ .

وإذا كان ابن واصل يعتمد كثيرا فى مؤلفه على حسام الدين إلا أنه كان يتعرض أحيانا لوقائع دون إشارة إلى من رواها له ، وهذا ما نأخذه عليه فى كتابه ، وإن كان ذلك فى نطاق ضيق جدا .[1] فهو فى هذه الناحية إنما يخالف زميله جوانفيل الذى كان يحرص دائما على ذكر مصدر روايته . من أمثلة ذلك ما أورده ابن واصل حول وصول الفرنج مصر وتملكهم ثغر دمياط ، واستعداد الصالح أيوب بالمنصورة لمواجهتهم ، وخط سير الفرنج من دمياط إلى المنصورة ، ورحلة توران شاه من حصن كيفا إلى الديار المصرية ، وواقعة المنصورة الأولى ، والمعارك البحرية بين المسلمين والصليبيين ، وتراجع الفرنج من المنصورة إلى قاعدتهم فى دمياط ، وأسر لويس وباقى رجاله ، وقصة مقتل توران شاه ، وغير هذا وذاك من الموضوعات . فهو لم يذكر أسماء الأشخاص الذين استقى منهم هذه المعلومات . ولكن يغلب على الظن أنه رواها عن أناس شاهدوها ثم قصوها عليه فيما بعد ، أو عن الأمير حسام الدين نفسه دون الإشارة إليه . ومما يجعلنا نطمئن إلى صحة هذه المعلومات ودقتها أن ما ذكره فى هذا الصدد يتفق إلى حد بعيد وما جاء فى الأصول الأوروبية المعاصرة أمثال كتابات جوانفيل وروتلان وخطاب لويس التاسع نفسه حول أسره وإطلاق سراحه .

وإن ما ذكرناه لا يمنع من القول إن ابن واصل قد مر مر الكرام على الكثير من الأحداث التى كان الشرق الأوسط مسرحا لها فى فترة إقامة لويس التاسع فى بلاد الشام . فقد كنا نتوقع أن يحدثنا عن مهمة الفارس الصليبى يوحنا دى فالنسين الذى أوفده الملك الفرنسى من سورية إلى مصر أكثر من مرة

---

(١) أنظر مفرج الكروب ، ج ٢ ، لوحة ٣٧٨ أ و ٣٨٤ ب .

للتباحث مع المسئولين فيها بشأن المسائل التى تهم الجانبين ، وبصفة خاصة موضوع الأسرى الفرنج ؛ وكذلك عن رسل أمراء مصر الذين انفذوهم بدورهم إلى لويس فى الشام لنفس الغرض . ولكنه — للأسف — لم يتعرض إطلاقا لهذه الأمور ، ولم يذكر عنها كلمة واحدة على الرغم من أهميتها وخطورتها . وتبدو هذه الفجوة واضحة فى كتابات المؤرخين العرب المعاصرين واللاحقين له وقد يكون لابن واصل عذره ، إذ أن هذه الأحداث تمت فى وقت كان فيه الشرق العربى يغلى كالمرجل بعد ثورة المماليك البحرية وقيام الخلاف بين أمراء مصر والشام ، فحصر اهتمامه فى تتبع هذا النزاع وتسجيل مراحله دون غيره من أمور . وفيما عدا ذلك لا نجد تبريرا معقولا لإغفال ابن واصل لهذه الأمور .

هذا ، ويلاحظ المدقق فى كتاب ابن واصل أنه يتمم ما جاء فى مذكرات جوانفيل وتاريخ روتلان والأصول الغربية الأخرى . فقد أفادنا فى تبيان أحوال مصر والشام إبان تلك الحقبة من الزمن . كما كان لما أورده حول استيلاء الفرنج على دمياط الفضل فى إماطة اللثام عن الدوافع الخفية لفرار العساكر المصرية من هذه المدينة مما أدى إلى وقوعها فريسة سهلة فى أيدى الغزاة . كما أبرز الدور الذى قام به الشعب المصرى فى إحراز الغلبة على الفرنج فى شتى مراحل الحملة على البلاد مما لم يتعرض له كتاب الفرنج . وغير ذلك فقد أمدنا ابن واصل بمعلومات نفيسة فيما يتعلق بالمعارك البحرية بين المسلمين والصليبيين ، فى الوقت الذى لم يتناول فيه المؤرخون الغربيون أمثال جوانفيل ولويس التاسع تاريخ هذه المعارك بالتفصيل .

على أن ابن واصل لم يتناول الكلام عن هذه الفترة وبخاصة تفاصيل الحملة على مصر كجوانفيل وروتلان ومتى الباريزى . فلم يتعرض ، مثلا ، لموقعة الجمعة

الشهيرة (١١ فبراير ١٢٥٠ م) ، والمعاهدة التى أبرمت بين توران شاه ولويس التاسع — على الرغم من أهميتها — بكلمة واحدة . ومعلوماتنا عن هذه الأحداث مستقاة من الأصول الغربية المعاصرة .

ولا يفوتنا بعد ذلك أن نذكر أن مؤرخنا أخطأ أكثر من مرة فى تحديد التواريخ الخاصة بأحداث هذه الفترة . ولكن بالمقارنة بين ما ذكره ابن واصل وما جاء فى مؤلفات غيره من المعاصرين له من أهل الشرق والغرب ومن أتى بعدهم من المتأخرين ، أمكن تصحيح هذه الأخطاء . وساعد على ذلك الاعتماد على كتب وجداول تحويل التواريخ أمثال مؤلفات فستنفلد — ماهلر Wüstenfeld - Mahler ، وكولونيل هيج Colonel Haig ، والتوفيقات الإلهامية لأحمد مختار . مثال نضربه عن خطأ ابن واصل فى هذا الصدد ما ذكره من أن مستهل رمضان من سنة ٦٤٧ هـ يوافق يوم الثلاثاء ، وقد ثبت بالبحث والمقارنة أنه يقع يوم الأربعاء لا الثلاثاء ، وأكد ذلك التسلسل الزمنى لأحداث هذه الفترة .

وكيفما كان الأمر ، فإن كتاب « مفرج الكروب » يتمم ما جاء فى كتاب جوانفيل والأصول الغربية الأخرى ، ويعطينا فكرة صادقة عن تاريخ الشرق الإسلامى من وجهة النظر الإسلامية . ثم هو يعتبر من المصادر الأساسية التى لا غنى عنها لدراسة تاريخ حملة لويس التاسع على مصر وفترة إقامته فى بلاد الشام . ولا خلاف أيضا فى استحقاق «مفرج الكروب» فى أن يحل المحل الأول بين الأصول العربية الأخرى المعاصرة له وتلك التى جاءت بعده ، وفى أن يتبوأ مؤلفه ابن واصل مكان الصدارة بين معاصريه من المؤرخين الذين تناولوا حملتى لويس التاسع على مصر والشام فى كتبهم وآرائهم .

ورغم ما لكتاب « مفرج الكروب » من أهمية لا يمكن إغفالها عند التاريخ

لهذه السنوات الست ، إلا أن المصادر العربية الأخرى ، من معاصرة وغير معاصرة أو متأخرة نسبيا لها قيمتها ووزنها ؛ إذ تسد النقص فى كتاب إبن واصل. ويمكن القول إن البحث فى مفرج الكروب كمصدر لدراسة تاريخ هذه الفترة يعتبر ناقصا ما لم نتعرض للأصول العربية الأخرى بالنقد والدراسة المقارنة . فهناك إلى جانب إبن واصل ثلاثة من المؤرخين العرب المعاصرين له هم سبط بن الجوزى ، وأبو شامة ، وأبو الفرج الملطى المعروف بابن العبرى ، يستحقون كلمة سريعة .

أما سبط بن الجوزى [1] (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) فقد كان مقيما بدمشق فى ذاك الحين . ومما يؤسف له أنه مر سريعا على مراحل النزاع بين مصر والشام فى كتابه « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » الذى لم يظهر منه فى عالم النشر بعد إلا شذرات قلائل لا تشفى من غل . ولكنه على أى حال وجه عناية خاصة للأحداث التى كانت دمشق مسرحا لها ، وخاصة استيلاء الناصر يوسف صاحب حلب على دمشق عندما استدعاه الأمراء القيمرية لتملكها عقب تغير نظام الحكم فى مصر .

وكذلك كان أبو شامة [2] (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) بدمشق وقتذاك، حيث

---

(١) هو سبط شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى . ولد سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦م فى بغداد وكان أبوه عبدا تركيا . ودرس فى مسقط رأسه ، ثم شرع فى الرحلة منذ أوائل القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) ، وأصبح فى آخر الأمر مدرسا وكاتبا بدمشق . وتوفى فى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م عن ٧١ سنة . وكتابه « مرآة الزمان » هو تاريخ جامع يبدأ من الخليقة وينتهى بسنة ١٢٥٦ م أى قبل وفاته بعام واحد . أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة إبن الجوزى ؛ وكذلك حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٤٩٨ .

(٢) هو عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان بن أبى بكر بن ابراهيم بن محمد =

اعتكف على الدراسة والاشتغال بالعلم والتأليف [1] . وله كتاب « الذيل على الروضتين » الذى لم يزد فيه شيئا جديدا عما كتبه إبن الجوزى عن هذه الفترة . والشيء الغريب أنه على الرغم من قرب كل من أبى شامة وإبن الجوزى من مسرح الحوادث بين المسلمين والصليبيين ، فإن كتاباتهما غفل عن سفارة الناصر يوسف إلى لويس فى عكا ، وعن رسل لويس الذين أوفدهم بدوره إلى الناصر بدمشق . ولا نجد تفسيرا مقبولا لهذا التجاوز الذى عوضته علينا الأصول الأوروبية .

ويعتبر أبو الفرج[2] الملطى المعروف بابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ /١٢٨٦م) من مؤرخى العرب المعاصرين للفترة التى نعنى بدراستها ، وآخر القدماء من مؤلفى

= المقدسى . ولد بدمشق سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م ، وتوفى فى ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م عن ٦٤ سنة . إهتم بالدراسة والعلم والتحصيل منذ صغره ، وصنف فى ذلك مصنفات كثيرة . وحج مع والده سنة ٦٢١ هـ ، كما حج فى السنة التالية ، ثم زار بيت المقدس سنة ٦٢٤ هـ ، وسافر إلى الديار المصرية سنة ٦٢٨ هـ . ثم لزم الإقامة بدمشق عاكفا على ما هو بصدده من الاشتغال بالعلم وجمعه فى مؤلفاته ، وهى كثيرة متنوعة ، أهمها « الروضتين فى أخبار الدولتين » فى مجلدين ، ثم « الذيل على الروضتين » ويستعرض فيه الأحداث التى عاصرها . وقد نشره السيد عزت العطار تحت إسم «تراجم رجال القرنين السادس والسابع» نشرة ضعيفة غير محققة. أنظر ترجمة أبى شامة فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية جـ ٥ ص ٢٠٧–٢٠٩؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٥ ص ٦١ — ٦٢ .

(١) ذكر أبو شامة أنه كان بدمشق عند وصول المنهزمين من عسكر الشام فى معركة العباسة. أنظر الذيل على الروضتين جـ ٢ لوحة ٢٠٧ .

(٢) ولد إبن العبرى سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م فى ملطية حاضرة أرمينية الصغرى ، وتوفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م فى مراغة من أعمال أذربيجان . وترهب وهو حديث السن . وكان يجيد السريانية واليونانية والعربية . ورحل إلى أنطاكية فى ١٢٤٣ م ، وكانت عمره آنذاك لا يتجاوز ١٨ سنة . وتنقل فى مناصب شتى إلى أن عين أسقفا على حلب حوالى سنة ١٢٥٣ م . وقد شغل وقته للعمل على خير رعيته وتعزيز ملته ، ولو أن هذا لم يمنعه =

السريان . وقد ألف كتابا بالسريانية فى التاريخ العـــام ، وأعد قبل وفاته ترجمة عربية له مع شىء من التصرف أسماها « تاريخ مختصر الدول» ، وهى التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث. ولم يأت فيها بجديد فيما يتعلق بأحوال العالم الإسلامى آنذاك. بيد أنه أمدنا بمعلومات طيبة عن إيلخانات التتار فى تلك الفترة ، وخاصة كيوك خان وزوجه الإمبراطـورة قلقميش ومنـكو خان ، وعن سفارة هيثـوم الأول ملك الأرمن الذى يدعوه « حاتم » إلى التتار .

ومن بين كتب المسلمين التى ترجع إلى القـرن الثامن الهجـرى (الرابع عشر الميلادى) ، والتى استعنا بها فيما كتبناه عن أحوال العالم العربى أثنـــاء وجود لويس التاسع فى سورية : « كنز الدرر » و « درر التيجان » لإبن أيبك (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١ م) ، و « نهاية الأرب » للنـويرى (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م) وهو أولى الموسوعات التى ظهرت فى عصر المماليك ، و « مسالك الأبصار » للعمرى (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨ م) وهو من أجل كتبه وأفضلها ، و « عيون التواريخ » لإبن شاكـر الـكتبى (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) ، و « الوافى بالوفيات » للصفدى (٧٦٤هـ/١٣٦٣م) ، و « الأحكام المملوكية » لإبن منـكلى (ت ٧٧٨ هـ/ ١٣٧٦ — ١٣٧٧ م) . وجميع هذه الـكتب من مخطـوطة ومصورة لم تنشر بعـد . ومن بين ما نشر من مراجع هذا العهد : « المختصر » لأبى الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) وهو كتاب عظيم

= من التفرغ للـكتابة والتأليف فى مختلف الفنون . وأهم تصانيفه وأفضلها كتبه التاريخية ، ولولاها لفاتنا حوادث كثيرة ، لا سيما أنه أخذ عن غيره من المؤرخين ممن ضاعت تآليفهم . ومما يذكر هنا أنه استعان فى كلامه عن عصر التتار بكتاب فارسى فى التاريخ لشمس الدين صاحب ديوان المتـــوفى عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م . أنظر لويس شيخو : ترجمة وتآليف العلامة غريغوريوس أبى الفرج ، ص ٤ — ٢٠ و ٢٨ ؛ وكذلك مادة إبن العبرى فى دائرة المعارف الإسلامية .

الفائدة ، و « دول الإسلام » للذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٦٨ م) ، و« تتمة المختصر » لإبن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) ، و « فوات الوفيات » لإبن شاكر ، و « مرآة الجنان » لليافعى (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ - ٧ م) .

ومن أهم مؤلفات القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) التى ينبغى أن نذكرها فى هذا المقـــام : « العبر وديوان المبتدا والخبر » لإبن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) وهو من كتب التاريخ العـــامة ، ومخطوطتا « نزهة الأنام » و « الجـوهر الثمين » لابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) ، وكتابا « السلوك » و « الخطط » للمقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) وقد غدا أولهـما من المراجع الرئيسية فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ومخطوط « عقد الجمان » للعينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) ، وكتابا « المنهل الصافى » و « النجوم الزاهرة » لأبى المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) وأولهما كتاب خاص بالتراجم لم ينشر بعد ، وثانيهما لتاريخ مصر منذ الفتح العربى إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى .

ومن المؤلفات الأخرى التى كتبت فى العصور التالية واعتمدنا عليها فى بحثنا هذا : « حسن المحاضرة » للسيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) و « بدائع الزهور » لابن اياس (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) ، و « النزهة الزهية » و « عيون الأخبار » لابن أبى السرور (ت ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م) وهما لم ينشرا بعد ، و« شذرات الذهب » لابن العماد (١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) .

وإذا كان هؤلاء المؤرخون ينقلون عادة عن السابقين ، فقد ترك لنا بعضهم إشارات سريعة عن العلاقات بين الفرنج والمسلمين إبان إقامة لويس فى الأراضى المقـدسة لم ترد فى الأصول المعاصرة ، ويغلب على الظن أنهم نقلوها عن أصول مفقودة . من ذلك ما ورد فى تآليف العينى ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) ، وابن بهادر المؤمنى الذى عاش فى القرن التاسع الهجرى ، عن العرض الذى تقدمت

به مصر للفرنج بشأن التنازل لهم عن بيت المقدس مقابل انضمامهم إليها فى كفاحها ضد الأيوبيين فى الشام ؛ والتقدير الذى انفرد بذكره ابن أبى السرور عن عدد الأسرى الفرنج الذين كانوا بمصر آنذاك ، والذى يبدو أنه أقرب إلى الصحة من تقدير مؤرخى الغرب . وكذلك رواية المقريزى عن الحريق الذى أحدثه الفرنج فى حلب سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م . وإن هذه اللمحات لا تقل أهمية عما جاء فى الأصول الأوروبية ، وهى على الأقل تكشف عن حقيقة العلاقات بين الفرنج وبين كل من الأيوبيين والمماليك . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد تاريخ الفازانى الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، فقد أفادنا بعض الفائدة فيما يختص بأحوال التتار وإيلخاناتهم . كذلك نجد أن فريقا من المؤرخين مثل الذهبى فى « تاريخ الإسلام » والكتبى فى « فوات الوفيات » وأبا المحاسن فى «النجوم الزاهرة» والعينى فى «عقد الجمان» وابن منكلى فى «الأحكام المملوكية» - ينقلون عن تاريخ سعد الدين بن حمويه الذى عاصر هذه الفترة وكان شاهد عيان لأحداث الحملة على مصر ، ولسعد الدين تاريخ مفقود .

كذلك انفرد بعض هؤلاء المؤرخين بذكر أخبار عن الحملة على مصر لم ترد فى الأصول المعاصرة . مثال ذلك وصية الصالح أيوب إلى إبنه المعظم توران شاه التى أوردها النويرى كاملة فى « نهاية الأرب » والتى جاءت بين ثناياها شذرات عن الحملة وعن الفرنج ونواياهم لها أهميتها واعتبارها . ويلاحظ أن البعض ، أمثال ابن أيبك وابن دقماق والمقريزى ، حفظوا لنا صيغة الكتابين المتبادلين بين ملكى فرنسا ومصر قبل نزول الصليبيين إلى الشاطىء المصرى . ويتضمن هذان الكتابان معلومات لها وزنها فيما نحن بصدده .

ومن بين الكتب العربية الأخرى التى اعتمدنا عليها بعض الاعتماد ، كتب تاريخية سابقة لموضوع البحث وأخرى لاحقة له ، مثل « ذيل تاريخ دمشق» لابن

القلانسى (ت ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م) و«الاعتبار» لابن منقذ (٥٨٤هـ/١١٧٨م)، و«قوانين الدواوين» لابن مماتى (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩ م)، و«الكامل فى التاريخ» و«أتابكة الموصل» لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٤م)، و«سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ت٦٣٢هـ/١٢٣٨م). وكتب جغرافية مثل تآليف البشارى المقدسى، والإدريسى (ت ٥٦٠ هـ/ ١١٦٦ م)، وابن جبير (ت٦١٤ هـ/ ١٢١٧م)، وياقوت (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م)، والقزوينى (ت ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م) وأبى الفداء (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م)، وابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م)، وابن شاهين (ت ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ - ٨ م) وغيرهم. فقد حصلنا منها على فوائد عظيمة فى دراسة النواحى التاريخية والجغرافية والأثرية التى تمت بصلة إلى موضوعنا.

أما المراجع الثانوية من كتب المحدثين من أهل الغرب والشرق، فيمكن تقسيمها بالنسبة لموضوع البحث إلى الأقسام الرئيسية التالية :

أولا كتب عن سيرة لويس التاسع وأعماله، نذكر منها مؤلفات براى Bray، ووالون Wallon، وبرجيه Berger، وماريوس سبت M. Sepet، وجيزو Guizot، وفردريك برى F. Perry، وجاك بولانجية J. Boulenger، وهنرى بوردو H. Bordeaux.

ثانيا — كتب عن الحروب الصليبية، ومن أهمها مؤلفات ميشو Michaud، ومبورج Maimbourg، ولدلو Ludlow، وجيبون Gibbon، وستفنسن Stevenson، وآرشر وكينجزفورد Archer & Kingsford، ولويس بربيه L. Bréhier، وهارولد لامب H. Lamb، وكامبل Campbell، وشالندون Chalandon، وباركر[1] Barker، وكالثروب Calthrop، ورينيه جروسيه

(١) نقل هذا الكتاب إلى العربية الدكتور السيد الباز العرينى تحت اسم «الحروب الصليبية» — طبع القاهرة سنة ١٩٦٠.

R. Grousset ، وستيفن رنسيمان S. Runciman [1] ، ويعتبر مؤلف كل منهما من أفضل ما ظهر عن هذه الحروب المتقدمة . أما فيما يتعلق بالحروب الصليبية المتأخرة ، فالمرجعان الوحيدان اللذان ظهرا فيها هما مؤلفا الأستاذ عزيز سوريال عطيه باللغة الانجليزية عن « حملة نيكوبوليس الصليبية » و « الحروب الصليبية فى أخريات العصور الوسطى » [2] . وكان المرجع الأخير خير عون لنا فى إيضاح كثير من نقاط البحث ، وعلى وجه أخص فيما يتعلق بالعلاقات بين أوروبا والتتار ، والبعثات المتبادلة بين الطرفين فى عهد كل من انوسنت الرابع ولويس التاسع .

ثالثا — كتب عن تاريخ فرنسا ، منها تآليف آرثر هسال A. Hassall ، وجوستاف ماسون G. Masson ، وميشيليه Michelet ، وكتشن Kitchin ، ولافيس Lavisse ، وآرثر تيلى A. Tilley .

رابعا — كتب عن اسماعيلية الشام منها مؤلفات فون هامر Von Hammer، ودفرمرى Defrémery، وجويار Guyard وماكس فان برشم Max van Berchem. هذا ، فضلا عن بعض المقالات العربية عن الدولة الاسماعيلية وكبار شخصياتها، للويس شيخو ومحمد عبد الله عنان وطه شرف .

خامسا — كتب عن التتار ، منها مؤلفات Deguignes ، ودسون

---

(١) نقل هذا الكتاب الى العربية الدكتور السيد الباز العرينى تحت اسم « تاريخ الحروب الصليبية » ، وهو يقع فى ثلاثة أجزاء ، طبع بيروت ١٩٦٧ — ١٩٦٩ .

(٢) توج الدكتور عزيز سوريال عطيه تآليفه فى تاريخ الحركة الصليبية بكتابه القيم الذى صدر بالانجليزية فى بلومنجتون بالولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٦٢ تحت اسم « الحروب الصليبية والتجارة والثقافة » أنظر :

Atiya, A. S., Crusade, Commerce & Culture, Bloomington, 1962.

d'Ohsson ، وهوارث Howorth ، وكاهن Cahun ، وبليوت Pelliot ، وبرتولد Barthold ، ومول Moule ، وسايكس Sykes ، وبراون Browne .
وإلى جانب ذلك توجد بعض الكتب والرسائل العربية عن التتار ، نخص بالذكر منها تآليف الدكتور حسن ابراهيم حسن وحافظ حمدى ومقالات لويس شيخو فى مجلة الشرق .

سادسا — كتب تبحث فى تاريخ الشرق اللاتينى : من أهمها تآليف رى Rey ، وديكانج Du Cange ، وشلومبروجيه Schlumberger ، ورهرشت Röhricht ، وكندر Conder ، وبزنت وبلمر Besant & Palmer ، وبوشيه Bouchier ، وديسو Dussaud ، وشانتير Chanteur ، وماس لاترى Mas Latrie .
ومن الكتاب العرب الذين عالجوا تاريخ سورية وبلدانها بصفة عامة فيليب حتى ، وهنرى لامنس ، وطوبيا العنيسى ، وجرجى ينى ، ويوسف الدبس ، ولويس شيخو ، وجوزيف الكرملى وغيرهم .

ومن حسن حظ المكتبة العربية أنها أصبحت الآن عامرة بالعديد من المؤلفات العلمية القيمة التى تتناول تاريخ العدوان الصليبى على العالم الاسلامى أو فصلا من فصوله ، فى دراسة جادة هادفة بعيدة عن الميول والأهواء . من ذلك كتاب الدكتور حسن حبشى « الشرق العربى بين شقى الرحى : حملة القديس لويس على مصر والشام » ، وكتاب كل من الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور عبد الرحمن زكى عن حملة لويس على مصر ، وكتاب لى فى هذا الموضوع . ومن المؤلفات التى تناولت تاريخ الحركة الصليبية تناولا شاملا كتاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور « الحركة الصليبية — صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى » ، وكتاب الدكتور عمر كمال توفيق « مملكة بيت المقدس الصليبية » ، ومؤلفات الدكتور السيد الباز العرينى والدكتور

نظير حسان سعداوى ومحمد العروسى المطوى عن الحركة الصليبية . فكل هـذه التآليف وغيرها سدت فجوات وثغرات عديدة فى تاريخ هـذه الحروب التى تعرض لها العالم الاسلامى من المحيط إلى الخليج ، ونجد فيهـا الكثير من المعلومات الهامة القيمة .

ويضاف إلى ما سبق عشرات المراجع والمباحث والمقالات عن تاريخ دول الغرب الأوروبى ، والكنيسة المسيحية ، والجماعات الرهبانيـة فى الأراضى المقدسة ، والطوائف المسيحية الشرقيـة كالأرمن والموارنة . ثم كتب الرحالة الذين ارتادوا الشرق الأوسط خلال القرنين المـاضيين ، وكتب فى تاريخ مصر والعالم الإسلامى فى العصور الوسطى وأهمها مؤلفات جاستون فييت G. Wiet ، وستانلى لينبول St. Lane-Poole ، وتوماس أرنولد T. Arnold . هذا ، عدا الموسوعات ودوائر المعارف والأطالس .

وعلى الرغم من أن المراجع السابق ذكرها قد لا تتعرض لفترة إقامة لويس فى بلاد الشام ، إلا فى بضعة أسطر أو فى بضع صفحات ، وقد لا تشر إليهـا إطلاقا — إلا أن لها وزنها العام فى رسم صـورة العصر الذى وقعت فيـه الأحداث التى نحن بصددها .

هذا ما قمنا به من دراسة واستقصاء فى مصادر الكتاب ومنـابعه ، الغربية والشرقية ، المسيحية والإسلامية ، الأوروبية والعربية . واستطعنـا أن نوضح تاريخ لويس التاسع فى الشرق وما تخلله من مسائل غامضة ومشاكل معقدة . وقد خلصنا من ذلك إلى أن لويس كان يسير خلال السنوات الأربع التى أقامها فى الشام وفقا لخطة واضحة منظمة متعددة النواحى ، تلتقى أطرافهـا عنـد غاية واحدة ، هى الاستيلاء على بيت المقدس واتخاذ الوسائل الكفيلة بالمحافظة على

كيان اللاتين المتداعى فى الشرق وضمان سلامة إماراتهم وبلدانهم . ولاغرو إذا أثبتنا أن قول قدامى المؤرخين بأن لويس قام بحملتين صليبيتين فقط على مصر وتونس قول مبتور ناقص يجب مراجعته وتصحيحه على ضوء الوقائع التى سجلناها فى هذه الصفحات . فحملات لويس ثلاث ، كان مسرح أولاها مصر وثانيتها سورية وثالثتها شمال افريقية ؛ وإن كان لكل حملة طابعها الخاص وصفاتها المميزة لها ، مما سنورد ذكره فى ثنايا فصول الكتاب .

الفصل الثانى

لويس التاسع فى مصر

استهدفت مصر فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى لحملة صليبية كبيرة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، منى فيها الصليبيون بهزيمة منكرة .(١)

ولم تكن فكرة اتجاه اللاتين صوب الديار المصرية بالفكرة الجديدة على أوروبا وقتذاك . فقد مرت بعدة مراحل منذ أوائل القرن الثانى عشر إلى أن وصلت إلى طور النضج والكمال فى حملة لويس ، حيث ساد الاعتقاد بين أهل الغرب ، أنه لا يمكن امتلاك البيت المقدس ، والمحافظة على كيان اللاتين بالشرق العربى ، إلا بالاستيلاء على مصر زعيمة العالم الاسلامى ، ومركز إمداده ، ومعقله المنيع فى ذاك الحين . وتبدأ المرحلة الأولى بالصراع بين كل من نور الدين سلطان حلب وامورى ملك بيت المقدس على ملك مصر فيما بين سنتى ٥٥٨ هـ و ٥٦٤ هـ (١١٦٣ — ١١٦٨م) ، فى وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية تسير نحو انهيار سريع . وتنتهى بانتصار جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه ، الذى دخل القاهرة ظافرا فى ربيع الآخر ٥٦٤ هـ / يناير ١١٦٩ م (٢) . تلى

---

(١) ظهر لى كتاب مستقل عن هذه الحملة تحت اسم « العدوان الصليبى على مصر : هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور » ، طبع الاسكندرية سنة ١٩٦٩ .

(٢) فيما يتعلق بحملات أمورى ونور الدين على مصر أنظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٨ — ٣٥ ؛ ابن الاثير : أتابكة الموصل (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ج٢ قسم٢) ص ٢١٣ — ٩ و ٢٣٦ — ٢٤١ و ٢٤٦ — ٢٥٣ ؛ الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ص ٥٣٢ — ٥٤١ و ٥٤٦ — ٥٥١ و ٥٥٣ — ٥٥٨ . أنظر كذلك :
Michel le Syrien, R. H. C. - Doc. Arm., I, 353 - 9; Guill. de Tyr, 890-1, 934, 945-6; Schlumberger, Campagnes du roi Amaury, 46 - 8, 93-98, 101-68,172-229.

ذلك المرحلة الثانية ، وتتمثل فى القضاء على الخلافة الفاطمية بمصر ، وقيام الدولة الأيوبية بفضل مؤسسها السلطان صلاح الدين الأيوبى . وقد هيأ جهاده ضد الفرنج ، الذى يتوجه انتصاره الحاسم عليهم فى معركة حطين وبيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، لمصر مكان الصدارة فى العالم الاسلامى آنذاك (١).

توجس اللاتين خيفة من هذه الدولة الناهضة ، وباتوا بين شقى الرحى ، وانحصر هدفهم منذ ذلك الحين فى إزالة قوتها من الميدان ، ليتسنى لهم إعادة بيت المقدس إلى حظيرتهم . (٢) فكان من أثر ذلك قيام الحملة الصليبية الخامسة بقيادة يوحنا دى برين بقصد الاستيلاء على مصر فى ٦١٥ هـ / ١٢١٨م، ولكنها أخفقت فى مهمتها وغادرت البلاد فى ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م ، بعد ثلاث سنوات من مقدمها إليها (٣) . ولم تكد تمضى ثلاثون سنة حتى قامت الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع لنفس الغرض ، ولتلقى نفس المصير .

قامت حملة لويس إذن للاستيلاء على بيت المقدس عن طريق القضاء على مصر . يقول ابن واصل الذى عاصر أحداثها : « وكان (أى لويس) متدينا

---

(١) حول جهاد صلاح الدين ضد الفرنج راجع ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٠ — ٧٣ و ١٤٣ — ١٦٥ و ٢٢٠ — ٢٢٧ و ٢٣٥ — ٢٣٧ ؛ الاصفهانى : الفتح القسى ص ١٧ — ٢٥ و ٣٦ — ٤٥ و ١٤٠ — ٢٦٠ و ٣١٤ — ٣١٧ ؛ الكامل فى التاريخ ص ٦١٤ — ٧٤٤ ، وكذلك Vartan le Grand, R. H. C. – Doc. Arm., I, 439.

أنظر العرض الممتع الذى قدمه الدكتور محمد مصطفى زيادة حول أسباب توجه أهل الغرب اللاتينى إلى مصر بدلا من بيت المقدس فى أواسط القرن الثالث عشر فى مؤلفه القيم : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١) ، ص ١ — ٣٦ .

(٢) Cf. Calmette, Monde Féodal, 408; Tilley, Med. France, 83; Lane-Poole, Hist. of Egypt, 218; idem, Story of Cairo, 193.

(٣) الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ص ١١١ — ١٢٥ . راجع أيضا ابن واصل ج ١ لوحة ١٨٧ أ و ٢٠١ — ٢١١ ب .

بدين النصرانية مرتبطا به ، فحدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج إذ هو بيت معبود ... وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية »[١] .

وأسباب قيامها كثيرة متشعبة ؛ إذ تكاتفت عدة عوامل من جوهرية وثانوية لإخراجها إلى حيز التنفيذ . وينحصر السبب الرئيسى فيما آلت إليه الأراضى المقدسة من ضعف وتدهور ، وما كان يعانيه اللاتين بالشرق خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر. فكانت بيت المقدس مقلقلة مضطربة ، وظلت تتأرجح بين اللاتين والمسلمين إلى أن فقدها المسيحيون نهائيا فى سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م قبل قيام حملة لويس ببضع سنوات . وكان ذلك فى عصر سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) . فقد نشبت أمام غزة معركة حاسمة بين قوات دمشق وحمص والفرنج من ناحية وبين العساكر المصرية والخوارزمية من ناحية أخرى ، أسفرت عن انتصار العساكر المصرية والخوارزمية على قوات الشام والفرنج التى لم ينج منها سوى عدد ضئيل جدا ، بينما اقتيد الأسرى إلى القاهرة . واندفعت القوات الظافرة بعد استيلائها على غزة صوب مدينة بيت المقدس واستولت عليها فى نفس العام بعد أن أعملت فيها النهب والتدمير[٢] .

أخذ المسلمون بعد ذلك فى توجيه الضربات الشديدة إلى باقى ممتلكات اللاتين بسورية . ففى ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م أرسل الصالح أيوب الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ بالعسكر إلى طبرية وعسقلان ، فنازلها وأخذهما من الفرنج . وهدم

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٥ ب .

(٢) راجع أبو شامة : تراجم رجال القرنين ص ١٧٤ ؛ السلامى . مختصر التواريخ ورقة ٦٤ أ — ب ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣١٦ — ٣١٨ . وكذلك :

Rothelin, II, 564; Eracles, II, 429-30; Röhricht, Gesch. des Königreichs Jerusalem, 860-6 & notes; Delaville le Roulx, Hospitaliers, 190-2.

ما أقاموه بها من القلاع والحصون (١) . يضاف إلى ما تقدم أن الخوارزمية أنزلوا باللاتين فى الشرق صنوفا شتى من العذاب ، واستهتروا بحرمة المعابد والكنائس ، وأشعلوا النيران فى قبر المسيح (٢) . فكان ذلك سببا فى إثارة شعور لويس بخاصة وأهل الغرب بعامة ، للثأر لما نزل بهم فى الأراضى المقدسة من محن .

وإلى جانب الأسباب السالفة ، كانت توجد ، عوامل أخرى محلية أسهمت فى تحقيق الحملة . ذلك أن الملك الفرنسى لويس التاسع وقع فريسة مرض عضال فى أواخر عام ١٢٤٤ م أدناه من الموت ، وخشى رعاياه على حياته حين انقطعت أخباره عنهم . ولكن سرعان ما شفى ، فكان شفاؤه حافزا له على توجيه فكره إلى غزو الأراضى المقدسة ، إعترافا منه بفضل الله عليه (٣) .

إن هذه الكوارث التى توالت على اللاتين فى الشرق حملتهم على إيفاد الرسل إلى الغرب فى طلب النجدة . كما أنفذ روبرت (٤) بطريرك بيت المقدس اللاتينى إلى أمراء الغرب سفارة برئاسة واليران Walleran أسقف بيروت يستحثهم على

---

(١) تراجم رجال القرنين ص ١٨٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٢٧ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٢٨٨ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٦٤ ، أنظر كذلك :
Rothelin, II, 565; Eracles, II, 433—4; Delaville le Roulx, op. cit., 193, Röhricht, Gesch. des Königreichs Jerusalem, 867—8.

(٢) Rothelin, II, 561—2; Matt. Paris, I, 491—500, 527—8 & II, 68.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 60—2. Cf. Matt. Paris, II, 37—8.

(٤) كان روبرت بطريركا على بيت المقدس منذ سنة ١٢٤٤ م . ويبدو أنه هو الذى توسط لدى المصريين لإطلاق سراح الملك لويس بعد وقوعه فى الأسر ، وكان عمره آنذاك ٨٠ سنة ، وقد توفى فى ٨ يونيو ١٢٥٤ م . أنظر :
Annales, II, II, 441, 446; Rey, Familles d'Outre Mer, 729; Mas Latrie, Patriarches Latins, 23.

النهوض بحرب صليبية ضد المسلمين(١). وقد حضر والبران والبرت دى رزاتو Albert de Rizato بطريرك أنطاكية اللاتيني وغيرهما من الرسل، المؤتمر الكنسى الذى عقد فى مدينة ليون بفرنسا (٢٨ يونيو - ١٧ يوليو ١٢٤٥م) برئاسة البابا انوسنت الرابع. وتعرض المؤتمر لمسألة فلسطين، فأوضح والبران النكبات التى تلاحقت على اللاتين فى أرض الميعاد، وذكر كيف فقد الفرنج بيت المقدس وغيرها من البلاد التى كانوا يمتلكونها فى الشرق. كما أفاض غيره فى وصف الفظائع التى اقترفها الخوارزمية ضدهم هناك. ولم يسع البابا فى مثل هذه الظروف إلا المساهمة فى الدعوة المنشودة. وبادر بإصدار عدة مراسيم لحض الناس على الاشتراك فيها. كما وعد كل من يحمل الصليب بالغفران التام عن خطاياه وذنوبه، فضلا عن التسهيلات الأخرى التى اعتاد البابوات منحها فى مثل هذه الظروف(٢).

وبعد انتهاء مجلس ليون أوفد انوسنت بناء على طلب لويس التاسع مندوبا من قبله يدعى أود دى شاتورو(٣) Eudes de Chateauroux للتبشير بالحملة فى فرنسا. وطاف والبران وغيره من الدعاة بباقى بلدان أوروبا لنفس الغرض(٤). ولكن جهودهم لم تلق تأييدا كافيا لأن ظروفها إبان تلك الفترة لم تكن تسمح لها

(١) Rothelin, II, 565. Cf. Grousset, Crois, III, 426.

(٢) أنظر: Matt. Paris, II, 86-8,64-5. — والواقع أن البابا انوسنت الرابع لم يكن صادق الرغبة فى تقديم التسهيلات اللازمة للحملة الصليبية، بل سعى جاهداً إلى تعطيلها وإقامة العقبات فى سبيلها حتى يتسنى له استخدام القوات الصليبية ضد الامبراطورية التى كرس حياته للقضاء عليها فى وقت احتدم فيه النزاع بين عاهلى المسيحية، على المسائل الدنيوية والأطماع الشخصية. أنظر فى ذلك Matt. Paris, II, 68-73, 77-86, 144-6, 498; Michelet, France, I, 564; Lamb, Crusades, 285.

(٣) "... li legas de Roume messires Eudes de Chatiau Raoul, evesques cardinaus de Tusculane" Nangis, Vita Ludovici, XX, 385.

(٤) Matt. Paris, II, 116; Rothelin, II, 565.

بالاشتراك فى حرب خارج أراضيها، بعكس فرنسا التى وجدت فيها هذه الدعايات تربة خصيبة، خاصة وأنه كان يحكمها وقتذاك ملك كرس حياته لخدمة هذا الهدف والعمل على تحقيقه . ويعتبر المؤرخون النصف الأول من القرن الثالث عشر عصرا ذهبيا بالنسبة لفرنسا دون غيرها من أمم الغرب المسيحى(١) ، ومن هنا اتسمت الحملة الصليبية السابعة بالطابع الفرنسى لأن قوام الذين اشتركوا فيها كانوا من فرنسا ، بينما كانت الحملات الأولى حملات جامعة اشتركت فيها الأمم المسيحية الغربية بأكملها ضد أمم الشرق الإسلامى(٢) .

أخذ لويس على عاتقه مهمة النهوض بهذه الحملة . وعقد فى سنة ١٢٤٥ م مجمعاً كبيرا حضره القاصد الرسولى وكبار رجال المملكة ورجال الدين فيها . وخطب الملك فى الحاضرين داعياً إياهم لحمل الصليب، مما حرك فيهم العاطفة الدينية الدفينة . وبادر فقيد اسمه فى سجل الحرب المقدسة(٣)، واقتدى به الكثيرون ، وعلى رأسهم إخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا وشارل كونت أنجو والفونس كونت بواتييه ،

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 10–12, 32–8. Cf. Hassall, France, 35.

كانت أوروبا آنذاك مسرحا للفوضى والفتن والحروب المستمرة . ولا شك أن النزاع المرير بين البابوية والامبراطورية كان من أهم الأسباب فيما عانته المسيحية من تفكك وانقسام. أنظر:
Matt. Paris, II, 103-4, 122-3, 163; Rothelin, II, 525-6, 556-66.
أما فرنسا فكانت ظروفها وأحوالها الداخلية أكثر ملاءمة . إذ تمكنت بلانش فى فترة قصور ابنها لويس التاسع من حفظ التاج له من مؤامرات رجال الاقطاع . وواجه لويس بشخصه فى ١٢٤٢م — بعد بلوغه سن الرشد بست سنوات — آخر ثورة إقطاعية كبيرة خلال حكمه ، انتهت بهزيمة الثائرين حتى أنه لم تقم ثورات أخرى بقية عهده الذى ظل يسوده الهدوء والاستقرار ، مما سهل له القيام بحملته . انظر : Joinville (ed. Wailly), 40-50, 56-60; Lavisse, Hist. de Fr., III. II. 7-15, 58-9.

(٢) Cf. Stevenson, Crusaders in the East, 325; Grousset, Crois., III, 428.

(٣) Matt. Paris, II, 214. Cf. Ludlow, 335; Bray, 55.

وجوانفيل مؤرخ هذه الحملة وأحد فرسانها، وكذلك زوجه مرجريت دي بروفانس [١].

بعد ذلك بدأ الملك يستعد لحملته . وكان أول ما اهتم له هو إعداد أسطول قوى لنقل الجند والعتاد عبر البحر إلى الشرق . فاستأجر عددا من السفن من جنوه ومرسيليا لهذا الغرض [٢]. كذلك استعد بتوفير الذخيرة والمؤن لقواته . فأرسل قبل قيامه من فرنسا بحوالى عامين بعثة إلى قبرص لشراء وإعداد مايحتاجه الجيش من الميرة والنبيذ والحبوب ، حتى يجدها معدة عند مروره بالجزيرة التى اعتبرت المكان الذى تلتقى فيه الجيوش الصليبية الذاهبة إلى الشرق [٣].

وبعد أن فرغ من المشاكل الخاصة بالنقل والتموين ، عمل على تنظيم شئون المملكة فأناب عنه فى الحكم أمه الملكة بلانش، ثم استدعى باروناته وكبار رجاله فى باريس، حيث أقسم المقيمون منهم بين يديه يمين الطاعة والولاء بمراعاة حقوقه، والمحافظة على عرشه والإخلاص لأبنائه الصغار فى فترة تغيبه عن فرنسا [٤].

وقد استغرقت هذه الترتيبات زهاء ثلاث سنوات. وبعد أن تم إعداد كل شىء غادر الملك باريس إلى ميناء اجمورت Aigues-Mortes جنوبى فرنسا فى ١٢ يونيو ١٢٤٨م [٥]، وبصحبته جانب كبير من الصليبيين من بينهم زوجه مرجريت وأخواه

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 62; Matt. Paris, II, 118. ومرجريت هذه هى ابنة ريمون برنجيه Raymond Berenger كونت بروفانس. وقد تزوج لويس التاسع منها فى ١٢٣٤م ، ورافقته فى حملته على مصر والشام. راجع: Kitchin, I, 334.

(٢) Une charte de nolise de S. Louis, A.O.L., II, 232-6. Cf. also Heyd, Hist. du Com., I, 409 & 409 n. 3; Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 194, n. 5.

(٣) Eracles, II, 436; Joinville (ed. Wailly), 72.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 64-6. Cf. Lacroix, Chevalerie et Crois, 182; Wiegler, Infidel Emperor, 256.

(٥) Calmette, 419.

كونت أنجو وكونت أرتوا . أما شقيقه الثالث كونت بواتييه فقد بقى فى فرنسا بعض الوقت لجمع إمدادات أخرى ، على أن يلحق بالجيش الفرنسى فيما بعد (١).

وفى ٢٥ أغسطس ١٢٤٨م (٢) أبحر الملك من ميناء اجمورت ، وأرسى فى ميناء الليمسون Limassol جنوبى قبرص فى السابع عشر من سبتمبر من نفس السنة (٣) . وقد أبحر بعض الصليبيين ومن بينهم جوانفيل وفرسانه من مرسيليا فى سبتمبر ١٢٤٨ م ، ووصلوا إلى قبرص بعد رحلة بحرية تعرضوا فيها للمخاطر حيث وجدوا أن الملك الفرنسى قد سبقهم إليها (٤) .

عندما وصل الصليبيون الجزيرة شعروا بأنهم فى ديارهم ، لأنها كانت وقتذاك تحت حكم أسرة لوسنيان اللاتينية ، فكانت من ثم دولة صديقة لهم . وقد تلقى ملكها هنرى الأول لوسنيان لويس ورجاله بالترحاب ، وشاركه فى ذلك شعبه والموارنة وممثلو الداوية والاسبتارية الذين كانوا هناك (٥) .

أمضت الحملة فى قبرص زهاء ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩م)، على الرغم من رغبة لويس فى التقدم السريع إلى مصر ، وذلك نزولا منه على نصيحة البارونات والقواد بالانتظار ريثما يلحق به بقية الجيش الذى لم يصل إلى

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 98.

(٢) Cf. Bréhier, 222; Grousset, Crois., III, 427; Davis, Invasion of Egypt, 27.

(٣) Bréhier, 222; Delaville le Roulx, Hospitaliers, 194; Wiegler, op. cit., 256.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 70–2. Cf. Le Bas, I, 186; Bordeaux, St. Louis, 218,

(٥) Davis, Invasion of Egypt, 22; Grousset, Crois , III, 430-1; Delaville le Roulx, 194; Wallon, I, 271–2.
أنظر أيضا سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) ، ص٤٢–٤٣ .

خريطة رقم (١)

خط سير الحملة من فرنسا إلى دمياط

الجزيرة بعد [1] . وقد عاد هذا التأخير على الحملة بكثير من الاضرار . إذ أضاع الفرنسيون وقتا ثمينا ، دون أن يجنوا من ورائه شيئا نافعا . فقـــد استنفدوا مؤونتهم ، ولم يستطيعوا مغادرة الجزيرة إلا بعد تدبير المؤونة اللازمة لهم من جديد [2] . كما نفدت أموالهم التى كانوا قد جمعوها قبل سفرهم للصرف عـــلى أنفسهم فى الشرق ، حتى أن الملك لويس اضطر إلى امداد عدد كبير منهم بالمـال اللازم [3] . وفى أثناء هـــذه العطلة أيضا تسربت أخبار الحملة إلى سلطان مصر مما أتاح له فرصة الاستعداد لمواجهة الغزاة الأجانب بتحصين مدينة دمياط التى كان يتوقع هجومهم عليها ، وتزويدها بالمقاتلة والمؤن والذخيرة [4] .

كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما تواترت إليه الأنبـــاء بحركة الفرنج ، فى دمشق وجنده على حصار حمص . فأسرع بالعودة إلى بلاده كيما يعد العدة لملاقاتهم ودفع شرهم (٥) . ونزل باشموم طناح (٦) يوم ٣ صفر ٦٤٧هـ/

(١) Joinville (ed. Wailly), 47. Cf. Grousset, Crois., III, 432.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 72. Cf. Davis, op. cit., 24.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 76. Cf. Wallon, I, 279-280; Guizot, 61.

(٤) راجع ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٦ ا .

(٥) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٤ ب و٣٥٦ ا . انظر أيضا عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٢٩٤ ؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٩ .

(٦) أشموم طناح إحدى المدن المصرية القـديمة ، وهى تقع عـلى الشاطىء الشرقى لبحر أشموم . وجاء فى ابن دقماق (كتاب الانتصار جـ ٥ ص ٦٨ ــ ٦٩) أنها « تعرف باسم أشموم طناح وأشموم الرمان ، وهى قصبة كورة الدقهلية » . وقد استمرت قاعـدة لاقليم الدقهليـة إلى آخر عصر دولة المماليك . وفى أوائل الحـكم العثمانى نقلت القاعدة إلى مدينـــة المنصورة . ومنذ ذلك الحين اضمحلت أشموم طناح ، وأصبحت قرية عـادية من قرى مركز دكرنس بمديرية الدقهلية . راجع النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٨ حاشية (١) وكذلك : Maspéro et Wiet, Materiaux, XXXVI, 17 - 19; Ramzi, Rectifications à l'ouvrage d'É. Amélineau, 300 – 1.

١٨ مايو ١٢٤٩ م « ليكون فى مقابلة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط »(١) وفى الحال أخذ فى تحصين دمياط ، لعلمه أنها كانت هدف الصليبيين فى حملاتهم السابقة على مصر ، وخوفه أن يجرى عليها ماجرى فى أيام أبيه الملك الكامل محمد . ثم أنه كان يتوقع هجومهم عليها حسبما أكد ابن ايبك (٢) ولعله علم بذلك عن طريق عيونه وجواسيسه . فزودها بالميرة والذخيرة وآلات الحرب ، كما كلف حاميتها بالمحافظة عليها من الداخل . بعد ذلك أصدر أمره إلى نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبى على باعداد قطع الأسطول من دار صناعة السفن فى الفسطاط وتزويدها بالعدد والمقاتلة . ثم أوفد الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ مقدم العسكر على رأس جيش كبير إلى البر الغربى لدمياط ، حتى يكون فى مقابلة لويس ورجاله عند وصولهم إلى الشاطىء المصرى ، ليحول بينهم وبين النزول إلى أرض مصر (٣) .

وفى تلك الأثناء كان الصليبيون فى قبرص يستعدون هم أيضا لمغادرة الجزيرة. وفى يوم الخميس ١٣ مايو ١٢٤٩ م (٤) ، أقلعت الحملة من ميناء الليمسون ميممة

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٥ ب .

(٢) كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٦٥.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٥ ب — ٣٥٦ ا. راجع كذلك عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ ؛ مسالك الابصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٦٦ — ٢٦٧ ؛ نهاية الارب ج ٢٧ لوحه ٩٠ .

(٤) تختلف الرواية المسيحية حول تاريخ إبحار الفرنج من قبرص . فيقول كل من كونت أرتوا ويوحنا دى بومون إنه كان فى ١٣ مايو . أنظر : Comte d'Artois, 609; Jean de Beaumont, 389. ، وفى تاريخ هرقل أنهم أبحروا يوم الخميس ٢٠ مايو أنظر : Eracles, II, 437. ،وفى جوانفيل يوم السبت ٢٢ منه انظر Joinville (ed. Wailly), 82. ومن المحتمل أن هذا الاختلاف يرجع إلى قيام الحملة على دفعات فى فترات متفاوتة .

شطر مصر فى أسطول ضخم يقرب من ١٨٠٠ قطعة [١] ما بين كبيرة وصغيرة ، تحمل نحو ٥٠٠٠٠ مقاتل من مشاة وفرسان، ومعهم عدتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم .

وبعد رحلة بحرية شاقة بسبب هبوب العواصف [٢] ، وصل الأسطول فى الساعة الثانية من نهار الجمعة ٤ يونيو ١٢٤٩ م / ٢٠ صفر ٦٤٧ هـ [٣] إلى الفرع الشرقى للنيل ، وأرسى بالبر الغربى تجاه دمياط . وكان هذا البر يسمى فى المراجع العربية باسم « بحيرة دمياط » [٤] أو « جزيرة دمياط » [٥] ، وهى تسمية مجازية

(١) ١٨٠٠ قطعة وفقا لراوية جوانفيل ، أنظر : Joinville (ed. Wailly), 82. و ١٥٠٠ عدا تلك التى شتتها الريح وتقدر بحوالى ١٥٠ سفينة حسبما جاء فى خطاب جى دى ميلان . راجع Guy de Melun, 613. ، أما يوحنا دى بومون فقد ذكر أن عددها كان ينيف على ١٢٠ من بينها أكثر من ٨٠ سفينه من الحجم الصغير. أنظر Jean de Beaumont, 389. ، وقد أخذنا برواية جوانفيل لأنه كان شاهد عيان للحملة ، ومؤرخا عرف بالدقة والصدق فيما يكتب ، ثم أن تقدير جى دى ميلان الذى اشترك فى الحملة هو الآخر، قريب مما ذكره مؤرخنا . أما رواية بومون فتفتقر إلى ما يعززها ؛ إذ ليس من المعقول أن تكفى ١٢٠ سفينة لنقل ما يقرب من ٥٠ ألف مقاتل ومعهم عدتهم وسلاحهم .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 82. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 24.

(٣) يوم الجمعة ٢٠ صفر / ٤ يونيو وفقا المراجع التالية : أبو شامة : تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٣ ، وخطط المقريزى ج ١ ص ٢١٩ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٣ لوحة ٣٠١ ؛ العمرى: مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٠٦٧ . أنظر كذلك: Rothelin, II, 589; Eracles, II, 437; Artois, 609. — ويمكن القول إن كلا من ابن واصل «مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا» وجوانفيل Joinville (ed. Wailly),82., قد أخطأ فى جعل الوصول يوم الخميس وليس يوم الجمعة . أنظر: Stevenson, Crusaders in the East, 326, n. 1.

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا .

(٥) عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣٠ ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٨٣ .

لأن مياه البحر الأبيض تحيط به شمالا، ومياه النيل تحيط به شرقا. كما كان يسمى أيضا «جزيرة دمياط» [١]، ولعله سمى كذلك لأنه يجاز إليه من دمياط [٢]. أما دمياط نفسها فتقع على الجانب الأيمن للفرع الشرقى للنيل عند اتصاله ببحر الروم [٣]. وكانت مدينة حصينة تحيط بها الأسوار والأبراج. كما كان عند مدخل فرع دمياط برج ضخم مشحون بالمقاتلة والسلاسل الحديد التى تمتد منه إلى برج مقابل على شاطىء دمياط لمنع سفن العدو من العبور فى النيل والوصول إلى المدينة [٤].

---

(١) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٣ ؛ الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية ص ١١٤).

(٢) جمال الدين الشيال : دمياط ص ٢٠ ، Blochet, Hist. de l'Egypte, 509 n.2.

(٣) أنظر اليعقوبى : كتاب البلدان (أطلس يوسف كمال ج ٣ قسم ١ ص ٥٤٠) ؛ المهلبى: كتاب المسالك والممالك (ج ٣ قسم ٢ ص ٦٨٣) ؛ الادريسى: نزهة المشتاق (ج ٣ قسم ٤ ص ٨٤٣) — هذا ولم تقدم لنا كتابات الرحالة والخطط المصرية ما يسمح بتكوين فكرة واضحة عن موقع مدينة دمياط التى تعرضت للغزو الصليبى، خاصة وأن المماليك قد قاموا بهدمها فى شعبان ٦٤٨هـ/نوفمبر ١٢٥٠م «حتى خربت كلها ومحيت آثارها» راجع خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٣ ؛ وكذلك مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٥ ؛ الإنتصار ج ٥ ص ٨١ ؛ الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٤٦ . كما أن مؤلفات الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر خلال القرنين الماضيين مليئة بالأخطاء والمغالطات فى هذه الناحية . فقد ذكر مثلا كل من مييه وتوماس شو أن دمياط القديمة هى بعينها البلوزيوم (الفرما) راجع : Maillet, Description de l'Egypte, I, 126 -7; Shaw, Travels, II, 64. كما خلط ريتشارد بوكوك بين المدينتين القديمة والحديثة راجع : Pococke, Voyage, I, 54-5. كذلك لم يستطع جوليان تحديد مكانها تحديدا نهائيا راجع فى ذلك بحث جوليان : Julien, Note sur l'emplacement de l'ancienne Damiette, 73.

(٤) الإنتصار ج ٥ ص ٨١ ؛ القزوينى : آثار البلاد ص١٢٩. راجع أيضا : Abulfeda, Descriptio Aegypti, 30; Gesta Crucigerorum, III, fasc. II, 933; Rothelin, II, 591.

وإن اختيار مدينة دمياط هدفا للحملة لم يكن اعتباطا . فقد كانت قبل ذلك هدفا للهجوم الصليبى أكثر من مرة [١] . ثم أنها كانت تتمتع بمكانة مرموقة فى النواحى الجغرافية والتجارية والصناعية مما جذب أنظار الغرب إليها [٢] . هذا، فضلا عن أنها كانت أقرب موانىء مصر إلى بيت المقدس، وهى الهدف الأساسى الذى قامت من أجله هذه الحملة [٣] . وأخيرا يبدو أن ميناء دمياط كان مغريا لهؤلاء الفرنج على قصده بالذات ، لأنه يؤدى بهم إلى القاهرة مباشرة ، وهى قلب الدولة أو رأس الحية كما وصفها بذلك الفارس اللاتينى روبرت كونت ارتوا شقيق لويس التاسع [٤] .

على أى حال، عندما وصلت مراكب الفرنج قبالة البر الغربى لدمياط ، اجتمع لويس بكبار رجال الحملة فى سفينته للتداول فيما يجب عمله ، واستقر الرأى على النزول إلى هذا البر فى يوم السبت ، وهو اليوم التالى لوصولهم [٥] . وكانت قوات المصريين بقيادة الأمير فخر الدين مرابطة على الشاطىء متأهبة للقتال [٦] ، وإلى جانبها كان يوجد عدد من السفن المسلحة راسية عند فم النهر لمنع الفرنج من النزول [٧] .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٤ ؛ وكذلك مادة دمياط فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) راجع فى ذلك : Vitry, Historia Hierosolimitana, t. III, fasc. IV, 944; Heyd, Hist. de commerce, I, 384. والاصطخرى : مسالك الممالك ج ٣ قسم ٢ ص ٥٨٦ ؛ ابن الحسين : كتاب آكام المرجان ج ٣ قسم ٢ ص ٦٢٣ ؛ ابن حوقل : المسالك والممالك ج ٣ قسم ٢ ص ٦٥٢ ؛ على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٤٦ .

(٣) Wallon, I, 297.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 100.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 82; Comte d'Artois, 609; Rothelin, II, 589.

(٦) Joinville (ed. Wailly), 82; cf. Davis, Invasion of Egypt, 25.

(٧) Lettre du Comte d'Artois, 610.

وفى يوم السبت ٥ يونيو/٢١ صفر (١) ، شرع الصليبيون فى النزول إلى البر الغربى لدمياط . ولم تكن هذه العملية بالأمر اليسير، إذ أن مياه الشاطىء كانت ضحلة بحيث اضطروا إلى ترك سفنهم الكبرى فى عرض البحر ، وانتقلوا إلى البر فى قواربهم الصغرى ، حيث ألقوا بأنفسهم فى الماء وعلى رأسهم الملك لويس التاسع الذى لم يربأ بتوسلات رجاله فى أن لا يعرض نفسه للخطر . وفى تلك الأثناء كانت قوات المسلمين تستقتل فى الدفاع عن الشاطىء ، بينما أخذ فرسانهم يرمون الفرنج بالسهام والرماح . لكن هذا كله لم يجد فتيلا ، فقد تمكن لويس ورجاله من النزول ، حيث بدأت بينهم وبين المسلمين مناوشات استمرت من الصباح الباكر حتى وقت الظهيرة ، انتهت بانتصار الفرنج بعد أن أجهزوا على عدد كبير من رجال فخر الدين (٢) .

ولكن جد فى حوادث الحملة فى تلك الساعة العصيبة حادث خطير كادأن ينزل بها هزيمة تامة . ذلك أن السلطان الصالح نجم الدين كان فى ذلك الحين باشموم طناح ، وقد اشتد به المرض حتى أشرف على الموت (٣) . فلما وصلت السفن الفرنسية إلى الشاطىء الغربى لدمياط أطلق الأمير فخر الدين قائد القوات المصرية حمام الزاجل يحمل النبأ إلى السلطان . وتعددت رسائله إليه دون أن يتلقى رداً، فاعتقد أنه قد مات (٤) . فلما جن الليل رحل بمن معه من عساكر المسلمين من

---

(١) أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا ؛ تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٩ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٥ وكذلك Artois, 610; Eracles, II, 437; Rothelin, II, 589; Guy de Melun, 615-6.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 86-8; Melun, 615; Beaumont, 389; Artois, 610; Rothelin, II, 590-1; Jean Sarrasin, 256.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٣ ا. وكذلك أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٢.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 90. Cf. Wiegler, 257.

الشاطيء الغربي ، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقي الذي فيه دمياط ؛ وبذا خلا البر الغربي للفرنج . ثم ترك المدينة وسار جنوبا متجها إلى معسكر السلطان عند أشموم طناح [١] . ونسى الجند في عجلتهم خلال التراجع أن يحطموا الجسر الذي كان يصل بين الشاطئين، وتركوه كما هو ، فاحتله الصليبيون وانفتح أمامهم الطريق إلى المدينة [٢] .

ولنا أن نتساءل عن السر في فرار فخر الدين المفاجيء من دمياط ، خاصة وأنها كانت ، بشهادة المؤرخين من شرقيين وغربيين ، مسورة ومحصنة ، ومزودة بكميات وفيرة من الأقوات والأسلحة التي تكفي لحفظها مدة طويلة [٣] ، حتى لقد أكد ابن واصل أن فخر الدين لو منع العسكر المصري من الهرب وأقام بها لامتنعت على الفرنج [٤] . ويمكننا تفهم حقيقة هذه المسألة من تحليل حياة فخر الدين نفسه ، وبحث المشاكل العامة المتعلقة بالدولة وقتئذ [٥] .

كان فخر الدين كبير المطامع عريض الآمال . وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن واصل من أنه يوم ملك الصالح أيوب مصر، ركب هذا الأمير ركبة عظيمة، ودعا له المصريون ، واحتفوا به ، حتى أن السلطان استشعر منه ، وألزمه داره

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا . راجع أيضا السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٥ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٧ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣٠ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 90. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 26.

(٣) عقد الجمان ج ١٨ قسم٢ لوحة ٣٠١ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٠ . راجع أيضا: Comte d'Artois, 610; Rothelin, II, 591.

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب .

(٥) Cf. Wiet, Hist. de la Nation Egyptienne, IV, 376; Walsh, St. Louis, 141.

فترة من الوقت خشية على مركزه [١] . ويبدو أنه كان قد حدثته نفسه بالسلطنة في ذاك الوقت ، فإنه حسبما جاء في نفس المصدر السابق كان قد « انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت همته تترقى إلى الملك » [٢].

أخذ فخر الدين يتحين الفرص لبلوغ مآربه . فعندما لم يتلق ردا على رسائله التي بعث بها إلى السلطان بعد نزول الفرنج إلى الشاطىء اعتقد أنه قد مات ، وقوى هذا الاعتقاد في نفسه مرض الصالح أيوب . فانتهز الفرصة ورحل هو والعسكر عن دمياط علّه يستولى على الملك . وقد جاء في مخطوط ابن واصل نص صريح يكشف عن حقيقة نوايا فخر الدين وعسكره ، يقول فيه : « وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم من يردهم ولا يردعهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة اشموم طناح » [٣] . كما ذكر في موضع آخر : « وليس قد بقى له (أى للسلطان) قدرة على ضبط جنده وقد اشتد طمعهم فيه » [٤] . وعلى هذا الأساس يمكن القول إن فخر الدين غادر المدينة بعسكره على الرغم من مناعتها ، طمعا في الاستحواذ على السلطان اعتقاداً منه أن مليكه قد وافته منيته .

كيفما كان الأمر ، عندما خلا البر الشرقي من القوات المصرية ، خاف أهل دمياط على أرواحهم ، وانطلقوا يهيمون على وجوههم طوال الليل [٥] . ولحقوا بالجند في أشموم طناح ، ثم واصلوا المسير إلى القاهرة حيث نهبهم الناس في

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٢ ب .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ا .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب .

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا .

(٥) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ .

الطريق (١) . وكان فى دمياط أيضا بنو كنانة وهم جنود الحامية الذين أنزلهم بها الصالح أيوب للدفاع عنها ، فتملكهم الرعب ، وهرولوا خلف النـاس تاركين المدينة بكل ما فيها من المؤونة والأسلحة وآلات الحرب لقمة سائغـة للفـاتحين الدخلاء (٢) .

ولما أصبح الفرنج يوم الأحد ٦ يونيو/ ٢٢ صفر قصدوا دمياط لاحتلالها . وبعد أن تحققوا من خلوها من العسكر والحامية والسكان (٣) ، دخلوها واستولوا عليها فى نفس هذا اليوم دون قتال أو إراقة للدماء (٤) ، واستحوذوا على كل ما كان فيها . وعندما ورد نبأ سقوطها إلى القاهرة اشتد الهلع ، وأيقن الجميع أن المملكة ضائعة لا محالة بين براثن الفاتحين الأجانب (٥) .

حدث كل هذا والسلطان نجم الدين لا يزال فى أشموم طناح . فما أن وصلت إلى مسامعه أنباء الهزيمة حتى تملكه الجزع ، وقد أثار ثائرته هرب بنى كـنانة من دمياط ، فأصدر أمره بشنق ما ينيف عن خمسين من كبـارهم (٦) . ثم ارتد

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٩ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحـــة ٣٠١ ؛ نهـاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٠ .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 90; Jean de Beaumont, 390; Guy de Melun, 616; Rothelin, II, 591.

(٤) تتفق الأصول المعاصرة للحملة من عربية ومسيحية ، فيما يتعلق بتاريخ دخـول الفرنج دمياط وامتلاكهم لها . راجع تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ ؛ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦٤٧ ؛ ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب وكذلك: Eracles, II, 437; Comte d'Artois 610

(٥) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب — ٣٥٧ ا . راجع أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣٠ وكذلك : Guy de Melun, 616; Comte d'Artois, 610–1.

(٦) مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٦٧ ؛ ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ٢٠٥ .

على فخر الدين فى حنق زائد ، وكاد أن يأمر بقتله لرجوعه بالعسكر عن المدينة . غير أن الوقت كان دقيقاً ، فأسر هذا الأمر فى نفسه إلى أن تنكشف الغمة [١] .

لم يستسلم الصالح أيوب لليأس بسبب ضياع دمياط ، أو المرض الذى اشتدت وطأته عليه ، وقرر أن يتراجع مع جيشه من اشموم طناح جنوبا إلى المنصورة ، لأنها كانت تمتاز بموقع حصين ، فالنيل يحميها غربا ، وبحر اشموم يفصل بينها وبين الفرنج فى الشمال . وقد وصلها فى يوم الثلاثاء ٢٤ صفر ٦٤٧ هـ [٢] / ٨ يونيو ١٢٤٩ م وشرع الجند فى تحصينها ، فأصلحوا السور الذى كان يحيط بها من ناحية البحر . وقدمت السفن المصرية بالعدد الكاملة والمقاتلة والرجالة ، وأرسوا قبالة السور . واجتمع بالمدينة أعداد هائلة من المتطوعين والعربان وعوام الناس للجهاد ضد الصليبيين [٣] . وكانت هذه الاستعدادات ضرورية للوقوف فى وجه الغزاة إذا ما تحركوا من دمياط جنوبا صوب العاصمة .

وإذا عدنا إلى الفرنج ، نجد أنهم بمجرد استيلائهم على دمياط ، شرعوا فى تثبيت شعائرهم بها ، فجعلوا جامعها كنيسة كاثوليكية دشنها القاصد الرسولى فى

= وجاء فى ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا) أن السلطان أمر بشنق بنى كنانة جميعا .

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا و ٣٦١ ب ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٤ . أنظر أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ .

(٢) تتفق جميع المصادر العربية حول تاريخ نزول الفرنج بالمنصورة . أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٦٧ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٧ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨١ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا .

الحملة باسم كنيسة مريم العذراء ، ورسم لها أسقفا لا تينيا يدعى جيل[١] Giles، وأخذوا بعد ذلك فى تقسيم الغنائم التى عثروا عليها بها. وقد أثارت هذه المسألة الكثير من الجدل والخلاف بينهم ، وأشاعت الفوضى فى صفوفهم[٢] . فكان هذا بداية لما سيكون عليه سلوكهم فيما بعد، من حيث إخلالهم بالنظام، وعصيانهم الأوامر ، وانغماسهم فى الملذات ، الأمر الذى سيضر بالحملة ضررا بالغا .

وبعد أن وطد الصليبيون أقدامهم فى هذا الثغر المصرى، توقفت الأعمال الحربية فترة من الزمن . وظلوا مقيمين به زهاء خمسة أشهر ونصف (٢٢ صفر - ١٢ شعبان ٦٤٧ هـ / ٦ يونيو — ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ م) دون القيام بأى عمل جدى، أو مواصلة التقدم نحو الجنوب لجنى ثمار النصر الأول الذى أحرزوه[٣] . ولا خلاف أن هذه الفترة الطويلة من التراخى قد أضرت بالحملة أكثر مما أفادتها، كما حدث تماما فى قبرص . فقد اختل النظام فى المعسكر الصليبى ، وساد الافراط فى الاثم واللهو بين البارونات والأمراء وعامة الصليبيين على السواء[٤]. ومما زاد الطين بلة أن شدة الحرارة وكثرة الذباب سببا لهم مضايقات كثيرة[٥]. فضلا عن أن الصليبيين أنفسهم كانوا فى شجار دائم فيما بينهم ، فقد كان الداوية والاسبتارية فى نزاع مع بعضها البعض ، كما كان الفرنسيون يعادون الانجليز ، وهكذا[٦] .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 98; Rothelin, II, 594.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 90-2. Cf. Wallon, I, 294-5.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 98.

(٤) Joinville (ed. Wailly) , 94, 96.

(٥) Rothelin, II, 592. Cf. Grousset, Crois., III, 447.

(٦) Matt. Paris, II, 353-6, 362-3. Cf. Wallon, I, 301, 302.

ولما أحس المصريون باستسلام الصليبيين إلى الجمود ، استغلوا الفرصة ، فشنوا عليهم الغارات تباعا ، حتى أقضوا مضاجعهم وأقلقوا راحتهم [١]. وأخذ سلطان مصر يتفنن فى مضايقتهم ، فراح يمنح مبلغا من المال عن كل رأس من رءوس الأعداء يأتيه بها أحد جنوده [٢] وإزاء ذلك اضطر الفرنج إلى تشديد الحراسة حول معسكرهم بدمياط ليحولوا دون وصول المسلمين إليهم [٣] . ومع هذا فقد استمر المسلمون يكيلون الضربات لهم ، وأسروا عددا كبيرا من رجالهم . وكان الأسرى يصلون تباعا إلى القاهرة ، حتى أنه وقع فى أيدى المسلمين فى غضون ثلاثة أشهر (ربيع الأول والثانى ورجب ٦٤٧ هـ / يوليو وأغسطس واكتوبر ١٢٤٩ م) مايقرب من ثلاثمائة أسير من الفرنج [٤] .

وبينما الفرنج على هذه الحالة ، وصل الفونس كونت بواتييه على رأس نجدة من فرنسا إلى دمياط فى ٢٤ أكتوبر ١٢٤٩ م / ١٥ رجب ٦٤٧ هـ عندئذ دعا الملك كبار رجاله للتباحث فى أمر اختيار الطريق الذى يسلكونه بعد مغادرتهم دمياط : أيتجهون نحو الأسكندرية ، أم يسيرون قدما إلى القاهرة ؟ وقد انقسم المجلس فريقين ، كل يناصر أحد الرأيين . واستقر العزم أخيرا على مسير الجيش الصليبي جنوبا نحو القاهرة بمحاذاة الفرع الشرقى للنيل ، وكان كونت ارتوا من كبار المتحمسين لهذه الفكرة [٥] .

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا . راجع أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 68; Rothelin, II, 592; Matt. Paris, II, 364.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 96, 98.

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا و ٣٥٧ ب و ٣٥٨ ب ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ .

(٥) Joinville (ed. Wailly), 100 Cf. Wallon, I, 305-6.

غادر الفرنج دمياط يوم السبت ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م[١]/١٢ شعبان ٦٤٧هـ ، متقدمين نحو عاصمة الديار المصرية ، تاركين المدينة فى حراسة قوية[٢]. وفى ليلة ١٤ شعبان[٣] / ٢٢ نوفمبر – أى بعد مسيرهم بيومين اثنين فقط – مات السلطان الصالح أيوب متأثرا من مرضه ، فكانت الطامة الكبرى .

ففى هـذا الوقت العصيب ، برزت أرملة الملك الصالح شجر الدر – وليس شجرة الدر كما هو مألوف فى بعض المراجع العربية – حتى تخرج بالبلاد سالمة مما يتهددها . وكان أول ما فعلته أن أبقت خبر وفاة السلطان سرا خفيا لا يعرفه إلا الأمير فخر الدين يوسف الذى كان موضع ثقتها على الرغم من موقفه المعروف فى دمياط ، وذلك حتى لا يتسرب الخبر إلى الجند بموته فيفت ذلك فى عضدهم ،

---

(١) الأصول المعاصرة للحملة مختلفة فى تحديد تاريخ مسير الفرنج من دمياط . فقد جاء أنهم غادروها فى ٢٠ نوفمبر وفقا لرواية كل من لويس وروتلان . أنظر Rothelin, II, 597; Epistola Ludovici, I, 1196. و ٢٨ من نفس الشهر حسبما ذكر جوانفيل أنظر Joinville (ed. Wailly), 100. – بينما أجمع المؤرخون الشرقيون أن الفرنج ساروا من دمياط بعد أن وصلتهم أخبار موت الصالح أيوب ، أى بعد ٢٢ نوفمبر ، لأن وفاته كانت فى ١٤ شعبان الذى يوافق ٢٢ نوفمبر . أنظر ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٤ ا ؛ كنز الدرر جـ٧ ورقة ٣٧٥ ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ ؛ خطط المقـريزى جـ ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٤٦ – ولعل هذا التضارب حول ميعاد مغادرة القـوات الصليبية لدمياط يرجع إلى قيامها على أكثر من دفعة وفى أوقات متفاوتة .

(٢) Cf. Matt. Paris, II, 353.

(٣) أنظر ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٩ ا ؛ مسالك الأبصار جـ ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٦٨ ؛ خطط المقريزى جـ١ ص ٢٢٠؛ الانس الجليل جـ٢ ص ٣٦٣ ؛ المختصر جـ٣ ص١٨٨. وكذلك Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, t.XI, fasc. 2,197, 198.

خاصة والفرنج على الأبواب . واستمر كل شيء في سيره الطبيعى كأن لم يحدث حدث. وظلت الأعمال الرسمية تجرى باسم نجم الدين كما لو كان حيا. وإذا سأل أى فرد عنه تحتج شجر الدر بأنه مريض ولا يمكنه مقابلة أحد [١].

بعد ذلك اتفقت شجر الدر مع الأمراء على مبايعة المعظم توران شاه بن الصالح أيوب بالسلطنة ، وكان فى ذلك الوقت نائبا عن أبيه فى حصن كيفا [٢] . فجمعت الأمراء والأجناد وقالت لهم إن السلطان يأمرهم بالحلف له ومن بعده لإبنه المعظم . وبعد أن تم تحليفهم له [٣] ، أسرع القصاد يستعجلون حضوره ليمسك زمام الحكم ويتولى الدفاع عن البلاد [٤] . وعهد الأمراء إلى فخر الدين بقيادة الجيوش وتدبير شئون المملكة إلى أن يصل السلطان [٥] .

فى هذه الفترة المضطربة من تاريخ مصر، ترك الفرنج دمياط وتقدموا جنوبا نحو القاهرة، وأسطولهم فى نهر النيل يحاذيهم [٦]. وكان الطريق الذى سلكوه عبارة عن منطقة مثلثة الشكل فى الشمال الشرقى من بحيرة المنزلة ، التى كانت تعرف وقتذاك ببحيرة تنيس. وهى مليئة بالعقبات والعراقيل ، إذ تعترضها الترع والمجارى المائية الكثيرة السريعة الجريان المتفرعة عن فرع دمياط ، والتى تجعل المرور فيها صعبا

---

(١) ابن واصل جـ٢ لوحة ٣٦١ ا ــ ب و ٣٦٢ ا ــ ب ؛ مرآة الزمان جـ٨ لوحة ٥١٤ ــ ٥١٥ . راجع أيضا عقد الجمان جـ١٨ قسم٢ لوحة ٣٠٥ ــ ٦ ؛ المنهل الصافى جـ ٢ ورقة ١٧٥ ب.

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص٣٦٤ .

(٣) ابن واصل جـ٢ لوحة ٣٦١ ب ــ ٣٦٢ ا ؛ عقد الجمان جـ١٨ قسم٢ لوحة ٣٠٥ ــ ٣٠٦ .

(٤) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٣ ا ــ ٣٦٣ ب ؛ أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص٤٥٣ . راجع أيضا . Joinville (ed. Wailly), 158

(٥) ابن واصل جـ٢ لوحة ٣٦١ ب . أنظر أيضا عقد الجمان جـ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٥ .

(٦) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٤ ا ــ ٣٦٤ ب .

خطيرا [١] . وقد اضطر الفرنج إلى التوقف أثناء مسيرهم لسد أحد هذه القنوات بالقرب من دمياط لتسهيل مرور قواتهم [٢] . ويكفي للدلالة على صعوبة الطريق أنهم قطعوا المسافة من دمياط إلى فارسكور [٣] على قصرها فى حوالى أسبوعين، إذ بلغوها فى يوم الخميس ١٢ ديسمبر ١٢٤٩ م [٤] / ٢٤ شعبان ٦٤٧ هـ .

وعندما علم المصريون بزحف الفرنج اشتد جزعهم ، حتى أنه فى اليوم التالى لوصولهم فارسكور أرسل الأمير فخر الدين من المعسكر بالمنصورة ، كتابا إلى القاهرة يحض فيه الناس على التطوع فى الحرب المقدسة والجهاد ضد المعتدين [٥] .

أما جيوش الصليبيين فقد واصلت سيرها ، مسرعة تارة ومتباطئة أخرى . ومرت فى طريقها بقرية شارمساح من كورة الدقهلية، ووصلت البرمون [٦] فى يوم الثلاثاء ٧ رمضان / ١٤ ديسمبر ، وأصبحت على مقربة من عساكر المسلمين التى تقيم جنوبى بحر اشموم ، فكان هذا مما سبب فى زيادة الاضطراب

---

(١) Schefer, A. O. L., II, 95-6; Grousset, Crois., III, 451.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 100.

(٣) فارسكور قرية قرب دمياط من كورة الدقهلية . وهى من مراكز مديرية الدقهلية ، وكانت كذلك أيام على مبارك . أنظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٦٦ ؛ الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٦٤ — ٦٦ ؛ ياقوت : معجم البلدان مجلد ٦ ص ٣٢٧ .

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ .

(٥) ابن واصل : نفس الجزء واللوحة ؛ خطط المقريزى نفس الجزء والصفحة ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٦—٧ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤ . أنظر أيضا : Blochet, Hist. d'Egypte de Makrizi, 525.

(٦) تسمى أيضا البرمونين والبيرمون، وهى قرية من أعمال مديرية الدقهلية بمركز فارسكور على الجانب الشرقى للنيل إلى الجنوب من فارسكور . أنظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٨٩ ؛ الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٣٦ .

بين المصريين [١] . وأخيرا فى يوم الثلاثاء ١٤ رمضان [٢] / ٢١ ديسمبر نزلوا قبالة جيش المسلمين شمالى بحر اشموم ، ولا يفصل بين المعسكرين غير هذا البحر. فكانت هذه أول عقبة جدية اصطدمت بها الحملة منذ قيامها . ذلك أن فرع مياط ينقسم شمالى المنصورة إلى فرعين ، يتجه أحدهما إلى دمياط وينحرف الآخر فى اتجاه شمالى شرقى حيث يمر بمدينة أشموم طناح إلى أن يصب فى بحيرة تنيس ، وهو المعروف ببحر اشموم [٣] ، ويعرف اليوم بالبحر الصغير .

وعندما وصل الصليبيون أمام هذا البحر أقاموا معسكرهم على الضفة الشمالية منه [٤]. وأصبح بحر اشموم حاجزا بين معسكرهم ومعسكر المصريين الذى كان يوجد على الضفة الجنوبية [٥] ، مرابطا فى وجه الأعداء لمنعهم من العبور والتقدم نحو الجنوب [٦].

أمضى الفرنج قبالة قناة اشموم زهاء شهر ونصف ، وهم يحاولون عبورها دون جدوى . وكانت الفترة منذ وصولهم فى ٢١ ديسمبر / ١٤ رمضان تكاد

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٧ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢١.

(٢) ١٣ رمضان / ٢٠ ديسمبر وفقا لما ورد فى ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٧ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢١ ؛ و ٢١ ديسمبر وفقا لرواية كل من لويس وروتلان و ٢٢ منه حسبما جاء فى تاريخ هرقل . أنظر Epistola Ludovici, I, 1196; Rothelin, II, 597; Eracles, II, 437.

(٣) أنظر صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٨ . وكذلك : Grousset, Crois., III, 451

(٤) Epistola Ludovici, I, 1196; Joinville (ed. Wailly), 104, 106.

(٥) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٦٧ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٦ .

(٦) Joinville (ed. Wailly), 106.

أن تكون قتالا مستمرا بين الفريقين ، وإن لم تكن فيه معركة حاسمة بالمعنى المفهوم . (١) حينئذ رأى الملك الفرنسى أنه لن يستطيع الغلبة على المصريين إلا إذا التحم معهم فى معركة يشترك فيها الجيشان وجها لوجه ، ولا سبيل إلى هذا وبحر اشموم يفصل بينه وبينهم . فأمر ببناء جسر على هـذا البحر ليعبر عليه جنوده إلى الضفة الأخرى حيث يوجد المعسكر المصرى ، كما أمر بإقامة برجين من الخشب لحماية العمال أثناء قيامهم ببناء الجسر . ولم تكن مهمتهم سهلة تحت هذا السيل من الأحجار والقذائف الملتهبة التى أخذ يمطرهم بها المصريون . وقد أفلحوا فى تحطيم كل ما أعده الفرنج للهجوم الحاسم (٢) .

ولما أعيتهم الحيلة وذهبت محاولاتهم فى عبور القناة أدراج الرياح، استدعى الملك لويس البارونات للتداول فى الأمر (٣) . وبينما هو مجتمع بهم أتاه جماعة يرجح أنهم من الأعراب ، ودلوه على مخاضة فى بحر اشموم يستطيع الفرسان عبورها على خيولهم بعيدا عن أعين الرقباء ، وذلك نظير أجر معلوم من المال (٤) .

(١) Joinville (ed. Wailly), 108, 110; Rothelin II, 598, 600-1; Jean Sarrasin, 266. وكذلك ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٥ ا — ٣٦٥ ب .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 106-8, 112-6; Epistola Ludovici, I, 1196; Rothelin, 599-601. وكذلك ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٥ب .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 116.

(٤) راجع فى ذلك : ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ا ؛ العينى : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧ . أنظر أيضا : Epistola Ludovici, I, 1169; Rothelin, 602; Joinville (ed. Wailly), 118. والمخاضة هى موضع الخوض فى الماء وما جاز فيه الناس مشاة وركبانا . وغلبت المخاضة على ما رق فيه من ماء النهر لاتساع مكانه فيسهل العبور فيه . أنظر لسان العرب والمحيط .

فرح الصليبيون بهذا الكشف الذى سيمهد لهم الطريق إلى العاصمة . وعقد الملك مجلسا فى يوم الاثنين ٧ فبراير ١٢٥٠ م / ٣ من ذى القعدة ٦٤٧ هـ ، تقررت فيه خطة الهجوم على المنصورة ، وتتلخص فى أن يعبر لويس واخوته الثلاثة والجانب الرئيسى من الفرسان فى فجر اليوم التالى المخاضة إلى الضفة الجنوبية حيث يوجد المعسكر المصرى ، بينما يقوم بحراسة المعسكر الفرنسى على الضفة الشمالية لبحر أشموم جانب من الجيش يتألف من المشاة ورماة السهام بقيادة دوق برجنديا . وكان على هذه الفرقة عندما يتم عبور الملك وفرسانه ويستولى على المعسكر المصرى ، استكمال بناء الجسر لتعبر الرجالة عليه وتلحق بقائدها . وبذلك يكون المشاة على اتصال بالفرسان داخل المنصورة نفسها [١] ، ومنها يواصل الجميع تقدمهم إلى القاهرة .

وليست لدينا فكرة واضحة عن ترتيب الفرسان الذين سيعبرون المخاضة . ولكننا على أى حال نعرف أن الداوية كانوا فى الطليعة ، وكان معهم روبرت كونت ارتوا وفرقته ، والفرقة الانجليزية الصغيرة التى جمعها من انجلترا وليم طويل السيف الحاكم الاسمى لمقاطعة سالسبورى . أما القسم الثانى فيتألف من فرسان شامبانيا ومن بينهم جوانفيل ، وعلى رأسهم شارل كونت انجو . ويتكون القسم الثالث والأخير من الملك لويس وفرسانه [٢] . وكان على رجال القسم الأول عبور المخاضة وامتلاك الشاطىء الجنوبى لبحر أشموم ، ثم الانتظار إلى أن تعبر القوة الرئيسية من الفرسان بقيادة لويس . وحينئذ يمكن لهذه القوات متجمعة الانقضاض على جيش المسلمين ، وتوجيه ضربة واحدة باستيلائهم على

---

(١) Epistola Ludovici, I, 1196; Joinville (ed. Wailly), 118.

(٢) Oman, Art of War, I, 345-6; Grousset, Crois., III, 458.

المنصورة ، ومواصلة الزحف صوب العاصمة (١) .

ففي فجر الثلاثاء ٨ فبراير / ٤ من ذى القعدة توجه الجيش الصليبى إلى المخاضة يتقدمه الدليل . وكانت عملية العبور شاقة وبطيئة نظراً لعمق المخاضة (٢) . وعندما وصلت طليعة الجيش إلى الضفة الجنوبية ، شنت هجوما خاطفا على المصريين فى معسكرهم مكبدة إياهم خسائر فادحة فى الأرواح . وشتتت شملهم لأنهم لم يكونوا مستعدين للقتال ، إذ لم يخطر على بالهم أن يهاجموا من هذه الناحية ، حتى لقد اضطرت فلولهم إلى الفرار داخل المنصورة للاحتماء بها من ضربات الأعداء (٣) . وعندما بلغ النبأ الأمير فخر الدين وكان فى الحمام يغتسل ، إنطلق يلم شعث القوات الإسلامية التى ولت الادبار أمام هذا الهجوم المفاجىء ، والتحم مع الفرنج فى معركة شديدة استشهد فيها وهو يدافع عن نفسه ، بينما تفرق المسلمون يمنة ويسرة أمام ضربات المعتدين (٤) .

كان على مقدمة الجيش اللاتينى الانتظار إلى حين عبور باقى القوات وفقا للخطة المرسومة . ولكن روبرت كونت ارتوا لم يمتثل للأوامر ، ولم ينتصح بما قاله له زملاؤه من رجال الطليعة ، واندفع بفرسانه فى تهور داخل المنصورة دون تقدير لعواقب الأمور (٥) . وقد أدى عصيانه إلى كارثة قاسية ، إذ بدأت المعركة

(١) Lamb, 297; Campbell, 428.

(٢) Epistola Ludovici, I, 1196; Joinville (ed. Wailly), 118; Rothelin, II, 603.

(٣) Cf. Poéme Anglo-Normand, 328–9; Epistola Ludovici, I, 1196; Rothelin, II, 603–4.

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ أ ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٦ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٨٩ ، وكذلك Rothelin, II, 604.

(٥) Poéme Anglo-Normand, 330–3; Rothelin, II, 604–5; Matt. Paris, II, 368–372.

الثانية دون أى نظام ، ودون قيادة موحدة ، هذا فى الوقت الذى لم يعبر فيه بعد الجانب الرئيسى من الجيش الصليبى بحر اشموم (١) . وبينما الكل على ذلك كان الجيش المصرى قد استجمع قواه خارج المدينة ، وكان من حسن حظه أن وجد له رئيسا قويا فى شخصية ركن الدين بيبرس البندقدارى (٢) . فباغت هذا القائد والمماليك البحرية رجال المقدمة الذين اقتحموا المنصورة ، وطارد فلولهم فى كل مكان . وتعقبهم فى الأزقة والشوارع . فلما لاذوا بالبيوت يريدون الاحتماء بها ، انهال عليهم بالضرب سكانها ، وأخذوا يرمونهم بالأحجار والطوب من الأسطح والنوافذ ، ويرشقونهم بالسهام والرماح . وانتهت المعركة بالقضاء عليهم قضاء تاما تقريبا . وكان فى مقدمة الضحايا كونت ارتوا ووليم طويل السيف وفرسانها ، وغالبية الفرسان الداوية الذين اشتركوا فى القتال (٣) .

كان التهور وعصيان الأوامر هما الصخرة التى تحطمت عليها خطة الفرنج فى الاستيلاء على المنصورة . ولم يجد وصول لويس وفرسانه فتيلا . فقد اشتبك مع القوات المصرية الظافرة فى معركة كان النصر فيها حليف المسلمين ، بينما تكبد الفرنج خسائر جسيمة فى الأرواح . وغرق عدد كبير منهم عند عبورهم بحر

---

(١) Grousset, Crois., III, 459.

(٢) فيما يتعلق بسيرة بيبرس ، راجع اليونينى : ذيل مرآة الزمان ج ١٧ ورقة ٩٧ ب — ١٠٠ ب ؛ الفيومى : نثر الجمان مجلد ٢ ورقة ١٩٦ ب — ١٩٧ أ ؛ أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣٦٠ ب — ٣٦٦ ب .

(٣) راجع تفاصيل هذه المعركة فى : Epistola Ludovici, I, 1197; Eracles, II, 438; Rothelin, II, 605-6; Matt. Paris, II, 372-3; Poéme Anglo-Normand, 333-353. وكذلك ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ أ ؛ تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٧ — ٣٧٨ .

اشموم إلى الضفة الشمالية هربا من الأعداء (١) . وكاد اليوم أن ينتهى بخذلان الصليبيين بعد هذه اللطمات المتلاحقة ، خاصة وأن مشاتهم ورماة سهامهم كانوا يوجدون على الضفة الشمالية لبحر اشموم مع دوق برجنديا ، وكان عبورهم وقتئذ ضروريا لمساعدة لويس وفرسانه على الضفة المقابله (٢) . وقد تمكنوا بعد مجهود كبير من إقامة جسر من السفن عبروا عليه لنجدة إخوانهم ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب (٣) . وما أن أبصر المصريون المشاة وحملة القسى يصوبون سهامهم إليهم حتى أسرعوا بترك خيامهم وأثقالهم للفرنج (٤) . وقد لاحظ كتاب المسلمين بجلاء أكثر من كتاب الفرنج أن وصول المشاة الفرنسيين المتأخر حول القتال إلى معركة متعادلة ، وأن المشاة لو بكروا بالظهور فى ميدان القتال لأحرز لويس نصراً حاسماً فى ذلك اليوم. يقول ابن واصل : « وأما رجالة الفرنج فكانوا قد جاءوا على الجسر المنصوب على بحر اشموم ليعدوا منه ، ولو تراخى الأمر وعدت الرجالة إلى المسلمين وتكاملوا فيه لأعضل الداء ، فان الرجالة كانوا جمعاً عظيما وكانوا حموا فارسهم » (٥) .

وهكذا انجلت معارك يوم الثلاثاء داخل المنصورة وفى ضواحيها ، والتى استمرت منذ الصباح الباكر حتى المساء باستيلاء الصليبيين على المعسكر المصرى جنوبى بحر أشموم (٦) . وكان هذا هو الكسب الوحيد الذى أحرزوه بعد أن

(١) Joinville (ed. Wailly), 120-8. Cf. Rothelin, II, 606-607; Epistola Ludovici, I, 1197.

(٢) Epistola Ludovici, I, 1197.

(٣) Rothelin, II, 607.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 134, 136.

(٥) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٦ ا ـ ٣٦٦ ب ، راجع أيضا خطط المقريزى جـ١ ص ٢٢١.

(٦) Joinville (ed. Wailly), 134; Epistola Ludovici, I, 1197.

دفعوا الثمن غاليا ، وبعد أن فقـدوا زهرة فرسانهم وخيرة رجالهم فى شوارع المدينة وفى أزقتها ودروبها بين قتيل وأسير وجريح ، نتيجة تهور كونت ارتوا وعصيانه للأوامر (١) . وبناء عليه يمـكننا القول بأن هـذا اليوم كان بلا شك لصالح المصريين على الرغم من فقدانهم معسكرهم شمالى المنصورة . ولقد صدق ابن واصل عندما وصف هذه الواقعة بأنها « أول النصر ومفتاح الظفر » (٢).

كانت الظروف تحتم على الملك الفرنسى أن يعد العـدة للهجوم المرتقب من جانب المسلمين لاسترداد معسكرهم . وقد صح ما توقعه ، إذ عرف من عيونه الذين كان يبثهم بين المصريين أنهم قرروا القيام بهجوم شامل للقضاء على الجيش الصليبى فى يوم الجمعة التـالى (١١ فبراير ١٢٥٠ م / ٧ من ذى القعـدة ٦٤٧ هـ) (٣).

بادر كل من الفريقين إلى تنظيم قواته توطئة للمعـركة المنتظرة . وقـد نسق الملك الفرنسى جيشه فى إحدى عشرة فرقة ، انتظمت عشر منها على طول الضفة الجنوبية لبحر اشموم فى مواجهة القوات المصرية ، بينما كانت الفرقة الحادية عشرة توجد على الضفة المقابلة ، ويصل بين الشاطئين جسـر خشبى صغير . وفى الجانب الآخر ، وضع مقدم الجيش المصرى خطة الهجوم التى تدل على مهارته فى تدبير الخدع والتـكتيكات الحربية الموفقة . إذ قسم جيشه إلى ثـلاثة أقسام ، ولـكن على نظام آخر يخالف نظام الفرنج . ففى المقدمة انتظم تجاه الصليبيين ما يقرب من أربعة آلاف من فرسان المماليك بكامل عدتهم وسـلاحهم . ومن خلفهم عسكر مشاة المماليك النظاميين . وفى المؤخرة اصطفت جيوش أخـرى

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 134. Cf. Oman, Art of War, I, 350.

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٦ ب ؛ وكذلك السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥١ .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 144.

لمساعدة الفرسان والمشاة إذا اقتضت الضرورة ذلك . وقد استمرت هذه الاستعدادات منذ صبيحة الجمعة إلى وقت الظهيرة [١] .

وما أن انتصف نهار الجمعة حتى بدأت المعركة . فاندفع فرسان المسلمين ومشاتهم بأعدادهم الهائلة صوب الفرق الصليبية المنتشر من جميع الجهات ، وتنقلت فرسانهم فى ساحة الميدان بنظام دقيق . واستمر القتال حاميا ، وانتهى بتغلب القوات الاسلامية على أربع فرق صليبية ، هى فرق كل من شارل كونت أنجو ، والفونس كونت بواتييه، وجوسران دى برانسيون ، ووليم دى سوناك رئيس الداوية وكان قد دخل المعركة بمن بقى من رجاله على قيد الحياة بعد موقعة الثلاثاء [٢] .

وتعتبر هذه المعركة ـ وفقا لرواية بارونات سورية الذين ساهموا بنصيب فيها ـ من أشد المعارك وأعنفها فى تاريخ الحركة الصليبية [٣] . وفيها نزلت بالاسبتارية ضربة قاسية حيث قتل نائب رئيسهم يوحنا دى رونيه . ولكن العساكر المصرية لم تتمكن مع ذلك من فتح ثغرة لها فى الجيش الصليبى والنفاذ بين صفوفه [٤] .

وبالرغم من الانتصار الظاهرى الذى أحرزه الصليبيون فى موقعتى الثلاثاء والجمعة ـ إذ تمكنوا فى الأولى من الاستيلاء على المعسكر المصرى جنوبى بحر اشموم ، وأفلحوا فى الثانية فى الاحتفاظ بمراكزهم وصد هجمات القوات الاسلامية التى أطبقت على فرقهم من جميع الجهات ـــ بالرغم من هذا الانتصار

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 146.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 146-152. Cf. Rothelin, II, 608-9.

(٣) Rothelin, II, 608

(٤) Cf. Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 196.

السطحي الذى أحرزوه ، فانه كان يحمل بين طياته بواعث الهزيمة . فهم لم يظفروا بحلمهم المنشود فى الاستيلاء على المنصورة والتقدم جنوباصوب العاصمة، كما فقدوا عددا لا يستهان به من فرسانهم ومشاتهم ، وحطم المصريون معظم معداتهم وعتادهم ، مما أضعف قواهم ، وساهم إلى حد كبير فى التعجيل بالنهاية الأليمة التى منيت بها هذه الحملة (١) .

وما هى إلا أيام معدودات بعد هاتين الموقعتين حتى تفشى الوباء فى المعسكر الصليبي جنوبى بحر اشموم ، ولم يسلم منه أحد حتى الملك نفسه . وقد فتك بعدد كبير من المحاربين ، وبات كل فرد ينتظر موته بين لحظة وأخرى . ولم يكن يوجد فى المعسكر من لا يبكى موت زميل أو قريب له (٢) . وحتى الخيل — كما يقول كتاب العرب — قد لحقها الداء وهلك معظمها (٣) .

وفى تلك الأثناء وصل السلطان المعظم توران شاه قادما من حصن كيفا ، ونزل بالصالحية فى يوم الأحد ١٦ من ذى القعدة ٦٤٧هـ/٢٠ فبراير ١٢٥٠م، فنودى به سلطانا على مصر ، وأعلن رسميا وفاة الصالح أيوب . وفى يوم الجمعة ٢١ من ذى القعدة / ٢٥ فبراير وصل توران شاه إلى المنصورة (٤) ، فتيمن المصريون بمقدمه ، والتفوا حوله للجهاد ضد العدو ودفعه عن البلاد (٥) .

---

(١) Kitchin, I, 344.

(٢) Rothelin, II, 609; Joinville (ed. Wailly), 158-160; Epistola Ludovici, I, 1197.

(٣) راجع عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٢ ؛ الأحكام الملوكية لوحة ٦١ ؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٠٠ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤ ؛ اليافعى : مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٧ .

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٥ ا ـ ب ، ٣٦٦ ب ـ ٣٦٧ ب ؛ تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٤ .

(٥) Epistola Ludovici, I, 1197. أنظر أيضا النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤ .

وقد دبر السلطان بمجرد وصوله خطة يسدد بها الضربة القاضية إلى الجيش الفرنسى ، كان القصد منها منع الأقوات من الوصول إلى الصليبيين المقيمين جنوبى بحر أشموم . وكان الاتصال حتى ذلك الوقت بين دمياط والمعسكر الفرنسى جنوبى هذا البحر غير مقطوع ، وكانت السفن الصليبية تجلب المؤن والامدادات من دمياط إلى المعسكر عن طريق النيل (فرع دمياط) [1] . ومن ثم أمر المعظم بصنع عدة مراكب ، وأنزلها فى بحر المحلة [2] ، « وفيه ماء من زيادة النيل واقف لكنه متصل بالنيل » [3] ، خلف المعسكر الفرنسى حتى يمكن عرقلة الفاتحين باسطولهم . وقد حالت هذه السفن الإسلامية فصلا بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة .

ونشبت بين الفريقين عدة معارك بحرية فى حدود المنطقة الواقعة بين شارمساح والمنصورة ، فيما بين ٢١ من ذى القعدة إلى ٩ من ذى الحجة / ٢٥ فبراير - ١٥ مارس ، حالف النصر فيها الأسطول الإسلامى. فى إحداها أخذ المسلمون اثنتين وخمسين سفينة بما فيها من أزواد ورجالة ، واقتيد الأسرى على الجمال إلى

---

(١) Epistola Ludovici, I, 1197.

(٢) يخرج بحر المحلة من فرع مليج عند قرية ضيا الكوم بالقرب من طنطى الواقعة فى منتصف الطريق بين مليج والجعفرية . ويمر بقرية الهيثم التى يسميها الادريسى محلة أبى الهيثم ثم بلقينة ، فالمحلة الكبرى ، إلى أن يتصل بالنيل عند شارمساح . أنظر الادريسى : صفة المغرب ص ١٥٨ ؛ ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢١٨ ؛ Tousson, Hist. du Nil, I, 263-4 & III, pl. XI.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ١٣٦٨ .

القاهرة. وفى معركة ثانية استولوا على اثنتين وثلاثين من سفن الفرنج [١]. وكانت كل سفينة تذهب لإحضار الميرة للصليبيين من دمياط لا تعود أبدا [٢].

كانت النتيجة الطبيعية أن نفدت مؤونة الفرنج ، وهددت المجاعة معسكرهم جنوبى بحر أشموم ، وصاروا محصورين « لا يستطيعون المقام ولا الذهاب ، واستضرى عليهم المسلمون وطمعوا فيهم » [٣]. كما ارتفعت أسعار الحاجيات واشتد الغلاء [٤] ، حتى أنهم باتوا يأكلون لحوم الجياد والحمير والبغال التى كانت توجد معهم [٥].

وفت ذلك كله فى عضد الفرنج . فطلب الملك الفرنسى فتح باب المفاوضات مع السلطان ؛ واشترط نظير تسليمه دمياط للمصريين ومغادرته لمصر ، أن يتنازل لهم السلطان عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية فى الأراضى المقدسة [٦]. ولكن هذه العروض قوبلت بالرفض من جانب المسلمين [٧]. ومن الطبيعى أن يرفضوا هذه المقترحات، لأنهم كانوا يعلمون ما يكتنف الجيش الفرنسى من ضائقات ، بعد أن نقص عدده ، وتحطمت عدته ونفدت مؤونته ، وأنهكه الوباء . وهكذا انقطعت المفاوضات دون الوصول إلى نتيجة مرضية.

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٨ ا — ٣٦٨ ب. راجع أيضا كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٩؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 160.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٨ ا .

(٤) كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٩ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٤ .

(٥) Rothelin, II, 610; Joinville (ed. Wailly), 160.

(٦) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٨ ب ؛ وكذلك Joinville (ed. Wailly), 164.

(٧) ابن واصل نفس الجزء واللوحة ؛ راجع كذلك عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٨ ؛ مسالك الابصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٠ .

لقد كان الفرنج فى موقف لا يحسدون عليه ، وأخذت حالهم تزداد سوءاً كلما تقدمت بهم الأيام . فقد كان فى بقائهم بمراكزهم جنوبى بحر اشموم هلاكهم ، وفى تراجعهم إلى قاعدتهم بدمياط فى هذه المرحلة خطر داهم عليهم، ولم يكن لديهم حيلة إلا انتخاب أهون الشرين . فاستقر عزمهم على الانسحاب صوب دمياط أملا فى النجاة ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه المحنة (١) . وكان أول ما فعله الملك الفرنسى أن أصدر الأمر إلى الفرنج الموجودين جنوبى بحر اشموم بالانتقال إلى المعسكر القائم على الضفة المقابلة وحينئذ يمكن للقوات الصليبية جميعها التراجع إلى دمياط فى السفن عن طريق النيل وفى البر بمحاذاة الشاطىء .

وفى انسحاب الفرنج إلى الضفة الشمالية لبحر اشموم ، ارتكبوا خطأ كبيراً يدل على إهمالهم وتهاونهم . ذلك أنهم ولوا فى عجلة ، وسها عليهم تحطيم الجسر الذى عبروا عليه ، فقدموا للمصريين ممرا يجتازونه فى أعقابهم ، ويقضون على البقية الباقية منهم (٢) . فبعد أن تم عبورهم إلى الضفة الشمالية أعدوا العدة للتراجع إلى مدينة دمياط والاعتصام بها ضد المسلمين ، وكان ذلك فى يوم الجمعة أول أبريل ١٢٥٠ م / ٢٦ من ذى الحجة ٦٤٧ هـ (٣) . وفى مساء الثلاثاء ٥ أبريل (٤) / مستهل المحرم ٦٤٨ هـ بدأ الانسحاب العام ، حيث تحرك الصليبيون

(١) راجع ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ أ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٢ ؛ مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٧ ؛ وكذلك Joinville (ed. Wailly), 166 .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 166. أنظر أيضا عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٢ ؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٠٠ ؛ الأحكام الملوكية لوحة ٦١ ؛ مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٧ .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٨ ب .

(٤) Epistola Ludovici, I, 1197; Joinville (ed Wailly), 166; Eracles, II, 438. أنظر كذلك النويرى : نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٤ .

من مشاة وفرسان متجهين نحو الشمال . فساروا بمحاذاة الشاطىء الأيمن للفرع الشرقى للنيل ، بينما انحدرت سفنهم قبالتهم فى النيل[١] .

وما أن أبصرت القوات المصرية بقيادة بيبرس البندقدارى الفرنج يتحركون صوب دمياط ، حتى عبرت الجسر إلى الضفة الشمالية لبحر أشموم ، وسارت فى أعقابهم وألحت فى مضايقتهم . وطالت المطاردة والقتال بين الفريقين طوال ليل الثلاثاء إلى صباح الأربعاء حتى وصلا فارسكور . وفى هذه القرية وقعت ملحمة دموية أصيب فيها الصليبيون بضربة قاسية ، وخسروا خسارة كبيرة فى الأرواح والعتاد . فقد بلغت عدة القتلى منهم حسبما ذكر المؤرخون العرب ، سبعة آلاف فى قول المقل ، وثلاثين ألفاً فى قول المكثر . كما أسر عدد كبير من فرسانهم ومشاتهم وصناعهم[٢] . ولم يستشهد من المماليك البحرية وفقاً للرواية الإسلامية أكثر من مائة نفس[٣] ، بعد أن أبدوا شجاعة فائقة فى القتال[٤] .

وإزاء ذلك تخلى الملك الفرنسى عن فرقته بعد أن هلك معظم رجالها ، وانضم إلى مؤخرة الجيش المنسحب . ولجأ إلى قرية على الشاطىء الشرقى لفرع دمياط فيما بين شارمساح وفارسكور تدعى منية أبى عبد الله ، وكان الإعياء قد بلغ به مبلغا شديدا . ولما اتضح له أنه من المستحيل مواصلة الحرب بعد ذلك ، أرسل أحد الفرسان اللاتين ، وهو فيليب دى منتفرت صاحب صور ، للتفاوض مع

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ ا ــ ب ؛ وكذلك : Joinville (ed. Wailly), 166

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ ب ؛ تراجم رجال القرنين ص ١٨٤ . أنظر كذلك : Rothelin, II, 612-6; Epistola Ludovici, I, 1197.

(٣) النجوم الزاهرة ج٦ ص٣٦٦ ؛ مرآة الجنان ج٤ ص١١٧ ؛ الأحكام الملوكية لوحة ٦٢ .

(٤) ابن واصل ج٢ لوحة ٣٦٩ ب . راجع أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٢ .

المصريين فى طلب الصلح وإيقاف القتـال مقابل إخلاء دميـــاط والموافقة على عروضهم التى يتقدمون بها .

ولكن حدث فى ذلك الوقت الذى كان فيه الفريقان على وشك الاتفاق أن نزلت بالجيش الصليبى كارثة قررت مصيره . فقد تقدم جندى عادى فى الجيش يدعى مارسيل إلى القواد والأجناد قائلا لهم إن الملك لويس يطلب منهم أن يستسلموا للمصريين حتى لا يعرضوا حياته للخطر . فرفع الجميع راية الاستسلام يوم الأربعاء ٦ أبريل ١٢٥٠ م/ ٢ محرم ٦٤٨ هـ . وهكذا قضت خيانة هذا الجندى على المباحثات الدائرة بين الطرفين ، إذ رفض الجانب المصرى الاستمرار فى المفاوضات مع رسول الملك عندما رأى الفرنج يلقون سلاحهم[١] .

وفى الحال أحدق المسلمون بلويس ومن كان معه من الفرسان ، وألقـــوا القبض عليه ، واقتادوه أسيراً إلى مدينة المنصـــورة [٢] . واعتقل هو وأخواه كونت انجو وكونت بواتييه بدار القاضى فخر الدين بن لقمان ، إلى أن يبت السلطان فى أمرهم . ودار ابن لقمان هذه لا تزال آثارها شاخصة حتى يومنا هذا [٣] . ووضع الملك تحت حراسة الطواشى صبيح المعظمى [٤] . وحرى بالذكر هنا أن السلطان توران شاه أكرم أسيره الملك لويس ، وأقام عنده من يقوم بخدمته ،

(١) Joinville (ed. Wailly), 168, 170. Cf. Maimbourg, Crois., 344.

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ ب . وكذلك عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٢ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨٠ و .Epistola Ludovici, I, 1197

(٣) أنظر ما كتبه محمد رشاد عن هذه الدار فى مقاله : M.Réshad, Note sur la Prison de Louis IX à Mansourah, 78-99.

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ ب ؛ المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣٥٨ ب ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٤ .

كما رتب له كل ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب (١) . ولم يكن مصير أولئك الفرنج الذين تراجعوا فى السفن عن طريق النيل بأحسن من زملائهم الذين هربوا عن طريق البر . فلم ينج أحد منهم ، ووقعوا جميعا بين قتيل وأسير (٢).

ولم تكد تمضى بضعة أيام على وقوع الفرنج فى الأسر حتى طلب السلطان توران شاه فتح باب المفاوضات مع الملك الفرنسى ، وأصر على أن يسلم له بعض معاقل اللاتين فى الأراضى المقدسة ، أو تلك التى تتبع الفرسان الداوية والاسبتارية . ولكن لويس رفض تلك الطلبات ، مبيناً أنه ليس من حقه التنازل عن بلاد ليست ملكا له (٣) وقد ظلت المفاوضات دائرة بين الطرفين إلى أن تنازل السلطان عن مطلبه ، واتفق على أن يدفع لويس مبلغاً معينا من المال ، وأن يرد للمصريين مدينة دمياط ، فى مقابل إطلاق سراحه هو وباقى الأسرى الصليبيين . وأبرمت المعاهدة لمدة عشر سنوات بعد أن أقسم الطرفان بعدم الاخلال بنصوصها (٤) .

وبعد أن تم الاتفاق على هذه الصورة رحل الملك المعظم والقوات المصرية من المنصورة إلى فارسكور فى الطريق إلى دمياط لتنفيذ المعاهدة . وبمجرد وصوله فارسكور ضرب له بها دهليز السلطنة ، وأقيم إلى جانبه برج من خشب

---

(١) عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٥ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٥ ؛ مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٧ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٢ ؛ وكذلك : Joinville (ed. Wailly), 166,170-6; Epistola Ludovici, I, 1198.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 184, 186; Rothelin, II, 616-7.

(٤) Epistola Ludovici, I, 1198.

كان يصعد إليه ليشرف على العسكر والقرية كلها (١) . كذلك نقل لويس وكبار الأسرى من الفرنج فى أربع سفن إلى فارسكور ، ورسوا بالشاطىء قبالة الدهليز السلطانى فى يوم الخميس ٢٨ أبريل ١٢٥٠ م / ٢٤ محرم سنة ٦٤٨ هـ (٢) .

ولكن حدث فى تلك الفترة التى حسب فيها الأسرى الفرنج أن حياتهم أضحت فى أمان ، أن قامت ثورة إنتهت بقتل السلطان المعظم توران شاه والقضاء على الدولة الايوبية بمصر ، فانقلبت الأمور رأسا على عقب .

ذلك أنه بدت من المعظم منذ وصوله من حصن كيفا أمور نفرت منه القلوب ، وكانت سببا فى هلاكه . فقد أخذ يسىء إلى مماليك أبيه وأمرائهم ، وقبض على عدد كبير منهم ، وجردهم من وظائفهم ليسبغها على ندمائه الذين استقدمهم معه من الحصن (٣) . وبدلا من اعترافه بالجميل الذى أسدوه إليه فى صد الفرنج عن البلاد وحفظ عرشه لحين حضوره ، راح يبدى فى كل أعماله إنعدام الثقة نحوهم ، وأخذ يهينهم ويتوعدهم (٤) . هذا ، فضلا عن أن ندماءه قد أثاروا ضغينته على شجر الدر والأمراء ، إذ ما فتئوا يرددون على مسمعه أنه ليس ملكا إلا بالاسم ، وأن السلطة الحقيقية فى أيدى أولئك الأمراء وعلى رأسهم أرملة أبيه ، حتى لقد قيل أنه سعى إلى الاتفاق مع لويس بأى ثمن ليتخلص من سيطرة أمراء أبيه فيخلو له الجو (٥) . وكان من ثمار ذلك الدس أيضا أن نشب الشقاق بينه

---

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٠ ا ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٣ ؛ كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٨٠ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 188.

(٣) ابن واصل جـ٢ لوحة ٣٧٠ب وكذلك Joinville (ed. Wailly), 158, 160.

(٤) مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥٢٠ . راجع أيضا عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٤ ؛ كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٨٣ ؛ عيون التواريخ جـ ٢٠ لوحة ٢٩ .

(٥) أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٤ ــ ٤٥٥ .

وبين شجر الدر ، حتى أنه لم يتورع فى تهديدها وإساءة معاملتها . فاضطرت للالتجاء إلى الأمراء البحرية الذين كانوا منحازين إليها لحمايتها من بطش السلطان. ومن ثم عقدوا النية فيما بينهم على التخلص منه قبل أن يفتك هو بهم [١] .

وقد تم كل شيء فى سرعة عجيبة. ففى يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ [٢]/ ٢ مايو ١٢٥٠ م ، اقتحم أحد الأمراء البحرية خيمة السلطان المقامة على ضفة النيل فى فارسكور ، وضربه بسيفه ، فالتقاه السلطان بيده ، فقطع بعض أصابعه. عندئذ صعد توران شاه إلى البرج وضمد جرحه . ولكن سرعان ما اجتمع مماليك أبيه ، ورأوا أنه من الضرورى الاتمام عليه خوفا على أنفسهم . وأحاطوا بالبرج ونادوه لكى ينزل إليهم . وعندما رفض النزول ، أشعلوا النيران فى البرج ، ففزع السلطان وألقى بنفسه منه ، وجرى نحو النيل ورمى بنفسه فيه عله ينجو منهم . ولكنهم لحقوا به فى الماء ، وأدركه فارس الدين اقطاى وضربه بالسيف فأصاب منه مقتلا [٣] . وبموته ينقضى حكم الدولة الأيوبية بمصر ، ويبدأ عصر المماليك البحرية بإعلان شجر الدر عصمة الدين أم خليل سلطانة

---

(١) راجع مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥٢٠ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٤ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨٣ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٨—٢٩ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٠—٣٧١ و ٣٧٣ .

(٢) هذا التاريخ وارد فى المراجع التالية : مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٨ ؛ عيون أخبار الأعيان ج ٢ لوحة ٤٢٥ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٥ ؛ صبح الأعشى ج ٣ ص٤٣٣ ؛ الذهبى : دول الاسلام ج ٢ ص ١١٧ . وكذلك : **Eracles, II, 438.**

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٧١ ا—ب ؛ تراجم رجال القرنين ص١٨٥ ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥٢٠ . راجع أيضا : **Joinville (ed. Wailly), 190–2; Epistola Ludovici, I, 1198.**

على البلاد (١) . وهكذا ينتهى نظام حكم ويبدأ نظام آخــر ، والصليبيون فى أسر المصريين لا يكادون يعرفون من أمر هذه الثورة ، سوى أن سلطانا اغتيل ليحل محله سلطان آخر .

وبعد أن هدأت العاصفة واستقرت الأوضاع ، بدأت المفاوضات من جديد بين الأمراء البحرية وأسرى الصليبيين (٢) ، انتهت بعقد معاهدة بينهما لمدة عشر سنوات تشبه المعاهدة السابقة بين المعظم ولويس فى كثير من نصوصها . ولعل أهم ما تضمنته المعاهدة الجديدة هى أن يرد الملك الفرنسى مدينة دمياط للمصريين ويدفع مبلغا معينا من المال فدية عن نفسه وباقى الأسرى الفرنج ، يكون نصفه مقدما والنصف الآخر بعد إطلاق سراحه (٣) .

وبعد أن أبرمت المعاهدة ، وحلف الفريقان بالمحافظة عليها ، أبحر لويس وكبار الأسرى من الفرنج من فارسكور حيث أرسوا قبالة الطرف الشرقى لجسر دمياط فى مساء الخميس ٥ مايو ١٢٥٠ م / أول صفر ٦٤٨ م (٤) . وفى صباح السبت ٧ مايو / ٣ صفر أرسل الملك السيد جوفروا دى سارجين إلى دمياط لتسليمها للمصريين . وفى نفس اليوم دخلت العساكر ثانية إلى المدينة ، ورفعت العلم المصرى على سورها وأبراجها ، وأعلن فيها بكلمة الإسلام وشهادة الحق ، (٥) بعد أن ظلت فى أيدى الفرنج زهاء عام كامل .

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٧٢ ا ـ ب . راجع أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٦ ـ ٣١٧ ؛ الجوهر الثمين ورقة ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ السخاوى : تحفة الأحباب ورقة ٧١ ـ ٧٣ .

(٢) ابن واصل ج٢ لوحة ٣٧٢ب ـ ٣٧٣أ ؛ وكذلك Joinville (ed.Wailly), 194.

(٣) تعرضنا لهذه المعاهدة بشىء من التفصيل فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

(٤) Joinville (ed. Wailly), 200. أنظر كذلك مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٨ ؛ دول الاسلام للذهبى ج ٣ ص ١١٧ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٥ .

(٥) عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٧ . أنظر كذلك السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٣ .

وفى مساء السبت أخلى الأمراء البحرية سبيل لويس التاسع وعـدد كبير من البارونات والفرسان من بينهم كونت انجو وكونت بواتييه وجوانفيل بعد أن تم دفع نصف الفدية كاملا حسب الاتفاق (١) . وبعد ذلك انتقل الملك ومن بقى من قواته ممن أطلق المسلمون سراحهم من البر الشرقى إلى البر الغربى لدمياط ، حيث صعد إلى سفينة جنوية كانت فى انتظاره ، ثم تبعه بعض كبار الصليبيين (٢) . وانتقل باقى الفرنج إلى السفن الأخرى الراسية عند الشاطىء (٣) .

وأخيرا فى يوم الأحـد ٨ مايو ١٢٥٠ م / ٤ صفر ٦٤٨ هـ أقلعت السفن المسيحية إلى عكا تقل الملك الفرنسى وفلول قواته (٤) بعـد أن أضنتهم الهزائم المتتالية واستبدت بهم الكوارث المتلاحقة ، حتى لم تبق منهم إلا أقلية ضئيلة محطمـة .

غادرت الحملة الصليبية مصر . وليس معنى ذلك أن الرواية الاستعمارية قد تمت فصولها . فانه بهزيمة لويس الساحقة فى وادى النيـل ، يسدل الستار على المشهد الأول من نشاط هذا الملك ، ليرتفع مرة أخرى عن المشهد الثانى الذى

(١) Joinville (ed. Wailly), 204-212; Epistola Ludovici, I, 1198.
راجع أيضا ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٣ ب ؛ قلادة النحر جـ ٣ قسم ١ لوحة ٩٠١ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 204-6.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 212.

(٤) Rothelin, II, 619-620; Eracles, II, 438; Annales, II, II, 444; Joinville (ed. Wailly), 212. راجع أيضا ابن واصل جـ٢ لوحة ٣٧٣ب ؛ أبو الفرج: تاريخ مختصر الدول ص ٣٥٥ — وكان من أجل ما قيل فى وداع الحملة قصيدة للشاعر جمال الدين ابن مطروح ، الذى عاصر أحداثها جاء فيها :

وقل لهم ان أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

أنظر ديوان ابن مطروح ص ١٨١ — ١٨٢ .

كان مسرحه بلاد الشام [١] . فقد قدر لهذه البقعة التى كانت مهد السلام منذ أقدم العصور ، أن تشهد فيها بين عامى ١٢٥٠ و ١٢٥٤ م حملة من نوع آخر يثيرها لويس التاسع نفسه فى سبيل تحقيق الهدف الأول الذى قامت من أجله الحركة الصليبية فى ختام القرن الحادى عشر الميلادى .

ولعل الفصول التالية تترجم عن خطوط السياسة المحبوكة والخطة المتكاملة التى انتهجها ذلك الملك الفرنسى إبان إقامته فى سورية ، كانسان ينبض قلبه فى حرارة بتلك المبادىء الدينية المتزمتة التى لا تفتر ، وكسياسى يقتنص الفرص لتحقيق ما يصبو إليه ، وكمصلح وعمرانى يسعى لتثبيت كيانه بعد أن انكمش وتضاءل فى مصر .

---

(١) يطلق المؤرخون الغربيون المعاصرون للفترة التى نحن بصددها على المنطقة التى أقام فيها لويس التاسع بعد هزيمته فى مصر لفظ سورية أو الأراضى المقدسة أو الشرق اللاتينى، ونذكر من بينهم على سبيل المثال : وليم دى نانجى ، وجوفروا دى بلييه ، ووليم دى شارتر ، وروتلاف ، وجوانفيل ، وحوليات الأراضى المقدسة . أما الجغرافيون العرب القدامى، فنهم من يطلق عليها سوريا ، ومنهم من يسميها بلاد الشام . أنظر : ابن الوردى : خريدة العجائب ص ٢٢ — ٢٣ ؛ أبو اليمن العليمى : الأنس الجليل ص ١٤٦ ، ومنهم من يزيد الأمر وضوحا ، فيقول ان اسم سوريا كان يطلق على الشام كله . أنظر ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٧٠—٢٧١ . ولأن هذه الرقعة الهامة من العالم التى كانت مسرحا لحملة لويس التاسع وهدفا لأطماع الغرب منذ سبعمائة سنة مضت ، تعرف اليوم بالشرق الأوسط أو الشرق العربى .

الفصل الثالث

استعداد لويس لحملة عسكرية جديدة

استطاعت مصر فى منتصف القرن السابع الهجرى (منتصف القرن الثالث عشر الميلادى) أن ترد الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا على أعقابها خاسرة ، فأنقذت بذلك بلاد الشرق العربى من خطر الغزو الأوروبى الجديد . وأخفقت الحملة فى تحقيق هدفها من استرداد بيت المقدس وإحياء مملكة اللاتين المتداعية فى الأراضى المقدسة .

ومهما يكن من شىء ، فانه بعد تسليم دمياط ودفع نصف الفدية المقررة على الملك الفرنسى وفقا للمعاهدة المبرمة بينه وبين أمراء مصر ، أعد لويس العدة لمغادرة البلاد . وفى ٨ مايو سنة ١٢٥٠ م [1] أقلعت السفن الصليبية من ميناء

---

(١) تختلف الرواية الاسلامية والمسيحية حول تاريخ إبحار الفرنج من دمياط وتاريخ وصولهم الى عكا . فقد ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٧٣ ب) أن السفن الصليبية أقلعت من ميناء دمياط فى ٤ صفر ٦٤٨ هـ ، وهو يوافق ٨ مايو ١٢٥٠ م حسب تقدير فستنفلد ويؤيده فى ذلك المقريزى : الخطط ج١ ص٢٢٣ ؛ أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص١٩٠ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨٣ ؛ العمرى : مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٣ — بينما جاء فى تاريخ هرقل وحوليات الأراضى المقدسة أن لويس وصل الى عكا فى ٨ مايو ، أنظر . Eracles, II, 438; Annales de Terre Sainte, II, II, 444 وبمراجعة التسلسل الزمنى لتواريخ الحملة يتضح أن ٨ مايو هو تاريخ إبحار الفرنج من مصر وليس تاريخ وصولهم الى عكا . إذ أجمعت المصادر الإسلامية على أن تسليم دمياط للمصريين كان يوم ٣ صفر ٦٤٨ هـ / ٧ مايو ١٢٥٠ م . أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٧٣ ب ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٣ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ ورقة ٩٥ . ويبدو إذن أن يكون الثامن =

دمياط قاصدة عكا تقل الملك وشقيقيه ورجاله الذين أطلق المصريون سراحهم . واستغـــرقت رحلتهم ستة أيام وصلوا بعـــدها إلى الميناء اللاتينى فى ١٣ مايو ١٢٥٠ م[1] .

على أن لويس التاسع وجد فى حسن استقبال جميع طبقات الشعب له بعكا ما هون عليه مرارة الهزيمة والأسر بمصر . يقول المؤرخ الفرنسى المعاصر روتلان ، إن المدينة ، قامت عن بكرة أبيها للقاء الملك فى مواكب حافلة . وكان رجال الدين فى زيهم الرسمى الوقور ، حاملين المباخر ...... كما كان الفرسان وسكان المدن والجنود والسيدات والآنسات وسائر الأفراد فى أبهى حللهم . وظلت أجراس المدينة تدق منـــذ أن بدأت طلائع الموكب الملكى فى عرض البحر . وتوجه الكثيرون للقائه فى الميناء عند وصوله . وما أن هبط الملك حتى توجه هـو ومن معه إلى كنيسة المدينة الكبرى . وكان الجميع يذرفون الدمع فرحا لخلاص الملك وأخويه ومن معهم ، وإشفاقا عليهم لما نزل بهم من محن » [2] .

هكذا انعقدت قلوب الفرنج بالشرق اللاتينى على محبة الملك . ولعـل الشدائد التى قاساها قد زادت من عطف الخلق عليه . ولعل مصدر هذا الترحيب أن هؤلاء اللاتين لم يكونوا يتوقعون نجاته من الأسر بعد هزيمته فى مصر ، وبعـد ما ترامى

= من مايو هو تاريخ مغادرة الفرنج دمياط غداة تسليمهم المدينة ، إذ ليس من المعقول أن يتم تسليمها فى السابع من مايو ويصل الفرنج الى عكا فى الثامن منه ، هذا علما بأن الرحلة البحرية من دمياط الى عكا كانت تستغرق حوالى ستة أيام فى ذلك الحين .

(١) Guill. de Nangis, Vita Ludovici, XX, 381. Cf. Röhricht, Gesch. des Königreichs Jerusalem, 882; Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 196; Petit-Dutaillis, Monarchie Féodale, 196.

(٢) Rothelin, II, 619-620 Cf. Joinville (ed. Wailly), 222; Michaud, Bib. des Crois., I, 387; Guérin, Jérusalem, 168.

إليهم من الأخبار بشأن مصير أخيه كونت ارتوا ، وفناء زهرة الجيش الفرنسى على ضفاف النيل . بل لقد ذهب عدد كبير من فرسان سورية وقبرص وجماعتى الاسبتارية والداوية ممن اشتركوا مع الملك بين قتيـــل وأسير وجريح ، الأمر الذى تسبب عنه ضعف الإمارات الفرنجية فى سورية ، حتى أنه لم يعد بوسعها القيام بهجوم جديد ، أو الدفاع عن كيانها ضد أى هجوم قد يقع عليهـــا (١) . ولذلك يمكن القول بأن الجاليات اللاتينية اعتبرت عودته من الأسر سالما إلى عكا فى هذه الفترة بالذات ، نصرا لها ، حتى لقد أكد بعض الأسرى الفرنج الذين أطلق المصريون سراحهم ولحقوا بعاهلهم فى عكا ، أنه لو كان قد تأخر قليلا فى دمياط لما خرج منها حيا (٢) .

ولا يوجد فى المصادر المعاصرة أو المتأخرة ، من غربية وشرقية ، ما يدلنـا على خطة لويس إزاء زيارته لعـكا وتوجيه ركبه إليهـا . ولا نعلم ما إذا كانت هذه الفـكرة نبتت عنده قبل إبحاره من فرنسا ، أم خلال إقامته فى قبرص ، أم أثناء وجوده فى مصر ، أم بعد خروجه منها وهو فى عرض البحر ، وماذا كان يرمى من ورائهـا .

قد يبدو من المتعذر تحديد الوقت الذى استقر فيه رأى الملك الفـرنسى على التوجه إلى عكا . ولـكن لاشك لو أن لويس قد تم له النصر فى مصـــر وانتهى

---

(١) « ... ... Tuit li grant home et puz que tuit li mellor estoient mort et la grant guerre d'Egypte, par quei li Crestien estoient en si feible estat, si chaitiz, et si piteuz, et si doulereux, que cil, qui demouré estoient, n'avoient povair, de la terre tenir ne del deffandre, aincoiz couvendroit que cil, qui la demorroient, fussent tuit morz ou priz, et la terre pardue," Rothelin, II, 622.

(٢) Rothelin, II, 621. – أنظر أيضا سعيد عاشور : الحركة الصليبية – الجزء الثانى (القاهرة ١٩٦٣) ص ١٠٨٤ – ١٠٨٥ .

الأمر بالاستيلاء عليها ، لواصل رحلته إلى سورية لتحقيق الشطر الثانى من خطته وهو الاستيلاء على بيت المقدس ، الهدف النهائى للحملة . ولا شك أيضا أن رجلا دينيا يؤمن بأن العناية الإلهية توجهه كالقديس لويس[1] ، لم تكن الهزيمة تخطر بباله . فلا غرابة أن أذهلته الهزيمة ، فاتخذها كمحنة أو تجربة وضعه فيها الله . بل اعتقد أنه المسئول الأول عما لحق بأهل الغرب من كوارث فى مصر [2] . فكان عليه بعد هذه الضربة أن يتدبر خطط سيره الجديد . ويبدو أنه قد أخذ يقلب الأمر على مختلف وجوهه قبل مغادرته الأراضى المصرية . إذ وجد أنه لا مندوحة من اتخاذ إجراء يحفظ له كرامته ، ويخفف من هول الصدمة التى منى بها . كما وجد أنه لا يليق بملك مثله أن يبحر رأسا إلى بلاده دون أن يسعى لإحراز كسب يعوض خسارته فى وادى النيل ولو كان هذا الكسب هزيلا . وهو فضلا عن ذلك شاهد ثورة المماليك التى انتهت باغتيال المعظم توران شاه والقضاء على دولة الأيوبيين بمصر، وأدرك أن البلاد تمر بفترة انتقال قد يسهل عليه استغلالها لصالح الفكرة الصليبية التى كرس حياته من أجلها . ثم هو يعلم حالة الضعف التى آلت إليها الإمارات اللاتينية فى بلاد الشام ، وأنه لو أبحر رأسا إلى بلاده لوقعت فريسة سهلة فى قبضة المسلمين . ولعله أدرك هذا الخطر من القوات السورية التى اشتركت معه فى الحملة على مصر ، أو خلال إقامته فى قبرص حيث كانت الجاليات اللاتينية فى الأراضى المقدسة فى نزاع مستمر فيما بينها [3] . وحرى بالذكر أيضا أن الملك الفرنسى كان قد أوفد سفارة إلى التتار فى الشرق الأقصى خلال إقامته فى

---

(١) Epistola Ludovici, I, 1197.

(٢) Cf. Lamb, 323; Kitchin, I, 348; Campbell, 436.

(٣) Cf. Grousset, Crois., III, 433, 436-7; Heyd, I, 343-4.

قبرص قبل إبحاره إلى مصر ، وطبيعى أنه كان ينتظر أخبـارا طيبة فيما يتعلق باستمالة هذا العنصر إلى اللاتين واستخدامه فى صراعهم ضد الإسلام . وهـكذا كانت الظروف السياسية فى الشرقين الأوسط والأقصى مواتية لتحقيق الهدف الذى استحكم فى قرارة نفسه ، وهو امتلاك بيت المقدس وتمكين نفوذ اللاتين به ، بل ومشجعة على توجهه إلى عكا عقب مغادرته مصر .

كل هذا حدد وجهة الملك الفرنسى فى قصد عكا قبل خروجـه من مصر . ومما يدلنا على أنه قد بيت العزم على قصدها ، ما ذكره جوانفيل من أن لويس وجه زوجته مرجريت إليها قبل إبحاره من دمياط على أن يلحق بها هناك هو وفلول قواته بعد تسليم المدينة (١) . وما ذكره روتلان من أن السفن الصليبية غادرت الميناء المصرى رأسا صوب عكا (٢) . ولو لم يكن لويس قد استقر على قصدها ، لما كان هناك أى مبرر لأن يرسل زوجه إليها ثم يلحق بها هناك ، ولأبحر من دمياط رأسا إلى مملكته ، فيوفر على نفسه ورجاله وزوجه عناء الارتحال إلى مياه سورية .

ومعنى هذا أن الملك الفرنسى كان يعنى التوجه إلى عـكا بالذات بعـد فك أسره ، وأن هناك باعثا قويا جذبه إليها ، ألا وهو مواصلة العدوان على المسلمين عسى أن يحقق للمسيحية الغربية نصراً قبل أن يعود إلى فرنسا ، بعد أن وجد الظروف مشجعة على ذلك . ويبدو أنه كان قد أعد نفسه لهذا الموقف الجديد ، وإن لم يشأ أن يصرح لمستشاريه وكبار رجال جيشه بشىء . فقـد كان من عادته قبل أن يبت برأى فى أمر من الأمـور التى تتعلق بالمصلحة العامة ،

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 218.

(٢) Rothelin, II, 619.

أن يعرض الأمر على رجاله ليقول كل كلمته ،ثم يعلن بعد ذلك رأيه[1] . وهذا ما ستكشف عنه جلسات مؤتمر عكا التى كان لها أثرهـــا الحاسم فى تاريخ الحركة الصليبية بصفة عامة ، وفى تقرير مصير الإمارات الفرنجية وفلول الجيش الفرنسى بصفة خاصة.

وجدير بنا ، قبل أن نتناول هذا المؤتمر بالدراسة والتحليـــل ، أن نتساءل عن أهمية مدينة عكا ، وسر اختيار لويس لها بالذات كمقصد له عقب خروجه من مصر ، وإيثاره إياها عن غيرها من الثغور اللاتينية .

تقع عكا على الساحل الشرقى لحوض البحر الأبيض المتوسط إلى الجنوب من صور والشمال الغربى من طبرية[2] . وهى من الموانى السورية العريقة فى القدم . وإن كان تاريخها قبل الاســـلام يحيط به الغموض ، إلا أنها أصبحت بعد الفتح العربى هدفا لحملات البيزنطيين فى العصر الأول ، والفرنج فى فترة الحروب الصليبية . فقد استولى اللاتين عليها سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م ، ثم انتزعها منهم السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م . ولكنهم سرعان ما استعادوها فى ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م وبقيت تحت حكم اللاتين منذ ذلك التاريخ طيلة قرن من الزمان ، إلى أن وضع السلطان الأشرف خليـــل يده عليها فى ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م . وكانت آخر معاقل الصليبيين الهـــامة فى الأراضى المقدسة . وقد أمر السلطان المملوكى بهدمها ودك أسوارهـــا وحصونها حتى

---

(١) Cf. Walsh, St. Louis, 197.

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٤٢ ـــ ٢٤٣ ؛ القلقشندى : صبـح الأعشى ج ٤ ص ١٥٢ .

تخلص من اعتداءات الفرنج عليها وطمعهم فيها [١] . وظلت المدينة بعد ذلك خرابا لا يؤمها إلا خلق قليل إلى أن أعيد بناؤها حوالى منتصف القرن الثامن عشر . ولكنها لم تكد تنتعش حتى تلقت ضربتين جديدتين ، الأولى على يد إبراهيم (باشا) عندما استولى عليها فى ١٨٣٢م ، والثانية عندما ضربها الأسطول التركى بالقنابل سنة ١٨٤٠ م [٢] .

وتذكر المراجع أن عكا الصليبية كانت مشيدة على مرتفع من الأرض ، وروعى عدم تأسيسها فى الوادى المنخفض مخافة تدفق المياه عليها [٣] . وهى مثلثة الشكل كالدرع يطل ضلعان منه على البحر ، أما الثالث فيطل على سهل فسيح يبلغ اتساعه فرسخين [٤] فى بعض جهاته وأقل من ذلك فى البعض الآخر . وهذا السهل شديد الخصوبة سواء فى الأراضى المنزرعة ، أو المراعى ، أو حقول الكروم والبساتين ، حيث تنمو مختلف أنواع الفاكهة [٥] .

---

(١) راجع فى ذلك : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥٢ ؛ تقويم البلدان ص ٢٤٣ ؛ بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة ج ١٠ لوحة ٢٨٢-٢٨٨ ؛ رحلة ابن جبير ص ٣٠٣ ـ هذا وقد زار عكا بعد تخريبها كل من أبى الفداء (نفس المرجع والصفحة) وابن بطوطة (ج ١ ص ٥٠)، وذكرا أن البلد ومأصرها أصبحا فى عداد الخراب . كما أشار القلقشندى إلى ذلك فى كتابه (نفس الجزء والصفحة).

(٢) أنظر مادة عكا فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) ناصر خسرو : سفر نامة ص ١٥ .

(٤) جاء فى العمرى (مسالك الأبصار ج ١ ص ٢٣) أن كل فرسخ ثلاثة أميال والميل ٤٠٠٠ ذراع .

(٥) Burchard, Descript. of the Holy Land, 9. أنظر أيضا رحلة ابن جبير (ليدن ١٩٠٧) ص ٣١٠ .

ويظهر أن اختيار لويس التاسع وقع على عكا بالذات لأسباب كثيرة ، منها ما كان لهذه المدينة فى فترة الحروب الصليبية من أهمية بالغة ، حتى أصبحت فى القرن الثالث عشر الميلادى عاصمة مملكة اللاتين فى الأراضى المقدسة ، واحتلت مكان الصدارة بين مدنها الأخرى بعد أن فقد الصليبيون بيت المقدس منذ ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب [١] . وقد وصفها الرحالة الأندلسى ابن جبير الذى زارها فى ٥٧١ هـ / ١١٨٥ م بأنها « قاعدة مدن الافرنج بالشام، وشبهها فى عظمتها بالقسطنطينية عاصمة البيزنطيين [٢] . ويكفى لبيان أهمية هذه المدينة بالنسبة للاتين أنها بقيت بأيديهم منذ استيلائهم عليها فى سنة ١١٠٤ م إلى أن ضاعت منهم نهائيا فى ١٢٩١ م، باستثناء فترة لا تعدو أربع سنوات آلت فيها إلى العرب فى عهد صلاح الدين الأيوبى . ثم أن مركز عكا على الساحل الشرقى لحوض البحر المتوسط جعل منها سوقا تجارية دولية ترد إليها البضائع من الشرق الإسلامى، ومن الموصل ودمشق والاسكندرية بخاصة ، التى تقوم الجاليات اللاتينية بتصديرها إلى الغرب الأوروبى [٣] . فأصبحت المدينة بحق « ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق » [٤] . زد على ذلك أن عكا كانت تعتبر حصن سورية [٥] ؛ إذ كانت تحيط بها الأسوار والقلاع والخنادق وأبراج المراقبة ، الأمر

---

(١) Rey, Colonies franques, 451; Watson, Story of Jerusalem, 228.
أنظر كذلك جرجى ينى : تاريخ سوريا ص ٥٠٣ .

(٢) ابن جبير ص ٣٠٣ . أنظر أيضا رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٥٠ .

(٣) Rey, Colonies franques, 451; idem, Etude sur les Monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie, 171-2.

(٤) رحلة ابن جبير ص ٣٠٣ ؛ وكذلك ميخائيل عواد : المآصر ص ٣٣ .

(٥) أنظر جرجى ينى : تاريخ سوريا ص ٥٠٢ .

الذى جعلها منيعة لا ترام (١) . وقد زارها الرحالة بركارد سنة ١٢٨٤ م وأشاد بحصانتها ، ووصف قلاعها وأسوارها وصفا رائعـا (٢) . وهى إلى ذلك كانت تفخر بمينائها وسلسلتها اللذين وصفهما الرحالة الفارسى ناصر خسرو عندما زار المدينة فى ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م . فقال إن جانبى المدينـة الغـربى والجنـوبى يطلان على البحر ، وعلى الأخير ميناء فسيح يمكن للسفن أن ترسو فيـه . ثم قال إن لها حائطين داخلين فى البحر وقد شـدت السلاسل بينهما ، فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغـوص فى الماء فتمر السفينة من فوقها ، ثم تشد حتى لا يستطيع العـدو أن يقصـدها بسوء (٣) . وأكد الرحالة رى الذى زار أطلال عكا الصليبية فى ١٨٦٠ م أن ميناءها وقتذاك كان أكثر اتساعا من الموانى اللاتينية الأخرى (٤) . ولهذا السبب اعتبرهـا البعض « مرسى سفن الفرنج » (٥) . وفوق هـذا وذاك فإن أهمية عـكا التجـارية وموقعها الجغرافى الممتاز ، جعلا منها ممرا أو حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، حتى لقد وصفها بعض الكتاب المحدثين أنها كانت يومذاك كبابل باختلاف لغاتها وتعدد الأمم فيها . فـكانت مقرا للجماعات الرهبانية العسـكرية ورجال الدين والجاليات اللاتينيـة التى تمثل أمم الغرب ، وخاصـة البنادقة

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٦٢ ؛ ناصر خسرو : سفر نامه ص ١٥ ؛ خليل الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٤٤ .

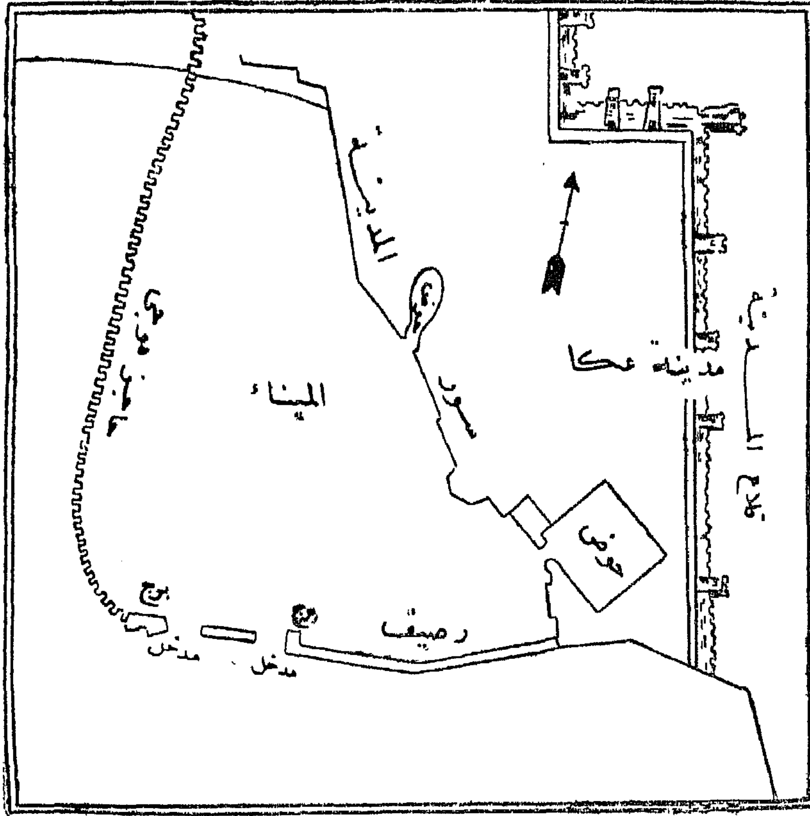
(٢) Burchard, 9. Cf. Rey, Colonies franques, 451.

(٣) ناصر خسرو ص ١٥–١٦ . أنظر أيضا ميخائيل عواد : المآصر ص ٣٣ وكذلك Burchard, 9.

(٤) Rey, Etude sur les Monuments, 171–172. أنظر خريطة « مدينة عكا وميناؤها فى عصر الحروب الصليبية » .

(٥) أنظر ابن بطوطة جـ ١ ص ٥٠ .

خريطة رقم (٢)



مدينة عكا وميناؤها فى عصر الحروب الصليبية

« رسم تخطيطى »

والبيازنة والجنوية (١) . وأخيرا لعل قرب المدينة من بيت المقدس ومصر قد أغرى الملك الفرنسى على قصدها (٢) . لهذا كله توجه لويس إلى عكا لتكون نقطة البدء فى عدوانه القادم ضد المسلمين ، فى حرب تكون مسرحها مصر أو بلاد الشام بعد أن لقنته الأولى درسا قاسيا (٣) .

على أى حال ، بمجرد قدوم لويس إلى عكا وصله خطاب من أمه الملكة بلانش القشتالية التى كانت تنوب عنه فى الحكم تدعوه للعودة إلى مملكته ، كما أبدى معظم رجاله الذين معه الرغبة فى الرحيل (٤) . وهكذا بات فى مأزق دقيق ، فهو بين داعى البقاء فى الأراضى المقدسة تمشيا مع خطته التى استقر عليها قبل خروجه من مصر ، وبين العودة إلى فرنسا استجابة لطلب بلانش وغالبية رجاله .

لم يشأ الملك أن يعلن قراره بالبقاء أو الرحيل قبل عرض الأمر على أتباعه . فعقد مجلسا من بارونات فرنسا وكبار رجال الحملة وجماعات الفرسان الداوية والاسبتارية والتيوتونية وبارونات مملكة بيت المقدس ، للتداول فيما يجب اتخاذه (٥) . وقد اجتمع هذا المجلس ثلاث مرات فى ثلاثة آحاد متتالية من ١٩ يونيو إلى ٣ يوليو ١٢٥٠ م ، استعرض فيها الظروف الداخلية والخارجية ، ودرس كافة الاحتمالات للوصول إلى حل تراعى فيه مصالح فرنسا مع المحافظة

---

(١) جرجى ني : تاريخ سوريا ص ٥٠٣ — ٥٠٤ ؛ وكذلك Rey, Colonies franques, 541; Watson, Story of Jerusalem, 228.

(٢) ذكر ابن جبير (الرحلة ص ٣٠٩ — ٣١٠) أن بين عكا وبيت المقدس مسيرة ثلاثة أيام .

(٣) Campbell, 432.

(٤) Campbell, 431-2.

(٥) Guill. de Nangis, Vita Ludovici, XX, 381; Baudoin d'Avesnes, XXI, 169; Rothelin, II, 622.

على سلامة الإمارات الفرنجية بالشام ، وهو أمر له اعتبـاره بالنسبة لرجـل كلويس (١) .

وقد ترك لنا جوانفيل فى مذكراته صورة دقيقة لهذه الاجتماعات وما دار فيها من مناقشات بين الملك والحاضرين من أشراف فرنسا وبارونات سورية . وترجع أهمية البيانات التى سجلها جوانفيل إلى أنه حضر هذه الاجتماعات وأدلى فيها برأيه ، كما حفظ لنا مضمون الخطب التى ألقيت والتى تميط اللثام عن خطة الملك الفرنسى ، وتبين فى الوقت ذاته أن غالبية القـوم ، وعلى رأسهم كونت انجو وكونت بواتييه ، كانوا يؤثرون العودة إلى ديارهم .

مهما يكن من شىء ، فقد عقد أول اجتماع يوم ١٩ يونيو ١٢٥٠م. وحضره كبار الفرنج . ومن بينهم أخوا الملك ووليم أمير الأراضى الواطئة وجوانفيل . وقد عرض لويس الموقف على مستشاريه ، فقـال إن والـدته بلانش أرسلت تدعوه للعودة إلى فرنسا لما يحيق بمملكته من الخطر ، لأن السلم لم ينعقد بينه وبين ملك انجلترا بصفة نهائية . ثم تناول الشق الثانى من القضية ، فقال إن أهالى سورية اللاتينية أخبروه أن ضياع بلادهم مرهون برحيـله عنها ، لأن جميع من بها سيقتفون أثره ويعودون معه ، وحينئذ لن تجد البلاد من يتولى الدفاع عنها . وبعد ذلك أمهل مستشاريه أسبوعا ليفكروا فى الأمر ويفيدوه بما يرونه ملائما وصالحا (٢) .

هكذا خصص الملك الجلسة الأولى لعرض المشكلة فحسب ، ولم يشأ أن

---

(١) Epistola Ludovici, I, 1199; cf Perry, St. Louis, 197. وكذلك حبشى : حملة القديس لويس ص ١١٥ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 228. Cf. Guizot, St. Louis, 80–1; Grousset, Crois., III, 495.

يبت فيها برأى قاطع لإدراكه خطورة الأمر وتباين وجهات النظر . لذا ترك الباب مفتوحا ليتمكن رجاله من بحث الموضوع من ناحيـــة ، وليتسنى له تدبير أموره من ناحية أخرى .

وفى أثناء هذه المدة المضروبة يكشف لنا جوانفيل عن المحاولات التى كانت تبذل لحمل لويس على العدول عن فكرة البقاء فى الأراضى المقدسة ، مما يدل على أنه كان يفكر جديا فى أمر البقاء . وهى تكشف فى الوقت ذاته عن فتـــور الروح الصليبية بين كبار البارونات الذين أعلنوا عن رغبتهم فى العودة إلى ديارهم ، وأعدوا العدة لذلك حتى يجد لويس نفسه أمام الأمر الواقع وحيدا لا عضد يؤيده فى الإقامة فيضطر مكرها للإذعان والعودة مع العائدين . فقد حدث أن اتصل القاصد الرسولى اود دى شاتورو (١) ، بجوانفيل وأخبره أنه لا يوافق على بقاء الملك فى الأراضى المقدسة ، وتوسل إليه العودة بصحبته إلى الغرب . ولكن جوانفيل اعتذر عن إجابته إلى طلبه فانصرف عنه غاضبا (٢).

ولكن من الإنصاف القول إنه بذلت أيضا محاولات بسيطة بقصد التأثير على الملك بالبقاء . وهناك أغنية بالفرنسية الوسيطة وضعت فى عكا وقتذاك ، يرجح أنها من نظم جوانفيل ، يلتمس فيها من لويس عدم مغادرة الأراضى المقدسة (٣).

---

(١) فيما يتعلق بسيرة القاصد الرسولى أنظر : Berger, St. Louis, 174 & 174, n. 1.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 228, 230.

(٣) « Tant que la France ait recovrée s'onor.
Si le roi se laisse persuader de revenir,
France dira. Champagne, et tote gent
Que vostre los avez mis en trestor
Et gaaigné avéz meins que nient;
= Et des prisons qui vivent à torment

ومهما يكن فقد انعقدت الجلسة الثانية يوم الأحد التالى الموافق ٢٦ يونيو، وفيها أجمع القوم، إلا قليلا ، على وجوب الرحيل . فقد طلب الملك من الحاضرين أن يدلوا بما وصلوا إليه خاصا بالرحيل أو البقاء . فاجابوا أنهم أنابوا السيد جى دى موفوزان Guy de Mauvoisin ليدلى للملك برأيهم . وعندما أذن له بالكلام ، قال إن كبار رجال الحملة ، وعلى رأسهم كونت انجو وكونت بواتييه قد تدبروا أمر المملكة ، وتبين لهم أن الملك الفرنسى لن يستطيع الاقامة فى الأراضى المقدسة حرصا على سلامة دولته . وأضاف بأنه لم يبق من الآلفين والثمانمائة فارس الذين كانوا مع لويس فى قبرص سوى مائة . ونصح الملك فى ختام خطبته بالرحيل إلى فرنسا لجمع الأموال والنجدات ليتسنى له القيام بحملة صليبية جديدة تحقق أمنيته التى يسعى إليها (١) .

لقد كشفت خطبة دى موفوزان عن أمرين : أولهما عزم لويس على البقاء لمواصلة الصراع تمشيا مع خطته التى سار عليها منذ البداية ، وثانيهما حقيقة نوايا غالبية الحاضرين من بارونات فرنسا . والواقع أن هؤلاء لم يكن يعنيهم صالح فرنسا أو امتلاك بيت المقدس ، بقدر ما كانت تعنيهم مصالحهم الشخصية . وليس أدل على ذلك من موقف كونت بواتييه الذى كان يمضى الوقت منذ

=

Deussiez avoir pesance,
Bien deussiez querre lor délivrance;
Quant por vos sont et por Jesus martir
C'est granz péchiez ses i laissiez morir."

Cf. Bréhier, Crois, 2.6.

(١) Joinville (ed. Wailly), 230. Cf. Guizot, 81; Perry, 197; Grousset, Crois., III, 495. وترى مدام براى أن الرأى الذى أبداه موفوزان نيابة عن بارونات فرنسا وكبار رجال الجيش كان سليما معقولا، وأنه لولا أفكار خاطئة عن الواجب كانت تتسلط على الملك الطيب لقبل هذا الرأى . أنظر Bray, 258.

وصول الفرنج إلى عكا فى اللهو والمقامرة (١) . ويروى جوانفيل حادثة أخرى تدل على مدى استهتار كبار رجال الحملة . ذلك أن كونت انجو والفارس والتر دى نيمور Walter de Nemours ، لم يجدا ما يشغلا به وقتهما خلال الرحلة البحرية من دمياط إلى عكا ، أفضل من اللعب بالنرد على ظهر السفينة ، حتى لقد اضطر لويس إلى قذف أدوات اللعب والمال فى عرض البحر (٢) . فهؤلاء السادة الاقطاعيون لم يدفعهم للاشتراك فى الحملة إلا حب المخاطرة ورغبة التوسع والغزو وامتلاك أراض جديدة . ولكن بعد أن فشلت الحملة خابت آمالهم وتلاشى حماسهم (٣) ، ولم يعودوا مستعدين للبقاء فترة أخرى فى الأراضى المقدسة . وواضح أيضا من خطبة مرفوزان أن كبار الفرنسيين قد أحسوا برغبة الملك فى البقاء ، فأرادوا أن يفسدوا خطته ويفوتوا عليه تعلله بإطالة إقامته فى الشرق للقيام بحملة أخرى . فذكروه بأن القوات الهزيلة التى معه لا تسمح بالقيام بعمل حاسم ، وأنه بوسعه العودة إلى فرنسا للدعوة لحملة جديدة .

---

(١) Joinville (ed Wailly), 228. ويذكر جوانفيل (نفس الطبعة والصفحة) أن كونت بواتييه كان يبدى كرما زائدا أثناء اللعب ، حتى أنه كان يوزع ما يربحه وأمواله الخاصة أيضا على رفاقه من رجال ونساء . وفى حالة الخسارة كان يسترد المبالغ التى فقدها فى اللعب لينفقها على الحاضرين .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 220. Cf. Conder, Latin Kingdom, 356; Kitchin, I, 346; Perry, 196; Wiegler, 261.

(٣) تزخر حملة لويس على مصر بالأمثلة التى تؤيد ذلك . نذكر منها موقف البحارة الجنوية والبيازنة والجماعات الرهبانية التى اشتركت فى الحملة ، والعداء التقليدى بين الانجليز والفرنسيين الذى يتمثل فى الصراع بين وليم طويل السيف وروبرت كونت أرتوا ، مما يدل على فتور الروح الصليبية بين كثير من المقاتلين ، وتدخل المصالح المادية فى الحركة الصليبية . انظر عن ذلك : Joinville (ed. Wailly), 206-212,216-218; Matt. Paris, II, 353-356.

لقد بانت للملك نوايا غالبية رجاله ممثلة فى خطبة السيد موفوزان . ولكنه لم يقتنع بذلك ، وأخذ يسأل كونت انجو وكونت بواتييه وأمير الأراضى الواطئة وباقى المجتمعين من رجال مشورته ، فصادقوا جميعا على ما قاله موفوزان. وحتى القاصد الرسولى لم يجد غضاضة فى التصريح بأنه لايمكن للملك البقاء فى الشرق أو القيام بحملة جديدة رهو فى هذا العدد الضئيل من القوات(١) .ولم يشذ عن هؤلاء سوى أربعة ،هم يوحنا صاحب يافا ، وجوانفيل ، ووليم دى بومون ماريشال فرنسا ،والسيد دى شاتنى.

وعندما طلب الملك من يوحنا إبداء رأيه ، اعتذر بلباقة موضحا أن بلاده تقع على الحدود ، وأنه إذا نصحه بالبقاء فربما يقال بأنه أقدم على ذلك لمصلحته الشخصية . ولما أصر لويس على أن يبدى الكونت رأيه ، أجاب بأنه يرى ضرورة بقائه فى الأراضى المقدسة لحمايتها والمحافظة عليها . والواقع أن صاحب يافا إنما كان يعبر عن رأى الفرنج فى سورية اللاتينية الذين وجدوا فى بقاء الملك مصلحة لهم . وتظهر شخصية جوانفيل فى هذه الجلسة ، فيحدثنا فى مذكراته عن الدور الذى قام به ، وكيف أنه كان الفرنسى الوحيد الذى تجاسر وعارض رأى الأغلبية محبذا بقاء لويس قال إنه بوسع الملك اجتذاب المحاربين من مختلف البلدان المسيحية ، ومن شبه جزيرة المورة ، بعروضه السخية ، وأنه يمكنه حينئذ مواصلة القتال وتعويض ما خسره فى حملته الفاشلة على مصر . ثم قال إن مصير الأسرى الفرنج يتوقف على بقاء لويس فى الشرق، وإنه يجدر به ألا يغادر الأراضى المقدسة إلا بعد تحريرهم من الأسر(٢). ولقد أبدى الجميع تأثرهم لما قاله

(١) Cf. Joinville (ed. Wailly), 230,232.

(٢) يقول جوانفيل لإنه عمل بالنصيحة التى أسداها له ابن عمه السيد دى بولنكور Sire de Boulauncourt قبل ابحاره من فرنسا الى الشرق . ومفادها أنه من العار على أى فارس أن يعود الى وطنه تاركا رفاقه أسرى فى قبضة الأعداء . أنظر Joinville (ed. Wailly), 230,234.

جوانفيل ، لأنه ما من واحد منهم إلا وله قريب أو صديق يعانى مرارة الأسر. ولكن حزنهم سرعان ما تلاشى أمام الرغبة الملحة فى العـــودة . بعد ذلك جاء دور وليم دى بومون ماريشال فرنسا . ولكنه عندما تأهب لإلقاء خطبته تأييدا لجوانفيل ، منعه عمه يوحنا دى بومون ـ وكان من المتحمسين لفكرة العـــودة ـ مشيرا عليه بالسكوت ، موجهـــا إليه ألفاظا نابية (١) ، فلم يجد بدا من التزام الصمت . وكان آخر المتكلمين السيد دى شاتنى Sire de Chatenay الذى شاطر جوانفيل رأيه (٢) .

هكذا انقسم الحاضرون فى هذه الجلسة الثانية فريقين : فريق يتألف من غالبية الصليبيين من بارونات فرنسا وكبار رجال الحملة يتزعمهم شقيق الملك وجى دى موفوزان ويوحنا دى بومون والقاصد الرسولى ، وهو يرى ضرورة العودة إلى الغرب ، وفريق يمثل الأقلية وعلى رأسه جوانفيل وصاحب يافا ، وهو يرى أنه يجب البقاء بالشام لحماية الإمارات الفرنجية بها . وهكذا احتدم النقاش بين الأعضاء وتفوه بعضهم بالسباب ، حتى لم ير الملك بدا من فض الاجتماع على أن يعطيهم رأيه بعد ثمانية أيام (٣) .

ومما هو جـــدير بالملاحظة أن لويس ذكر فى رسالته التى وجهها إلى الشعب

---

(١) يقول جوانفيل إنه عندما هم وليم دى بومون بإيضاح الأسبـاب التى من أجلها يؤيد البقاء ، قاطعه عمه يوحنا دى بومون بشدة قائلا : «ماذا تعنى أن تقول ؟ اجلس ولا تتكلم » . وعندما كرر الملك طلبه فى أن يبدى وليم رأيه ، عاد عمه فقال « بكل تأكيـد لن أدعه يتكلم يامولاى.» وهكذا فرض يوحنا رأيه على ابن أخيه وعلى الملك أيضـا . أنظر :
Joinville (ed. Wailly), 234.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 232-4. Cf. Guill. de Nangis, Vita Ludovici, XX, 383.

(٣) Rothelin, II, 622. Cf. Bréhier, 226; Ludlow, 355.

الفرنسى أن الغالبية كانت ترى البقاء فى الأراضى المقدسة(١) . ونقل عنه المؤرخ المعاصر له وليم دى نانجى هـذا الرأى (٢) . ولكن الملك لم يحدد المقصود بالغالبية ، وهل هم بارونات سورية أم أشراف فرنسا . وواضح أنه يعنى بارونات سورية الذين مثلهم فى مجلس عكا يوحنا صاحب يافا . ولعله عمد إلى ترك عبـارته غامضة تغطية لموقفه وتبريرا لما كان قد اعتزمه من استئناف العدوان ، وإيهاما للرأى العام المسيحى أن الحركة الصليبية مازالت تلقى التأييد والحماس .

ويبدو أن كبار رجال الجيش لم ترقهم معارضة جوانفيل لرأيهم ، فأخذوا يتهكمون عليه عقب انفضاض الاجتماع ، متهمينه على سبيل السخرية بأنه افرنجى شرقى (٣) أى بولان Poulain ؛ ولهذه اللفظة مغزاها ، إذ كان أهـل الغرب يطلقونها على كل لاتينى يدافع عن مصالح الافرنج المستقرين فى الشرق . ولكن جوانفيل أجابهم أنه يؤثر أن يكون كذلك على أن يكون جبانا مثلهم (٤) .

---

(١) Epistola Ludovici, I, 1199.

(٢) Guill. de Nangis, Vita Ludovici, XX, 383.

(٣) يستخدم جوانفيل فى كتابه كلمة « بولان » وهى تطلق على الطفل المولود من أم فرنسية وأب سـورى « Pullani dicuntur; qui de patre Syriano et matre, Francigena generantur. » — ويحتمل أن الفرنسيين قد أطلقوا هذا الاسم على كل من ولد عن مثل هذه الزيجات . ومما هو جدير بالذكر أنه فى الوقت الذى استولى فيه الفرنسيون على امبراطورية القسطنطينية كانوا يطلقون لفظ Gasmoules أو Gastemoules على من ولد من أب فرنسى وأم يونانية وذلك على سبيل الاحتقار بسبب الفوارق الجنسية والدينية . كما كان يطلق فى انطاكية على من يولد من رجل أرمينى أو يونانى من سكان المدينة وامرأة تركية لفظ Turcati أنظر : Joinville (tr. Hafod), p 466, n. I; Joinville, (tr. Hutton), p. 122, n. I,

(٤) Joinville (ed. Wailly), 234, 236. Cf. Grousset, Crois., III, 496.

إن تفاصيل ما دار فى الجلسة الثانية توضح أنه لو كان لويس لم يبيت النية على البقاء ، لأقر رأى الأغلبية وقرر العودة فورا . غير أن تأجيله إبداء رأيه معناه أنه كان فى حالة صراع داخلى بين العودة ، وهو رأى الأغلبية ، وبين البقاء وهو ما كان قد استقر عليه بينه وبين نفسه ، وما لم يؤيده فيه إلا القلائل . وإن الواقعة التالية التى أوردها جوانفيل تثبت بجلاء نيته على البقاء رغم الرأى الذى أجمع عليه رجال مشورته . فقد حدث أن دعا لويس رجاله قبل انعقاد الجلسة الثالثة لتناول الطعام على مائدته . وانتهز هذه الفرصة وانتحى جانبا بجوانفيل ليسأله كيف بلغت به الصلابة أن يشير عليه بالبقاء فى سورية ، بعكس جميع كبار رجال فرنسا الذين نصحوه بالرحيل ، ولم يتركوا وسيلة إلا واصطنعوها لتنفيذ قرارهم . فأجابه بأنه لا يبغى سوى المصلحة العامة التى تستوجب بقاءه . ويقول جوانفيل إن الملك طمأنه ، وشكره على نصيحته ، بعد أن طلب منه ألا يعلن ذلك لأحد إلى حين انعقاد المجلس [١] .

وفى يوم الأحد ٣ يوليو انعقدت الجلسة الثالثة والأخيرة التى أعلن فيها الملك الفرنسى قراره بالبقاء . وقد حفظ لنا جوانفيل نص خطبة لويس التى يقول فيها : « أيها السادة ، إنى أشكر من صميم قلبى أولئك الذين نصحونى بالعودة إلى فرنسا ، كما أشكر من نصحونى بالبقاء هنا . على أننى أظن أن وجودى هنا لن يؤدى إلى ضياع مملكتى ، لأن لدى والدتى الملكة كثيرين من القادرين على الدفاع عنها . غير أن أشراف هذه البلاد أخبرونى أن فى رحيلى فقدان مملكة بيت المقدس ، كما لن يجرؤ أحد على الإقامة فيها بعد مغادرتى إياها . ومن ثم فقد عقدت العزم على البقاء فى مملكة بيت المقدس التى قدمت لاستردادها

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 234, 236.

والمحافظة عليها . وإنى أتوجه الآن بالحديث إليكم أنتم المجتمعون هنـــا ، وإلى غيركم من الفرسان ممن يودون البقاء معى ، أن تفصحوا عن نياتكم فى صراحة وإخلاص ، وسأعطيكم كل ما تحتاجون إليه حتى لا يكون الخطأ من جانبى بل من جانبكم إذا لم تبقوا معى » (١) وأضاف وليم دى نانجى (٢) أن من أسباب بقاء الملك مراقبة ما يستجد على مسرح السياسة فى الشرق الاسلامى، بعد ما بلغه من قيام الخلف بين أمراء مصر والشام نتيجة لاغتيال المعظم توران شاه، إذ كان يطمع فى استغلال هذا النزاع لصالح قضيته الصليبية.

بهذه الخطبة التى أوضح فيها الملك لويس الخطوط الرئيسية لسياسته الصليبية فى سورية ، اختتم مؤتمر عكا جلساته . ولم يكن البارونات الفرنسيون وكبار الصليبيين يتوقعون اتخاذ هذا القرار بعد المحاولات التى بذلوهـا لإحباطه ، إذ ذكر جوانفيل أنه « وقع على معظم الحاضرين وقع الصاعقة ، وكأنها قد أصابهم مس من الجنون (٣) .

يتضح بجلاء إذن أن قرار لويس هذا جاء متفقا مع خطته التى رسمها قبل خروجه من مصر فى مواصلة النضال والعدوان لتحقيق أمنيـة طالما جاشت فى صـدره ، والتى احتفظ بها لنفسه ، ولم يشأ أن يعلنها صراحة منذ البـــداية ضمانا لنجاحها . ولاشك لو أنه كان قد أحاط رجاله علما بنيته هذه قبل مغادرته مصر ، لما رافقوه إلى عكا ولأبحروا رأسا إلى بلادهم بعد أن خاب أملهم . وقد نفذ خطته على مرحلتين فتوجه أولا إلى عاصمـــة مملكة اللاتين فى الأراضى

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 238. Cf. Nangis. Vita, XX, 383; Rothelin II, 623; Guizot, 85; Grousset, Crois., III, 496–7.

(٢) Nangis, Vita, XX, 383. Cf. Baudoin d'Avesnes, XXI, 196.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 238.

المقدسة. وما أن استقر بها حتى شرع فى تنفيذ الخطوة الثانية التى تتمثل فى المؤتمر الذى عقده بعكا ، والذى أعلن فيه قراره بالبقاء ، رغم معارضته رأى الغالبية ، ورغم أن أمه كانت تدعوه للعودة إلى فرنسا ، مرجحا بذلك كفة بارونات سورية والقلائل من رجاله .

وقد يتهم لويس التاسع فى موقفه من جلسات مؤتمر عكا بأنه كان مترددا ضعيف الرأى . والواقع غير ذلك ، بدليل أنه لم يأخذ فى نهاية الأمر برأى الأغلبية ، بل أخذ برأى الأقلية مما يتفق وخطته بالبقاء فى الشرق العربى .

على أى حال ، اختلفت آراء الكتاب والمؤرخين المحدثين ما بين معارض لموقف لويس فى مجلس عكا ومؤيد له . ويعتمد الفريق المعارض فى حكمه على ما آلت اليه أحوال فرنسا التى طمع الانجليز فى الوثوب عليها، وعلى ما أحدثه الرعاة من اضطرابات كانت تستدعى عودة الملك (١) . والواقع أن هذه المزاعم ليس هناك ما يعززها . فعلى الرغم من العداء التقليدى المستحكم بين فرنسا وانجلترا فى العصر الوسيط ، لم تكن علاقتهما وقتذاك أكثر حرجا عما كانت عليه قبل قيام لويس بحملته (٢). هذا ، فضلا عن أن ظروف انجلترا الداخلية لم تكن تسمح لها بشن حرب على فرنسا فى فترة تغيب ملكها فى

---

(١) تتعرض مدام براى للاضطرابات التى أحدثها الرعاة فى فرنسا أثناء تغيب لويس فتقول لنه «لو كان الملك الفرنسى أقل تعصبا وخضوعا لخرافات عصره، لرأى عند سماع هذه الأعمال البشعة ، أنه كان من الأحكم العودة الى فرنسا من أن يندفع فى مثل هذه الحروب العدوانية، تاركا مملكته معرضة للفوضى الناتجة عن افتقارها الى السلطة والقوة اللتين كان له وحده حق ممارستهما » أنظر : Bray, 267.

(٢) Tout, Hist. of England, 69; idem, France and England, 77–8; Perry, 203.

الشرق اللاتيني (١) . أما عن حركة الرعاة فقد ذكرت مصادر العصر أن الملكة بلانش نجحت في إخمادها والقضاء عليها . ولا يجب أن ننسى أن الوصية على العرش كانت موضع ثقة ابنها التامة . وكيف لا وبلانش هي التي عنت بتنشئته، وكانت تدير شئون فرنسا في فترة قصوره فحفظت له التاج من مؤامرات رجال الإقطاع التي كادت أن تودى به ، وكانت كلمتها هي النافذة حتى بعد بلوغه سن الرشد وتوليه زمام الحكم ، كما أنها خرجت بالبلاد سالمة من الأعاصير السياسية الأوروبية أثناء غيبته . (٢) ويبدو أن الملك الفرنسي كان قد توقع أن تثار هذه التعللات ، فحرص على الرد عليها في خطبته التي أعلن فيها قراره بالبقاء .

أما الفريق الذي أيد لويس في موقفه (٣) فقد عزز حكمه بالحجج التالية : أولا — كان الملك الفرنسي يسعى لتأليف حملة عسكرية جديدة تعوض هزيمته في مصر ، وتهدف إلى إعادة بيت المقدس إلى حظيرة اللاتين (٤) . ثانيا — تدعيم الولايات اللاتينية في الشام حتى لا تقع فريسة سهلة في قبضة المسلمين ، خصوصا في هذه الحالة التي تعانيها من البؤس والانحلال (٥) . ثالثا — تلبية رغبة بارونات سورية والجماعات الرهبانية في الأراضي المقدسة بالبقاء في

---

(١) Matt. Paris, II, 290. Cf. Tout, Hist. of England, 69.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 42–50; Nangis, Vita, XX, 383; Matt. Paris, II, 505.

(٣) Grousset, Crois., III, 494; Campbell, Crusades, 432.

(٤) Cf. Lacroix, Vie Militaire, 135-6; Bréhier, Crois., 226; B ray, St. Louis, 263; Guérin, Jérusalem, 168.

(٥) Epistola Ludovici, I, 1199-1200. Cf. Bréhier, 226; Perry, 196; Sepet, St. Louis, 151; Lacroix, Vie Militaire, 136.

الشرق (١) . رابعا — مراقبة تنفيذ شروط الصلح مع الأمراء المصريين ، والحصول على حرية الأسرى الفرنج الذين ما زالوا فى سجون مصر (٢) . وواضح أن هذا الفريق يعبر عما كان يختلج فى نفس لويس من إحساسات ورغبات .

كيفما كان الأمر ، فقد أعلن لويس قراره وأفصح عن خبيئة نواياه ، ولم يبق سوى اتخاذ الخطوات العملية لتحقيق هدفه . وبناء على ذلك فقد أرسل من عكا فى أغسطس سنة ١٢٥٠ م كتابا (٣) مسهبا إلى رعاياه ، يدعو فيه أهل الغرب بعامة والفرنسيين بخاصة لحمل الصليب واللحاق به فى سورية . وقد بدأ خطابه باستعراض المحن التى قاساها هو وفلول قواته منذ امتلاكهم دمياط إلى حين مغادرتهم الأراضى المصرية . ثم توجه إلى الغربيين قائلا : « ... وإنا نهيب بكل مسيحى متحمس للحملة ، وبكم أنتم خاصة ، أن تعملوا على استرداد الأراضى المقدسة التى يجب اعتبارها ملكا خاصا لكم . لقد سبقناكم إلى خدمة الله ، فتعالوا واتحدوا معنا . ومع أنكم ستصلون متأخرين ، فإن المولى سوف يجازيكم أحسن الجزاء ، مثلكم مثل الزراع الذين عملوا فى الكرمة فى نهاية

---

(١) Epistola Ludovici, I, 1200. Cf. Walsh, 197; Ludlow, 355.

(٢) Epistola Ludovici, I, 1199. Cf. Lacroix, Chevalerie et Crois., 188; Delaville Le Roulx, 196; King, 249; Campbell, 432; Perry, 196; Sepet, 151-2; Iorga, 169; Besant & Palmer, 515.

(٣) أنظر الأصل اللاتينى لهذا الخطاب فى مجموعة Bongars, G.D.F., I, 1196-1200. وقد نقله إلى الفرنسية الحديثة المؤرخ جوزيف ميشو فى مؤلفه عن تاريخ الحروب الصليبية ، ونقله عنه ممبورج . أنظر : Michaud, Crois., IV, 619-631; Maimbourg, Crois., 350-52. أنظر الترجمة العربية للخطاب والتعليق عليه فى كتابى «العدوان الصليبى على مصر ، ص ٣٠٥ — ٣١٤».

اليوم ، وجازاهم رب الكرمة بمثل ما جازى به الذين عملوا طوال النهار(١) . وسوف ينال من يحضر منكم أو يبعث بنجدات خلال فترة إقامتنا هنا (٢) رضاء الله ، فضلا عن الامتيازات الأخرى الممنوحة للصليبيين (٣) . فإلى كل من توحى إليه الإرادة الإلهية بالحضور أو إمدادنا بالنجدات ، أن يعد عدته لشهر ابريل أو مايو القادمين . أما الذين لن يتسنى لهم الاستعداد للسفر في هذه الدفعة ، فعليهم أن يهيئوا أنفسهم لحين حلول عيد القديس يوحنا (٤) فطبيعة الحملة تتطلب السرعة ، وإن كل تأخير سيترتب عليه عواقب وخيمة. فيارجال الدين، ويا أيها المؤمنون ، قدموا لنا يد المساعدة ، وصلوا من أجلنا ، طالبين من المولى أن يبسط سلطاننا على كل هذه الأراضى ، بدعائكم الذى سيكون خير عون لنا ، نحن الخطاة ، على بلوغ هدفنا » (٥) . وهكذا بلغت الجرأة بهذا الملك الذى دمغته الكتابة الأوروبية مدام براى بالتعصب ، حتى أنه كاتب أهل الغـــرب محاولا إثارتهم بكافة الطرق للقيام بحرب عدوانية جديدة تضاف إلى أخواتها من الحملات الصليبية القائمة التى تعرض لها العالم العربى من المحيط إلى الخليج .

لم يكتف لويس بذلك، بل أنفذ شقيقيه الفونس كونت بواتييه وشارل كونت انجو إلى أوروبا فى اغسطس من نفس السنة لإثارة الغرب الكاثوليكى ضد الشرق الإسلامى، وموافاته فى سورية بما يحتاج إليه من أموال ونجدات، ولمواساة والدته

(١) أنظر الكتاب المقدس — العهد الجديد — انجيل متى ، الاصحاح العشرون .

(٢) يعنى سورية اللاتينية .

(٣) فيما يتعلق بالامتيازات التى اعتاد البابوات منحها لمن ينخرط فى سلك الحروب الصليبية، أنظر : Matt. Paris, II, 86–88; Berger, 134-137.

(٤) يتفق وقوع هذا العيد فى اليوم الخامس والعشرين من شهر يوليو من كل عام ،فيكون التاريخ المقصود هنا هو ٢٥ يونيو ١٢٥١ م .

(٥) Epistola Ludovici, I, 1200. Cf. Sepet, 162-3; Bailly, 183-4.
أنظر أيضا جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ، ص ٣١٣—٣١٤ .

الملكة بلانش بمناسبة موت شقيقه كونت ارتوا وما لحق بالحملة فى مصر (١) . وكلفهما فى نفس الوقت السعى لدى البابا انوسنت الرابع بوصفه الرئيس الروحى للعالم المسيحى للتبشير بالحملة الجديدة ، والعمل لصالح القضية الصليبيه . وقد رحل معهما ولحق بهما كثير من كبار البارونات الفرنسيين ، من بينهم وليم أمير الأراضى الواطئة (٢) .

ويبدو أن جوانفيل قد آلمه رحيل غالبية الصليبيين على هــذه الصورة . ونراه يتساءل إن كان أخوا الملك قد سافرا بناء على طلبهما أم تلبية لرغبة لويس. ويقول إن كونت انجو أبدى أسفا شديدا عند مغادرته الأراضى السورية إلى الغرب حتى لقد استولت الدهشة على الجميع (٣) . والحق أنه كان حزنا مصطنعا، فإن المتتبع لتاريخ هذا الأمير الاقطاعى بعد عودته إلى الغرب يدرك أنه لم تكن تعنيه الحرب المقدسة بقدر ما كانت تعنيه مصالحه الخاصــة ، بل أنه كان على استعداد لأن يضرب صفحا عن الهدف الصليبى فى سبيل إحراز منفعة شخصية . وإن إسراعه بقبول تاج صقلية الذى عرضه عليه البابا ، ثم الدور الذى قام به فى حملة لويس على تونس سنة ١٢٧٠ م ، لدليل قاطع على صحة ما نقول (٤) . لذا يمكن القول إن أخوى الملك كان سيرحلان سواء قبل لويس أم رفض ، وإن الملك الفرنسى أدرك ذلك فسمح لهما بالعــودة ، وكلفهما فى نفس الوقت بتبليغ

---

(١) Eracles, II, 439, n. a; Annales de Terre Sainte, II, II, 444; Nangis, Vita, XX, 383; Chronicon, XX, 553; Baudoin d'Avesnes, XXI, 169.

(٢) Rothelin, II, 623; Eracles, II, 438-9; Epistola Ludovici, I, 1200; Annales, II, II, 444; Matt. Paris, II, 416.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 238, 242.

(٤) Cf. Sepet, St. Louis, 155; Miller, Hist., II, 44.

دعوته للمسئولين فى الغرب الأوروبى . ويذكر الراهب المعاصر متى الباريزى أنهما قاما بما انيطا به بفتور يدل على أنه لم تكن لديهما رغبة صادقة فى مساعدة شقيقهما الملك (١) .

على أى حال ، عندما وصل كونت انجو وكونت بواتييه إلى فرنسا ، ذهبا برفقة دوق برجنديا إلى ليون لمقابلة انوسنت الرابع تنفيذا لرغبة لويس . وقد استقبلهم البابا بدون حضور الكرادلة . وبعد أن بسطا له الموقف على حقيقته ، طلبا منه المبادرة بتقديم يد العون إلى الملك الفرنسى ، الذى قاسى ضروباً شتى من المحن فى سبيل البابوية وخير العالم الغربى . كما التمسا منه أن يعقد الصلح مع خصمه الامبراطور فردريك الثانى ، ليتسنى لكليهما التفرغ لمساعدة اللاتين فى الشرق ، بدلا من بذل جهودهما فى حروب مضنية لن يجنى العالم الغربى من ورائها سوى الشقاق والدمار . وهدداه بإثارة فرنسا ضده ، وبإخراجه من مدينة ليون التى كان يقيم فيها منذ فراره من روما فى يونيو ١٢٤٤ م ، إذا لم يستجب لنداء الواجب (٢) . واتهماه فى لهجة جافة بأنه المتسبب فيما نزل بالصليبيين من بؤس نتيجة لجشعه واستخدامه الضرائب الدينية التى كان قد جمعها باسم الحركة الصليبية فى أغراض أخرى (٣) . ولاشك أن هذه اللهجة كانت جريئة بالنسبة لأمراء القرن الثالث عشر يتحدثون بها إلى رئيس الكنيسة الأعلى (٤) ، ولكنها على أى حال تدلنا على أن الكنيسة بدأت تفقد هيبتها واحترامها

---

(١) Matt. Paris, II, 416. Cf. Perry, 202.

(٢) Matt. Paris, II, 391. Cf. Archer & Kingsford, 400-1; Michaud, Crois, VI, 550.

(٣) Wiegler, 261.

(٤) Bray, 263.

بسبب انغماسها فى الشئون العلمانية والفساد الذى استشرى فى كيانها .

وقد تفسر زيارة كونت بواتييه وكونت انجو للبابا بأنها تتعارض مع موقفهما من الحركة الصليبية الذى سبق أن بيناه ؛ ولكن الحقيقة أنهما لم يفعلا أكثر من تبليغ البابا رسالة الملك الفرنسى . فكان هذا هو كل ما قاما به فى سبيل الدعوة الجديدة ، وسرعان ما انصرفا إلى مصالحهما الذاتية (١) .

أبدى البابا تأثره لما نزل بالصليبيين من كوارث ، وتعجب كيف يعامل أكثر الملوك ورعا مثل هذه المعاملة ، ويلقى مثل هذا المصير (٢) . ولكنه مع ذلك لم يحرك ساكنا ولم يتخذ أية خطوة إيجابية لمساعدة لويس (٣) .

قد يبدو غريبا أن يقف البابا ، وهو الزعيم الدينى الأعلى بأوروبا ، هذا الموقف الشاذ من قضية هو طرف أول فيها ، وكان الواجب عليه المبادرة بتقديم كل مساعدة ممكنة لها ، كما كان يفعل أسلافه فى بدء الحركة الصليبية . ونحن لا ننسى خطبة البابا أربان الثانى فى مؤتمر كليرمون بفرنسا فى نوفمبر ١٠٩٥م ، التى ألهبت حماس المسيحيين فى الغرب فصاحوا جميعا بصوت واحد صيحتهم المشهورة « هذه هى إرادة الله » ، التى كانت إيذانا ببدء الحروب

---

(١) Matt. Paris, II, 416. Cf. Bray, 267-8.

(٢) حرى بالذكر أن البابا عندما علم بهزيمة الفرنسيين فى مصر ، أرسل خطابين : أحدهما الى الملك الفرنسى مواسيا ومشجعا بمناسبة وقوعه فى الأسر ، والثانى الى رئيس أساقفة الرون يطلب منه إقامة الصلوات من أجل لويس ورجاله الذين أسرهم المسلمون . فكان هذا هو كل ماقدمه للصليبيين من معونة . أنظر: Epistola Innocentii IV Papae, in Michaud, Crois., VI, 203-4.

(٣) Bray, 263; Kitchin, I, 346.

الصليبية. (١) ولكن هذا العهد انقضى وولى . فقد كان انوسنت الرابع فى شغل شاغل عن نجدة لويس بالعمل على استئصال شأفة آل هوهنشتاوفن الألمان(٢). فهو لم يكتف بخلع فردريك ودمغه بالهرطقة فى مجلس ليون الكنسى عام ١٢٤٥ م، بل نراه يبشر بحملة صليبية ضد ابنه كونراد الرابع واعدا بمنح صكوك الغفران لكل من يشترك فيها ولذويهم أيضا ، تلك الصكوك التى كانت تمنح عادة لمن ينخرط فى سلك الحروب المقدسة لغزو اورشليم (٣) . وبلغت به الجرأة أنه كان يبيع هذه الصكوك نظير مبالغ من المال يملأ بها خزائنه ليعفى المحاربين الصليبيين من تعهداتهم بالتوجه إلى الأراضى المقدسة (٤) .

وقد شعر البارونات الفرنسيون وعلى رأسهم الملكة بلانش بخيبة أمل شديدة لموقف انوسنت . يقول متى الباريزى إن بلانش دعت أشراف المملكة للتداول معهم فيما يجب اتخاذه فى هذا السبيل . وأجمعوا أمرهم على الوقوف فى وجه البابا الذى لم يجد مانعا من التبشير بحملة صليبية ضد امبراطور مسيحى، تاركا لويس والصليبيين فى سورية يكابدون المحن . واتخذت الملكة وكبار رجالها إجراءات حازمة ضد كل من اشترك فى الحملة البابوية . كما كممت أفواه الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان ، وهم أبواق البابا فى فرنسا .

---

(١) Robert le Moine, R. H. C. - H. Occ., III, 727-8. Cf. Runciman, First Crusade, 107-9.

(٢) Kitchin, I, 436.

(٣) Matt. Paris, II, 462.

(٤) Perry, 203.

وترتب على ذلك أن فشلت ريح الحملة البـــابوية فى المملكة (١) .

كل هذا لا يدع مجالا للشك فى أن انوسنت الرابع اتخذ سياسة مناوئة للويس فى سورية هى فى الواقع استمرار لسياسته الصليبية حيال الملك الفرنسى منذ قيامه بحملته الأولى على مصر (٢) . فقد شغله كفاحه مع الامبراطور عن الدعوة لحملة صليبية جديدة . وليس أدل على ما نقول من العبارة التالية التى وصفه بها أحد الكتاب المحدثين « لم يتردد انوسنت الرابع فى خرق المعـــاهدات ما دام فى ذلك مصلحة له . كما أحال العالم إلى معسكر مسلح يتطاحن فيه الأفراد فى سبيل المادة ، وكلمات الانجيل تتراقص على شفاههم » (٣). ويقول المؤرخ الانجليزى هنرى وليم ديفز (١٨٧٤ — ١٩٢٨ م) إن انوسنت كان مجـــردا من النزاهـة الشخصية والحماس الدينى للحركة المقـدسة (٤) . وذكر كاتب آخر أن انوسنت هـو أول من حط من قدر البابوية وهوى بها إلى الحضيض ، إذ حول أساليبها لخدمة أغراض دنيوية ، كما أساء استخدام أسلحتهـا الروحية (٥) . وأخيرا يـكفى أن أعلن الراهب متى البارىزى الذى عاصر بابوية انوسنت الرابع ، استياءه من مسلك البابا

---

(١) Matt. Paris, II, 462-3. Cf. Kitchin, I, 346; Bray, 264–5; Perry, 203-4. وقد ذكر متى البارىزى (نفس الجزء والصفحة) أن الملكة والأشراف أمروا بمصادرة ممتلـكات كل من يحمل الصليب لمساعدة البابا ضد كونراد .

(٢) حول موقف البابا من لويس التاسع وحملته على مصر ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ، ص ٥٥ — ٥٧ .

(٣) Miller, Med. Rome, 75.

(٤) Davis, England, 434.

(٥) Previté-Orton, Hist. of Europe, 82.

الذى يتنافى وتعاليم الدين المسيحى ، وقال فيه : « وهكذا سبب البابا وهو أبونا الروحى ـ الذى اقتفى خطوات الامبراطور قسطنطين وكان الأولى به أن يترسم خطى القديس بطرس ـ كثيرا من القلاقل والاضطرابات فى العالم » (١) ولقد تألم الملك الفرنسى من موقف انوسنت ، واتهمه بالجشع وبأنه على استعداد لأن يضرب بالقضية الصليبية عرض الحائط ، فى سبيل إحراز كسب مادى أو منفعة شخصية (٢) .

وإذا كان هذا هو موقف البابا ، فقد اتخذ خصمه الامبراطور سياسة يكتنفها الغموض والالتواء . يذكر جوانفيــــل أنه عقب رحيل كونت انجو وكونت بواتييه إلى الغرب ، وفد على الملك الفرنسى فى عكا رسل من قبل فردريك الثانى . وقد أخبروه أن الامبراطور عندما علم بأسره أنفذهم للسعى لدى سلطان مصر المعظم توران شاه لإطلاق سراحه هو والأسرى الفرنسيين . وأظهروا له الخطابات التى كانت فردريك مرسلها إلى السلطان الذى لم يكن قد علم بمقتله (٣) . ويبدى المؤرخ ارتيابه فى صدق نوايا الامبراطور الألمانى ، ويعلن « أنه لو كان هؤلاء الرسل قد وجدونا فى الأسر لما كان ذلك فى صالحنا ، إذ كنا نعتقد أن الامبراطور أوفدهم بقصد العمل على حجزنا لا إطلاق سراحنا . ولكن لما وجد الرسل أننا قد حصلنا على حريتنا ذهبوا إلى حال سبيلهم » (٤) .

أما متى البارىزى الذى لم يشترك فى الحملة ، فقد أنصف فردريك ، إذ ذكر

---

(١) Matt. Paris, II, 498. Cf. Michaud, VI, 543, 549.

(٢) Matt. Paris, II, 383.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 242. Cf. Rothelin, II, 624; Perry, 202-3; Boulenger, 181-2.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 242.

أن آمال الفرنسيين فى مساعدة ملكهم قد تبخرت بموت الامبراطور الالمانى(١). ويقول فى مناسبة أخرى إن فردريك نص فى وصيته التى تركها قبل وفاته أن يخصص مبلغ من العملة الذهبية للإنفاق منه فى سبيل استعادة الأراضى المقدسة (٢) .

وانقسم الكتاب المحدثون فريقين : فريق يذهب مذهب جوانفيل فى تشككه (٣) ، وفريق يؤيد متى البارزى ، ويرى أن حكم مؤرخ « حياة القديس لويس » غير منصف . ويدلل على ذلك بأن سفارة الامبراطور وصلت متأخرة بعد مقتل السلطان وإخلاء سبيل الملك الفرنسى ورحيله سالما إلى عكا ، فعادت أدراجها من حيث أتت (٤) . وذهب البعض إلى أن الامبراطور أرسل فعلا مساعدات مادية إلى لويس والصليبيين فى الأراضى المقدسة(٥) .

وهكذا نجد المؤرخين الغربيين ، من قدامى ومحدثين ، ما بين متشكك فى نوايا الامبراطور الألمانى ومنصف له . والواقع أن الدارس لتاريخ فردريك يجد أنه كان يتبع سياسة مزدوجة ذات شقين متناقضين (٦) : أحدهما يقتضيه معاونة لويس وإمداده بما يحتاج إليه من المال باعتباره مسيحيا وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة والملك الاسمى لبيت المقدس . وليس أدل على هذه الصفات مما ذكره العينى من أنه « قيصر المعظم . . . حافظ بيت المقدس ، معز

---

(١) Matt. Paris, II, 404. Cf. Matt. of West., II, 311, 319.

(٢) Matt. Paris, II, 426-7.

(٣) Cf. Grousset, Crois., III, 494; Conder, Latin Kingdom, 358; Bordeaux, St. Louis, 290.

(٤) Bray, 263; Perry, 203.

(٥) Wiegler, 261.

(٦) Bordeaux, 290.

إمام روميه ، ملك ملوك النصـــرانية ، حامى الممالك الفرنجية ، قائد الجيـوش الصليبية » . (١) فكان طبيعيا وهذه القابه والحملة التى يدعو إليهـا لويس حمـلة صليبية تهدف إلى امتـــلاك الأراضى المقدسة ، أن يمد له يد العون وأن يبعث إليه بخطابات مودة وإعانات مالية حسبما ذكر بعض المؤرخين . ويعزز ذلك أن العـــلاقات بينهما كانت طيبة وطيدة ، إذ سبق أن توسط الملك الفرنسى مرارا لدى البابا انوسنت الرابع للعفو عن فردريك ، ليتسنى له التفرغ لمساعـدة الحركة الصليبية ، بدلا من إضاعة الجهد والمـال والرجال فى كفـاح لا طائل تحتـه بين عاهلى المسيحية الغربية (٢) . وكانت آخر هذه المحاولات عندما أنفذ لويس من عكا شقيقيه إلى البابا فى ليون لنفس الغرض ، وإن كانت غايته هى تحقيق الهدف الصليبى العام . هذا عن الشق الأول ، أما الشق الثانى من سياسته فكان يتطلب منه أن تظل علاقته بالمسئولين فى مصر قائمة على الود وحسن التفاهم ، كما كانت فى عهد الكامل محمد وابنه الصالح نجم الدين ايوب . وقد ساعد على توثيق الصداقة

(١) العينى : عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية) ص ١٩٩ — ٢٠٠ . ويلاحظ أيضا أن هذه كانت لغة المراسلات الدبلوماسية بين أمراء المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى . ونجد فى كتاب الدكتور عزيز سوريال عطيه عن السفارات المتبادلة بين مصر وأرغونة فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون شواهد كثيرة على ذلك ، منها ما جاء فى إحدى رسائل الناصر إلى جيم الثانى Jaime II (١٢٩١—١٣٢٧م) من أنه « الملك الجليل ،المكرم الخطير ، الباسل الضرغام الزبر ، جام العالم فى ملته ، العادل فى مملكته ، عز الأمة المسيحية، نصرة دين النصرانية ، فخر الملة العيسوية عمدة بنى المعمودية ، صاحب أرغـونة وبلنسية وجزيرة سردينية وكرسقه ،وكومس برجلونه ،ومقدم البحر وأمير علم كنيسة رومية» أنظر: Atiya, Egypt and Aragon, p. 36. وكذلك صفحات ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٥٨ من نفس الكتاب .

(٢) Matt. Paris, II, 498. Cf. Previté – Orton, 75; Bell, 176.

بين فردريك وحكام مصر سياسة التسامح الديني التي سار عليها في عصر امتاز بالتعصب الأعمى في هذه الناحية (١)، حتى لقد اعتبره بعض المؤرخين المسلمين أنه أميل إلى الإسلام منه إلى النصرانية وأنه كان يؤثر القرآن على الانجيل. (٢) ويكفي للدلالة على محبة المسلمين لفردريك أنه لم ينقذ جوانفيل من الموت عندما وقع في أسر الأسطول المصري خلال تراجع الفرنج من المنصورة إلى قاعدتهم في دمياط، إلا عندما صاح أحد المسلمين الذين في الأسطول بأنه - أي جوانفيل - من أقارب الامبراطور فردريك الثاني، فكان في ذلك سلامته(٣). وتذكر الرواية المسيحية أنه عندما علم أنصار الامبراطور في فلورنسا بهزيمة لويس والصليبيين في مصر، أظهروا ابتهاجهم بإقامة الأفراح والألعاب النارية(٤). فلا عجب إذن أن يرسل الامبراطور الألماني معونة مالية إلى الملك الفرنسي ويبدي العطف عليه، في الوقت الذي يكلف فيه رسله بإقامة العقبات في طريق الصليبيين، تمشيا مع سياسته المزدوجة التي سار عليها منذ بداية الحملة (٥)

---

(١) راجع أبوالفداء : المختصر ج٢ ص١١٨ ؛ وكذلك Matt. Paris, II, 68; Davis, Invasion of Egypt.

أنظر أيضا جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى - ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) العيني : عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية) ص ١٩٩ . أنظر أيضا : المختصر ج ٣ ص ١٤٨.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 174, 176.

(٤) Wiegler, 261. Cf. Michelet, I, 379, n. I; Michaud, IV, 373.

(٥) كان فردريك يفشي الأنباء الخاصة بحركة لويس إلى المصريين منذ نزوله جزيرة قبرص أولا بأول ، في الوقت الذي يقدم فيه المساعدات المادية للصليبيين . انظر في ابن أيبك : =

لقد أقام لويس التاسع فى الأراضى المقدسة ينتظر عبثا وصول الإمدادات والقوات التى بعث فى طلبها من الغـرب الأوروبى ، والتى لم تحضر أبـدا ، اللهم إلا من بضعة فرسان التحقوا بخدمته حبا فى المغامرة وطمعا فيما كان يغـدقه عليهم من أموال . ولتفهم الأسباب التى أدت إلى إخفاق مساعى الملك الفرنسى فى هذا السبيل ، يجب أن نستعرض أحوال أمم الغـــرب وموقفها من الدعوة الجديدة . ونردف ذلك بالمامة عن الشرق اللاتينى وقتـذاك ، وتقدير مدى استعداده لتلبية نداء الملك .

كانت أوروبا فى فترة إقامة لويس فى بلاد الشام مسرحا للقلاقل والاضطرابات والحروب الأهلية التى حالت بينها وبين إيفاد قـوات إلى الشرق للقيـام بحملة صليبية جديدة(١). وكان من أهم آثار ذلك ما طرأ على الحركة الصليبية نفسها . إذ فتر الحماس الدينى فى الغرب فتورا ملحوظا (٢). ويمكن الاستدلال على هذا الفتور من قصيدة كتبها شاعر فرنسى معاصر لهـذه الفـترة يدعى رتبف (١٢٤٥ - ١٢٨٥ م) يقول فيها إنه من الحماقة أن يخاطـر الانسان فى حرب دينية خارج بلاده ، طالما كان بوسعه أن يتصل بالله فى وطنـه ويعيش فى يسر

= كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٦٤ — ٣٦٥ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٩ وكذلك Grousset, Crois., III, 427-8; Reinaud, Extr. des Hist. Arabes, 448. راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ، ص ٧٨ — ٨٠ .

(١) Cf. Ludlow, 357; Bréhier, 226; Stevenson, 331; Campbell, 432.

(٢) Matt. of West., II, 316; Masson, 95-6; Woodhouse, 131; Calmette, 418; Archer & Kingsford, 320.

وسلام (١). وإذا نظرنا إلى الكنيسة المسيحية فى أوروبا نجد أنه قد استشرى فيها الفساد ، وفقدت ما كانت تتمتع به من هيبة واحترام (٢) ، وأصبحت المناصب الدينية تباع وتشترى دون نظر إلى أهلية من يشغلونها (٣) . وبلغ من استخفاف البابا أنه كان يفرض من يشاء من بطانته فى هذه المناصب (٤) . لم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أصبحت قرارات النقمة واللعنة والحرمان الكنسى ألعوبة فى أيدى كبار رجال الدين يتخذونها سلاحا ضد مناوئيهم لقضاء مآربهم الخاصة ، بعد أن كانت لها قيمتها فى العصر الأول (٥) . ويتهكم متى الباريزى بأن الأوضاع قد انقلبت ، وأصبح أمثال هؤلاء يكافئون على استهتارهم بدلا من توجيه اللوم إليهم (٦). هكذا تدهورت الكنيسة التى انعقدت عليها آمال الملك الفرنسى فى نشر الدعوة لحملته بين مسيحيي الغرب، حتى باتت هى نفسها فى حاجة إلى الاصلاح والتطهير . وقد ظهرت فى أوروبا بعض حركات الهرطقة (٧) تدعو إلى مناوأة

---

(١) راجع هذه القصيدة فى كتاب : Masson, Med France, 96–7 والمزيد من المعلومات ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٩٨ - ٩٩ و٣٢٦ - ٣٢٧.

(٢) Cf. Previté-Orton, 73, 77-8; Bell, 176,179.

(٣) Matt. Paris, II, 338–9, 395-8.

(٤) Matt. Paris, II, 393-4.

(٥) Matt. Paris, II, 418, 423.

(٦) Matt. Paris, II, 494.

(٧) فيما يتعلق بهذه الحركات راجع Hardwick, Christian Church, 307-11, 313 - 6; Turberville, Med. Heresy, 18-22, 145 - 154; Coulton, Inquisition, 5-95.

الكنيسة وتحرير الفكر الانسانى من مفاسدها وقيودها ، مما شغل أهل الغرب إلى حد ما عن نجدة لويس فى الشرق (١).

ولا جدال أن من أبرز معالم تلك الفترة ذلك الكفاح بين الامبراطورية والبابوية الذى حال دون استجابة الغرب لنداء لويس التاسع (٢) . فقد ظلت الحرب سجالا بين انوسنت وفردريك إلى حين وفاة الأخير فى ١٣ ديسمبر سنة ١٢٥٠ م (٣). واستمر الصدام بنفس العنف بين البابا وكونراد الرابع ابن فردريك ودعا انوسنت إلى حرب صليبية ليس لنجدة لويس فى الشرق، وإنما ضد الامبراطور الجديد وأعوانه (٤) . ولكن كونراد لم يلبث أن توفى فى ٢١ مايو ١٢٥٤ م ، تاركا طفلا صغيرا هو كونرادين تحت رحمة البابا الذى لم يمهله القدر فتوفى هو الآخر فى ٧ ديسمبر من نفس العام (٥). وهكذا شغل عاهلا العالم المسيحى عن نجدة لويس بكفاح فى سبيل السيادة والنفوذ ، فكان من الطبيعى أن يقفا منه ومن دعوته هذا الموقف الذى استعرضناه بتفصيل فى الصفحات السابقة.

---

(١) Cf. Miller, Med. Rome, 65-6; McKilliam, 309-310; Balzani, Italy, 227-8; Hardwick, 312; Turberville, 1-13; Bell, 179.

(٢) Cf. Campbell, 432.

(٣) Eracles, II, 439, n.h; Matt. Paris, II, 304-6; 404; Matt. of Westminster, II, 311, 319; Padua, Historia Albigensium, XX, 773.
وجدير بالذكر أنه عندما بلغ البابا نبأ وفاة فردريك قال جملته المشهورة « لتنتشى السماء ولتسعد الأرض » فكانت خير معبر عن حقيقة العلاقات بين العاهلين المسيحيين . أنظر :
Campbell, 432; Michelet, I, 577.

(٤) Matt. Paris, II, 414, 483, 462; Nangis, Vita, XX, 383; Chronicon, XX, 555; Beauvais, XXI, 75.

(٥) Erales, II, 442 & 442, n.b ; Historia Albigensium, 773.

لقد شل هذا الكفاح حركة العالم الغربى ، وكانت له عواقبه الوخيمة بالنسبة للدعوة الجديدة ، إذ أنه استنفد موارد الكنيسة والامبراطورية ، فى الوقت الذى كان فيه مصير الشرق اللاتينى يتوقف على مقدار المساعدة التى تقدمها له أمم الغرب النصرانية (١) . كما أنه أضعف قواها ، وخاصة المانيا وايطاليا اللتين لحق بهما الدمار (٢) . هذا ، فضلا عن أنهما كانتا نهبا للانقسامات الداخلية ليس هنا مجال الإفاضة فيها (٣) .

وبالمثل كانت بقية دول أوروبا غير مستعدة للاشتراك فى الحملة التى يدعو إليها لويس . ففى انجلترا تزايد الشعور بالسخط بسبب تدخـــل البابا فى شئونها وابتزازه الأموال منها ، مما أفقر البلاد وأنهكها (٤) . وفى سنة ١٢٥٠م قيد ملكها هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢ م) اسمه فى سجل الحرب المقدسة ، متعهدا بحمل الصليب لنجدة إخوانه فى أرض الميعاد ، وحذا حذوه كثير من النبلاء والفرسان ورجال الدين الانجليز (٥) . ولكن سرعان ما انكشفت نوايا الملك عندما دفع للبابوية

(١) Stevenson, 290.

(٢) Matt. Paris, II, 483, 497-8. Cf. Bréhier, 226; Kitchin, I, 346; Campbell, 432; Conder, Latin Kingdom, 358.

(٣) فيما يتعلق بحالة المانيا وايطاليا الداخلية وقتذاك . راجع : Nangis, Chronicon, XX, 553; Stubbs, Germany in the Early Middle Ages, 221-223; idem, Germany in the Later Middle Ages, 38-40, 44; Miller, Hist., I, 171-4, 267-270; Hassall, 37.

(٤) Cf. Rapin, I, 29-30; Sykes, England, 16.

(٥) Eracles, 440 & 440, n. d.; Matt. Paris, II, 329-3. Cf. Davis, England, 437-8; Michaud, VI, 545.

مبلغا ضخما من المال لتعفيه من العهد الذى ارتبط به . كما حصل على تفـويض من انوسنت الرابع لمنع الصليبيين الانجليز من الإبحار إلى الشرق . ولم يكتف بذلك ، بل فرض حراسة مشددة على الموانى الانجليزية لمنع رعاياه الذين حملوا الصليب من اللحاق بالملك الفرنسى (١) . والواقع أن هنرى جعل من هذا المشروع الصليبى الذى لم يخرج إلى حيز التنفيذ ، وسيلة لابتزاز الأموال من رعاياه إرضاء لجشعه (٢). وكان العون الوحيد الذى تلقاه لويس من ملك انجلترا هو موافقته على مد أجل الهدنة المبرمة بينهما إلى حين انتهاء الحملة وعودته إلى مملكته (٣) .

أما فى اسبانيا فقد سارع فرديناند الثالث ملك قشتالة (١٢١٧ – ١٢٥٠م) إلى حمل الصليب فى سنة ١٢٥٠ م عندما علم بهزيمـة لويس فى مصر. ولـكن وفاته فى نفس السنة حالت دون تنفيـذ المشروع (٤) . ولم يكن لويس التـاسع يتوقع وصول نجدات من اسبانيا ، لأن الممالك النصرانية فيها كانت آنذاك فى صراع عنيف ضد المسلمين فى سبيل امتلاك شبه الجزيرة ، مما حال بينها وبين المساهمـة فى حرب خارج أراضيها (٥) .

وإذا انتقلنا إلى فرنسا منبت الحملة الصليبية السابعة ، نجد أن الجهـود التى

---

(١) Matt. Paris, II, 331, 356-7. Cf. Michaud, VI, 545-7; Calthrop, 77; Ludlow, 357; Campbell, 432-3.

(٢) Matt. Paris, II, 291-2, 474, 481-2.

(٣) Davis, England, 438.

(٤) Matt. Paris, II, 387, 439-440, 505-6. Cf. Michaud, VI, 550; Perry, 204.

(٥) Matt Paris, II, 506. Cf. Bertrand & Petrie, 196; Calmette, 375.
أنظر كذلك اشباخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ١٧٩ ، ١٩٩ ، ٢١٦ ، ٢٣٠ .

بذلت فيها لجمع نجدات صادفت نجاحا ضئيلا . فقد قامت فى سنة ١٢٥١ م حركة شعبية كان من الممكن أن تمد الملك الفرنسى بعدد ضخم من القـــوات لو أحسن تنظيمها وقيادتها وتوجيهها الوجهة الصحيحة (١). ذلك أن راهباً مسنا (٢) ادعى أن المولى أناط إليه مهمة تحرير الأراضى المقدسة ، وأطلق على نفسه لقب «سيد هنغاريا» لأنه كان هنغارى المولد . وزعم أنه يتلقى الأوامر من مريم العذراء لجمع الرعاة والذهاب لنجدة الملك الفرنسى، وتخليص الأسرى اللاتين من قبضة المسلمين(٣). وسرعان ما انتشرت حركته فى أنحاء فرنسا ، وعرفت فى التاريخ باسم «صليبية الرعاة» لأن قوام الذين اشتركوا فيهـا كانوا من الأقنـــان والمزارعين ورعاة الأغنام (٤) . واتخذوا شارة الصليب شعـارا لهم (٥) . وقـــد أحسنت بلانش ورجالها معاملتهم فى بادىء الأمر ، عسى أن يفلحوا فى الانتقـام لما نزل بابنهـا لويس(٦) . ولـكن حدث أن انضمت إليهم جموع غفيرة من اللصوص والقتـلة والمجرمين ، وأخذوا يعيثون فسادا فى البلاد التى مروا بها داخل فرنسا (٧) . كما

---

(١) Campbell, 433; King, 251; Calthrop, 76.

(٢) تعددت أسماء زعيم هذه الحركة ، فهو تارة روجية Rogier ، وتارة يعقوب وثالثة جاك انظر : Chronique Anonyme des rois de France, 83; Conder, 358; Wiegler, 262.

(٣) Extr. d'une Chronique anonyme, XXI, 141; Nangis, Vita, XX, 383; Matt. Paris, II, 451.

(٤) Kitchin, I, 346-7.

(٥) Chronique anonyme, XXI, 83; Nangis, Chronicon, XX, 553.

(٦) Extr. d'une Chronique anonyme, XXI, 141; Nangis, Chronicon, XX, 554; Matt. Paris, II, 452.

(٧) Baudoin d'Avesnes, XXI, 169; Matt. Paris, II, 453; Wiegler, 262.

أساءوا إلى رجال الدين واتهموهم بالهرطقة والانحراف عن العقيدة (١) وعندما توالت اعتداءاتهم سارعت الملكة إلى تأديبهم ، فتعقبتهم وشتتت شملهم ، ولم ينج منهم سوى القليل (٢) .

ويقول متى الباريزى إن هؤلاء الرعاة كانوا مأجورين من قبل سلطان مصر لإشاعة الفوضى فى فرنسا حتى يجد لويس نفسه مضطرا للعودة إلى بلاده، وبذلك تحبط خططه ومشاريعه فى الشرق (٣) . وليست هناك نصوص إسلاميـــة أو مسيحية تؤيد تلك الدعوى . ويرجح أنها كانت مجرد إشاعة روجهـا رجال الدين آنذاك لتشويه تلك الحركة التى كانت حربا عليهم بسبب سوء معاملتهم لأتباعهم (٤) ، الذين وجدوا فى هزيمة لويس وبقائه وحيدا فى سورية متنفسا لهم للتخلص من نير رجال الدين من ناحية ، وضمان غفـران خطاياهم بمجرد انخراطهم فى سلك حرب مقدسة من ناحية أخرى . ويقول نفس المؤرخ إن عددا من هؤلاء الرعاة حملوا الصليب من جـــديد ، ولحقـوا بلويس فى الأراضى المقدسة (٥) . ويظهر أن سوء الحظ قد لازم ملك فرنسا ، إذ ارسلت إليـه أمه مبالغ ضخمة من العملة الفضية ، لكن السفينة التى كان يوجد بها المال غرقت وهى فى طريقها إلى عكا نتيجة قيام زوبعة بحرية (٦) .

وبينما كان الغرب الأوروبى يعانى من شر الفوضى والاضطراب ، كذلك

---

(١) Matt. Paris, II, 453; Nangis, Vita, XX, 333; Chronicon, XX,554.
(٢) Matt. Paris, II, 455-6.
(٣) Matt. Paris, II, 451-6. Cf. Michaud, VI, 550.
(٤) Michelet, I, 570, 571; Masson, 106, 108.
(٥) Perry, 207.
(٦) Matt. Paris, II, 445. Cf. Ludlow, 357; Perry, 204; Campbell, 434.

لم يكن الشرق اللاتيني مستعدا للمساهمة فى حملة جديدة ضد الشرق الإسلامى . فاذا نظرنا إلى امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية ، نجد أنه لم يكن باستطاعتها الاشتراك فى حرب ضد المسلمين بسبب الهجمات المتوالية التى كان يشنها عليها وقتذاك البيزنطيون بقصد طرد اللاتين منها واستعادة سلطانهم عليها بها (١) . كما أن افرنجة الشام لم يكونوا على أتم استعداد للحرب بعد أن شاهدوا فشل الحملات الصليبية المتعاقبة وقدرة الشرق العربى وعلى رأسه مصر ، على دفعها وإلحاق الهزيمة بها . وهم لم ينسوا بعد ما قاسوه فى حملة لويس على الديار المصرية ، كما لم تنس الجاليات التجارية فى الأراضى المقدسة وخاصة البيازنة والبنادقة والجنوية ، ما لحقها من أضرار مادية بسبب هزيمة لويس . ثم أن الإمارات اللاتينية فى الشام طمعت أن يكون مقدم لويس وسيلة لوضع حد الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية التى كانت تنشب بينها ، فيعمل هذا الملك على تعزيزها وتوحيد صفوفها (٢) . ولا يجب أن نغفل فى هذا المجال التعارض بين مصالح الافرنج المستقرين فى الشرق والصليبيين الجدد الواردين من الغرب (٣) . فقد اختلط اللاتين القدامى بالشرقيين ، وأخذوا من طباعهم وعاداتهم بنصيب ثم بدأ حماسهم يخبو ، ولم يعودوا يفكرون فى العودة إلى أوطانهم . وقد تنبه إلى ذلك محارب ومؤرخ صليبى متقدم هو فوشيه دى شارتر ، إذ يقول : « لقد أصبح الايطالى أو الفرنسى الذى استوطن فى هذه البلاد جليليا أو فلسطينيا . واستحال الرجل الذى قدم من ريمز أو شارتر إلى سورى أو انطاكى . وسرعان ما نسينا

---

(١) Matt. Paris, I, 490 & II, 65; Joinville (ed. Wailly), 76-8 & 76, n. 137-1.

(٢) Annales, II, II, 443. Cf. Grousset, Crois., III, 494.

(٣) Cf. Grousset, Sum of Hist., 179; Fisher, I, 230.

مسقط رأسنا. ثم لماذا نعود إلى الغرب، مادام الشرق يفى برغباتنا ومطالبنا؟»(١) وإن مصادر الحروب الصليبية عامرة بالنعوت التى كان أهل الغرب يطلقونها من سبيل السخرية والاحتقار على الافرنج الشرقيين ومن يدافع عن مصالحهم(٢). وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الاستقرار أن توثقت علاقات المودة بين أولئك الافرنج وبين جيرانهم من مسلمين ومسيحيين شرقيين، بسبب المصالح المشتركة، ونبذوا فكرة الحرب المقدسة (٣). لهذا كله لم يكن افرنج الشرق متحمسين للاشتراك فى حملة صليبية جديدة (٤).

وإذا كانت أحوال الغرب الأوروبى والشرق اللاتينى وقتذاك قد صرفتهما عن تقديم يد العون إلى القديس لويس، فقد كانت فلول القوات الصليبية التى بقيت معه فى سورية هى الأخرى فى حالة يرثى لها، ولم يكن يرجى منها أى عمل حاسم فى ميدان الصراع السورى. لقد غادر الصليبيون مصر وهم لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً (٥). وقد أبدع جوانفيل تصوير حالهم المحزنة. فيقول عن نفسه إنه عقب وصوله إلى عكا كان الإعياء قد بلغ منه مبلغاً أقعده حتى عن امتطاء صهوة جواده وعن ارتقاء درجات سلم القصر الذى أعد للملك. ويقول فى مناسبة أخرى إنه أغمى عليه من شدة الضعف بينما كان يغتسل فى الحمام، فلما

---

(١) أنظر نص فوشيه دى شارتر فى .Grousset, Sum of Hist., 177

(٢) Rey, Colonies franques, 60 — 1.

(٣) أنظر ابن منقذ : الاعتبار ص ٩٩؛ ابن جبير ص ٣٠١–٣٠٢ و ٣٠٤–٣٠٨؛ Grousset, Sum of Hist., 178.

(٤) تناولنا أحوال الإمارات اللاتينية إبان إقامة لويس فى سورية فى شىء من التفصيل فى الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(٥) Besant & Palmer, 515; Kitchin, I, 345.

ثاب إلى رشده بعد فترة غير قصيرة وجد نفسه وقد نقـــل إلى الفراش (١) .
ثم زاد الطـين بلة أن تفشى الوباء فى المعسكر المسيحى فى سورية، ويظهر أن الصليبيين هم الذين نقلوا العدوى معهم من مصر . وقد أتى ذلك الطـــاعون على عدد كبير منهم ولم يسلم الملك نفسه من المرض (٢). ويقول جوانفيل إنه أصيب هو وأتبـاعه بالوباء ، وكان يترقب الموت بين لحظـة وأخرى ، وإنه كان يشاهد وهو على فراش المرض جثث المسيحيين تمر أمام نافذته لدفنهـا . وكان كلما رأى ذلك يتوجه إلى الله قائلا : « حمداً لك يارب على تلك التجربة التى أنزلتها بى ... وأتوسل إليك يا سيدى أن تعيننى وتنقذنى ورجالى من هذا الوباء » (٣) .

تلك كانت حال العالم المسيحى بشقيه ، وحال شراذم الصليبيين فى الأراضى المقدسة . ومع ذلك لم يفقد لويس الأمل فى إمكان حشد القوى لحملة جديدة . لقد استولت عليه هذه الفـكرة حتى أصبحت نبراسا له فى كل حركاته وسكناته . فأخذ يسعى سعيا متواصلا لجمع القوات ، متخذا فى ذلك كافة الوسائل من حيث عقد المؤتمرات لتداول الرأى ، وتقديم العروض السخية المغرية تشجيعا للراغبين من الفرسان والمغامرين المعوزين على الانضمام إليه ولـكن جهوده فى هذه الناحية لم تحقق له كل النجاح الذى كان يسعى إليه .

يقول جوانفيل إنه بعد مضى بضعة أشهر من مقـدم الملك إلى عـكا دعا إليه أرباب مشورته الذين بقوا معه ، للبحث فى الوسائل الناجعة لاجتذاب المقـاتلين حتى يقوى بهم الجيش الصليبى، ويمكنه بواسطتهم مواصلة الحملة على المسلمين. وقد

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 222,224. Cf. Boulenger, 173.

(٢) Joinville (ed. Wailly),226. Cf. Matt. Paris, II, 460; Walsh,196; Kitchin, I, 346; Lamb, 323; Besant & Palmer, 515.

(٣) **Joinville (ed. Wailly), 226. Cf. Bray, 258.**

حضر هذا الاجتماع بطرس دى نيمور (١)، والفارس جوفروا دى سارجين، والفارس جيل ابرن الذى أنعم عليه لويس بعصا الماريشالية بعد وفاة امبير دى بوجو، وكذلك جوانفيل. وهؤلاء جميعا كانوا من صفوة من صاحبوه فى مصر حيث قاسوا معه الأمرين. وقد سألهم لويس عن الجهود التى بذلوها من جانبهم لجمع قوات جديدة، ومدى نجاحهم فى هذا المضمار. فأجابوا بأن المتطوعين يطالبون بأجور مرتفعة ليس بوسعهم إجابتها، وأن الفرسان الذين تحت إمرتهم أصبحوا يؤثرون العودة إلى بلادهم عن البقاء على هذه الحالة. والواقع أن الصليبيين عادوا من مصر صفر اليدين. فقد استنفدت فترة الإقامة فى قبرص والحرب فى مصر مواردهم، وخاصة المبلغ الضخم الذى استدانه لويس من الداوية لافتداء الأسرى الفرنج (٢). ولما استأنس الملك برأى جوانفيل، أجابه هذا بأنه أصبح يرى ما يراه الآخرون لاسيما وأنه فقد ما كان يملك عندما وقع أسيراً فى قبضة المصريين حتى لم يبق له سوى ما يستر به جسده، وأن مـــوارده نفدت ولا يستطيع الإنفاق على الفرسان الذين معه من مأكل ومشرب وجياد وسلاح. عندئذ أعلن الملك موافقته على إدخال جوانفيل ورجاله فى خدمته، والإنفاق عليهم من ماله الخاص (٣).

لقد وجد لويس أن الوسيلة الوحيدة لاستمالة المحاربين إليه هى إغراؤهم بالمال، فأخذ ينفق بسخاء على كل من التحق بخدمته. وكان من أثر ذلك أن قدم إليه

---

(١) هو كبير حجاب القصر الملكى فى عهد القديس لويس، ومن رجال حاشيته المقربين إليه وقد اشترك معه فى حملتيه على مصر والشام، ورافقه كذلك فى حملته على تونس حيث مات هناك ودفن بدير القديس دنيس بفرنسا. أنظر .Joinville (tr. Hafod), 467, n I

(٢) Cf. Campbell, 434; Wallon, I, 279-280.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 238, 240. Cf. Bray, 261-3.

بعض الفرسان يطلبون الانضواء تحت رايته. فبينما كان الملك يحصن قيسارية(١)، وصل إلى المعسكر الفرنجي من بلاد النرويج فارس يدعى الينار دى سننجان Alenars de Senaingan ومعه تسعة آخرون ، فألحقهم لويس بقواته متعهدا بالصرف عليهم . كما جاءه أيضاً فارس يدعى فيليب دى توسى (٢) Philip de Toucy فأدخله هو وتسعة فرسان أخر كانوا معه في خدمته لمدة سنة كاملة(٣). وأثناء إقامة لويس فى يافا التى امتــــدت من مايو ١٢٥٢ م إلى يونيو من السنة التالية (٤) حضر إلى المعسكر شخص يدعى يوحنا كونت ايو Jean d'Eu ومعه اثنا عشر مقـــاتل ، فأقبل الملك على ضمهم لأتباعه ، كما نصب كونت ايو فارسا (٥) .

ولكن هذه القوات التى انضمت إليه كانت تتألف فى الواقع من جماعات أو عصابات قليلة العدد ، تختلف أجناسها وطباعها ومشاربها ، جاءت إلى الشرق حبا فى المغامرة وطمعا فيما كان يغدقه لويس من مال ، باعتبارها من المرتزقة التى يعوزها الحماس الصادق للحركة الصليبية (٦) . وكتاب جوانفيل ملىء بالأمثلة التى تؤيد ذلك فقد ذكر أن أحد الأتباع الذين دخلوا فى خدمته بعكا، ويدعى جويلمن Guillemin قد غالطه فى مبلغ من المال ، وعندما طالبه به لم يرده له

---

(١) أقام لويس فى قيسارية من مايو ١٢٥١ م حتى أبريل ١٢٥٢ م. أنظر: Ludovici noni mansiones et itinera, XXI, 414.

(٢) فيما يتعلق بسيرة فيليب دى توسى أنظر : Joinville (ed. Wailly), 272, n. 495 – 1.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 270,272. Cf. Bray, 279-280; Perry, 208.

(٤) Ludovici noni itinera, XXI, 414.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 286 & 286, n. 521-1.

(٦) Ludlow, 357; Perry, 208; Guizot, 86.

فاضطر إلى طرده من جيشه . (١) زد على ذلك أن أولئك الفرسان الجدد كانوا يشغلون وقتهم فى اللهو والصيـــد والشجار المستمر (٢) . نضرب مثلا لذلك بالرواية التالية التى أثبتها جوانفيل فى مؤلفه . ذكر مؤرخنا أن باب المنزل الذى أعد لسكنه فى فترة إقامة الجيش المسيحى فى صيدا لتحصينها ، كان يواجه خيمة كونت ايو الذى اعتاد مضايقته . ونظرا لأنه كان من الرماة الماهرين ، فقـــد صنع آلة صغيرة كان يلقى منها قذائفه داخـــل مسكن جوانفيـل ، فتهشم القارورات والأوانى الزجاجية وكل ما تصادفه فى طريقها (٣) . وفضلا عمـــا سبق ، فقد انغمس بعضهم فى حياة الإثم والفجور (٤) . وقد ضبط أحدالفرسان بمنزل يدار للفساد خلال إقامة لويس فى قيسارية ، وترك له أن يختار بين أحد أمرين وفقا لتقاليد تلك البلدة : إما أن تقوده المرأة الفاسقة وهو فى قميصه عبر المعسكر وقد ربط بحبل بصورة مخزية ، وإما أن يصادر جواده وسلاحه ويطرد من المعسكر ، فاختار الحل الثانى وذهب إلى حال سبيله (٥) .

وأخيرا وبعد كل هذه الجهود التى بذلهـــا الملك الفرنسى لتأليف حملة عسكرية جديدة ، لم تزد قوة الصليبيين المسلحة فى سورية عن ١٤٠٠ محارب(٦) حسب رواية جوانفيل . وكان هذا الجيش يتكون فى غالبيته من فلول القوات

(١) Joinville (ed. Wailly), 226-8. Cf. Boulenger, 175.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 270, 278. Cf. Besant & Palmer, 515.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 318, 320.

(٤) Cf. Guizot, 86.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 276-8. Cf. Perry, 210.

(٦) Joinville (ed. Wailly), 294. — وجـدير بالذكر هنـا أن الرواية الاسلامية قدرت الجيش الصليبى الذى هاجم مصر بحوالى ٥٠٫٠٠٠ مقاتل. أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٥ ب ؛ السلامى : مختصر التواريخ ورقة ١٦٥ ا ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢=

الصليبية التي بقيت مع لويس بعد مغادرته مصر (١)، ومن الفرسان الجدد الذين التحقوا بخدمته ، ومن بعض الأسرى الفرنج الذين أطلق المصريون سراحهم ولحقوا به فى الشرق اللاتينى . وكان الملك الفرنسى يتكفل بكل حاجاتهم .

ولتقدير جسامة النفقات التى كان يتكبدها يمكن الرجوع إلى الملحق الذى أثبت فيه الكولونيل جونز فى ذيل ترجمته الانجليزية لتاريخ جوانفيل ، أسماء الفرسان الذين رافقوا القديس لويس إلى الأراضى المقدسة ، والشروط التى اتفق عليها بينه وبينهم ، من حيث المبالغ المقررة لكل فارس منهم ونفقات الإقامة والمأكل والجياد وما إلى ذلك (٢) . وهناك أيضا وثيقة بالغة الأهمية ترجع إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، تمدنا بإحصاء تفصيلى دقيق عن المبالغ التى أنفقها الملك الفرنسى ووجوه إنفاقها فى المدة من ١٢٥٠ إلى ١٢٥٣م. وهذه الوثيقة فضلا عن أنها تلقى ضوءا على التاريخ المالى فى العصر الوسيط ، تعطينا فكرة واضحة عن المبالغ الباهظة التى تكبدها لويس خلال إقامته فى الشام . ومنها يتضح لنا أن نفقات إقامته خلال ثلاث سنوات قد زادت عن

= لوحة ١٥٥ ؛ العبر ج ٥ ص ٣٥٩ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٧ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨١ . وذكرت المصادر المسيحية أن عدد الفرسان بلغ ٢٨٠٠ دون التعرض لعدد المشاة. أنظر Joinville (ed. Wailly), 82; Beaumont, 390. ويتخذ المؤرخون المحدثون حلا وسطا ، فيقدرون الجيش بنحو ٢٥٠٠٠ مقاتل من فرنسا وحدها ، عدا الفرق الأخرى التى انضمت إليه من انجلترا وإيطاليا وقبرص وسورية اللاتينية . أنظر:
Mas Latrie, Histoire de Chypre, I, 350; Grousset, Crois., III, 438, n, 1; Bordeaux, St. Louis, 229.

(١) يقول جوانفيل إنه لم يرافق الملك الى عكا من الالفين والثمانمائة فارس الذين كانوا معه فى قبرص سوى مائة فقط . أنظر Joinville (ed. Wailly), 320.

(٢) Joinville (tr. Johnes of Hafod), 532–3.

مليون جنيه ، بلغت نفقات الجيش والبحرية وحدهما ٦٢٥٠٠٠ جنيه ، وهو مبلغ لا يستهان به بالقياس لتلك العصور (١) .

وكان من الضرورى أن يعمل لويس على إيجاد المال اللازم لتغطية هـــذه النفقات (٢) . وكان المورد الرئيسى هو الضـــرائب والعشور الكنسية التى الزم بدفعها من لم يشترك فى الحملة من رجال الدنيـــا والدين (٣) . فقد دعا البابا انوسنت الرابع رجال الكنيسة الفرنسية أن يساهموا بجزء من عشرين من دخل كنائسهم ، بينما يدفع الكرادلة العشور لمدة ثلاث سنوات للإنفـــاق منها على الحملة ، على أن يتمتع البابا بعشور هذه الكنائس بعد انتهاء الفترة المحـــددة لمدة ثلاث سنوات أخرى ليتسنى له مواصلة كفاحه ضد الامبراطور . ولكن عندما أبدى البابا رغبته فى تحصيل العشور الكنسية لحسابه بعد انقضاء السنوات الاول الثلاث ، رفض لويس إجابته إلى طلبه ، قائلا إنه فى حاجة إليها لمواجهة تكاليف إقامته هو وقواته فى الأراضى المقدسة . وكانت هذه العشور تجمـــع بواسطة عمال البابا ، وقد أثارت بعض السخط بين رجال الكنيسة بسبب الطرق التعسفية التى كانت تستخدم فى جبايتها (٤) . ويمكن القـول إنه لولا هـــذه الموارد المالية لما أمكن الملك الفرنسى توطيد أقدامه فى الشرق والاحتفاظ بالقـوات التى كانت تحت إمرته ـ على الرغم من ضآلتهـا ـ طيـــلة هـــذه السنوات الأربع .

---

(١) Dépenses de S. Louis de M.C C. L. a M. CC. LIII., in Hist. de Fr., XXI, 512-4. Cf. Perry, 204.

(٢) Campbell, 434.

(٣) Cf. Perry, 204.

(٤) Matt. Paris, II, 388-9. Cf. Wallon, I, 244-5; Berger, 135.

هكذا كان الملك الفرنسي قد عقد النية منذ البداية على مواصلة الحملة ضد المسلمين بقصد امتلاك البيت المقدس . وهكذا كان يسير وفقا لخطة منظمة شرع فى تنفيذها على مراحل قبل خروجه من مصر إلى أن أعلنها صريحة فى قراره بالبقاء فى الأراضى المقدسة ، وفى رسالته إلى أهل الغرب التى يدعوهم فيها لحمل الصليب . وهكذا تفنن أيضا فى ابتداع وسائل الترغيب لاستمالة المقاتلين إلى صفوفه . ولكن جهوده ومساعيه باءت فى النهاية بالفشل . فقد انصرف عاهلا العالم المسيحى عن نصرته إلى كفاح داخلى عانت منه المسيحية الأمرين . كما كانت أحوال أمم الغرب الأوروبى والشرق اللاتينى لا تسمح لها بتقديم يد العون له . فضلا عن أن القوات الهزيلة التى كانت معه وتلك التى انضمت إليه ، لم تكن كافية للقيام بعمل إيجابى حاسم . وأخيرا فقد فتر الحماس الدينى للحركة الصليبية فتورا ملموسا ، وبدلا من أن يندفع الناس اندفاعا طبيعيا إلى حمل الصليب كما كان الحال فى بدء الحركة ، أصبحوا الآن يتشككون فى جدوى حرب دينية ضد المسلمين .

لقد كان حماس لويس للقضية الصليبية وإيمانه بها ، كفيلين بحشد آلاف الغربيين من سائر الأقطار الأوروبية لو أنه عاصر بابوية أربان الثانى أو انوسنت الثالث ، فى تلك الحقبة من التاريخ حيث كان الايمان فتيا عميقا . ولكن لويس عاش فى عصر بدأت فيه العقيدة الدينية تهن فى نفوس الأوروبيين بوجه عام ، سواء أكانوا من الشعب أو رجال الكنيسة أو حتى البابا نفسه .

الفصل الرابع

الملك الفرنسي بين أمراء مصر والشام

غادر لويس الأراضى المصرية إلى عكا حيث كان يطمع أن توافيه هناك الإمدادات من كل جانب لاستئناف الجهاد المسلح ضد المسلمين. ولكن حلمه هذا لم يخرج إلى حيز التنفيذ. ومع ذلك فقد بقى لويس متنقلا بين الإمارات اللاتينية فى سورية أربع سنوات كاملة من مايو ١٢٥٠ م إلى أبريل ١٢٥٤ م. وقد نعجب لطول هذه المدة التى يبدو لأول وهلة أنه لم يكن هناك أى مبرر لها، خاصة بعد أن تكشفت له الحقيقة السافرة بعد مقدمه عكا، وهى أن العالم المسيحى، بقسميه الشرقى والغربى، لم يكن مستعدا للانخراط فى سلك حملة صليبية جديدة، على الرغم من الجهود التى بذلها فى هذا السبيل. لكن هذا العجب سرعان ما يزول إذا خرجنا عن دائرة الصليبيين، وفحصنا حالة الشرق العربى السياسية فى ذلك الحين، بعد ثورة المماليك فى مصر التى أدت إلى تغير نظام الحكم وانتقاله من سلالة صلاح الدين الأيوبى إلى المماليك البحرية، وما ترتب على ذلك من نشوب الخلف بين هؤلاء المماليك وأمراء بنى أيوب فى الشام بعد رفضهم إقامة ملك عليهم من مماليك أسرتهم. وقد وجد لويس التاسع فى تفرق كلمة المسلمين فرصة ذهبية لم يدعها تمر دون استغلالها لصالح القضية الصليبية. فقد كان هدفه الأساسى هو غزو بيت المقدس، ولم يترك وسيلة إلا واصطنعها لتحقيق هذا الهدف.

وعلى ضوء هذه الحقيقة يجب أن ندرس مراحل الصراع بين أمراء مصر والشام، لنعرف كيف كان لويس يطمع فى إذكاء جذوة الخلاف بينهما فيضعف

كليهما ،أو أن يقضى أحدهما على الآخر ، فيخلو له الجو لتحقيق أمنيته التى أخفق فى الحصول عليها عن طريق الحرب والقتال فى مصر . وعلى ضوء هذه الحقيقة أيضا يجب أن ندرس مدى ما كسبه لويس لقضيته من وراء الخلف بين مسلمى مصر والشام (١).

لقد افتتحت شجر الدر عصر المماليك بتوليها ملك مصر رسميا فى ٣ صفر ٦٤٨ هـ/٧ مايو سنة ١٢٥٠ م ، وذلك عقب اغتيال توران شاه آخر ملوك الدولة الأيوبية (٢) وابن زوجها الراحل الملك الصالح نجم الدين أيوب . وعهد

(١) Matt. Paris, II, 460; Epistola Ludovici, I, 1199; Nangis, Vita Ludovici, XX, 383. Cf. Grousset, Crois., III, 497, 503; Bray, 267-8.
أنظر التحليل القيم الذى قدمه الزميل الاستاذ الدكتور سعيد عاشور حول موقف لويس التاسع من الأيوبيين والمماليك ، فى مؤلفه الكبير «الحركة الصليبية — الجزء الثانى ص ١٠٨٦ — ١٠٩٢».

(٢) هناك نظريات عديدة حول نهاية الدولة الأيوبية وبداية دولة المماليك بمصر . فقد ذكر الغزى (تاريخ حلب جـ ٣ ص ١٥٦) أن الصالح نجم الدين هو آخر ملوك بنى أيوب، بينما ذكر فريق آخر أن ابنه المعظم هو آخر ملوكهم ، أنظر نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩٥ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦١ ؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٤ . وهناك فئة ثالثة من المؤرخين المسلمين ترى أن الملك الصبى الأشرف موسى هو آخر ملوك الدولة الأيوبية ، أنظر عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٣٠ ؛ العبر جـ ٥ ص ٣٦٣ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٩٩ . هذا، وتوجد فئة رابعة ترى أن المعز أيبك هو أول ملوك الترك ، أنظر : السيوطى : الأشرف قايتباى ورقة ١٣ ب ؛ ابن الشحنة : روض المناظر (المصراع الثانى فى حوادث سنة ٦٤٨ هـ). وأخيرا هناك فئة تذكر أن شجر الدر هى آخر ملوك الدولة الأيوبية باعتبارها زوجة الملك الصالح أيوب ، أنظر : الاسحاقى : لطائف أخبار الأول ص ١٢٦ ؛ ابن أبى السرور : النزهة الزهية (مخطوط غير مرقم بدار الكتب المصرية) . ولكن الحقيقة أن رابطتها بالصالح أيوب انقطعت أولا بموته، وثانيا بتولية ابنه توران شاه بعده وأنها أصبحت =

أمراء المماليك إلى الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى بأتابكية العسكر ، فكان لها بمثابة الشريك فى الحكم وحلفت العساكر والأمراء يمين الطاعة لها باعتبارها ملكة وله باعتباره قائدا عليهم . وأصبح مرجع الأمور كلها إليها ، والتواقيع باسمها وصورتها عليها « والدة خليل » وهو ابنها من الصالح أيوب . وخطب لها على منابر مصر والقاهرة وضربت السكة باسمها ، وكان نقشها « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل » ، فدلت بذلك على دهائها وسعة حيلتها (١).

وكانت دمشق آنذاك تحت سلطان أسرة كردية من المماليك الأيوبيين تعرف بالقيمرية(٢). فما أن طالعتهم أخبار التغير الذى وقع بمصر وانتقال الحكم

= ملكة على مصر ليس باعتبارها من أفراد الأسرة الأيوبية، ولكن باعتبارها من فئة المماليك . وعلى هذا الأساس يكون المعظم توران شاه وليس الصالح أيوب هو آخر ملوك الدولة الأيوبية ، وتكون شجر الدر وليس المعز ايبك ، هى أول سلاطين المماليك بمصر . وأما الأشرف فكان ألعوبة فى أيدى المماليك ، إذ ذكر صاحب النجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٣٦٤) أنه « لاعبرة بولاية الأشرف فى سلطنة المعز ايبك . »

(١) ابن واصل ج٢ لوحة ٣٧٢ أ ـ ب راجع أيضا نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٥ ـ ٩٦؛ الجوهر الثمين ورقة ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ السخاوى : تحفة الأحباب ورقة ٧٢ ـ ٧٣ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٦ ـ ٣١٧ ؛ السيوطى : الأشرف قايتباى ورقة ١٣ ا . ويتضح من نقش شجر الدر على السكة أنها اتخذت اللقب الأول لتشير لولائها المستعصم الخليفة العباسى ببغداد حينئذ ، أما اللقب الثانى فكناية عن اسم زوجها الراحل ، وأما خليل فكان ابنها من الصالح أيوب الذى مات صغيرا فى حياة أبيه . أنظر الفيومى : نثر الجمان مجلد ٢ ورقة ٢٠٢ ا ـ ب .

(٢) القيمرية نسبة الى قيمر وهى قلعة بين الموصل وخلاط ، راجع لب اللباب للسيوطى . وفيما يتعلق بالأمراء القيمرية ، أنظر : Quatremére (ed.), Hist. des Sultans Mamlouks, I, 24, n.23; Grousset, Crois., III, 497, n.2.

فيها إلى شجر الدر حتى أعلنوا عصيانهم ، وأبوا أن يخرج الملك من سلالة بنى أيوب ولو أدى ذلك إلى نشوب الحرب . وقد بدأت بوادر التمرد على إقامة شجر الدر فى ملك مصر حين وصل رسول من قبلها[1] إلى دمشق لاستحلاف الأمراء القيمرية على سلطنتها. ولكنهم رفضوا الاعتراف بنظام الحكم الجديد ، وكذلك امتنع الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة بدمشق عن الحلف لها ، وكان المعظم توران شاه قد أمره بها وهو فى طريقه من حصن كيفا إلى مصر بعد موت أبيه الصالح أيوب واستدعاء شجر الدر إياه[2] .

امتنع القيمرية وغيرهم من الأمراء عن الحلف لشجر الدر ، وتلفتوا حولهم عسام يجدون من يستعينون به على إرجاع دولة بنى أيوب فى مصر . وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف[3] صاحب حلب هو أقوى الأمراء الأيوبيين فى الشام فى ذلك الحين . فكتبوا إليه يستدعونه ليسلموا دمشق له . وطبيعى أن يرحب الناصر يوسف بهذه الدعوة لضم دمشق إلى ممتلكاته ، والانتقام من

---

(١) هو الخطيب أصيل الدين محمد بن ابراهيم بن عمر الاسعردى ، أنظر ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٣ ب ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٣ ب — ٣٧٤ ا . أنظر كذلك عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٨ ؛ مسالك الأبصار جـ ٢٧ لوحة ٢٧٣ ؛ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٩ .

(٣) هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولد سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ — ١٢٣٠ م ، وحكم حلب من ٦٣٤ إلى ٦٥٨ هـ / ١٢٣٦ — ١٢٦٠ م ، ودمشق من ٦٤٨ إلى ٦٥٨ هـ/١٢٥٠—١٢٦٠م ، وقتل فى ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م. أنظر أبو شامة : الذيل جـ ٢ لوحة ٢٣٦ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ ، وكذلك Zambaur, Manuel, 97; Lane-Poole, Mohammaden Dynasties, 78.

أولئك المماليك الذين فتكوا بابن عمه توران شاه (١). فخرج من حلب بعساكره فى مستهل ربيع الثانى ٦٤٨ هـ / ٣ يوليو ١٢٥٠ م قاصدا دمشق التى زحف عليها ودخلها فى ١٠ ربيع الثانى / ١١ يوليو دون قتال أو إراقة للدماء ، بفضل الأمراء القيمرية الذين فتحوا له أبوابها . وتسلم كذلك قلعتها ، واستولى على ما بها من الأموال وأخذ فى تفريقها على القيمرية وابن يغمور ، كما قبض على جماعة من الأمراء المصريين بدمشق. وإن كان قد عصت عليه قلاع بعلبك وعجلون وصرخد وشميمس — وكلها من أعمال دمشق — حينا ، فسرعان ما سلمت اليه (٢) . وباتحاد حلب ودمشق تحت سلطان الناصر صارت مملكته قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب ، وتحققت الخطوة الأولى لغزو مصر .

وفى نفس الوقت استغل باقى أمراء بنى أيوب فرصة الانقلاب الذى حدث بمصر وما أعقبه من اضطراب الأحوال فيها . فاستقل الملك المغيث فتح الدين عمر (٣) بالكرك والشوبك وهما ولايتان من ولايات مصر ، سلمها إليه الطواشى

---

(١) شاروبيم: الكافى جـ٢ ص ٤٢٦ ؛ وكذلك King, Knights Hospitallers, 249.

(٢) فيما يتعلق بامتلاك الناصر دمشق ، أنظر ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٤ب ؛ مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥١٨ ؛ الذيل على الروضتين جـ ٢ لوحة ٢٠٧ ؛ مسالك الأبصار جـ ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٧٤ ؛ نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩٧ ؛ كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٨٦ — ٣٨٧ ؛ ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ١٦٣ — ١٦٤ ؛ السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٦٥ أ ؛ عيون التواريخ جـ ٢٠ لوحة ٢٥ — ٢٦ ؛ نزهة الأنام لوحة ٨٢ ب .

(٣) هو الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل سيف الدين أبى بكر بن الكامل بن العادل ابن أيوب. كان عند عماته بالقاهرة ، فلما توفى الملك الصالح أيوب اعتقله الامير حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة لما بلغه أن الأمير فخر الدين ربما يقيمه فى الملك ليحكم باسمه نظرا لصغر سنه . ولما وصل توران شاه إلى المنصورة قادما من حصن كيفا ، أرسل المغيث إلى=

بدر الدين لؤلؤ الصوابى الصالحى ، وكان الصالح أيوب قد أنابه بهما [١] . كما استولى الملك السعيد [٢] على قلعة الصبيبة بالشام .

هكذا رفض أمراء بنى أيوب الاعتراف بالنظام الجديد فى مصر ، وانسلخت عنها دمشق والكرك والشوبك والصبيبة وغيرها من ممتلكاتها التابعة لها فى الشام [٣] . وأصبح فى الشرق الأوسط الإسلامى قوتان متنازعتان : ولايات الشام ويهيمن عليها الأيوبيون، ومصر ويحكمها المماليك .وقد اعتبر الأيوبيون أنهم أصحاب السلطة الشرعية وأن المماليك دخلاء عليهم ، وأنه لابد من اتخاذ إجراء حاسم لإعادة المياه إلى مجاريها [٤] . ومما زاد فى سخطهم على المماليك،

= الشوبك واعتقله بها خوفا منه . فلما اغتيل المعظم أخرجه الطواشى بدر الدين لؤلؤ الصوابى الصالحى من الاعتقال وملكه البلدين وقام بتدبير دولته . وقد بقى المغيث بهما حتى قبض عليه الملك الظاهر بيبرس وقتله فى ٦٦١هـ/١٢٦٣ م ، وهو آخر من ملك الكرك من بنى أيوب ، أنظر ابن واصل جـ٢ لوحة ٣٧٤ ا ــ ب ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم٢ لوحة ٣١٨ ؛ ابن أبى السرور : عيون الأخبار (مخطوط غير مرقم) ؛ صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٧٦.

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٤ ا ــ ب . أنظر أيضا مسالك الابصار جـ ٢٧ مجلد ٣لوحة ٢٧٣ ــ ٢٧٤ ؛ نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ١٠٤ ؛ نزهة الأنام لوحة ٨٣ ب ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) هو الملك السعيد حسن بن عبد العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب . كانت قلعة الصبيبة بيده منذ موت شقيقه الملك الظاهر ، ثم سلمها لابن عمه الصالح أيوب وبقى فى خدمته وله خبز بالديار المصرية . وظل على هذه الحال إلى أن قتل المعظم توران شاه ، فهرب إلى غزة وأخذ ما بها من المال، ثم قصد الصبيبة فسلمها له النواب الذين بها من جهة الصالح أيوب .أنظر ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٤ ا ؛ مسالك الابصار جـ ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٧٣ ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٨ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦٦.

(٣) أنظر ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ١٦٣ .

(٤) أنظر موثروند : الحروب المقدسة جـ٢ ص ٣٣٣ ؛ كرد على: خطط الشام جـ٢ ص ١٠٩ .

سماحهم للملك الفرنسى بالخروج من مصر حيا طمعا فى الفدية التى أعطاها لهم وتلك التى تعهد بدفعها . وأنه لولا جشعهم لما أفلت لويس من قبضة المسلمين (١)، ولما توجه إلى الإمارات اللاتينية فى الشام ليعمل على بث الخلاف وإثارة الفتن والقلاقل فى الشرق الإسلامى (٢) . أما المماليك البحرية فقد وجدوا أنهم أصحاب الفضل الأول فى إحراز النصر على لويس والتنكيل به وبقواته على ضفاف النيل . وأنه لولا اجتهادهم فى المنصورة وفارسكور ما تم النصر للمسلمين (٣)، حتى لقد وصفهم ابن واصل بأنهم « كانوا داوية الإسلام » (٤) . ودافعوا عن اتهام الأيوبيين لهم بإخلاء لويس طمعا فى ماله ، بأنهم كانوا يخشون إن قتلوه أو أبقوه فى الأسر ، أن تثور ثائرة العالم المسيحى ويقوم بحملة صليبية جامعة ضد

---

(١) Matt. Paris, II, 514, 482. أنظر أيضا النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ ، ويقول الذهبى (تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١١٨) إنه بعد مغادرة لويس دمياط إلى عكا ، بعث يقول لأمراء مصر إنه لم ير أقل عقلا منهم لتركهم إياه نظير مبلغ من المال ولنهم لو كانوا قد طلبوا منه مملكته لما تردد فى تسليمها لهم فى سبيل خلاصه . ومع ما فى هذه الرواية من مبالغة ظاهرة ، إلا أنها تكشف عن أن لويس لم يكن يتوقع إخلائه من الأسر وخروجه سالما من مصر .

(٢) Matt. of West., II, 318.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ ب . راجع أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٢ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٦ .

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ ب . وإشارة ابن واصل الى داوية الاسلام هى نسبة إلى الفرسان الداوية الذين يعرفون أيضا بفرسان المعبد . وقد تأسست جماعتهم فى الأراضى المقدسة سنة ١١١٨ م نتيجة لقيام الحروب الصليبية . وكان أعضاؤها من الرهبان الذين عرفوا بين المسلمين فى الشرق العربى ببسالتهم فى القتال كما عرف إخوانهم الاسبتارية. وقد ألغيت جماعتهم فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى . أنظر : Hélyot, Dict. des Ordres Religieux, III, 612-624; King, Knights Hospitallers, 303.

المسلمين قد لا يستطيعون دفعها ، [١] خاصة وأن لويس لم يكن محبوبا فى فرنسا فحسب ، وإنما فى أمم الغرب الاوروبى والشرق اللاتينى أيضا . ثم هم لم ينسوا بعد ما اقترفه المعظم ابن مولاهم الصالح أيوب فى حقهم وفى زوجة أبيه شجر الدر من إساءات ، كان من الضرورى وضع حد لها قبل أن يفلت الزمام من أيديهم ويبطش بهم [٢] . وأنهم بتخلصهم منه إنما انقذوا مصر من مفاسده ومباذله، ولذا فهم يرون أنهم أحق بالملك من غيرهم .

ففى هذا الوقت الذى كان فيه الشرق الاسلامى منقسما على نفسه ، كان الملك الفرنسى فى عكا يسعى لتأليف حملة جديدة تهدف إلى امتلاك البيت المقدس . وحرى بالذكر فى هذا المجال أن المسيحيين فى المعاقل اللاتينية فى سورية وعلى رأسهم لويس كانوا يدركون حقيقة الحال فى مصر والشام . وكانوا ملمين إلماما تاما بأحوال العالم الاسلامى المضطربة إبان فترة الانتقال هذه . إذ سجل لويس فى رسالته إلى شعبه أن هذا الشقاق قد انعش آماله ، [٣] كما وجد أن الفرصة مواتية لتعويض ما خسره فى مصر [٤] . ومما يدلنا على اهتمام الغرب المسيحى بما كان يجرى فى الشرق الاسلامى من أحداث وقتذاك ، أن المؤرخين الغربيين المعاصرين لهذه الفترة أمثال جوانفيل وروتلان ووليم دى نانجى

---

(١) أنظر ابن ابى السرور : عيون الأخبار (مخطوط غير مرقم) و Matt. Paris, II, 415

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ١٣٧٠ — ١٣٧١ ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٩ — ٥٢٠ ؛ ابو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٤ — ٤٥٥ . أنظر أيضا Joinville (ed. Wallly), 158, 190.

(٣) Epistola Ludovici, I, 1199. Cf. Nangis, Vita, XX, 383; Baudoin d'Avesnes, XXI, 169.

(٤) Cf. Grousset, Crois., III, 497, 500; King, Hospitallers, 249.

ووليم دى شارتر ومتى البارىزى وغيرهم ، قد تتبعوا مراحل الخلاف بين مصر والشام ، وسجلوا الكثير من ظروف الحال بينهما مما لا تقل قيمته عما خلفته لنا المصادر الإسلامية فى هذا الشأن . وهى فضلا عن ذلك تعطينا فكرة واضحة عن هذا النزاع من وجهة النظر المسيحية ، وعن موقف لويس منه .

من هنا يتضح أن مهمة الملك لويس التاسع فى هذه الفترة بالذات التى قام فيها الخلاف بين بنى أيوب فى الشام والمماليك فى مصر ، هى استغلال الفرصة، وترقب الأمور عن كثب ، واتخاذ خطة السياسة والدهاء ، عساه أن يعوض من وراء ذلك ما فاته فى حملته الفاشلة على الديار المصرية (١) . ولعله أراد أن يتشبه بفردريك الثانى الذى تمكن بمهارته الدبلوماسية من عقد معاهدة سلمية مع الكامل محمد تنازل له فيها السلطان عن طيب خاطر عن مدينة بيت المقدس سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م (٢) مستغلا النزاع الذى قام وقتذاك بين الكامل محمد وأمراء أسرته فى الشام . وفى مجال المقارنة بين العاهلين المسيحيين يجب أن نذكر أن لويس كان الملك الذى قدسه الأوروبيون ، بينما كان فردريك هو الامبراطور الذى اتهموه بالهرطقة والخروج على الكنيسة . وقد أفادت الظروف الملك الفرنسى إلى حد بعيد ؛ إذ أن وجوده فى عكا على مقربة من مسرح النضال بين القوتين المتنازعتين ، جعل كليهما يسعى إلى خطب وده واكتسابه إلى جانبه فى صراعه ضد خصمه وكان هو نفسه يدرك هذه الرغبة الملحة

(١) Stevenson, Crusaders, 329.

(٢) أنظر ابن الاثير : الكامل (مجموعة الحروب الصليبية ج ٢ قسم ١) ص ١٧٥—١٧٦؛ العينى : عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية ج ٢ قسم ١) ص ١٨٧ — ١٩٤؛ المختصر ج٣ ص ١٤٨ .

فيها (١) ، وقدأدرك كلاهما أنه لو انضم إليه لرجحت كفته على خصمه من ناحية ولاتقى مضايقة الفرنج له من ناحيـــة أخـــرى (٢) ، فيحرز بذلك نصرا مزدوجا .

وهكذا ترددت الرسل وتعددت السفارات بين كل من أمراء مصر والشام وبين الملك الفرنسى فى عكا وفى غيرها من ولايات سورية اللاتينية ، وكل منهما يمنيه بالوعود المغرية طمعا فى كسبه إلى جانبه . ولكنه انتهج سياسة الحرص والحذر ، متوخيا فى ذلك ما تمليه عليه المصلحة العامة قبل أن يتخذ قرارا حاسما . فقد كان بوسعه الانضمام إلى أحد الفريقين،أو الوقوف موقف الحياد، أو أن يستمر على سياسة متأرجحة أملا فى استنزاف قوى الفريقين إلى أقصى حد ممكن (٣) .

ومما يؤسف له حقا أن الوثائق الرسمية لا تسعفنا بنصوص الحادثات المتبادلة بين لويس وأمراء مصر والشام ، وأن المؤرخين الغربيين المعاصرين لم يشيروا إلى وجود مثل هذه المكاتبات ، واكتفوا بتسجيل آراء الطرفين عما تمخضت عنه أحاديث الرسل الشفوية . أما المصادر الإسلامية ، من معاصرة ومتأخرة ، فلم تتعرض إطلاقا للسفارات المتبادلة بين الملك الفرنسى والمسلمين . ولا نجد لذلك تفسيرا معقولا ، خاصة وأن هذه المصادر كثيرا ما أشارت إلى بعثات مماثلة فى

---

(١) Cf. Grousset, Crois., III, 501; Ludlow, 356; Bray, 268; Reinaud, Extr., 477.

(٢) يوسف الدبس : تاريخ سورية مجلد ٦ ص ٢٧٢ .

(٣) Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 197; Petit-Dutaillis, Monarchie Féodole, 197.

عصور أخرى [١] . هذا ، فضلا عن أن تدخل لويس للافادة من النزاع القائم بين مصر والشام كان جديرا بعناية المؤرخين المسلمين فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الشرق العربى .

على أية حال ، لم يكد لويس يستقر فى عكا حتى أرسل إليه الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب مبعوثين من قبله يسألونه أن يقف إلى جانب مولاهم فى كفاحه ضد المماليك البحرية الذين قتلوا قريبه السلطان المعظم توران شاه . وتعهد له الناصر إذا تحالف معه بإعادة بيت المقدس التى كانت تحت إمرته آنذاك إلى المسيحيين [٢] .

واضح أن الهدف الأساسى الذى من أجله قام لويس بحملته هو الاستيلاء على بيت المقدس من المسلمين . وقد تهيأت له الظروف فى أثناء الحملة على مصر لتحقيق هذه الأمنية ، عندما عرض سلطان مصر أن يتنازل له عن القدس مقابل إعادة مدينة دمياط إليه . ولكنه رفض هذا العرض وهو فى نشوة النصر، فأضاع بذلك فرصة قد لا تعوض [٣] ، إذ أن الهزيمة التى أصيب بها لم تكن تمر له بخاطر . ولكن الظروف عادت فأتاحت له فرصة جديدة للحصول على هذه

---

(١) نجد أمثلة عديدة لتردد الرسل بين الافرنج والمسلمين فى فترة الحروب الصليبية فى ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ و ١٦٤ و ١٦٥ الخ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥١ و١٥٣ — ٤ و١٥٨ و١٥٩ و١٦٢ و١٦٣ و١٦٤ و١٨٣ و١٨٤ و١٨٦ — ٧ و١٨٨ — ٩ و١٩٤ و٢١٦ — ٨ الخ .. وفى غيرهما من المراجع العربية المعاصرة لتاريخ الحركة الصليبية .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 242. Cf. Grousset, Crois., III, 501; Campbell, 435; Perry, 199; Iorga, 169—170; Boulenger, 182.

(٣) Matt. Paris, II, 333-4. Cf. Michaud, Bib. des Crois., I, 545-6; Bordeaux, St. Louis, 244.

المدينة المقدسة ، إذا قبل التعاون مع الدماشقة ضد المماليك فى سبيل إعادة الدولة الأيوبية إلى مصر والقضاء على نفوذ المماليك فيها (١). ولكن الظروف فى هذه المرة كانت تختلف عن سابقتها . ففى المرة الأولى تقدم سلطان مصر بهذا العرض والملك الفرنسى فى حده وحديده ومدينة دمياط فى قبضته ، أما الآن فهو فى قلة من الصليبيين لا تمكنه من القيام بعمل إيجابى جرىء .

كان على لويس إذن أن يختار بين أحد أمرين : إما أن يقبل عرض الناصر يوسف وينضم إليه ضد أمراء مصر فيفوز بالبيت المقدس إذا ما تم النصر لصاحب حلب ، وإما أن يبحث له عن مخرج من هذا المأزق الدقيق بحيث لا يضر بالصالح الصليبى العام .

لقد كان العرض السخى الذى تقدم به الناصر كافيا لتشجيع لويس على قبوله . وكان من المحتمل أن تدفعه عوامل الثأر لما نزل به فى مصر إلى مناصرة الملك الأيوبى على المماليك (٢). غير أنه لم يكن فى الواقع حراً فى اختيار الطريق الذى يسلكه ، وأن الظروف السياسية هى التى حددت موقفه من النزاع بين مسلمى الشام ومصر. فهو كان يحرص أولا وقبل كل شىء على احترام معاهدة دمياط المبرمة بينه وبين أمراء مصر لمدة عشر سنوات ، حتى لا يجد المصريون ذريعة فى جانبهم للإخلال بنصوصها (٣) . وهو لم ينس أنه ترك وراءه فى وادى النيل قرابة ١٢ ألف أسير مسيحى (٤) ، وأن مصيرهم لم يتقرر بعد ، مما حال بينه وبين القيام

---

(١) Grousset, Crois., III, 501.

(٢) Ludlow, 356; Guizot, 86; Walsh, 202.

(٣) Ludlow, 356; Guizot, 86; Delaville Le Roulx, 197.

(٤) Epistola Ludovici, I, 1199; Rothelin, II, 621. ويعتبر ابن ابى السرور المؤرخ الاسلامى الوحيد الذى ذكر عدد الاسرى الفرنج فى مصر ، إذ قدرهم باثنى عشر ألف =

بعمل عدائى ضد أمراء مصر . وكان يدرك تماما أنه لو تجاسر وتحالف مع الناصر ضدهم لعرض حياة أسراه للخطر [١] ، كل هذا مقابل وعد بالحصول على المدينة المقدسة قد يتحقق وقد يبوء بالفشل .

وبعد أن استعرض الملك الفرنسى الموضوع من مختلف نواحيه ، وجد أن الحكمة تملى عليه الوقوف على الحياد خوفا على الفرنسيين الذين لا يزالون فى أسر مصر من أن يفتك بهم المماليك إذا علموا بهذا الاتفاق بينه وبين دمشق [٢] . فأنفذ سفارة من قبله إلى الناصر على رأسها ايف لبرتون Yves Le Breton من الرهبان الدومينيكان وكان يتقن اللسان العربى ، ومن بين أعضائها أيضا يوحنا لرمان Jean l'Ermin صانع أسلحة الملك . وكان رده على الملك الأيوبى أنه لا يستطيع التحالف معه فى الوقت الراهن حتى يعرف إذا كان أمراء مصر مستعدين لتعويضه عن فصمهم المعاهدة المبرمة بينه وبينهم وأضاف بأنه سيرسل إليهم بشأن تعديل تلك المعاهدة ، والمبادرة بتنفيذ التزاماتهم ، وأنه إن رفضوا إجابته إلى طلبه فلن يتردد فى التعاون معه ضدهم للانتقام لمقتل قريبه السلطان [٣] .

لقد دل لويس باتخاذه هذا الموقف على براعة سياسية فى فهمه الأوضاع على حقيقتها . فلم يرفض عرض صاحب حلب رفضا باتا ، ولم يعطه فى الوقت نفسه ردا حاسما بشأن التحالف معه ، وإنما ترك الباب مفتوحا لاستئناف المفاوضات

= ومائة وعشرة . أنظر عيون الأخبار (مخطوط غير مرقم بدار الكتب) تحت عنوان «المقصد السابع عشر فى ذكر الدولة الايوبية » .

(١) Grousset, Crois., III, 501; Ludlow, 356; Guizot, 86; Walsh, 202-3.

(٢) Grousset, Crois., III, 501; Conder, Latin Kingdom, 359.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 242,254.

فى أى وقت إذا دعت الضرورة إلى ذلك . هذا ، فى الوقت الذى أخذ يهدد فيه المماليك بالتحالف مع أعدائهم فى الشام علّه يحصل على امتيازات جديدة وعلى حرية الصليبيين الذين كانوا لا يزالون فى أسرهم .

لقد أكد لويس فى رده على الناصر أن المصريين أخلوا بمعاهدة دمياط المبرمة بينه وبينهم . ويجدر بنا قبل أن نستعرض موقفه من أمراء مصر على ضوء التطورات الأخيرة ، أن نتساءل عن مدى احترام كل من الفريقين لهذه المعاهدة، وعن نصيب ادعاء لويس من الصحة .

نصت المعاهدة على أن يرد الملك الفرنسى مدينة دمياط إلى المصريين (١) ، وأن يخلى سبيل المسلمين الذين فى أسره (٢) ، وعلى ألا يقصد سواحل الإسلام مرة أخرى (٣) ، وأن يدفع مبلغ ثمانمائة ألف دينار (٤) فدية عن الأسرى المسيحيين ، كان عليه أن يقدم نصفها مقدما قبل إطلاق سراحه والنصف الآخر بعد مغادرته مصر(٥) . أما المصريون فقد تعهدوا من جانبهم بإطلاق الأسرى

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٧٢ ب ؛ أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٥ ؛ Joinville (ed, Wailly), 194.

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٥ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ .

(٣) العمرى : رسالة فى أمر مشاهير ممالك الفرنج ص ٢ ؛ العبر ج ٣ ص ٣٧٣ .

(٤) كان الدينار فى العصر الاسلامى من الذهب الخالص ، أنظر المقريزى : النقود القديمة والاسلامية ص ١١و١٤ — ١٥ ؛ ابن مماتى: قوانين الدواوين ص٧٦ حاشية ١٢ . ومتوسط تقدير قيمته حسبما جاء فى مالية مصر لعمر طوسون (ص٥ — ٦) هو ٦٠ قرشا . وعلى هذا تقدر الفدية بحوالى ٤٨٠٫٠٠٠ من الجنيهات المصرية الذهبية .

(٥) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٣ ؛ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٥ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ ؛ ابن ابى السرور : عيون الاخبار (المقصد ١٧ فى ذكر الدولة الايوبية) . أنظر كذلك : Epistola, Ludovici, I, 1198.

المسيحيين الذين وقعوا فى قبضتهم فى هذه الوقعة ، ومن أسروا منذ عهد العادل أيوب [١] . وتنفرد المراجع الغربية بقولها إن المصريين تعهـــدوا أيضا برعاية مرضى الفرنج الذين بدمياط ، والمحافظة على معداتهم بالمدينة إلى أن تحين الفرصة لأخذها [٢] . وأقسم الطرفان بالمحافظة على نصوص تلك المعـــاهدة لمدة عشر سنوات [٣] .

وينحى المؤرخون الغربيون على المصريين خرقهم المعاهدة . فقد ذكر جوانفيل أنه ما أن استلم المصريون مدينة دمياط حتى راحوا يذبحون المرضى الفرنج ، كما أشعلوا النار فيما وجدوه بها من مهمات وأزواد [٤] . ويضيف لويس فى رسالته أنه كان قد ترك بدمياط قبل رحيله عنها مندوبين لإحضار العتاد وباقى الأسرى ، وأن المسئولين فى مصر رفضوا أن يردوا المهمات أو أن يطلقوا سراح أسراه [٥] .

حقا ان أحد كتاب المسلمين ، وهو ابن تغـــرى بردى ، ذكر أن المماليك عندما دخلوا دمياط « نهبوا وقتـــلوا من بقى من الفرنج حتى ضربهم الأمراء وأخرجوهم » [٦] . ولكن مرجعـــا آخر من المراجع الإسلامية لم يذكر أن المصريين أقسموا للفرنج برعاية مرضاهم والمحافظة على مهماتهم التى تركوها بالمدينة .

---

(١) ابن ابى السرور : نفس المخطوط السابق ، أنظر أيضا : Joinville (ed. Wailly), 185 .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 196. Cf. Stevenson, 328.

(٣) Epistola Ludovici, I, 1198. Cf. Iorga, 169; Delaville le Roulx, 196. أنظر أيضا ابن دقاق : الجوهر الثمين ورقة ١٠٦ ؛ نزهة الأنام لوحة ٨٢ ا .

(٤) Joinville (ed. Wailly), 200-2. Cf. Boulenger, St. Louis, 175.

(٥) Epistola Ludovici, I, 1199; Rothelin, II, 621.

(٦) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ .

وهذا يدفعنا إلى الشك فى صحة الرواية المسيحية ، خاصة وأن الفرنج كانوا وقتذاك فى موقف لا يسمح لهم بإملاء شروطهم على المصريين ، وإنما فى موقف يملى فيه عليهم . ولعل جوانفيل الذى أورد هذا النص قد التبس عليه الأمر بين هذه المعاهدة وبين المعاهدة السابقة التى كان قد عقدها لويس التاسع مع الملك الراحل المعظم توران شاه ، خصوصا إذا عرفنا أنه لم يدون مذكراته عن تاريخ القديس لويس إلا بعد مضى سنوات عديدة من انتهاء الحملة على مصر . أما عن الأسرى الفرنسيين الذى يشكو لويس من أن الأمراء لم يطلقوا سراحهم ، فلا يجب أن ننسى أنه من ناحيته لم يكن قد نفذ تعهده بعد فيما يتعلق بإخلاء سبيل الأسرى المسلمين .

والغريب أن لويس الذى يتهم المسلمين بفصم المعاهدة تناسى أنه كان قد وعد بعدم قصد سواحل الإسلام لمدة عشر سنوات. إلا أنه ما كاد يترك دمياط حتى توجه إلى عكا حيث أخذ يسعى سعيا حثيثا لجمع القوات والنجدات للقيام بحملة صليبية جديدة تهدد سلامة البلاد الإسلامية. أضف إلى هذا أنه أخذ يماطل فى دفع النصف المتبقى من الفدية المرهون به إطلاق باقى الأسرى الصليبيين فى مصر ، مستغلا فى ذلك الخلاف القائم بين المسلمين فى مصر والشام . ويعتبر هذا العمل من جانبه انتهاكا مباشرا للمعاهدة الأصلية المبرمة بينهما [١] . وتحاول مدام براى تبرير موقف لويس بقولها إنه اعتبر أن المعاهدة أصبحت ملغاة بعد أن قتل المماليك المرضى الفرنج ، واغتصبوا مهمات الصليبيين التى تركوها بدمياط بعد تسليمها لهم (٢). فهى بذلك تسلم بهذا البند من المعاهدة الذى لم يرد إلا فى المراجع الغربية ، والذى ليس لدينا ما يثبت صحته .

(١) Cf. Bray, 276; Iorga, 170.

(٢) Bray, 276.

نخلص من هذا بأن ما زعمه لويس ورجاله من أن المصريين قد أخلوا بالمعاهدة لا يقوم على حجج قوية تدعمه . هذا ، فضلا عن أنه هو نفسه قد تجاهل التزاماته . ولكن كيفما كان الأمر ، فمن الواضح أن معاهدة دمياط قد فقدت قيمتها بعد خروج الصليبيين من مصر ، وأنه بات من الضرورى إعادة النظر فيها بعدما طرأ على الشرق الإسلامى من تطورات .

ولذلك فقد رأى الملك أن الظروف ملائمة للاتصال بالمسئولين فى مصر لاكتساب ما يمكن اكتسابه لصالح القضية الصليبية ، مستغلا الأوضاع التى آلت إليها بلدان الشرق الإسلامى (١) . فالدماشقة يعرضون عليه التحالف معه ضد المصريين نظير شروط مغرية ، فلا يعطيهم ردا قاطعا بالقبول أو الرفض . ولكنه لم يدع هذه الفرصة تفلت منه ، وأخذ يلوح فى وجه أمراء مصر بالانضمام إلى خصومهم فى الشام عساه يحصل منهم على بعض الامتيازات وخاصة حرية أسراه . وقد أولى لويس هذه المسألة عناية خاصة . وغير خفى أن من بين العوامل التى دفعته إلى إطالة إقامته فى الأراضى المقدسة هى العمل على إخلاء سبيلهم (٢) .

وتبعا لذلك ، وتنفيذا لما تعهد به فى رده على الناصر يوسف صاحب حلب ، أرسل لويس التاسع ، وكان لا يزال يقيم فى عكا (٣) ، وفداً إلى أمراء مصر على

---

(١) King, Knights Hospitallers, 249.

(٢) Guill., de Saint-Pathus, XX, 95; Epistola Ludovici, I, 1199. Cf. Michaud, Crois., VI, 212; Delaville Le Roulx, 196; Petit — Dutaillis, 196.

(٣) لم تحدد المصادر تاريخ قيام هذه البعثة من عكا إلى مصر ، والثابت أن ذلك كان عقب المداولات التى تمت بين الناصر ولويس ، حسبما يتضح من مذكرات جوانفيل والتسلسل التاريخى والزمنى لأحداث هذه الفترة . أنظر : Joinville (ed. Wailly), 254.

رأســـه السيد يوحـنا دى فالنسين Jean de Valencienne . وعنـدما وصل الرسل دمياط وجدوا أن الأمراء قد غادروها إلى القـاهرة ، فتابعـوا رحلتهم إليها (١) . وكان أول ما فعله فالنسين أن احتج لدى الأمراء على عدم تنفيذهم الشروط التى نصت عليها معاهدة دمياط (٢) . ثم بسط عليهم مطالب لويس التى تتلخص فى النقـاط التـالية : أولا — تعويضه عن الأضرار التى لحقت به ، والإساءة التى تعرض لها خلال حملته على مصر (٣) . ثانيا — إعادة المهمات التى تركها الصليبيون بمصر قبل مغادرتهم لها ، وهى تشمل عددا من الآلات والأسلحة والخيام والجياد وما إليها (٤) . ثالثا — المبادرة بإخلاء سبيل الأسرى الفرنج الذين لا يزالون فى سجـون مصر ، (٥) وقد زود الملك البعثـة بالسفن اللازمـة لنقل الأسرى والعتاد (٦) . وأوضح فالنسين للأمراء أن الحل الوحيد لاسترضاء لويس واكتسابه إلى جانبهم هو العمل على تعديل المعاهدة بما يتفـق والظروف الجديدة (٧) . ولـكن الأمراء استبقوا أعضاء البعثة فى العاصمة المصرية فترة غير قصيرة ليتسنى لهم دراسة هذه المطالب قبل أن يعطوهم ردا حاسما (٨) .

ولا بد لنا فى هذا المجال أن نستعرض مختلف الظروف التى أحاطت بموقف

---

(١) Rothelin, II, 620.

(٢) Cf. Grousset, Crois., III, 500; Perry, 199; Walsh, 197.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 254.

(٤) Epistola Ludovici, I, 1199; Nangis, Vita, XX, 381; Rothelin, 620.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 254; Epistola Ludovici, I, 1199; Nangis, Vita, XX, 381.

(٦) Epistola Ludovici, I, 1199; Rothelin, II, 620.

(٧) Joinville (ed. Wailly), 254. Cf. Stevenson, Crusaders, 330.

(٨) Epistola Ludovici, I, 1199; Rothelin, II, 620.

الأمراء المصريين من مطالب الملك الفرنسى. فإذا نظرنا إلى حالة البلاد الداخلية، نجد أن دولتهم كانت لا تزال فى طور التكوين ، وأن أقدامهم لم تثبت بعد فى الحكم (١) . ثم إن العهد قريب باستقلال ولايات الشام الإسلامية عن مصر عندما بلغها الخبر بتغير نظام الحكم فيها، وأن ملوكها من سلالة بنى أيوب ، وعلى رأسهم الناصر صاحب حلب ودمشق ، يستعدون لقصد الديار المصرية والانتقام لمقتل توران شاه . وهم فضلا عن ذلك كانوا يدركون جيدا أنه لو تحالف لويس مع خصومهم أهل الشام لكان فى ذلك القضاء على دولتهم الناشئة ، أو على الأقل زعزعة مركزهم فيها (٢) . ولعله قد ترامت إليهم الأنباء الخاصة بالعرض الذى قدمه عميد آل أيوب فى الشام إلى لويس للوقوف إلى جانبه فى صراعه ضدهم، الأمر الذى كانوا يعملون له ألف حساب .

لقد أدرك المسئولون فى مصر أنهم لو ترددوا أو ماطلوا فى إجابة لويس إلى مطالبه فى الظروف الدقيقة التى تجتازها البلاد ، وأعداؤهم فى الشام واقفون لهم بالمرصاد ، ما قد يترتب على ذلك من أوخم العواقب. ووجدوا أنه من الضرورى اتخاذ قرار فى هذا الشأن يتلائم والأحداث التى استجدت على الموقف السياسى .

وبناء على ما تقدم قال الأمراء لرسل لويس إنه يسرهم إجابة مليكهم إلى مطالبه التى تقدم بها ، على شريطة أن يتحالف معهم ضد سلطان دمشق (٣) .

---

(١) Walsh, St. Louis, 197. أنظر أيضا كنز الدرر ج ٨ ورقة ٢٦ ؛ ابن دقاق : نزهة الأنام لوحة ٨٥ ا — ب ، الجوهر الثمين ورقة ١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) Grousset, Crois., III, 502; King, Knights Hospitallers, 249; Perry, St. Louis, 200.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 254.

وإظهارا لحسن نواياهم أطلقوا فى رجب ٦٤٨ هـ/أكتوبر ١٢٥٠ م سراح فريق من الأسرى الفرنج من بينهم وليم دى شاتنوف Guill. de Châteauneuf رئيس الاسبتارية كدفعة أولى . بينما احتفظوا بباقى الأسرى كرهينة عندهم إلى أن ينجلى الموقف تماما [١] . وقد اختلفت المصادر المسيحية فى تقدير عدد الأسرى الذين أخلى المصريون سبيلهم . وكان عددهم يتراوح بين سبع وتسعمائة أسير [٢] . إذ جاء فى « حوليات الأراضى المقدسة » أنهم أفرجوا عن رئيس الاسبتارية و ١٠٠ فارس وحوالى ٨٠٠ أسير آخر [٣] . بينما قدرهم هرقل بحوالى ١٢٠ فارس و ٨٠٠ أسير عادى [٤] . أما روتلان فقد أمدنا ببيانات عددية دقيقة فى هذا الشأن . إذ ذكر أن المصريين أطلقوا سراح ٢٥ من الاسبتارية و ١٥ من الداوية و ١٠ من الفرسان التيوتونية و ١٠٠ فارس آخر ، عدا ٦٠٠ أسير مسيحى من رجال ونساء (٥) . وكان بعض هؤلاء قد أسرهم الخوارزمية فى واقعة غزة الشهيرة سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م (٦) . أما فيما يتعلق بمخلفات الصليبيين فى دمياط ، فقد امتنع أمراء مصر عن ردها لهم (٧) . ولعلهم قد أشعلوا فيها النيران عند استيلائهم على المدينة إذا أخذنا برواية جوانفيل ، أو لعل المماليك قد أعملوا فيها النهب وفقا لنص ابن تغرى بردى .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 254; Guill. de Chartres, XX, 31.

(٢) King, Knights Hospitallers, 249; Stevenson, Crusaders, 330.

(٣) Annales, II, II, 444-5.

(٤) Eracles, II, 439. Cf. Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 197, n. I.

(٥) Rothelin, II, 625-6. Cf. Grousset, Crois , III, 500.

(٦) Annales, II, II, 444. Cf. King, 249; Stevenson, 330.

(٧) Epistola Ludovici, I, 1199; Rothelin, II, 621.

على أى حال، عاد السيد يوحنا دى فالنسين إلى عكا وبرفقته الفوج الأول من الأسرى الفرنج (١) . كما صحبته سفارة مصرية تعرض التحالف مع المسيحيين ضد صاحب حلب ، استكمالا للمحادثات التى بدأها رسول لويس فى مصر (٢) . وقد وصلوا عكا فى ١٧ أكتوبر سنة ١٢٥٠ م (٣) / ١٩ رجب ٦٤٨ هـ .

كان زمام الموقف فى قبضة ملك فرنسا طالما ظل الخلاف قائما بين مصر والشام . لذا نراه ينتهز الفرصة فيتخذ سياسة الضغط والتهديد لإكراه المماليك على إجابة باقى مطالبه ثمنا لتحالفه معهم ضد الملك الناصر (٤) . فنراه يطلب من رسل مصر أن يبلغوا المسئولين فى بلادهم أنه لن يعقد معهم أية معاهدة حتى يرسلوا إليه رءوس جميع الفرنج المعلقة حول أسوار القاهرة منذ كارثة غزة ، وكذلك جميع الأطفال الذين وقعوا فى حوزتهم منذ ذلك التاريخ، وحتى يعفوه أيضا من نصف الفدية التى يدين بها لهم بموجب معاهدة دمياط ، ويطلقوا سراح باقى الأسرى المسيحيين الذين عندهم . وأفادهم بأنه يمكن على هذه الأسس البحث فى عقد معاهدة جديدة بينه وبينهم . وأوفد الملك مع أولئك الرسل سفيره يوحنا دى فالنسين إلى مصر للمرة الثانية ، وقد وصفه جوانفيل بأنه رجل ذو حكمة وجرأة (٥) . وهكذا نرى لويس يخاطب أولئك الذين نكلوا به فى مصر بثقة واعتداد ، على الرغم من ضآلة القوات التى كانت

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 254.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 256. Cf. Perry, 200; Boulenger, 186.

(٣) Delaville Le Roulx, 197; Stevenson, 330, n. 1.

(٤) Rothelin, II, 627. Cf. Grousset, Crois., III, 502; Stevenson, 330.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 256; Perry, 200; Walsh, 203.

معه وضعف الأمل فى القيام بعمل حربى ضخم (١) .

هنـا يجمل بنا أن نتوقف قليـلا لنرى ما كان من أمر هؤلاء الأسرى الفرنج بعد وصولهم إلى عكا . يذكر جوانفيـل أن مرجريت دى رينل Marguerite de Reynel صاحبة صيدا ، كانت فى استقبالهم واستلمت منهم عظام ابن عمها كونت والتر دى برين صاحب يافا التى أحضروها معهم من مصر ، ودفنتها فى دير الفرسان الاسبتارية بعكا . وأقيم بهـذه المناسبة قداس جنائزى حضره الملك لويس ، وكان لايزال يقيم فى هذه المدينة منذ مقدمه إليها (٢) .

أما وليم دى شاتنوف رئيس الاسبتارية ، فقد عاد إلى ديره بعد أسر دام زهاء ست سنوات . وكان نائبه يوحنا دى رونيه Jean de Ronay قد قتل هو وعدد كبير من الاسبتارية ممن اشتركوا مع لويس فى الحملة على مصر . ويحتمل أنه كان يتولى شئون الجماعة خلال الفترة التى أعقبت وفاة نائب الرئيس خليفته المدعو هيوج ريفـل Hugh Revel باعتباره قائد الجماعة ، إلى حين عودة شاتنوف (٣) .

ومن بين من أحضرهم السيد فالنسين إلى عكا اربعين من فرسان كونت شامبانيا .

---

(١) Cf. Walsh, 203.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 254. Cf. Boulenger, St. Louis, 185.
وفيما يتعلق بقصة وقوع والتر دى برين فى الأسر وقتله ، راجع
Joniville (ed. Wailly), 288-294.

(٣) King, Knights Hospitallers, 249. وكان شاتنـوف رئيسا للاسبتارية فيما بين ١٣ مايو ١٢٤٣ م و ٢٠ فبراير ١٢٥٨ م . وكان ينوب عنه فى فترة الأسر يوحنا دى رونيه الذى قتل فى موقعة المنصورة الثانية (١١ فبراير ١٢٥٠م). أنظر عن ذلك:
Delaville le Roulx, 194 & 405-9.

وقد أدخلهم الملك فى خدمته وعلى نفقته الخاصة بعد إلحاح جوانفيل ، ورغما عن معارضة بعض رجال مشورته بحجة أنهم سيكلفونه مبالغ ضخمة لا قبل له بها . وقد أمر لويس بالحاقهم بفرقة جوانفيـــل ، وتزويدهم بما يلزمهم من ملابس وغيرها (١) .

وتذكر الرواية الغربية أن الأسرى الفرنج الذين أخلى المصريون سبيلهم ، قصوا على الملك الفرنسى وعلى اللاتين فى سورية ما يلاقيه رفاقهم الذين لا يزالون فى سجون مصر من مضايقات ، وأن المصريين كانوا يكبلون الأسرى بالأغلال ويسومونهم العذاب جزاء على إقدامهم لغزو بلادهم ، حتى أن عددا من هؤلاء الأسرى ذهب ضحية هذه المعاملة (٢) .

واضح أن ما رواه أولئك اللاتين عن اضطهاد المصريين للأسرى الفرنج فيه كثير من المبالغة والتهويل . ومما يدعو إلى الشك فى روايتهم أن المراجع الإسلامية خلت من الإشارة لهذه المسألة . وما كان يضيرها أن تسجل ذلك لو كان قد حـــدث فعلا . هذا ، فضلا عن أن مجموع الأسرى الفرنج الذين أفرج عنهم المصريون فى هذه الدفعة وفى الدفعات التالية، يكاد يطابق العدد الإجمالى للأسرى اللاتين الذين كان لويس يسعى لفك أسرهم ، وذلك حسب شهادة أحد مؤرخيهم

(١) Joinville (ed. Wailly), 256. Cf. Perry, 200; Walsh, 203.

ويذكر وليم دى سانت باثوس أن الأسرى الذين أخلت مصر سبيلهم نقلوا جميعا إلى عكا على نفقة لويس الخاصة ، وأن الملك زودهم بكل ما يحتاجون إليه ، وأعطى كلا منهم مبلغا من المال من عملة سورية اللاتينية للانفاق منه على حاجياته . أنظر :

Guill. de Saint-Pathus, XX, 96; Michaud, Crois., VI, 212-3.

(٢) أنظر : Epistola Ludovici, I, 1199; Nangis, Vita, XX, 381; Rothelin, II, 621.

المعاصرين وهو وليم دى سانت باثوس (١) . بل لقد أكد مؤرخ آخر أن الأمراء ردوا فى فترة متأخرة باقى الأسرى الغربيين بمصر بحيث لم يبق هناك أى أسير فيها (٢) . هذا، وإذا سلمنا جدلا بأن المصريين قد أساءوا معاملة أسرى الفرنج ، فلا يجب أن ننسى أن منابع الحروب الصليبية عامرة بالأمثلة الدالة على استعمال الشدة فى معاملة الأسرى من كلا الجانبين . بل لقد أبدى الصليبيون أحيانا من ضروب القسوة مع أسراهم ما يفوق تلك التى أبداها المسلمون . وكانوا لا يفرقون بين المحاربين والنساء والشيوخ والأطفال ، وكانوا يقتلون وينهبون من يصادفونه منهم ، ويخبطون فى ذلك خبط عشواء (٣) .

ففى سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ - ٦ م أغار الفرنج على الفرما حيث أعملوا فيها النهب والتدمير ، كما هدموا المساجد ثم أشعلوا فيها النيران (٤) . وحدث أيضا عندما استولى الصليبيون على دمياط فى عهد الملك الكامل محمد سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩م ، أن طلب أهلها منهم الأمان ، وأن يخرجوا من المدينة بأهلهم وأموالهم ، فحلف لهم الفرنج على ذلك ، فلما فتحوا لهم الأبواب ، دخلوا وغدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف ، « وباتوا فى الجامع يفجرون بالنساء ، ويفتضون البنات ، وأخذوا المنبر والمصحف » (٥) . وإن نسينا فلا ينبغى أن ننسى ما فعله جند بطرس

(١) Guill. de Saint-Pathus, XX, 95-6.

(٢) Rothelin, II, 628. Cf. Grousset, Crois., III, 502.

(٣) أنظر لوبون : حضارة العرب (ترجمة زعيتر) ص ٣٥٢ ؛ وكذلك أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٢٨٠ — ٢٨٥ .

(٤) خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٢ .

(٥) شذرات الذهب ج ٥ ص ٦٦ . راجع أيضا ابن الاثير : الكامل (مجموعة الحروب الصليبية) ص ١١٩ ؛ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٨٣ — ٨٤ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٢٨ و ١٢٩ ؛ تتمة المختصر ج ١ ص ١٣٧ .

الأول لوسنيان ملك قبرص اللاتينى فى حملتـــه على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م / ٧٦٧ ه ، إذ عندما نزلوا على الشاطىء هاجموا الأهالى الآمنين العزل الذين كانوا هناك دون رحمة أو هوادة ، حتى أن القليل منهم من استطاع الوصول إلى المدينة سالما . كما تعرضت الاسكندرية نفسها فى أيام احتلالهم لها التى لم تزد عن أسبوع للنهب والتخريب بشكل لم تشهده منذ أقدم عصورها (١) .

وعلى الرغم من هذه المعاملة القاسية من جانب الصليبيين ، فقد أظهر المسلمون أحيانا من ضروب الرأفة والرحمة ما جعل الفرنج أنفسهم يشيدون بها . من ذلك ما رواه ابن شداد فى معرض حديثه عن الحملة الصليبية الثالثـــة ، من أن المسلمين أخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا من أعدائهم . وعندما اكتشفت أمه ذلك جن جنونها ، فأشار عليها كبار قومها بالتوجه إلى صلاح الدين ، ورجائه فى أن يعطيها طفلها ، لما عرف عنه من العطف والكرم فذهبت إليـــه ، وروت له قصتها ، فتأثر حتى دمعت عيناه . وأمر رجاله بإحضار الطفل الرضيع فوجدوه قد بيع فى السوق ، فارتده وأمر بدفع ثمنه إلى المشترى وأخذه منه . وانتظر إلى أن أحضر الطفل وسلمه إلى أمه . ورغبة منـــه فى إبراز شعوره النبيـل ، كلف رجاله بحملها ورضيعها على فرس إلى المعسكر المسيحى (٢) .

نعود إلى موضوع الصراع بين الأيوبيين والمماليك لنرى ماذا استجـــد من أحداث بعد أن شق بنو أيوب فى الشام عصا الطاعة وأبوا الاعتراف بملك شجر الدر ، مما أتاح للملك لويس الفرصة لمواصلة سياسته ضد المسلمين ، والعمل على

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 353-5, 361-362, 365-7.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٥ — ١٤٦ .

استغلال تفرق كلمتهم لصالح المسيحية الغربية والامارات اللاتينية فى الأراضى المقدسة.

الواقع أن استقلال بعض أمراء الأسرة الأيوبية المقيمين فى الشام أدى إلى حدوث كثير من الفتن والاضطرابات فى الديار المصرية . فما أن تواترت الأخبار إليها فى ربيع الآخر ٦٤٨ هـ / يوليو ١٢٥٠م بخروج الناصر لملك دمشق، حتى اجتمع الأمراء والأجناد بقلعة الجبل وجددوا الإيمان لشجر الدر وللأمير الأتابك عز الدين أيبك التركمانى وصدرت الأوامر باستعداد العساكر للتوجه إلى الشام لملاقاة الناصر وتداركه قبل أن يبادئهم بالغزو [١] . ولكن لم تكد تمضى بضعة أيام حتى وردت الأنباء إلى القاهرة بامتلاك الناصر دمشق، وقبضه على الأمراء الصالحية بها فأسرع المماليك باعتقال كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين ، وزجوا بهم فى قلعة الجبل . وأسقط فى يدهم عن المسير إلى الشام بعد أن وقعت دمشق فى قبضة الناصر[٢] . ويكفى للدلالة على اختلال الأحوال فى البلاد ما ذكره ابن ايبك من أنه « وقع تشويش كبير بالقاهرة ، وغلقت الأبواب ووقع الخوف والنهب » [٣] .

كانت شجر الدر غريبة عن الأسرة الايوبية ، فهى مملوكة لا تربطها بتلك الأسرة إلا زواجها بالملك الصالح أيوب ، وقد مات هذا الملك كما مات ابنها من الصالح فى حياة أبيه . وقد كانت هى تحس بذلك ، وتعرف ما يحيط بمركز الملك من خطورة فى مثل تلك الفترة من تغيير نظام الحكم ، خاصة وهى أول امرأة حكمت مصر فى التاريخ

---

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٥ ا؛ ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٨ ورقة ١٣ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٥ ا — ب . أنظر أيضا السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦٧ ؛ تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٨٥ .

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ ورقة ١٣ .

الاسلامى كله . وقد عد هذا حدثا فذا ، حتى أن الخليفة العباسى المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦ هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨ م) أنكر أمرها وبعث إلى أمراء مصر يقول لهم: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلا»[١] .

فكل هذه العوامل أضعفت من مركزها . وبدلا من أن تطمع فى الحكم رأت التخلى عنه لأتابكها عزالدين أيبك . فتزوجت منه وتنازلت له عن الملك بعد نحو ثلاثة أشهر من ارتقائها إليه ، وكان ذلك فى يوم السبت ٢٩ ربيع الثانى ٦٤٨ هـ/ ٣٠ يوليو ١٢٥٠ م[٢] . وقد دلت شجر الدر على دهائها باتخاذها هذه الخطوة ، إذ اتقت أولا غضب بغداد . أضف إلى هذا أن تولية أيبك الحكم فيه ولو ظاهريا ، تضييق للهوة الفاصلة بين المماليك البحرية وبين الذين يؤثرون أن تظل مصر فى البيت الأيوبى ، وكان ايبك قد انتقل إلى السلطان الصالح نجم الدين[٣] .

على أن ملوك الشام من الأيوبيين لم يرضوا عن تولية المعز ايبك للملك وهو من

---

(١) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٨ . أنظر أيضا السيوطى : الأشرف قايتباى ورقة ١٣ أ — ب ؛ حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٤ . وذكر ابن اياس (بدائع الزهور ج١ ص٨٩) أن الخليفة أنكر عليهم هذا الأمر غاية الانكار ، وأمرهم بالرجوع عنه بعد أن ذكرهم بالحديث الذى ورد عن رسول الله (صلعم) : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » . وهذا الحديث الشريف وارد فى صحيح البخارى كتاب الفتن اب ١٨ ، وسنن الترمذى كتاب الفتن باب ٧٥ ، أنظر (المعجم المفهرس لفنسنك ص ٤٩٩) .

(٢) راجع فى ذلك ابن واصل ج٢ لوحة ٣٧٥ ب ؛ مسالك الابصار ج٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٧٤ ؛ نهاية الارب ج ٢٧ لوحة ٩٦ ؛ كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٣ - ١٤ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٩ — ٣٢٠ ؛ بدائع الزهور ج ١ ص ٩٠ .

(٣) ابن واصل ج٢ لوحة ٣٧٥ ب. أنظر ايضا كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٣ ؛ ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ١٦٤ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٣٦ — ٣٣٧ .

مماليك أسرتهم . والظاهر أن المعز وأمراء المماليك عرفوا ذلك منذ أن بايعوه بالملك ، وتوقعوا هجوم ملوك الشام من بنى أيوب على الديار المصرية[١] . وقد رأى المماليك أن خير وسيلة هى محاربتهم بنفس سلاحهم ، ليفسدوا عليهم خطتهم . فأقاموا فى السلطنة فى ٥ جمادى الأولى ٦٤٨ هـ / ٤ أغسطس ١٢٥٠ م ، صبيا صغيرا من بنى أيوب « ليجتمع الكل على طاعته ، ويطيعه الملوك من أهله » . ولقبوه بالملك الأشرف مظفر الدين موسى[٢] ، وكان حفيدا لآخر ملوك بنى أيوب فى اليمن ، وجعلوا عز الدين ايبك أتابكه[٣] . وتم ذلك كله بعد خمسة أيام من مبايعتهم للمعز . وخطب على المنابر للأشرف والمعز ، وصارت التواقيع والمراسيم تخرج باسمهما ، والسلطة الفعلية فى قبضة المعز ، وليس للأشرف سوى الاسم[٤] .

ومع ذلك فلم تستقر الامور تماما بمصر . إذ وقعت فتنة بين جماعة من العسكر الذين كانوا بالصالحية ، واتفقت كلمتهم على طاعة المغيث صاحب الكرك عندما بلغهم استعداد الناصر لقصد الديار المصرية. عندئذ اتفق كبراء الدولة ، ونادوا أن

---

(١) Cf. Grousset, Crois , III, 498.

(٢) هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف ابن الملك المسعود اقسيس ابن الملك الكامل بن العادل بن أيوب. اقيم فى السلطنة فى ٦٤٨ هـ ، وخلعه ايبك فى ٦٥٠ هـ ، وان ظل اسمه يذكر فى الخطبة حتى ٦٥٢ هـ. أنظر ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٦ ا؛ وكذلك Zambaur, 97.

(٣) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٦ أ ـ ب. راجع أيضا البغدادى: عيون الاخبار جـ ٢ لوحة ٤٢٥ ؛ المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٢ ب ـ ٣ أ ؛ نزهة الانام لوحة ٨٣ أ ؛ تاريخ ابن الراهب ص ٩٩ ؛ الوافى بالوفيات جـ ٣ قسم ١ لوحة ١٤٦ .

(٤) الوافى بالوفيات جـ ٣ قسم ١ لوحة ١٤٦ ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٠ ؛ ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ١٦٤ .

البلاد للخليفة المستعصم بالله وأن المعز نائبه بهـا . كما جددت الايمان للأشرف بالسلطنة وللمعز بالأتابكية . وأمر ايبك بمسير العساكر إلى غزة . فخرج فارس الدين اقطاى مقدم البحرية فى الفى فارس من القاهرة فى رجب ٦٤٨ هـ / أكتوبر ١٢٥٠ م قاصدا تلك المدينة ، وكان بها جماعة من عسكر الناصر فأوقع بهم وعاد إلى دياره فى شعبـان من نفس السنة (نوفمبر ١٢٥٠م) . ومر فى طريق عودته بالصالحية حيث وجد أن مدبرى الفتنة قد هربوا وتفرقوا . وأعقب ذلك حركة من الاعتقالات بمصر ، كان القصـد منها تأمين سلامـة الدولة فى تلك الظروف الدقيقة التى تجتازها[١] .

على أن كل هذه المحاولات من جانب المماليك لتجنب هجوم أمراء الأيوبيين على الديار المصرية لم تؤت ثمرتها . وأعد الأيوبيون جيوشهم لمحاربة خصومهم . فسرعان ما جهز الناصر يوسف صاحب الشام جيشـا كبيرا خرج من دمشق فى منتصف رمضـان ٦٤٨ هـ/ ١١ ديسمبر ١٢٥٠ م ، قاصـدا مصر لغزوها وردها إلى أملاك أسرته . وقد انضم إليه ملوك الشام من أهل بيته[٢]. وجعـل الأمير شمس الدين لؤلؤ مدبر دولته مقدما على جيوشه .[٣]

(١) ابن واصل جـ٢ لوحة ٣٧٦ ب ــ ٣٧٧ ب . أنظر أيضا مسالك الابصار جـ٢٧ مجلد٣ لوحة ٢٧٥ ؛ كنز الدرر جـ ٨ ورقة ١٥ ؛ فتوح النصر ورقة ١٦٦ ؛ المنهل الصـافى جـ ١ ورقة ١٣ ؛ الوافى بالوفيات جـ ٣ قسم ١ لوحة ١٤٧ .

(٢) هم الصالح اسماعيل بن العادل بن ايوب صاحب بعلبك ، والأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور صاحب حمص وهو حينئذا صاحب تل باشر والرحبة وتدمر ، والملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين ، واخوه نصرة الدين ، والملك الظـاهر شادى والملك الامجد حسن . أنظر ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٨٠ب ــ ٣٨١ ا ؛ مسالك الابصـار جـ ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٧٦ .

(٣) ابن واصل جـ٢ لوحة ٣٨٠ ا ــ ٣٨١ ا. أنظر أيضا عيون الأخبار جـ٢ لوحة ٤٢٥ ؛ عقد =

ولما وصلت الأخبار بذلك إلى القاهرة ، انزعج المماليك وأجمعوا على لقاء الناصر وقتاله ودفعه عن البلاد . كما أفرج ايبك عن ولدى الملك الصالح اسماعيل وكانا معتقلين منذ أيام الملك الصالح ايوب ، وذلك بقصــد الايقاع بين الناصر وأبيهما الصالح اسماعيل وكان فى جيشه . كما نودى كذبا فى القاهرة بانتظام الصلح بين الملك المغيث والمعز ليبلغ الناصر ذلك فيتوقف عن دخول البلد .(١)

وتواترت الأخبار باقتراب عساكر الشام من مصر ، فأعد المعز من جهته الجيوش لمواجهتها، وأنفذ جانبا منها برئاسة الفارس اقطاى والأمير حسام الدين فى شوال ٦٤٨هـ/ يناير ١٢٥١م إلى الصالحية. ثم لحق بها فى بقية العساكر فى ٣ من ذى القعدة/٢٦ يناير تاركا الأشرف بقلعة الجبل. واستقرت عساكر مصر بالصالحية إلى السابع من هذا الشهر (٣٠ يناير) . وفى هذا اليوم وصل الملك الناصر وجيوش الشام إلى منزلة كراع (٢) وهى قريبة من العباسة والسدير (٣) ، ونزلوا بها . عندئذ رحل الملك المعز فى عساكر

= الجمان جـ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٢-٣ ؛ فتوح النصر ورقة ١٦٦ ؛ نزهة الانام لوحة ٨٣ ب؛ روض المناظر (مخطوط غير مرقم بدار الكتب — حوادث سنة ٦٤٨ هـ) .

(١) ابن واصل جـ٢ لوحة ٣٨١ أ و ٣٨١ ب . راجع كذلك مسالك الابصار جـ٢٧ مجلد٣ لوحة ٢٧٦ ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٣ ؛ فتوح النصر ورقة ١٦٦ .

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٨١ ب ؛ وكذلك كنز الدرر جـ٨ ورقة ١٧ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ س ٣٧٣ -٤ ؛ المختصر جـ٣ ص ٣٧٤- وقد ذكر كل من ابن واصل والمقريزى أن كراع قريبة من العباسة ، أما العينى (جـ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٣) فكان أكثر دقة إذ قال إنها قريبة من العباسة والسدير. أنظر أيضا Quatremére,I, 19, n. 18 . والكراع فى اللغة طرف الشيء ، وكراع الأرض ناحيتها . أنظر معجم البلدان جـ٤ ص٢٤٧ ؛ محيط المحيط.

(٣) أما السدير فهو مستنقع فى أرض مصر بين العباسة والخشبى ، تنصب فيه فضلات النيل إذا زاد. وهو أول ما يلقى القاصد من الشام إلى مصر من أرض مصر. أنظر معجم البلدان جـ٣ ص٦١ ؛ **Toussoun, Hist. du Nil, I, 235 ,236.**

مصر من الصالحية ، ونزل قبالة الناصر بموضع يقال له سموط (١) . وبقى الجيشان هكذا إلى العاشر من ذى القعدة . وفى هذه المنزلة التى تعـــرف بكراع وقعت المعركة الحاسمة بين المصريين والشاميين (٢) .

فني يوم الخميس ١٠ من ذى القعدة ٦٤٨هـ/٢ فبراير ١٢٥١م اصطف الجيشان استعدادا للقتال . وفى الساعة الرابعة من صباح هذا اليوم بدأت المعـــركة بين الفريقين ، فانهزمت الجيوش المصرية فى أول الأمر هاربة شطر القاهرة عن طريق العباسة ، وتبعتها غالبية قوات الناصر لنهب مخلفاتها ، بينما بقى الملك الأيوبى فى ساحة القتال تحت السناجق السلطانية مع جمع من العزيزية . أما المعز فقد ثبت هو وفئة من البحرية وكان قد عزم على الهرب إلى الشوبك للنجاة بنفسه . ولكن مجرى الحوادث تغير ، إذ غدرت المماليك العزيزية بالناصر وانضمت إلى مماليك مصر بسبب ما يربط شطريهما من عوامل القرابة والأصل فرجحت بذلك كفة المماليك المصرية (٣) . وعندئذ حمل الملك المعز ومن معه على الفرقة التى فيها

---

(١) نزل بموضع يقال له سموط ، أنظر عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٣ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٧٤ . وقد ذكر ابوشامة (الذيل ج ٢ لوحة ٢٠٧) أن سموط هذه بين الخشبى والعباسة ، أما الخشبى فيعرف اليوم بالسعيدية ، فيما بين بلبيس والصالحية ، ويقع هذا البلد على مسافة ثلاث مراحل من الفسطاط ، وهو أول الجفار من ناحية مصر وآخرها من ناحية الشام . أنظر السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٧٤ حاشية ٢ للدكتور زيادة ، وكذلك معجم البلدان ج٢ ص ٤٤٥ ، و Toussoun, op. cit , loc. cit.

(٢) نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٩ ، ١١٢ ؛ نزهة الانام لوحة ٨٣ ب — ٨٤ ا .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٨٢ ا ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٩ . أنظر كذلك كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٧ ؛ الوافى بالوفيات ج ٣ قسم ١ لوحة ١٤٧ ؛ مسالك الابصار ج ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٧٦ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

الناصر بكراع ، فولى منهزما إلى الشام مع من استطاع اللحاق به من أتباعه ، تاركا بقية عساكره يتمزق شملها . وقبض المعز على عدة من أمراء بنى أيوب . ثم نازل فرقة شمس الدين لؤلؤ وكسرها ، وقبض عليه ثم أمر به فقتل هو وجماعة من القيمرية (١) . وكاد الشريف المرتضى أن يهلك فى هذا اليوم لولا أن أسعفه نسبة فصاح « أنا رجل شريف وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فتركوه سالما (٢).

وبينما كانت هذه المعركة تدور رحاها عند منزلة كراع بين الناصر والمعز ومن بقى معهما ، تابعت العساكر المصرية التى كانت لحقت بها الهزيمة فى بدء القتال سيرها نحو العاصمة المصرية عن طريق العباسة ، ولم تكن تعلم ما تجدد بعد هروبها من انضمام العزيزية إلى المعز وانتصارهم على الناصر ، بسبب بعد الشقة. ووصلت إلى القاهرة غد هذا اليوم، وهرب البعض إلى الصعيد. وسارت العساكر الشامية فى أثرها حتى العباسة (٣) من أعمال بلبيس ، وخيموا بها وهم

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٨٢ ب — ٣٨٣ ا ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٩ . راجع أيضا : نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ١٠٠ ، ١١٢ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٣ — ٣٢٤ ؛ مختصر التواريخ ورقة ١٦٥ ا — ب ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٦ — ٢٧ ؛ نزهة الانام لوحة ١٨٤ ا — ب ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام (ضياء ولؤلؤ فى حوادث سنة ٦٤٨ هـ) .

(٢) مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٩ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٥ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٧٤ ؛ النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨ .

(٣) قال المقريزى فى خططه (ج ١ ص ٢٣٢) إن العباسة قرية بين بلبيس والصالحية من أرض السدير . وحددها أبو الفداء فى تقويم البلدان (ص ١٠٨) فقال إنها تقع شمالى بلبيس على نحو مرحلة منها . وذكر ياقوت في معجم البلدان (ج ٣ ص ٦٠٠) أن العباسة =

خريطة رقم (٣)

معركة العباسة (رسم تخطيطى)

لا يشكون أن الكسرة قد تمت على المصريين . ولم يكونوا يتوقعون أن يتغير الحال وينقلب النصر الذى أحرزوه فى أول اليوم إلى هزيمة تامة . ولكن عندما بلغهم الخبر بهروب الناصر وقتل الشمس لؤلؤ وأسر ملوك بنى أيوب ، اختلفت كلمتهم وأسرعوا بالعودة إلى الشام (١) .

والحق أن هذا اليوم يعد من أيام مصر المشهودة فى تاريخها . فقد بدأ وكل مظاهره توحى بأن حكم المماليك البحرية قد انهار ، وأن حكم الدولة الأيوبية قائم مستمر . وانقضى وإذا الناصر يولى هاربا إلى الشام ليعد العدة لهجوم جديد ، والمعز يدخل القاهرة فى ١٢ من ذى القعدة (٤ فبراير) ظافرا هو والمماليك البحرية وجموع الأسرى (٢) . وبعد ذلك بشهر أرسل المعز جيشا قوامه ثلاثة آلاف فارس بقيادة فارس الدين اقطاى ، فاستولى على غزة وعاد إلى الديار المصرية (٣) .

= هى أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ، وأن بينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخا . وقد سميت باسم عباسة بنت أحمد بن طولون ، لأنها خرجت إلى موضع العباسة مودعة لبنت أخيها قطر الندى ابنة خمارويه بن احمد بن طولون لما حملت إلى المعتضد ، فضربت عباسة فساطيطها بهذا الموضع ثم بنت به قرية سميت باسمها . وكانت العباسة متنزها لملوك مصر إلى أن أنشأ الملك الصالح نجم الدين الصالحية ، فتلاشى أمرها . وذكر على مبارك فى خططه (ج ١٤ ص ٦) أن العباسة القديمة تقع الآن فى شرقى الترعة الاسماعيلية بالبر الأيمن قريبا من شاطئها .

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٨٣ ا . أنظر كذلك مسالك الابصار ج ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٧٧ ؛ نهاية الارب ج ٢٧ لوحة ١١٢ ؛ كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٨ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٤ .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٨٣ ب — ٣٨٤ ا .

(٣) عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٦ . أنظر أيضا ابن بهادر ورقه ١٦٨ ؛ السلوك =

ففى هذا الوقت الذى اشتبكت فيه جيوش الناصر والمعز فى حرب سافرة ، كان الملك الفرنسى يترقب ما قد تسفر عنه هذه الحرب من نتائج . وليس أدل على اهتمام اللاتين بهذه الأحداث من أن مؤرخيهم أوردوا تفاصيلها فى مؤلفاتهم ، وخاصة واقعة العباسة (١) التى تقرر فيها مصير مصر والحكم فيهـا زهاء قرنين ونصف من الزمان . وقد اضطر لويس إلى الوقوف موقف الحياد فى هذه المعركة دون أن يتدخل فى صف أحد الفريقين لأنه لم يكن قد ارتبط مع أحدهما بشىء حتى تلك اللحظة . إذ اقتصر الأمر على مجرد تبادل الرسل بينه وبينهما دون أن يحدد موقفه منهما بصفة نهائية . هذا ، فضلا عن أنه كان لا يملك من القوات ما يكفى للتدخل الفعلى فى الميدان ، سواء بالانضمام إلى أحد الجانبين ضد الآخر ، أو مهاجمتهما معا مستغلا انقسامهما على بعضهما(٢) . ولكنه على أى حال وجد فى استمرار الخلاف بين المسلمين وازدياد حدته ، فرصة جديدة أتيحت له فعمل على استغلالها لمصلحته . وعلى هذا يبدأ دور جديد يدخل فيه لويس التاسع نفسه ، وتتشابك مصالح الصليبيين بمصالح الأيوبيين والمماليك مرة أخرى .

كان المماليك فى هذه المرة أسبق إلى خطب ود الملك الفرنسى من خصومهم أمراء الشام . فقد وجدوا أن حكمهم لم يكن قد تمكن بعد ، وأن النزاع لا يزال قائما بينهم وبين الأيوبيين ، وكل منهما واقف لخصمه بالمرصاد . زد على ذلك أن هزيمة

= ج ١ قسم ٢ ص ٣٨٠ ؛ المختصر ج٣ ص ١٩٥ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨٦ — وذكر الذهبى (تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١١٩) أن المصريين استولوا على نابلس كذلك ، ولم تتمكن قوات دمشق من دفعهم عنها .

(١) Cf. Rothelin, II, 624-5; Eracles, II, 440 & 440, n.c.; Annales, II, II, 444; Matt. Paris, II, 482. — وقد أمدتنا المراجع الثلاثة الأولى ببيانات دقيقة عن موقعة العباسة وخاصة عدد الجيوش والقتلى من الجانبين ، وغير ذلك من المعلومات التى أغفلتها المصادر الاسلامية .

(٢) Perry, St. Louis, 202.

الناصر فى العباسة لم تفت فى عضده ، ولم تزعزع حكمه فى الشام ، ولم تخرجه من دمشق التى كان قد استولى عليها قبل ذلك ببضعة أشهر ، وأنه لا شك قائم بمحاولة جديدة لغزو مصر . ثم هم يعلمون جيدا أن الملك الفرنسى لم يذهب إلى الامارات اللاتينية فى الشام إلا ليستأنف جهوده فى سبيل تأليف حملة صليبية جديدة تمسح هزيمته فى المنصورة وفارسكور [١] .

وبناء على ذلك رأى اولو الأمر فى مصر ضرورة إجابة لويس إلى مطالبه التى كان قد تقدم بها رسوله يوحنادى فالنسين قبل قيام الحرب بينهم وبين أمراء الشام ، ولم يكونوا قد أعطوه عليها آنذاك ردا حاسما . ورأوا أيضا ضرورة المبادرة بعقد معاهدة جديدة معه بدلا من معاهدة دمياط التى استنفدت أغراضها ، حتى لا يحملوه على مناصرة أعدائهم [٢] . ففى مارس ١٢٥٢ م / ذى الحجة ٦٤٩ هـ أبلغ رسل مصر الملك لويس ـ وكان قد غادر عكا قاصدا قيسارية ـ موافقة المماليك على مطالبه [٣] . وأبدوا استعدادهم لاطلاق سراح باقى الأسرى الفرنج الذين بمصر ، وإعفائه من دفع النصف المتبقى عليه من الفدية [٤] . كما عرضوا عليه أن يسلموه بيت المقدس مقابل مناصرتهم ووقوفه إلى جانبهم فى صراعهم ضد الناصر والأيوبيين فى الشام [٥] . وليس أوضح من نص العينى فى هذا الصدد ، إذ قال :

---

(١) Matt. Paris, II, 502. Cf. Guizot, 87.

(٢) Matt. Paris, II, 502. Cf. Boulenger, 186.

(٣) Rothelin, II, 628; Joinville (ed. Wailly), 282. Cf. Stevenson, 330; Perry, 210.

(٤) Matt. Paris, II, 502-3. Cf. Grousset, Crois., III, 502; Guizot, 87; Ludlow, 358.

(٥) Rothelin, II, 628. Cf. Grousset, Crois., III, 502; Guizot, 87; Ludolw, 358.

« ومال الجيش المصرى بالفرنج ، ووعدوهم أن يسلموا اليهم بيت المقدس إن نصروهم على الشاميين ، وكان قد اشتدت الحرب بينهم »[١]. وقد ورد هذا النص أيضا فى مؤلفى ابن كثير[٢] وابن بهادر[٣].

سارع لويس إلى قبول هذا الاتفاق المقترح من جانب مصر ، إذ وجد فيه ضمانا كافيا لاقرار السلام فى الولايات اللاتينية فى الشرق وهو ما كان يسعى لتحقيقه . كما أنه سيتيح له الحصول على مطالبه كاملة وأولهـا تخليص بقية الأسرى الفرنج الذين لا زالوا يرزحون تحت نير المصريين ، وثانيها إعفاؤه من دفع نصف الفدية المتبقى عليه ، وفوق هـذا وذاك وعد المماليك بتسليم بيت المقدس للفرنجة إذا اشتركوا معهم فى حرب ضد الناصر الأيوبى ؛ وكانت مدينة بيت المقدس فى ذاك الحين ضمن ممتلكات صاحب الشام . ولكن لويس كان يعلم سلفا بهزيمة الناصر فى العباسة أمام المماليك البحرية ، وأدرك بثاقب نظره أنه لو كرر الخطأ الذى وقع فيه الفرنج قبل ذلك التاريخ بثمانى سنوات، لانتهى الأمر بكارثة أسوأ من كارثة غزة[٤]. فقد نشبت أمام هذه المدينة سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م فى عهد الصالح نجم الدين أيوب معركة حامية بين الصليبيين وحلفائهم ملوك دمشق وحمص والكرك من جهة وبين جيوش مصر والخوارزمية من جهة أخرى، وأسفرت عن انتصار العساكر المصرية والخوارزمية على قوات الشام والفرنج. وفيها أعمل الخوارزمية الذبح فى الصليبيين، وأسروا قرابة ثمانمائة رجل من بينهم ولم

(١) العينى : عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٤٤ ؛ وكذلك عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية جـ ٢ قسم ١) ص ٢١٥ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٨٤ .

(٣) ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ١٧٠ . أنظر أيضا : Reinaud, Extr., 477.

(٤) Grousset, Crois., III, 503; Bray, 284-5.

دى شاتنوف رئيس الاسبتارية ، حتى أنه لم يسلم منهم سوى عدد ضئيل جداً[١].
يضاف إلى ما تقدم أن حالة الاضطراب التى أعقبت ثورة المماليك فى مصر والشام — شأنها فى ذلك شأن أى فترة من فترات الانتقال فى أى عصر من العصور — قدمت للفرنج فرصة طيبة لتعويض ما فاتهم . وغير خاف أن لويس كان يتوجس خيفة من محاولات الناصر لإعادة الدولة الأيوبية إلى مصر ، لأن معنى ذلك تكتل قوى المسلمين مرة أخرى ، وتفرغهم لمضايقة اللاتين والإطباق عليهم من الشمال والجنوب كما حدث فيما مضى . لذا وجد أن من صالح الصليبيين الإبقاء على هذه الدولة الناشئة فى مصر لتظل شوكة فى جنب مسلمى سورية مما يعود عليهم وحدهم بالنفع والفائدة . إلا أنه لم يكن يتوقع أن يتمخض هذا النظام الجديد فى مصر عن ظهور بيبرس البندقدارى الذى ضايق اللاتين وأقض مضاجعهم ، والأشرف خليل الذى طردهم نهائيا من آخر معاقلهم الحصينة فى الأراضى المقدسة[٢] . وأخيرا كان لويس يعلم أن القوات الهزيلة التى تحت إمرته لا تكفى للقيام بحملة عسكرية تحقق أمنيته فى غزو البيت المقدس[٣].

فكل هذه الاعتبارات التى أسلفنا اليها ، حددت موقف لويس صراحة من عروض المماليك الأخيرة ، بل ومن كلا الطرفين المتخاصمين فى الدولة الاسلامية.

---

(١) فيما يتعلق بتفاصيل هذه المعركة راجع أبو شامة : تراجم رجال القرنين ص ١٧٤ ؛ السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٦٤ ا — ب ؛ السلوك ج١ قسم ٢ ص ٣١٦ — ٣١٧ . أنظر كذلك :
Rothelin, II, 564; Eracles, II, 429-430; Delaville Le Roulx, 191-2; Röhricht, Gesch. des Königreichs Jerusalem, 864-6 & Notes.

(٢) **Grousset, Crois., III, 503.**

(٣) **Matt. Paris, II, 503. Cf. Grousset, Crois., III, 503.**

وأعلن الملك الفرنسى موافقته على هذه الاتفاقية . ومع ذلك فان المشروع لم يصدم أن يجد من يعارضه من بعض رجاله الذين أبدوا ارتيابهم فى نوايا المماليك ، وظنوا أن فى الاتفاق مصلحة أكبر للمصريين دون الصليبيين ، وأن لويس سيصبح بمقتضى ذلك ملزما بالقتال لخدمة سلطان مصر [١] . غير أن هذه المعارضة ما لبث أن خمدت وسلم الجميع بالأمر الواقع ، متخذين فى مسلكهم سياسة مرنة قوامها المفاوضة والتحالف لحل قضاياهم ومشاكلهم [٢] .

وبعد موافقة الصليبيين على الاتفاقية ، عقدت معاهدة بين الطرفين فى أوائل مايو ١٢٥٢ م / ربيع الأول ٦٥٠ ﻫ ، وكان الملك الفرنسى مقيما فى قيسارية آنذاك [٣] . وناب عن الجانب المصرى الرسل الذين أوفدهم الأمراء إلى قيسارية ، وناب عن الصليبيين لويس وكبار رجال جيشه [٤] . وقد نصت المعاهدة على الشروط التالية :

أولا — أن يتعهد أمراء مصر بمراعاة العادات والطقوس المسيحية فى البلاد التى تحت حكمهم [٥] .

ثانيا — أن يتعهد الأمراء باخلاء سبيل باقى الفرنج الذين لا يزالون فى أسرهم [٦] ، مع السماح للملك الفرنسى بإيفاد مندوبين من قبله

---

(١) Matt. Paris, II, 503.
(٢) Cf. Perry, 210-211.
(٣) Joinville (ed. Wailly), 282. Cf. Grousset, Crois., III, 504; King, 250; Delaville Le Roulx, 197, n. 2; Perry, 210; Guizot, 87.
(٤) Joinville (ed. Wailly), 282. Cf. Perry, 210.
(٥) Matt. Paris, II, 502.
(٦) Matt. Paris, II, 503. Cf. Perry, 211.

إلى مصر للبحث عن الأسرى واستلامهم (١) .

ثالثا — أن يتعهد الأمراء باعادة رءوس الفرنج المعلقة حول أسوار القاهرة ، وكذلك جميع الأطفال المسيحيين الذين قبضوا عليهم منذ واقعة غزة (٢) .

رابعا — أن يتنازل الأمراء عن النصف المتبقى من الفدية الذى يدين به لهم الملك الفرنسى (٣) .

خامسا — أن يتعهد الأمراء باعادة بيت المقدس إلى الفرنج ، وكذلك جميع البلاد التى يمتلكونها فى الأراضى المقدسة غربى الأردن باستثناء أربع مناطق (٤) .

سادسا — أن يتعهد لويس والصليبيون بالقيام بحملة مشتركة مع أمراء مصر ضد الناصر يوسف الأيوبى صاحب الشام لإخراجه منها . وكان على الملك الفرنسى أن يتوجه بقواته إلى يافا فى وقت متفق عليه بينهما بينما تذهب القوات المصرية فى نفس الوقت إلى غزة ، بحيث

---

(١) King, 250; Stevenson, 330.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 284. Cf. Perry, 211.

(٣) Matt.Paris, II; 502. Cf. Perry, 211.

(٤) Rothelin, II, 628-9; Matt. Paris, II, 502. Cf. Grousset, Crois., III, 504; Perry, 211; Walsh, St. Louis, 203. وذكر روتلان (نفس الجزء والصفحة) أن المدن التى أصبح سلطان مصر ملزما باعادتها الى المسيحيين وفقا للمعاهدة هى بيت لحم وصهيون والجليل وبعض البلاد الواقعة غربى الأردن . أما المناطق الأربع التى اتفق على أن تحتفظ بها مصر فهى غزة والداروم ونابلس وحبرون . أنظر : King, Knights Hospitallers,250, n. 3.

يتم اتصال العساكر المسيحية والمصرية فى منتصف مايو ١٢٥٢م/ ربيع الأول ٦٥٠ هـ لتنفيذ التحالف العسكرى [١] ، على أن تكون البلاد والغنائم التى يستولون عليها مناصفة بينهما [٢] .

سابعا - أن تظل نصوص هذه المعاهدة نافذة المفعول لمدة خمس عشرة سنة [٣] . وقد أقسم كل من الملك الفرنسى وكبار رجال جيشه من ناحية ، ورسل أمراء مصر من ناحية أخرى ، باحترام المعاهدة وعدم الإخلال بها [٤] .

ومن المؤسف أنه ليست هناك وثيقة رسمية معتمدة من الجانبين المصرى والمسيحى تتضمن الصيغة الكاملة لهذه المعاهدة الخطيرة الشأن، مما اقتضى على الباحثين أن يلموا شتاتها من شتى المصادر الغربية المعاصرة، وخاصة مؤلفات جوانفيل وروتلان ومتى البارزى . أما المراجع الاسلامية فقد اكتفت بالإشارة إلى العرض الذى تقدمت به مصر بشأن التنازل عن البيت المقدس للفرنج نظير انضمامهم اليها .

وهناك رواية غريبة انفرد بذكرها متى البارزى ، مؤداها أنه بعد التصديق على المعاهدة ، تمت مقابلة بين لويس وسلطان مصر ، وأنه كان هناك مترجم ينقل وجهة نظر كل منهما إلى الآخر . وأمدنا هذا الراهب بتفاصيل ما دار فى الاجتماع ، وخلاصته أن الملك الفرنسى لم يقنع بما فاز به ، وأنه كان يسعى

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 282; Matt. Paris, II, 503. Cf. Grousset, Crois., III, 504; King, 250; Perry, 211; Walsh, 204; Stevenson, 330.

(٢) Matt. Paris, II, 502. Cf, Bray, 285.

(٣) Matt. Paris, II, 502,504. Cf. King, 250; Ludlow, 358; Perry, 210; Delaville Le Roulx, 197, n. 2; Bray, 285.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 282. Cf. Grousset, Crois., III, 504.

للحصول على مزيد من الامتيازات [١] . ويلاحظ أن متى الباريزى تجاوز فى روايته عن ذكر مكان الاجتماع وزمانه [٢]، ولم يحدد أيضا اسم السلطان الذى يعنيه . [٣]

ويجب أن نتقبل هذه الرواية بشىء من التحفظ ، لانفراد متى الباريزى دون غيره بذكرها ، بالرغم من أنه لم يكن شاهد عيان لأحداث تلك الحركة ، حيث كان يقيم فى أوروبا فى ذاك الحين . ومما يدفعنا إلى الشك فى صحتها أنه لو كانت المقابلة قد تمت فعلا لكان جوانفيل أسرع الناس لتقييدها ، وهو الذى لازم الملك طيلة إقامته فى سورية . كما كان من المنتظر أيضا أن يذكرها ابن واصل فى مؤلفه ، خاصة وأنه كان فى مصر آنذاك وعلى اتصال برجالها المسئولين . ولعل هذه القصة إحدى الشائعات التى ذاعت حينئذ فى الغرب الأوروبى . ولم تكن الوحيدة من نوعها ، من ذلك ما ذكره نفس المؤرخ من أن المصريين أعادوا إلى الملك الفرنسى البلاد الواقعة غربى الأردن ، وأنهما قاما بهجوم مشترك ضد صاحب حلب وألحقا به هزيمة منكرة [٤] ، مما لا يتفق والحقيقة التاريخية .

كيفما كان الأمر ، فلم يضيع لويس التاسع وقتا ، وغادر هو وقواته التى لم تزد عن ١٤٠٠ مقاتل مدينة قيسارية قاصدا يافا فى مايو ١٢٥٢ م . وأقام

---

(١) Matt. Paris, II, 505.

(٢) Michaud, Crois., VI, 550.

(٣) Bray, 269.

(٤) Matt. Paris, II, 503, 504.

بها . ينتظر عبثا وصول القوات المصرية حسب الاتفاقية المبرمة بينهما [١] . وعلى الرغم من حرص لويس على تكتم نبأ خروجه إلى يافا فقد علم به الناصر يوسف، وخاف مغبة الاتفاق بين الفرنج والمماليك ، وأدرك أنه موجه ضـــده . ففيه ضياع أملاكه بالشام وأولها بيت المقدس [٢] . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنه كانت هناك عيون وجواسيس ينقلون إليه أخبـــار الفرنج والمصريين أولا بأول . لذلك بعث بجيش كبير قوامه أربعة آلاف مقـــاتل حيث عسكر بالقرب من مدينة غزة ، لمنع المصريين من الانضمام إلى حلفائهم الصليبيين [٣]. وقد حالت قوات الشام هذه فعلا دون اتصال المماليك بالفرنج ، وأفسدت عليهم خطتهم المشتركة . ولم تجسر العساكر المصرية على الحضور إلى غـزة فى الموعد المحدد خوفا من قوات دمشق التى ظلت واقفة لها بالمرصاد طيـــلة عام كامل . بينما استغل لويس هذا الوقت فى تحصين يافا وتعزيز استحكاماتها .[٤]

ويقول جوانفيل إن الأمراء بعثوا إلى الملك الفرنسى فى يافا يطلبون منه الموافقة على تحديد موعد آخر ليتسنى لهم الحضور ، ولكنهم لم يبروا بوعدهم خشية من عساكر الناصر . وهكذا ماتت الاتفاقية العسكرية فى مهـــدها .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 282. Cf. Grousset, Crois , III, 504; King, 250-1; Perry, 211; Stevenson, 330; Walsh, 204.

(٢) Bray, 269; Grousset, Crois., III, 504.

(٣) راجع Joinville (ed. Wailly), 282; Grousset, Crois., III, 504.
أيضا : ابن بهادر ورقة ١٦٩ ؛ ابن مخرمة ج ٣ قسم ١ لوحة ١٠٩ ؛ الكتبي: عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٣٦ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٨١ ؛ العبر ج ٥ ص ٣٧٥ .

(٤) Joinville (ed. Wailly), 284. Cf. Stevenson, 330; Walsh, 204; King, 250; Ludlow, 358; Bray, 269; Iorga, 171.

ولكن على الرغم من ذلك فقد شرع أمراء مصر فى تنفيذ باقى الشروط التى تضمنتها المعاهدة الجديدة[١] . إذا أجمعت الأصول الغربية على أنهم أخلوا سبيل باقى الأسرى الفرنج ، وكان ذلك على أكثر من دفعة. [٢] ويمدنا وليم دى سانت باثوس ببيانات عددية قيمة فى هذا الشأن وذكر أيضا أن هؤلاء الأسرى كانوا موضع عناية الملك الفرنسى الذى ألحقهم بخدمته وأنفق عليهم من جيبه الخاص .[٣] وإلى جانب ذلك تنازلوا للملك عن المبلغ المتبقى من الفدية[٤] ، ويبلغ حوالى ربع مليون من الجنيهات الذهبية المصرية . كما أرسلوا له رءوس جميع الفرنج المعلقة حول أسوار القاهرة منذ واقعة غزة ، وجميع الأطفال الذين وقعوا فى قبضتهم منذ ذلك التاريخ . وتم هذا كله بعد انتقال لويس إلى يافا . وفيما يتعلق برءوس القتلى ، فقد أشرف الملك بنفسه على دفنها ، أما الأطفال فقد خصهم بعطفه ورعايته.[٥] وفى النهاية بعثوا إليه مع آخر فوج

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 284.

(٢) Rothelin, II, 628; Matt. Paris, II, 503, 504, 533. وذكر روتلان (نفس الجزء ص ٦٢٦) أنهم أخلوا فى إحدى الدفعات سبيل ٩٠ فارس مسيحى و ٢٢٠٠ أسير آخر من رجال ونساء ، مقابل ٣٠٠ مسلم كانوا أسرى لدى الفرنج فى سورية .

(٣) أشار سانت باثوس إلى عدد الأسرى الفرنج الذين أطلق المصريون سراحهم . فقال إنهم أفرجوا فى إحدى الدفعات عن ٢٠٠ أسير ، وفى دفعة ثانية ٣٠٠ ، وفى دفعة ثالثة ٥٠٠ ، ثم ٤٠٠ فى دفعة رابعة ، و ٧٠٠ فى دفعة خامسة ، و ٦٥٠ فى دفعة سادسة و ٤٠٠ فى دفعة سابعة ، وهكذا . . أنظر : Guill. de Saint-Pathus, XX, 95-6.

(٤) Rothelin, II, 628; Matt. Paris, II, 504.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 284. Cf, Bray, 274; Perry, 211.

من الأسرى المسيحيين فيلا وحمارا وبعض الطيور كهدية[١] . وقد أرسل لويس الفيل إلى فرنسا ، ثم أهداه فيما بعد إلى هنرى الثالث ملك انجلترا . وكانت هذه هى أول مرة يشاهد فيها الفيل فى تلك البلاد[٢] .

والمدقق فى هذه الأوضاع السائدة فى الشرق الأوسط العربى يتبين بجلاء أن هوة الخلاف كانت تزداد اتساعا بين أمراء مصر والشام يوما بعد يوم ، وأن لويس واللاتين استغلوا انقسام المسلمين لما فيه صـــالحهم . وقد ظلت جيوش الايوبيين قبالة غزة وجيوش المصريين فى الصالحيـة ، وكل منهما يترقب الآخر فترة غير قصيرة من الزمن ، حتى قدم فى أواخر سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م الشيـخ نجم الدين أبو محمد عبد الله البادرانى[٣] رسولا من قبل الخليفة العباسى المستعصم بالله لاقرار الصلح بين الملـكين الناصر والمعز .(٤)

لقد تدخل خليفة بغداد لحسم النزاع بين المسلمين بعد أن رأى ازدياد التوتر بين الأيوبيين والمماليك ، والفرنج فى الأراضى المقدسة يعملون على إيقـــاع الخلف بينهما لتحقيق مآربهم وأطماعهم ومحاولة تثبيت أقدامهم فى رقعة هامة من أرض العروبة . ولعله خشى أيضـــا أن يخرج الحلف المصرى الصليبى إلى حيز

---

(١) Rothelin, II, 626; Joinville (ed. Wailly), 284. Cf. also Michaud, Bib. des Crois., I, 388.

(٢) Bray, 274. Cf. Perry, 211; Walsh, 204.

(٣) نسبة الى بادران قرية باصبهان . أنظر مادة البادرانى فى لب اللبـاب للسيوطى . أما نجم الدين البادرانى فقـد ولد سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ — ٨ م ، وتوفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م . وترسل عن الخلافة الى الشام ومصر وغيرهما من البلاد أكثر من مرة ، وولى فى آخر أيامه قضاء العراق . أنظر اليونينى جـ ١٥ ورقة ١١ — ١٢ ؛ با مخرمة جـ٣ قسم ١ لوحة ٨٨٧ .

(٤) أنظر عقد الجمان جـ١٨ قسم٢ لوحة ٣٣٩ ؛ السلوك جـ١ قسم ٢ ص٣٨٢ — ٣٨٣ .

التنفيذ ، مما يهدد كيان الشرق الإسلامي (١) ولعله أيضا قد استرجع ما حدث للعرب في المشرق أثناء الحملة الصليبية الأولى ، عندما استغل اللاتين فرصة الانقسام والضعف والخلاف السياسي والمذهبي بين الفاطميين في مصر والعباسيين في بغداد لتحقيق أطماعهم في المنطقة. (٢) أضف إلى ما تقدم أن المستعصم كان ينظر بعين القلق إلى غزوات المغول الذين تفاقم أمرهم في عهده، وباتوا يهددون عاصمة الخلافة نفسها(٣). وليس أوضح من نص السبكي في هذا الصدد، إذ قال: «وأرسل الخليفة نجم الدين البادراني رسولا إلى الملك الناصر صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك المعز ، وأن يتفقا على حرب التتار » (٤) لذا وجد أنه من الضروري في هذه الظروف الدقيقة ، تناسي الخلافات واتحاد كلمة المسلمين في القاهرة ودمشق وبغداد لمواجهة الصليبيين من ناحية ، واتقاء خطر المغول من ناحية أخرى ، فيتحقق بذلك هدفان في آن واحد .

لقد وجدت هذه الدعوة أذنا صاغية من كل من الناصر والمعز . فقد أدرك

---

(١) Cf. Grousset, Crois., 5?4; Bray, 286 – 7.

(٢) أنظر جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ١٣ — ١٤ .

(٣) أنظر عن ذلك : Lane-Poole, Egypt, 259; King, Knights Hospitallers, 251.

وقد بدأ التتار يشنون غاراتهم على العراق في عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ — ٦٢٢هـ)، الى أن انتهى الأمر باستيلائهم على بغداد وانقراض الخلافة العباسية منهـا في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م أيام المستعصم بالله . أنظر في ذلك أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٤٣٨ — ٤٣٩ و ٤٤٦ ؛ الديار بكرى : الخميس جـ ٢ ص ٤١٠ — ٤١١ ؛ ابن أيبك : درر التيجان ورقة ٥٧٠ .

(٤) السبكي : طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٢٣ .

كبير أمراء الأيوبيين فى الشام أنه ليس من السهل تنفيذ أطماعه فى مصر بعد أن خذله المماليك فى العباسة وغزة ، وبعد أن أقام زهاء ثلاث سنوات لا يقوى على إحراز نصر حاسم عليهم [١] . ويبدو أنه قد أدرك أخيرا هو وغيره من ملوك بنى أيوب أن محاولة الاستيلاء على مصر باتت مغـــامرة غير مضمونة النتائج ، وأن الصلح هو خير وسيلة للمحافظة على ولاياتهم فى الشام . أما أمراء المماليك فى مصر فقد بدأ الملل يتسرب إليهم لطول القتال والحرب الباردة . كما وجدوا أن استمرارهم فى الاتصال بالصليبيين والتحالف معهم لن يؤدى فى النهاية إلا إلى إثارة الشعور الاسلامى ضدهم [٢] . ويبدو أنهم قد خدعوا فى قوة لويس الحربية ، ولم يدركوا ذلك إلا متأخرا ، فآثروا قبول توسط الخليفة العباسى ليتفرغوا لمشاكلهم الداخلية فى مصر [٣] .

وهكذا تم على يدى الشيخ نجم الدين الصلح فى صفر ٦٥١ هـ / ابريل ١٢٥٣م بين مصر والشام ، بعد ثلاث سنوات من النزاع المستتر حينا والظاهر أحيانا . واتفق على أن يتنازل الناصر للمعز عن غزة والقـــدس ونابلس ، كما اعترف له

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥٢٥ ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥ .

(٢) لعلهم تذكروا ما حدث للكامل محمد سلطان مصر عندما عقـد المعاهدة المعـروفة مع فردريك الثانى الذى سلمه بمقتضاها بيت المقدس . فقـد أنكر الأمراء الأيوبيون فى الشام ومن ورائهم شعوبهم الإسلامية هذه المعاهدة ، واتهموا الكامل بالغدر والخيانة . وأخذ ابن أخيه الناصر داود صاحب دمشق فى التشنيع عليه ، وأمر واعظ دمشق بعمل مجلس أشار فيه إلى فضائل بيت المقدس وما حل بالمسلمين من جراء تسليمه إلى الفرنج ، حتى ارتفع البكاء والضجيج . أنظر أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٣) يوسف الدبس : تاريخ سورية مجلد ٦ ص ٢٧٣ . أنظر أيضا Bray, 286.

بملك مصر ، وأصبحت باقى البلاد الشامية للملك الناصر يوسف (١) . وانتهى بذلك الخطر الذى أثاره أمراء بنى أيوب فى الشام ، ورجع كل من الملكين إلى مقره ، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعى .

لقد كان هدف لويس هو استخلاص البيت المقدس من قبضة المسلمين وتمكين النفوذ الفرنسى فى الأراضى المقدسة ، ولم ير بابا إلا وطرقه للوصول إلى غايته . وطبيعى أن يجد فى انقسام المسلمين فى مصر والشام بعد ثورة المماليك، ميدانا فسيحا يدلى فيه بدلوه . وكان هذا النزاع — كما رأينا — على مرحلتين: الأولى عقب تغير نظام الحكم فى مصر مباشرة حيث بدت بوادر الخلاف بين الأيوبيين والمماليك ، والثانية بعد أن تأزمت العلاقات وقامت الحرب بينهما . وقد أخذ لويس يتأرجح بين الفريقين فترة غير قصيرة من الزمن دون أن يحدد موقفه أو يتدخل فى صف أحدهما ، إلى أن استقر أخيرا بعد خذلان الناصر فى العباسة وغزة على الانضمام إلى مصر فى صراعها ضد أهل الشام . والواقع أن الظروف السياسية فى الشرق الأوسط ، بشطريه الإسلامى واللاتينى ، هى التى أوحت إليه باتخاذ هـــذا الموقف الذى كان يرجو من ورائه تحقيق أطماعه البعيدة . وإن هذه السياسة التى سار عليها حيال الفريقين كانت تنطوى فى حد ذاتها على شىء كثير من الحكمة والحذر وبعد النظر ، فجنبته الوقوع فى مشاكل وأخطاء هو فى غنى عنهما . ولكن تدخل بغداد فى الوقت المناسب ، وما تلاه من انعقاد الصلح بين مصر والشام ، كانا بمثابة ضربة أصـــابت آمال الملك

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٨٥ ، وراجع أيضا المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣ ب ؛ مسالك الأبصار ج ٣٧ مجلد ٣ لوحة ٢٧٩ ؛ كنز الدرر ج ٨ ورقة ٢٣ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٤٨ — ٤٩ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ١٠٠ و ١١٤ ؛ الوافى بالوفيات ج ٣ قسم ١ لوحة ١٤٨ ، راجع كذلك Joinville (ed. Wailly), 294.

الفرنسى فى الصميم ، وأصبح امتلاك بيت المقدس أمرا بعيد المنال ومع ذلك فقد أفاد لويس من هذا النزاع بعض الفائدة ، وحقق للقضية الصليبية التى تبناها بعض النصر ، فيما يتعلق بالحصول على حرية آلاف من الأسرى الفرنج ، والتجاوز عن مبلغ ضخم من المال هو نصف الفدية التى كانت مقررة عليه . وأخيراً لا يجب أن نغفل أنه لولا انقسام المسلمين ، وتدخل لويس للإيقاع بينهم ، فى هذه الفترة التى كانت فيها الامارات اللاتينية فى سورية تسير بخطى سريعة نحو الضعف والتدهور ، لاصابتها ضربة عجلت بالقضاء عليها ، خاصة بعد هزيمة لويس المنكرة فى مصر . ولكن كان من حسن حظ تلك الإمارات أن النزاع بين مصر والشام شغلهما عنها ، وأعطاها فسحة من الزمن تنظم فيها شئونها، وتقوى وسائل دفاعها، مما كان له أكبر الأثر فى الإبقاء عليها قرابة نصف قرن آخر . ولولا ذلك لتم للقوات العربية توجيه الضربة القاصمة وقتذاك إلى قلب القوى الصليبية .

الفصل الخامس

موقف المسلمين من الصليبيين

رأينا فى الفصل السابق كيف استغل لويس اختلاف المسلمين فى الشرق الأوسط العربى ، وكيف أن المنازعات والحروب التى قامت بينهم قد صرفتهم عن متابعة الجهاد ضد الفرنج والإمارات الصليبية فى الأراضى المقدسة . وغير خاف أنه لو قدر للمسلمين فى مصر والشام أن يتحدوا عقب هزيمة الحملة فى مصر مباشرة ، لأطبقوا على الولايات اللاتينية من الشمال والجنوب والشرق ، وأجلوا الصليبيين عن الساحل السورى إلى غير رجعة . وكانت الظروف مواتية لتحقيق هـــذه الغاية (١) فقد برهن المماليك البحرية على مقدرتهم الحربية فى المنصورة وفارسكور ، وبراعة حركاتهم وخططهم فى ساحة القتال ، كما أظهروا أنه بوسعهم مواصلة انتصارهم ، وتعقب لويس شمالا للقضاء عليه فى عقر داره . هذا عن مماليك مصر ، أما الناصر يوسف فكان يتمتع بمكانة كبيرة بين المسلمين فى الشـام ، حتى أن بعض مؤرخيهم أطلقوا عليه تجاوزا «صاحب الشام» . (٢) وكان تحت إمرته عدد لا يستهان به من القوات المدربة تدريبا حسنا من التركمان والمماليك العزيزية والناصرية والقيمرية وغيرهم . (٣) وقد كان بوسعه هو الآخر توجيه هذه العساكر ضد الفرنج إثر وصول لويس إلى عكا ، بدلا من استخدامها لقتال إخوان له فى الدين .

---

(١) Bray, St. Louis, 268.

(٢) أنظر ابن دقماق : نزهة الانام لوحة ٩٣ ا ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٨٩ .

(٣) فيما يتعلق بعدد قوات الناصر ، أنظر Eracles, Annales, II, II, 444, 445; II, 440; Joinville (ed. Wailly), 296.

أضف إلى هذا أن الإمارات اللاتينية من ناحية أخرى كانت آنذاك في ضعف ظاهر ، والملك الفرنسي في قلة من القوات ، حتى أن أي هجوم مشترك عليها من جانب المسلمين كان كافيا لزعزعة أركانها وتقويض بنيانها . وواضح أن من بين الأسباب التي دفعت لويس للبقاء في سورية ، العمل على تقوية تلك الإمارات حتى لا تقع في قبضة المسلمين . وهذا لا يدع مجالا للشك في أنه كان يعلم أن المسلمين لا بد قائمون ، إن عاجلا أو آجلا ، بتوجيه جيوشهم ضد الإمارات الصليبية . ولكن الصراع الذي قام بين صاحبي دمشق ومصر عقب ثورة المماليك حال دون ذلك ، وإن كان ذلك إلى حين .

والباحث في تاريخ الحركة الصليبية بصفة عامة يتبين في غير عسر أن ما أصابه الصليبيون من نجاح حربي كان في الغالب على حساب ضعف الولايات الإسلامية وانقسامها وتفككها ، وأنه كلما تناسى المسلمون خلافاتهم واتحدوا ، كلما كان ذلك بشيرا بتكتل إسلامي يعقبه حملات مضادة على الفرنج الدخلاء وإماراتهم في الأراضي المقدسة . وكان نجاح الفريقين يتوقف عادة على حالة كل منهما ، والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المحيطة ، ومدى استعدادهما لشن هجوم أو صد عدوان .

ومن المعروف أن الحملة الصليبية الأولى التي قامت في ختام القرن الحادي عشر للميلاد، قد أفلحت في تحقيق هدفها وتأسيس المملكة الصليبية في الأراضي المقدسة ، على أنقاض العالم الاسلامي الذي كان منقسما على نفسه مما أضعفه عن مواجهة العدوان الغربي[1] . وأعقب ذلك حركة إفاقة إسلامية في القرن الثاني

---

(١) أنظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص١٣٤ ـ ١٣٥ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ـ ص ١٦ ـ ١٧ ، وكذلك Stevenson, Crusaders, 19-20 — راجع أيضا حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٥٨) ، ص ٩٢ .

عشر تمخضت عن ظهور عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، الذين سعوا إلى توحيد المسلمين لمقاومة الفرنج ودرء خطرهم (١) . وكانت النتيجة الطبيعية أن اللاتين استشعروا من المسلمين، وباتوا منذ ذلك الحين فى قلق متزايد واضطراب بالغ (٢). واستمرت هذه الفترة من التوازن بين الفريقين المتحاربين إلى أن اندلعت فى مصر ثورة المماليك التى انتهت بانتقال مقاليد الحكم إلى المماليك البحرية فى منتصف القرن الثالث عشر . وتبدأ بدولة المماليك مرحلة ثالثة يتفوق فيها المسلمون على المسيحيين . فقد حملوا لواء الزعامة فى العالم الاسلامى ، وأخذوا على عاتقهم مهمة طرد اللاتين المعتدين من الأراضى المقدسة التى تعتبر جزءا لا يتجزأ من الشرق العربى . وقد تم لهم ما أرادوا فى أقل من نصف قرن من قيام دولتهم . ومن هنا كان لهذه الثورة التى شبت خلال حملة لويس على مصر ، أهميتها البالغة ونتائجها البعيدة غير المباشرة فى إخراج المسيحيين الغربيين نهائياً من الرقعة الساحلية الضيقة التى كانوا يحتلونها فى الحوض

---

(١) راجع فى ذلك ابن العديم : تاريخ حلب (مجموعة الحروب الصليبية ج ٣) ص ٦٥٨ ؛ ابن الاثير : أتابكة الموصل (مجموعة الحروب الصليبية ج ٢ قسم ٢) ص ٦١ — ٦٥ ، ١١٨ — ١٢٥ ؛ ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ — ٣٧ ، وكذلك Grégoire le Prêtre, I, 157.

ومن المراجع القيمة فى هذا الموضوع كتاب الزميل الأستاذ الدكتور حسن حبشى المعنون « نور الدين والصليبيون : حركة الافاقة والتجمع الاسلامى فى القرن السادس الهجرى — طبع القاهرة سنة ١٩٤٨ . »

(٢) أنظر ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ — ٢٨٠ و ٣٣٣ و ٣٣٩ — ٢٤٢ ؛ أتابكة الموصل ص ١٩٤ و ٢٠٧ و ٢١٩ — ٢٢٤ و ٢٣٣ — ٢٣٦ ؛ وكذلك Guill. de Tyr, I, 2e. partie, 895-7; Dussaud, Topographie, 168, 232.

الشرقى للبحـــر المتوسط(١) .

ومهما يكن من شىء، فقد اتضح للملك الفرنسى واللاتين أنه بوسع المسلمين فى مصر والشام إذا اتحدت جهودهم واتفقت كلمتهم، أن يدفعوا عنهم خطر الجماعات الصليبية ، وأن يعملوا على مضايقتها بشتى الوسـائل . وكان الصلح الذى تم بين الناصر والمعز فى صفر ٦٥١ هـ / ابريل ١٢٥٣ م بمثابة ضربة وجهت إلى قلب القوى الصليبية وإلى لويس التاسع نفسه . إذ أنه أتاح الفرصة للناصر يوسف ، بعد أن فرغ من جميع ما يشغل باله ، لتلقين الفرنج درسا قاسيا (٢) ولعل أبلغ مايوضح ذلك ما ذكره جوانفيل من أنه بعد هذا الصلح، لم يكن بين الصليبيين وبين صاحب دمشق صلح أو مهادنة. (٣) وهذا أيضا يفسر لنا السر فى إسراع لويس بتحصين المدن اللاتينية الساحلية ، بل أنه شرع فى إقامة الاستحكامات حول بعضها قبل انعقاد الصلح بين المماليك والأيوبيين ، مما يدل على أنه كان يتوقع أن ينتهى الأمر بهما إلى التصافى والتكتل ضده .(٤) وإن كان هذا ينبىء أيضا عن استعداده للقيام من جانبه بحملة جديدة ، وإن لم تتح له الظـروف تحقيق هدفه عسكريا . وقد صح ما توقعه لويس ، إذ لم يكد يعلن الصلح حتى أخذت القوات الناصرية تغير على قوات لويس والمدن اللاتينية على نطاق واسع كما سنرى .

---

(١) أنظر : Grousset, Crois., III, 499-500 — وجدير بالذكر أن المؤرخ رينيه جروسيه جعل هذه الأدوار الثلاثة أساسا لمؤلفه عن الحروب الصليبية الأولى . راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٢٦٨ — ٢٧٧ والحواشى .

(٢) Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 197; Petit-Dutaillis, Monarchie Féodale, 197.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 294.

(٤) Guill. de Nangis, Chronique abrègé, Hist. de Fr., XX, 650.

غير أننا يجب أن نذكر هنا أن الفترة السابقة لعقد الصلح بين مصر والشام لم تخل من مناوشات بين المسلمين والإمارات اللاتينية ، وان فيما امتازت به هذه المناوشات من صدام سطحى ، ما يحملنا على الاعتقاد بعدم جديتها . ومما هو جدير بالذكر أن مثيرى هذه المناوشات لم يكونوا من المصريين ، إنما من مسلمى الشام . ولم يتعد الأمر أكثر من الحصول على غنائم دون الاشتباك فى معركة حاسمة . ويكتنف هذه الحركات الكثير من الغموض ، ذلك لأن غالبية الأصول المعاصرة والمتأخرة من شرقية وغربية لم تتعرض لها ، بينما مرت عليها أقلية منها مرا سريعاً .

ويهمنا قبل استعراض النتائج المترتبة على الصلح أن نتتبع هـــذه الحركات ، أولا لأنها وقعت إبان إقامة لويس التاسع فى سورية ، وثانيا لمعرفة مدى علاقتها بالأحداث الجارية بين لويس وأمراء المسلمين فى ذاك الحين .

انفرد روتلان بقوله إن المسلمين أغاروا على مدينة طرابلس[1] اللاتينية ،

(١) جاء فى البشارى (أحسن التقاسيم ص ١٦٠) أن طرابلس مدينة ساحلية حصينة . وذكر القلقشندى (صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤٤) أنه يحدها من القبلة جبـل لبنان ومن الشمال قلاع الدعوة التى كانت بيد الاسماعيلية ومن الغرب البحر الرومى . وقد زارها ناصر خسرو فى ٤٣٨هـ/١٠٤٧م ووصفها فى كتابه (سفر نامه ص١٣) فقال إنها مشيـدة بحيث تطل ثلاثة من جوانبها على البحر ، أما الرابع فيطل على اليابس وفيه خنـدق عظيم عليه باب حديدى محكم ، وفى الجانب الشرقى من المدينة قلعة من الحجر شديدة المناعة . وقد استولى اللاتين على طرابلس سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، وبقيت بأيديهم منذ ذلك التاريخ الى أن استردها منهم الملك المنصور قلاوون فى ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م . أنظر السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٧ ـ ٧٤٨ . وذكر أبو الفداء (تقويم البلدان ص ٢٥٣) أن السلطان أمر بهدمها منعا لتكرار اعتداء الفرنج عليها ، وعمر على نحو ميل منها مدينة جديدة سماها باسمها .

وكان يحكمها آنذاك بوهيمند الخامس صاحب انطاكية (١٢٢٣ - ١٢٥١م).(١) وقد ألحقوا الهزيمة بالفرنج وقتلوا عددا منهم، ثم انسحبوا إلى ديارهم بما فازوا به من أسلحة وجياد. ومن المؤسف أنه لم يمدنا بتفصيلات وافية عن هــذه الإغارة، وإنما سردها ضمن حوادث سنة ١٢٥٠م، وأضاف بأنه وفد رسول على الملك لويس فى عكا ليحيطه بها.(٢) وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بأنها وقعت فى غضون سنة ١٢٥٠م، أو بكلمة أدق، فى الفترة الممتدة من مايو ١٢٥٠م إلى مارس ١٢٥١م التى أقامها لويس فى عكا.(٣)

ويذكر نفس المؤرخ أن التركمان أغاروا مرتين على ضواحى انطاكية خلال إقامة لويس فى عكا، وأنه وفد رسول منها يبلغــه بما نزل بها.(٤) وكان متى البارىزى أكثر وضوحا، إذ ذكر أن الراهب جوزيف دى كانسى Joseph de Cancy أمين خزينة الاسبتارية فى الأراضى المقدسة، أرسل كتابا من عكا إلى أحد الاخوان الدومينيكان (٥) فى انجلترا أشار فيه إلى إغارة التركمان على المناطق

(١) Grousset, Crois , III, 512.

(٢) Rothelin, II, 624.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 256 & 257, n. 470-1.

(٤) Bothelin, II, 623-4.

(٥) مؤسس هذه الجماعة التى تعرف باسم الاخــوان الدومينيكان Dominican Order قديس من أصل اسبانى يدعى القديس دومينيك St. Dominic. وكان تأسيسها فى سنة ١٢١٥م بقصد مكافحة تيار الهرطقة الذى بدا واضحا فى الـكنيسة وخارجها فى أخريات القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلادى. وأساس تعاليم هذه الجماعة هو الوعظ والارشاد بين الناس، حتى اشتهر أعضاؤهــا باسم الاخوان المبشرين أيضـا Fratres Praedicatores. راجع Hélyot, Dict des Ordres Religieux, II, 86-113.

المجاورة لأنطاكية ، مما دفع سكانها إلى الفـــرار منها طلبا للنجاة . ولعل أهم ما تضمنه الخطاب أن هـــذه الإغارة كانت بإيعاز من الناصر يوسف صاحب الشام.(١)

ويتحدث جوانفيـل عن مناوشة أخرى وقعت بين المسلمين واللاتين عند قيسارية ،(٢) وكان ذلك فى معرض كلامه عن استعداد لويس التاسع للتوجه هو وقواته إليها فى مارس سنة ١٢٥١م ، لتحصينها بعد أن خربها المسلمون (٣) . وهذا يجعلنا نجزم بأن المناوشة حدثت إبان إقامة لويس فى عكا ، حتى أنه عندما علم بالنبأ أسرع بمغادرتها قاصدا قيسارية لتعزيزها ضد أى هجوم قد يقع عليها مستقبلا . وكان هذا هو كل ما حفظه لنا جوانفيل . ولم يزد متى الباريزى شيئا عما ذكره زميله ، اللهم إلا قوله إن هذه الإغارة كانت ، كسابقتها ، بوحى من الملك الناصر نفسه.(٤)

واضح إذن مما سبق أن هذه الحركات الفردية وقعت كلها خلال إقامة الملك الفرنسى فى مدينة عكا ، أى فى الفترة من مايو ١٢٥٠ م إلى مارس ١٢٥١م : وأن أخبارها كانت تصله أولا بأول ، وأنه لم يسهم بقواته ورجاله فيها ، وأنها

---

(١) Matt. Paris, II, 501. — وذكر متى الباريزى (نفس الجزء والصفحة) أن هذه الأنباء ذاعت فى الغرب الأوروبى فى خريف عام ١٢٥٢ م .

(٢) جاء فى أبى الفداء (تقويم البلدان ص ٢٣٩) أن قيسارية مدينة بساحل الشام ، بينها وبين الرملة ٣٢ ميلا ، ومنها إلى عكا ٣٦ ميلا. وأجمع الرحالة والجغرافيون على أنها كانت شديدة المناعة ، لها قلعة حصينة وسور بباب حديدى . أنظر أحسن التقاسيم ص ١٧٤ ؛ زبدة كشف الممالك ص ٥١ ؛ سفر نامة ص ١٨ .

(٣) Joinville (ed Wailly), 256.

(٤) Matt. Paris, II, 501.

كانت مجـــرد مناوشات على نطاق ضيق بين جماعات من المسلمين وبعض المدن الصليبية . ومن المرجح أيضا ، بناء على رواية متى الباريزى ، أن الملك الناصر الايوبى لم يكن على علم بها فحسب بل كان الدافع لها أيضا . ومما يدعو إلى الدهشة أن يحدث هذا كله فى الوقت الذى كان لويس يتفاوض فيه مع صاحب الشام وأمراء مصر ، والسفارات متبادلة بينه وبينهم دون أن يحدد موقفه من الكتلتين المتنازعتين ، ودون أن يبت برأى قاطع بشأن الانضمام إلى أحدهما ضد الآخر .

ويهمنا هنا أن نبحث عن السر فى اتخاذ الناصر هذا الموقف الغامض ، وفى إغارة التركمان وغيرهم من المسلمين فى الشام على الإمارات الصليبية فى هذه الفترة بالذات . ليست هناك نصوص أو إشارات فى مراجع العصر تعيننا على تفسير هذه الحركات . ولكننا نستطيع أن نعلل ذلك بموقف لويس السلبى من العرض الذى تقدم به الناصر يوسف بشأن التحالف معه ضد أمراء مصر عقب وصوله إلى عكا ؛ إذ يبدو أن الشكوك قـــد ساورت السلطان الأيوبى فى نوايا لويس لتذبذبه بين الفريقين ، وعدم إعطائه إياه ردا حاسما بالقبول أو الرفض . أو لعله أوعز إلى القوات الإسلامية بمضايقة المدن اللاتينية ليبلغ النبأ الملك الفرنسى فيوافق على الانضمام إليه . ولعله أيضا قصد التلميح له من طرف خفى بقوته ومقدرته على إيقاع الأذى بالمدن اللاتينية ، وهو أمر لاشك أنه كان يهم لويس ، فيضطر مكرها للانضمام إليه ضد خصومه أمراء مصر ، فى وقت كان فيــه كل منهما يسعى لاكتسابه إلى صفه والحـــرب بينهما وشيكة الوقوع . أضف إلى ماتقدم أن من العوامل التى ساعدت على وقوع هذه المناوشات الخاطفة أن بلاد المسلمين كانت تتاخم حدود الفرنج . وإن نظرة إلى خريطة الشام فى تلك الحقبة من التاريخ توضح أن ممتلكات الناصر وأمراء أسرته من بنى ايوب كانت تكون سلسلة طويلة تمتد من حلب شمالا إلى بيت المقدس جنوبا . فسهل هذا على قوات

الشام الاسلامية شن إغاراتها على إمارات اللاتين .(١)

ويبدو أن افرنجة الشام لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء هذه الحركات من جانب المسلمين. فقد أحدثوا حرائق فى بعض جهات حلب نتج عنها خسائر جسيمة. وقد أشار المقريزى إلى ذلك فى كتاب السلوك ضمن حوادث سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، إذ قال « وفيها وقع بمدينة حلب حريق عظيم ، ظهر أنه من الفرنج ، وتلفت فيه أموال لا تحصى ، واحترقت ستمائة دار » .(٢) ويمكن تفسير هذا بأنه رد عملى للصليبيين على تخريب المسلمين لبعض بلدانهم . فضلا عن أن حدوث الحريق فى حلب دون غيرها ، وهى من ولايات الناصر يوسف ، يعزز قول متى الباريزى من أن إغارات المسلمين كانت بتحريض منه .

على أى حال ، بعد أن عقد لويس معاهدة التحالف مع أمراء مصر ضد صاحب الشام ، غادر مدينة قيسارية فى مايو ١٢٥٢م قاصدا يافا تنفيذا للاتفاق. وهناك وقعت مناوشة بين قواته وبين أحد قواد الناصر . وكان الملك الأيوبى قد بادر بارسال قوة حربية عسكرت بالقرب من غزة لإفساد الخطة المصرية الصليبية بمجرد أن علم بها (٣) فقد حدث أن اقترب القائد المسلم من المعسكر المسيحى قبالة يافا ، فتداول الفرنج فيما بينهم واستقر رأيهم على مهاجمته وإبعاده. وعندما أبصرهم مقبلين نحوه فر هاربا . ولكن أحد رجال لويس سار فى أثره ، وصادف فى طريقه اثنين من رجال الناصر فألقى بهما أرضا ، وتمكن من ضرب القائد برمحه وكسر مقدمته الحديدية فيه. (٤)

---

(١) أنظر خريطة الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٨٤ .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 282-4.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 284.

ويشير جوانفيل إلى معركة أخرى بين رجال الناصر ورجال لويس المعسكرين مقابل يافا . ذلك أن رئيس جماعة القديس لعازر [1] St. Lazarus الذى كان مع القوات الصليبية ، عثر بالقرب من مدينة الرملة [2] على ماشية وغيرها من

---

(١) يرجع أصل هذه الجماعة إلى أحد مستشفيات الجزام فى بيت المقدس . وقد تحول إلى جماعة رهبانية بعد قيام الحروب الصليبية مباشرة على نمط جماعة الاسبتارية ، وعرفت باسم جماعة القديس لعازر . وكانت ترمى إلى إعانة المرضى ، ثم انضم إليها كثير من الرهبان المحاربين الذين اشتهروا بين المسلمين فى سورية . وأدخل لويس السابع هذه الجماعة فى فرنسا عام ١١٥٤ م . وفى ١٢٥٣ م نقل رئيس الجماعة المركز الرئيسى لها من عكا إلى فرنسا بموافقة لويس التاسع . وسرعان ما انتشرت مبادئها فى الغرب ، وأوقفت عليها الكثير من الممتلكات والعمائر . وفى ١٤٩٠ م أصدر البابا انوسنت الثامن أمرا بالغائها ، وحول ممتلكاتها إلى الاسبتارية . ولكن الأمر البابوى لم يكن له أى أثر فى فرنسا . وفى ١٥٦٥ م ألغى البابا بيوس الرابع قرار انوسنت بحلها وسمح لها بمزاولة نشاطها، وأعاد إليها امتيازاتها. وأخيرا فى ١٦٠٨ م أدمجها هنرى الرابع ملك فرنسا فى جماعته المعروفة باسم « Our Lady of Mount Carmal » وأصبحتا هيئة واحدة حلت نهائيا أثناء الثورة الفرنسية . أنظر King, Knights Hospitallers, 303-304; Hélyot, Dict. des Ordres Religieux, IV, 697–701.

(٢) الرملة مدينة بفلسطين ، بناها سليمان بن عبد الملك الأموى فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، وسميت كذلك لغلبة الرمل عليها . وهى مشيدة على سهل من الارض ، وبينها وبين كل من القدس ونابلس مسيرة يوم واحد ، وبينها وبين قيسارية مرحلة . أنظر صبح الأعشى ج ٤ ص ٩٩ ؛ تقويم البلدان ص ٢٤٠ — ٢٤١ ؛ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٠٢ ؛ أحسن التقاسيم ص ١٦٤ . وجاء فى المقدسى (الأنس الجليل ج ٢ ص ٤١٦) أن المدينة تعتبر من جملة الثغور لأن البحر قريب منها ومسافته عنها نحو نصف بريد من جهة الغرب . وقد زارها الرحالة ناصر خسرو فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ووصف سورها وأشاد بحصانتها ، كما ذكر أن المسافة منها إلى شاطىء البحر تقدر بثلاثة فراسخ . أنظر سفر نامه ص١٩ .

المنقولات ، فاستولى عليها دون استئذان الملك . وبعد أن جمع الأسلاب هاجمه المسلمون وألحقوا به وبرجال فرقته هزيمة شديدة ، حتى أنه لم ينج منهم سوى أربعة . عندئذ هرول رئيس الجماعة إلى المعسكر الصليبي طالبا النجدة . فأصدر الملك أوامره بذهاب جوانفيل وعدد من فرسان الاسبتارية والداوية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . ولكن عندما بلغوا بقعة القتال وجدوا أن رئيس فرقة رماة السهام الملكية قد هاجم المسلمين المنتصرين وهزمهم بعد أن قتل عددا منهم . حينئذ عادوا أدراجهم إلى المعسكر دون وقوع خسارة فى الأرواح ،سوى أولئك الذين فقدوا من رجال جماعة القديس لعازر [١].

ويروى جوانفيل حادثة طريفة وقعت أثناء القتال. فقد أوقع أحد فرسان لويس وأحد المسلمين الواحد بالآخر على الأرض بضربة رمح . فانتهز جندى من رجال الملك الفرنسى الفرصة وكان شاهدا لما يحدث — وأخذ جوادى الرجلين بقصد سرقتهما ، وسار متخفيا تحت أسوار الرملة حتى لا يراه أحد . وبينما هو يقود جياده ، إذ انهار من تحته مستودع ماء قديم ، فسقط هو والجياد الثلاثة إلى القاع ، وكاد أن يهلك لولا أن أسرع جوانفيل لإنقاذه [٢] .

كان طبيعيا أن يبدأ الصدام بين قوات كل من الناصر يوسف ولويس التاسع، بعد أن كشف الأخير عن نياته ، واتخذ من أمراء مصر حلفاء له ضد خصومهم فى الشام. وساعد على ذلك أيضا أن قوات صاحب حلب كانت ترابط قبالة غزة على مقربة من المعسكر الصليبي فى يافا . ومع أن هذا الصدام لم يكن فيه معركة حاسمة[٣]، إلا

(١) Joinville (ed. Wailly), 294, 296.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 296.

(٣) Cf. Perry, 212.

أنه كان مقدمة أو بداية لسلسلة من الهجمات الشديدة التى ستكيلها القـــوات الناصرية للصليبيين وولاياتهم بعد إقرار الصلح بينهـا وبين مصر .

لقد امتدت إقامة لويس فى يافا قرابة عام ، والتـوتر يزداد حـدة بينه وبين الناصر لموقفه العدائى منه ، والقوات المصرية متخلفة عن تنفيذ الاتفاقية العسكرية بينها وبينه ، إلى أن انتهى الأمر بعقد الصلح بين الناصر والمعز فى أواخر مارس ١٢٥٣ م . وبذا خلا الجو للمماليك للعمـل على تثبيت دعائم ملكهم فى مصر من ناحية ، وللناصر لمضايقة الصليبيين والإمارات الفرنجية فى الأراضى المقدسة من ناحية أخرى .

فما أن تم عقد الصلح حتى أنفذ الناصر الأوامر إلى قواته المرابطة بالقرب من غزة بالعودة إلى قواعدها فى دمشق . وقد أخذت هذه القوات فى طريق عودتها تتحرش بقوات لويس ، كما وقعت بين الفريقين كثير من المعارك قبـالة يافا وعكا وصيدا وفى بانياس ، رجحت فى معظمها كفة المسلمين ، ولحقت باللاتين خسائر كثيرة فى الأرواح والعتـاد (١) .

وجدير بالذكر أن معلوماتنا عن هذه المعارك مستقاة من الأصول الغـربية المعاصرة ، وأن هناك فجوة فى كتابات المؤرخين المسلمين المعاصرين والمتـأخرين عن تلك الأحداث مما لا نجد لها تفسيرا معقـولا ، خاصة وأن الناصر كان حليف القوات الحلبية فى أغلبها ، وأن هذه المصادر كثيرا ما أشارت إلى أحداث أقـل منها بكثير .

وقد وقعت أولى هذه المعارك بالقرب من مدينة يافا اللاتينية ، حيث كان يعسكر لويس ورجاله ، فى الأسبوع الأول من شهر مايو لعام ١٢٥٣ م (ربيع

---

(١) Annales, II, II, 445. Cf. King, 251.

الأول ٦٥١ هـ) . فقد مرت قوات الناصر فى أثناء عودتها إلى ديارها على بعد فرسخين من المعسكر الصليبى ، ولكنها لم تخاطر بمهاجمته فى بادىء الأمر على الرغم من ضخامة عدد رجالها(١). وإزاء ذلك أمر الملك رئيس رماة السهام(٢) وفرقته البالغ عددها ٢٨٠ من الرجال الأشداء ، حراسة المعسكر من الخارج حتى لا يباغته المسلمون على غفلة منهم . وظلت الحراسة مفروضة حول المعسكر طيلة أيام ثلاثة ، بينما واصلت القوات الإسلامية تقدمها إلى أن تمكنت من تطويق رئيس الرماة . فأسرع أحد رجاله ليفضى بالخبر إلى الملك ، وكان ساعتئذ يستمع إلى قداس دينى فى كنيسة المدينة . فأمر جوانفيل بالتوجه فى صحبة خمسمائة محارب لنجدة الصليبيين المحاصرين ودفع المسلمين عنهم .

وعندما تدفقت النجدة المسيحية من المعسكر، تراجع المسلمون الذين كانوا قد احتلوا مركزا متوسطا بين رئيس رماة السهام الملكية والمعسكر المسيحى، وانسحبوا إلى ربوة مرتفعة كان يرابط فوقها قائد مسلم ومعه قرابة ألف مقاتل، ويشرف منها على رئيس الرماة ورجاله. وتقدمت النجدة نحو المسلمين الذين احتلوا الربوة ، حيث نشبت معركة بين الفريقين فى السادس من مايو ١٢٥٣م (٦ ربيع الأول

---

(١) تتألف هذه القوات وفقا لرواية جوانفيل من ٢٠٠٠٠ من الجند النظاميين و ١٠٠٠٠ من الأعراب ، أنظر . Joinville (ed. Wailly), 296; King, 251; Perry, 215 ويبدو أن هذا التقدير مبالغ فيه ، خاصة وأن جوانفيل سبق أن ذكر فى موضع آخر أن الناصر أرسل إلى غزة جيشا قوامه ٤٠٠٠ مقاتل لمنع المصريين من الانضمام إلى الفرنج تنفيذا لمعاهدة قيسارية . ويحتمل أن تكون قد انضمت إليهم قوات جديدة . وكيفما كان الأمر فإن هذا التقدير يدلنا على ضخامة القوات الشامية بالنسبة لقوات لويس التاسع .

(٢) هو السيد سيمون دى مونتبليار Simon de Montbéliard أنظر : Joinville (ed. Wailly), 302.

٦٥١ هـ) . وكان القائد الأيوبى كلما أبصر ازدياد الضغط على المسلمين أرسل لهم نجدة تكفى لدفع قوات لويس إلى قلب الجيش . وعندما ضيق المسلمون الخناق على رماة الصليبيين ، أرسل رئيس الرماة نجدة من ١٢٠ مقاتل، تمكنت بدورها من دفع المسلمين نحو قلب قوات الأمير .

ولما أعادت القوات الاسلامية الكرة ، أدرك الفرنج أن الكسرة ستكون عليهم ، وأنهم لاشك هالكون لو بقوا حيث هم وواصلوا القتال ، خاصة وأن أعداءهم كانو يفوقونهم فى العـــدد . والواقع أنه لم يكن هناك أى تكافؤ بين القوتين ، فبينما كانت قوة لويس لا تزيد عن ١٤٠٠ ،كانت عساكر الناصر تقدر بثلاثين ألفا حسب رواية جوانفيل . وعندئذ تداول الملك مع القاصد الرسولى وأشراف يافا الذين لم يشتركوا فى القتال ، واستقر رأيهم على استدعاء القوة الصليبية المحاربة .

وهكذا تراجع جوانفيل ، الذى انفرد بذكر هذه الواقعة ، ورئيس رماة السهام ومن اشترك معهما فى القتال فى ذاك اليوم إلى المعسكر المسيحى ، بينما تابع المسلمون سيرهم شمالا . (١) وليس هناك من شك فى أن هذا الانسحاب كان يحمل بين طياته هزيمة الصليبيين وعدم مقدرتهم على مواجهة القوات الناصرية. ويبدى جوانفيل دهشته من أن المسلمين لم يتقدموا لمهاجمتهم بعـــد انسحاب المسيحيين . ويحلل ذلك بأن فترة إقامتهم الطويله قبالة غزة ، تحت شمس الشرق المحرقة ، قد استنفدت مواردهم وأنهكت قواهم هم وجيادهم .(٢) ولا يخفى أنه لولا شخصية لويس ووجوده فى يافا آنذاك ، ولولا الاستحكامات المنيعة التى

(١) Joinville (ed. Wailly), 296 , 298.Cf. Grousset, Crois., III, 506; Perry, 215-6.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 298. Cf. Perry, 216; Bray, 287.

أقامها حول المدينة ، لسقطت فى أيدى المسلمين(١) .

عندما وجدت القـــوات الأيوبية أن يافا عزيزة على من يرومها ، تركتها وعرجت على مدينة عكا . وفى طريقها أعملت الهدم والتخريب فى حصنين من حصون الفرنج الواقعة بالقرب من عكا ، هما حصن الداوك وتل كـردانة . (٢) وكان قائد حامية عكا وقتذاك هو يوحنا الابلينى Jean d' Ibelin (٣) كونت

---

(١) Grousset, Crois., III, 506.

(٢) « A M et CC et LIII., vindrent cil de Damas devant Acre et abatirent Doc et Recordane» Annales, II, II, 445. Cf. Eracles,II,440. وهما قلعتان بالقرب من عكا ، وذكر المؤرخ رينيه جروسيه هاتين القلعتين تحت اسم Tell - kurdâna و al - dâwuk ، أنظر Grousset, Crois., III, 506. وحدد هرقل موضع القلعة الثانية فقال : « Ricordane, un casal qui est sur le chef dou flum qui cort devant Acre » أنظر Eracles, II, 369 . وجاء فى نفس الكتاب أنها هى بعينها تل كردانة Castrum Cardonae أنظر Eracles, II, 369, n. c. وقد عثرنا على موقع هاتين القلعتين فى خريطة : Map of Western Palestine Showing the Latin fiefs, at the end of Conder's « Latin Kingdom of Jerusalem ».

(٣) هو يوحنا الثالث الابلينى صاحب أرسوف وقائد حامية مملكة اللاتين فى الأراضى المقدسة منذ ١٢٥١ م . تزوج من اليكس ابنة روهار Rohart صاحب حيفا وانجب منها ابنا واحدا هو باليان الذى خلفه فى حكم أرسوف بعد وفاته فى ١٢٥٨ م . ويوحنا هذا هو غير ابن عمه يوحنا الابلينى صاحب يافا . أنظر : Rey, Familles d' Outre - Mer, 224; Assizes du royaume de Jérusalem, I, XLIX, 21, n, a & 355, n. a.

أرسوف.(١) وعندما أصبح المسلمون قبالة المدينة أرسلوا إلى قائد حاميتها ينذرونه بأنهم سيدمرون حدائقها وحقولها إن لم يدفع لهم مبلغا قدره ٥٠٫٠٠٠ بيزنط(٢) . فأجابهم بأنه لن يرسل لهم شيئا . وعندئذ أعدوا قواتهم للقتال ، وساروا بحذاء حقول عكا إلى أن أصبحوا على مقربة من المدينة فى مدى رمية سهم . وخرج صاحب أرسوف ومعه الحامية المسيحية من عكا ، واتخذوا لهم مكانا فوق جبل القديس يوحنا بجانب مقبرة القديس نيقولا (٣) للدفاع عن الحدائق والمزارع . وتقدم فى نفس الوقت مشاة لويس ورماة سهامه لمضايقة المسلمين برميهم بالأقواس والرماح .

---

(١) جاء فى أبى الفداء (تقويم البلدان ص ٢٣٩) أن أرسوف مدينة على ساحل البحر الرومى بها قلعة وعليها سور لحمايتها وبينها وبين الرملة ١٢ ميلا ، وبينها وبين يافا ستة أميال ، ومنها إلى قيسارية ١٨ ميلا . وكانت فى أيام أبى الفداء خرابا لا يؤمها أحد .

(٢) البيزنط فى الأصل عبارة عن عملة ذهبية بيزنطية ، نسبة إلى بيزنطة عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية . وتعرف هذه العملة فى أوروبا باسم « صول » « Solidus ». وكانت متداولة فى اوروبا خلال العصور الوسطى منذ القرن السادس حتى القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا فقد سكت حوالى سنة ٥٠٠ م فى عهد الامبراطور اناستاسيوس الأول (٤٩١ــ٥١٨ م) Anastasius I . وبسقوط الامبراطورية الشرقية فى القرن الخامس عشر ، أخذ البيزنط يفقد قيمته ويقل تداوله إلى أن اختفى نهائيا فى غضون القرن السادس عشر . وليس من السهل تقدير القيمة الحقيقية للبيزنط ، نظرا لاختلاف وزنه باختلاف الزمان والمكان . ومع ذلك يمكن القول ان متوسط قيمة البيزنط الذهبى المتداول فى اوروبا فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى يبلغ حوالى نصف جنيه انجليزى ، أى مايوازى قيمة الدوكات Ducatus . وعلى هذا الأساس يقدر المبلغ المطلوب من قائد حامية عكا كما هو وارد بالمتن بحوالى ٢٥٫٠٠٠ جنيه. راجع فى ذلك Palgrave's Dictionary of Political Economy, Art, Bezants, I, 139; Encyc. Brit., Art. Bezant; Grande Encyc., Art. Besant.

(٣) Rey, Colonies franques, 452.

ويحدثنا جوانفيل عن الدور الهام الذى قام به رماة السهام والمشاة الصليبيون فى هذه المعركة . ذلك أن صاحب أرسوف استدعى فارسا منهم يدعى يوحنا العظيم ، وأمره بسحب القوات الخفيفة التى كانت قد خرجت من المدينة حتى لا يحيق بها الخطر . وفى طريق عودتها دعا يوحنا أحد الجنود المسلمين بلسان عربى إلى نزاله ، فأجابه بأنه يسره ذلك . وبينما يوحنا فى طريقه إليه ، شاهد عن يساره تسعة من عساكر الناصر ، وقد توقفوا فى هدوء لمشاهدة المبارزة . فتحول عن المسلم متجها إليهم ورشق أحدهم برمحه فأرداه قتيلا . وعندما رأى الباقون ذلك هجموا عليه بينما كان يشق طريق العودة إلى رجاله ، وضربه أحدهم بآلة معدنية ضربة عنيفة على خوذته الفولاذية . ولكن يوحنا سارع فأعمل سيفه فى رأسه وأطاح بعمامته فى وسط الحقول واندفع نحوه مسلم آخر لرشقه برمحه بين كتفيه . ولكن يوحنا أبصر الرمح مندفعاً نحوه فتفاداه ، ووجه ضربة بسيفه إلى حامله أطارت رمحه من يده . وقد قام يوحنا بهذه الأعمال أمام صاحب أرسوف وكبار القوم بعكا ، وعلى مرأى من النساء اللائى كن على الأسوار يشاهدن ما يحدث . وعقب هذا استطاع رماة الصليبيين ومشاتهم الارتداد إلى عكا ، والافلات من القوات الاسلامية التى واصلت طريقها شمالا (١) .

وقد يبدو فى رواية جوانفيل بعض المبالغة . ولكنها على أى حال تمثل لونا من ألوان الفروسية الوسيطة التى تحلى بها الجانبان الاسلامى والمسيحى ، وعلى وجه أخص فى فترة الحروب الصليبية . ولم تكن هذه الحادثة هى الأولى من

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 298,300, 302. Cf. Grousset, Crois., III, 506; Perry, 216.

نوعها فى تاريخ هذه الحركة ، فلها سوابق كثيرة تزخر بها منابع ذلك العصر.[١]

ويرجع للتحصينات التى أقامها لويس التاسع حول يافا وعكا الفضل الأول فى دفع الهجوم الاسلامى عنهما . ولا مشاحة أنه لولاها لما وجدت قوات الناصر صعوبة فى مباغتة المدينتين والاستيلاء عليهما . وقد أدرك الملك الخطر الذى سوف تتعرض له باقى البلدان الصليبية ، فضاعف جهوده لتقويتها ضد أى هجوم مفاجىء قد يقع عليها.[٢] وبادر بارسال عدد كبير من العمال والحجارين لتحصين صيدا وتقوية أسوارها.[٣] ولعله أدرك أن القوات الاسلامية لابد متجهة إليها ، فأسرع بتعزيزها حتى لا تقع فى قبضتهم .

ولكن ما أن علمت تلك القوات بذلك حتى مضت قدما نحوها . وعندما بلغ رئيس فرقة رماة السهام الملكية وقائد قوات الملك فى صيدا نبأ اقتراب المسلمين ، انسحب إلى قلعة المدينة المعروفة بقلعة البحر ، وهى تمتاز بحصانتها وبأن البحر يحيط بها من جميع الجهات . وقد أقدم على ذلك بعد أن اتضح له أنه لن يمكنه مواجهة العدو داخل المدينة لأنها كانت مفتوحة والعمل لا يزال جاريا

(١) من طريف ما ذكره ابن شداد (سيرة صلاح الدين ص ٩٢) فى معرض كلامه عن جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ، أن الرجال من الطائفتين سئموا القتال ذات يوم ، وقالوا الى كم نتقاتل وليس للصغار حظ فى ذلك . وأبدوا رغبتهم فى أن يتصارع صبيان من الجانبين . فأخرج صبيان من المسلمين الى صبيين من الافرنج ، واشتدت الحرب بينهم فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد المسيحيين ، واختطفه وضرب به الأرض ، ثم قبضه أسيرا ، وعندئذ اشتراه بعض الافرنج بدينارين فأخذهما الصبى المسلم وأطلق أسيره المسيحى . هذا ومراجع الحروب الصليبية عامة مليئة بمثل هذه المنازلات والمباريات الفردية . أنظر نفس المرجع السابق ص ٩٩ — ١٠٠ ؛ العماد الاصفهانى : الفتح القدسى ص ١٧٦ .

(٢) Bray, 287.

(٣) Nangis, Vita Ludovici, XX, 387; Annales, II, II, 445.

لاتمام تسويرها . ولكن القلعة لم تحتمل سوى عدد قليل من القوات نظرا لصغر حجمها .

عندئذ اندفع المسلمون داخل المدينة نفسها دون أدنى مقاومة لأنها لم تكن مسورة تمام التسوير . وأعملوا القتل فيمن التقوا بهم من الفرنج سواء من العمال الذين كانوا يقومون بعمل التحصينات أو من السكان. ولكنهم مع ذلك لم يحاولوا الاستيلاء على القلعة لمناعتها، وقفلوا عائدين إلى دمشق ومعهم الأسرى والأسلاب التى حصلوا عليها . وكانت هذه الوقعة فى أواخر يونيو ١٢٥٣ م (ربيع الثانى ٦٥١ هـ) ولويس لايزال فى يافا يشرف بنفسه على تحصينها (١) . وقد خسر الفرنج فى هذه المعركة خسارة كبيرة فى الأرواح ، فقد بلغت عدة القتلى منهم ثمانمائة فى قول المقل وثلاثة آلاف فى قول المكثر . أما الأسرى فكانوا اربعمائة اقتادهم المسلمون إلى دمشق حيث ألقوا بهم فى غياهب سجونها (٢) .

انزعج لويس عندما وصلته الأنباء من صيدا تروى له عن تخريب المدينة وما نزل برجاله من خسارة فى الأرواح والعتاد . كما جاءه أشراف صيدا والتمسوا منه أن يعيد تحصين المدينة بعد أن دمرها المسلمون . وكان لويس قد أزمع آنذاك تشييد قلعة جديدة على ربوة عالية تقع على الطريق من يافا إلى بيت

(١) Joinville (ed. Wailly), 302. Cf. Grousset, Crois., III, 506-7; King, 251; Perry, 216.

(٢) جاء فى تاريخ هرقل وحوليات الأراضى المقدسة أن عدد القتلى بلغ ٨٠٠ والأسرى ٤٠٠، أنظر Eracles, II, 440-1; Annales, II, II, 445. بينما ذكر جوانفيل (نفس الطبعة والصفحة) أن المسلمين قتلوا ما يزيد عن ٢٠٠٠ من الصليبيين ، ولم يذكر شيئا عن الأسرى. أما نانجى فقد ذكر أنهم قتلوا ٣٠٠٠ مسيحى. أنظر Nangis Vita, XX, 387. وقد أخذ الكتاب المحدثون بتقدير جوانفيل أنظر King, 251; Ludlow, 358; Bray, 287; Perry, 216.

المقدس . فاقتنع بوجهة نظر البارونات فى العناية بالمدينة ذاتها ، وصرف النظر عن مشروعه (١) . ويحتمل أنه خشى أن يعاود المسلمون هجومهم على مدينة صيدا وينتهى الأمر بسقوطها فى أيديهم . وما أن فرغ من تحصين يافا حتى غادرها فى ٢٩ يونيو ١٢٥٣ م (أول جمادى الأولى ٦٥١ هـ) ميمما شطر صيدا لاعادة بناء استحكاماتها . وعندما بلغ أرسوف عسكر هو والقوات التى معه قبالة قلعتها التى اشتهرت بمناعتها .

لقد أدرك لويس أن واجبه كملك وكقائد للحملة التى خرجت من فرنسا فى عام ١٢٤٨م للاستيلاء على البيت المقدس، يحتم عليه القيام بعمل حاسم يرد به على هجمات الدماشقة المتكررة ، ليفهمهم أنه بوسع الصليبيين الدفاع عن أنفسهم وعما بيدهم ضد أى محاولة اسلامية يراد بها إضعافهم أو زعزعة مركزهم فى أية إمارة من إماراتهم . ولكنه لم يكن يدرى أنه بمحاولته هذه يدق مسمارا جديدا فى نعش الممتلكات الصليبية فى الأراضى المقدسة .

لذا نراه يعقد فى نفس اليوم الذى وصل فيه أرسوف (آخر يونيو ١٢٥٣م) مجلسا من مستشاريه وكبار رجاله ، ويعرض عليهم القيـــام بحملة على مدينة نابلس (٢) الإسلامية . ويقـول جوانفيـــل إن جماعتى الداوية والاسبتارية وبارونات سورية أجمعوا بأنه من الملائم محاولة أخـذ المدينـة ، على أساس ألا

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 302.

(٢) ذكر المقدسى (الأنس الجليل ج ٢ ص ٤٢٣) أن نابلس مدينة بالأرض المقدسة ، مقابل بيت المقدس من جهة الشمال . وتحدث البشارى (أحسن التقـــاسيم ص ١٧٤) عن مناعتها الطبيعية ، فقال إنها مدينة داخلية يحفظها جبلان . وكانت تعرف فى الأزمنة القديمة وفى الكتب الدينية باسم «السامرة» أنظر صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠٣ .

يشترك لويس بشخصه فى القتال حرصا على حيـــاته ، وما قد يحيق بالقضية الصليبية من ضرر إن أصابه مكروه . ولكنه تشبث بموقفه وأجابهم بأنه لن يسمح لهم بالذهاب وحدهم . ولهذا السبب قدر للمشروع ألا يخرج إلى حيز التنفيذ (١) .

وإذا رجعنا إلى المعاهدة التى عقــدت فى ربيع سنة ١٢٥٣ م بين الناصر والمعز ، نجد أن نابلس كانت تدخل ضمن البـــلاد التى تنازل عنها الأول للثانى [٢] ، وهذا يثير كثيرا من التساؤل الذى يحتاج إلى الإجابة والتوضيح .

فظاهر مما سبق أن نابلس كانت تابعة للمصريين لا للشاميين وقتذاك ، وأن لويس كان يريد مهاجمتها ، بينما اتخذ بارونات سورية والداوية والاسبتارية موقف المعارضة ، وأقنعوا الملك بالتخلى عن فكرة الحملة بحجة المحافظة على حياته بعد أن قرر الاشتراك فيها بشخصه ويلوح أن هذه الحجة لا تقوم على سند قوى . إذ سبق أن اشترك لويس بنفسه فى كثير من المعارك التى دارت رحاها فى مصر ، وتعرض للموت مرارا . واشترك معه كثير من رجالات سورية ، ولم يفكروا يومذاك فى إسداء النصح له بعدم خوض غمار هذه المعارك .

ولكن يبدو أن هناك عوامل خفية ، أعمق من ذلك ، أدت إلى أن يتقدم الملك الفرنسى بهذا الاقتراح الذى رفضه افرنج الشام وكبار رجال الدين فيها ، وأن الحجة التى تذرعوا بها لم تكن فى الواقع إلا ستارا رقيقا يخفى وراءه حقيقة

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 308. Cf. Grousset, Crois , III, 507; Petit-Dutaillis, 197; Perry, 2‌‌16-7.

(٢) جاء فى المقريزى (السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٨٥) أنه اتفق « على أن يكون للمصريين إلى الأردن ، وللناصر ما وراء ذلك ، وأن يدخل فيما للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله » .

الموقف . والمتأمل فى الأوضاع السياسية التى لابست عقـــد الصلح بين الناصر والمعز ، يتبين بجـــلاء السر فى موقف كل من لويس والبارونات السوريين . فقد كان هذا الصلح ضربة وجهت إلى الملك الفرنسى ، واتهم الفرنسيون أمراء مصر بنقض اتفـاقهم معهم فيما يتعلق بالتحـالف العسكرى المشترك ضد صاحب الشام[١] ، هذا على الرغم من أنهم نفذوا باقى التزاماتهم التى نصت عليها المعـاهدة المبرمة بينهما . لذا لا يبعد أن يكون اقتراح الملك الفرنسى مهـاجمة تلك المدينة المصرية انتقاما لفصمهم المعاهدة ، وتخليهم عنه ، وتركه فى الميدان وحيـدا أمام الناصر وقوات الشام الإسلامية . أو لعله اعتبر المعاهدة غير ذات موضوع بعد موقف المصريين الأخير [٢] ، وأصبح بالتالى فى حل من اتخاذ ما يراه فى صالحه .

هذا عن لويس التـاسع ، أما بارونات الشام وكل من جماعتى الاسبتـارية والداوية فقد اتخذوا ـ كما رأينا ـ موقفا معارضا بقصد تحويل الملك عن مشروع الحملة على نابلس . ولهـذا أيضا أسبابه ودوافعـه . فهؤلاء الإفـرنج ، وخاصة الجماعات الرهبانية ، كانوا أعلم من غيرهم بجغرافية بلاد الشام وطرق الحـرب والقتال فى الشرق العـربى ، بسبب خبرتهم وطول إقامتهم فى تلك البـلاد ، على عكس الصليبيين الجــدد القادمين من أوروبا . وكانوا يدركون الصعـوبات والأخطار التى سوف تلاقيها الحملة ضد نابلس . فهى مدينة داخلية تقع فى قلب البلاد الإسلامية ، وتحيط بها الجبال الشاهقة فتضفى عليها مناعة طبيعية تجعـل مهاجمتها أمرا يـكاد يكون متعذرا [٣] . وبهذه المنـاسبة يكفى القـول إن السبب الرئيسى فى فشل حملة كل من يوحنا دى برين ولويس التاسع على مصر هو الجهل

(١) Joinville (ed. Wailly), 294.

(٢) Cf. King, Kinghts Hospitallers, 355.

(٣) البشارى : احسن التقاسيم ص ١٧٤ ؛ وكذلك : Perry, 216

بجغرافية تلك البلاد ومسالكها [١] . يضاف إلى ما تقدم أن افرنج الشرق كانوا يخشون إثارة المماليك بالهجوم على إحدى ممتلكاتهم [٢] ، خاصة وأن الهجمات التى تعرضت لها الولايات الصليبية حتى تلك اللحظة كانت من جانب صاحب دمشق ، ولم تشترك مصر بجيوشها فيها . وكان من المحتمل لو أنهم تجاسروا وهاجموا نابلس ، أن يهب المماليك ضدهم من الجنوب ، فى الوقت الذى يواصل فيه الناصر توجيه ضرباته من الشمال الشرقى والشرق . وبذلك يصبح اللاتين بين شقى الرحى ، وهو أمر كانوا يخشون عواقبه . وهكذا أفلحوا فى إقناع الملك الفرنسى بالتخلى عن مشروع الحملة على مدينة نابلس .

وهذا بالتالى يقودنا إلى التعرض لموقف المعز وأمراء مصر من لويس والإمارات الصليبية بعد الصلح مع صاحب الشام ، وعما إذا كانوا قد ساعدوا الناصر ، أم اتخذوا موقف الحياد من الفريقين . نستطيع أن نؤكد ، إعتمادا على ما ورد فى الأصول الغربية ، أن المصريين لم يشتركوا فعلا مع عساكر الناصر فى الهجوم على قوات لويس والمدن اللاتينية فى سورية . إذ أجمعت هذه المصادر على أن عساكر الناصر المرابطة قبالة غزة هى التى أغارت على المدن المسيحية الساحلية فى طريق عودتها شمالا إلى قواعدها فى دمشق . وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنهم وقفوا من هذه المعارك موقف الحياد، ولم يناصروا فريقا على آخر . ولعلهم وجدوا فى مشاكلهم الداخلية بعد اتفاقهم مع الناصر ، ما يغنيهم عن غيرها من الأمور . فمن المشاكل التى اعترضتهم فى ذلك الحين ثورة الأعراب التى قامت بصعيد مصر فى ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م ، وكذلك الخطر الذى

---

(١) Cf. Oman, Art of War, I, 269; Lane-Poole, Hist of Egypt, 232; Tout, Empire and Papacy, 458.

(٢) Grousset, Crois., III, 507.

أثاره البحرية واستطالتهم على المعز وعيثهم فى البلاد فسادا . وقد كان على المعز أن يواجه هذه الأخطار التى أثارها قيام حكم المماليك (١) .

على أى حال ، بعد أن استبعدت فكرة الحملة على نابلس استأنف لويس وقواته رحلتهم من أرسوف شمالا إلى عكا ، ومنها واصلوا تقدمهم إلى مدينة صور الصليبية ، حيث ضربوا خيامهم قبالتها (٢) ، ليتسنى لهم التشاور وتبادل الرأى فيما يتخذونه .

وصور ، حسبما وصفها الرحالة ومصنفو المسالك والممالك ، مدينة ساحلية حصينة ، مشيدة على مرتفع من الأرض (٣) . وقد زارها ابن جبير فى ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ووصفها بأنها « مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة ، قد أعدها الافرنج مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم » (٤) . وانتقل إلى وصف مأصرها ومناعته فقال « وأما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يحدث به ، وذلك أنها راجعة إلى بابين أحدهما فى البر والآخر فى البحر وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة . فالذى فى البر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها فى ستائر مشيدة محيطة بالباب . وأما الذى بالبحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس فى البلاد البحرية أعجب وصفا منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص . فالسفن

(١) أنظر السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٨٦ — ٣٩٠ ؛ كنز الدرر جـ ٨ ورقة ٢٦ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ١٠٦ — ١٠٧ ؛ نزهة الانام لوحة ٨٥ أ — ب .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 308, 310. Cf. Grousset, Crois., III, 507.

(٣) أنظر أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٤٣ ؛ البشارى : احسن التقاسيم ص ١٦٣ ؛ ناصر خسرو : سفر نامة ص ١٥ .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٣٠٤ .

تدخل تحت السور وترسى فيها . وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلا عند ازالتها » (١) . ولا يزيد ما تركه ابن بطوطة عما رواه ابن جبير (٢) . وقد بقيت هذه المدينة بأيدى الفرنج إلى أن استولى عليها المسلمون سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م وخربوها خوفا من أن يتحصن بها العدو مرة أخرى . وأشار إلى خرابها كل من أبي الفداء والقلقشندى (٣) .

وكان يحكم صور أثناء إقامة لويس التاسع فى سورية فيليب دى منتفرت الذى اشترك فى الحملة على مصر وأسره المصريون مع الملك الفرنسى . وعاد فيليب بعد إطلاق سراحه إلى إمارته، وظل متوليا أمورها إلى حين وفاته فى ١٢٦٩م (٤) .

كيفما كان الأمر ، فلم يحل مشروع نابلس دون تفكير ملك فرنسا فى حملة جديدة يرد بها على المسلمين . فلم يكد يستقر به المقام فى صور حتى دعا إليه كبار رجال جيشه ، وعرض عليهم القيام بحملة ضد مدينة بانياس ، قبل متابعة السير إلى صيدا . وقد لاقى هذا المشروع الجديد ترحيبا من الجميع بعد أن وافق لويس على ألا يشترك بشخصه فيه (٥) . فكانت هذه الحملة الصليبية بمثابة رد فعل لاتفاق المماليك والأيوبيين ، وما أعقبه من إغارات كان القصد منها إقلاق راحة الصليبيين ومضايقة الامارات اللاتينية فى الأراضى المقدسة (٦) . ولكن

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٢) أنظر رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٥١ . ويبدو أن ابن بطوطه قد نقل وصف ميناء صور وسلسلته عن ابن جبير .

(٣) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٤٣ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٥٤ .

(٤) Eracles, II, 423; Rey, Familles d' Outre -Mer, 499 - 501.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 310 , 312; Nangis, Vita, XX, 387.

(٦) Grousset, Crois., III, 507. Cf. King, 251; Ludlow, 358.

نتيجة هذه الحملة جاءت مخيبة لآمال لويس واللاتين.

لم يضيع الملك الفرنسي وقتا، بل قسم قواته قسمين: الأول، ويتألف من الاقلية وعلى رأسه لويس نفسه، وكان عليه مواصلة الطريق إلى صيدا لترميم استحكاماتها التى دمرها المسلمون. أما القسم الثانى فكان يضم غالبية الصليبيين الذين كلفوا بمهاجمة بانياس والاستيلاء عليها (١). وعهدت قيادة افرنج الشام إلى فيليب دى منتفرت صاحب صور وإلى وليم دى شاتنوف رئيس الإسبتارية ورينوه دى فيشيه رئيس الداوية. (٢) أما القوات الفرنسية فكان على رأسها يوحنا كونت ايو وجيل ماريشال فرنسا وجوانفيل. وفى الحال حمل الصليبيون سلاحهم، وبدأوا سيرهم تحت جنح الليل متجهين صوب بانياس التى بلغوها بعد الفجر بقليل (٣).

وبانياس هذه مدينة صغيرة تقع إلى الجنوب الغربى من دمشق على بعد مرحلة ونصف منها. (٤) وقد وصفها ابن جبير فى رحلته بأنها «ثغر بلاد المسلمين» (٥)

---

(١) Grousset, Crois., III, 507; Perry, 217.

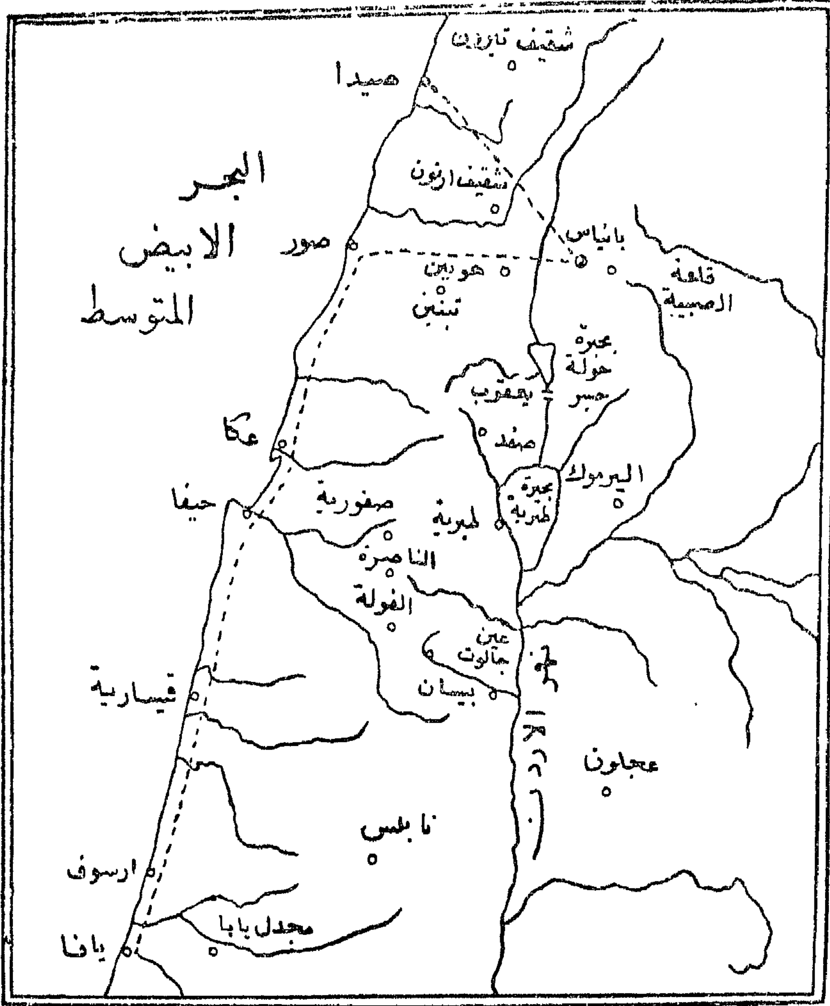
(٢) رينوه دى فيشيه Renaud de Vichiers الرئيس الأكبر للداوية. وقد خلف وليم دى سوناك، الذى مات فى وقعة المنصورة الثانية، فى رئاسة الجماعة عام ١٢٥٠ م. وظل يتمتع بهذا المنصب إلى حين وفاته فى عكا عام ١٢٥٦ م. أنظر: Eracles II, 443; Annales, II, II, 446, 447 ; Rey, Familles d' Outre - mer, 887 ; Truden des Ormes, Maisons du Temple, R. O. L , V, 395.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 312; Cf. Grousset, Crois., III, 508.

(٤) أنظر صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠٤ ؛ تقويم البلدان ص ٢٤٩. وتسمى بانياس فى كتب الصليبيين Belinas أنظر Joinville (ed. Wailly), 312; Nangis, Vita Ludovici, XX, 783. ويدعوها بعض الجغرافيين العرب «بلياس» أنظر ابن خرداذبة: المسالك ص ٢٥٥؛ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص ١١١؛ وكذلك شيخو: جولة فى الدولة المملوكية ص ٤٨٥.

(٥) رحلة ابن جبير ص ٣٠٠.

خريطة رقم (٤)



خط سير الفرنج من يافا إلى بانياس فصيدا

وكان بها قلعة تعرف بالصبيبة ، أجمعت المراجـــع على أنها كانت « من أجـل القلاع وأمنعها.»(١) وقد قامت هذه المدينة وقلعتها بدور هام في تاريخ الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر.(٢)

وكانت بانياس في ذلك الحين بيـــد الناصر الأيوبي (٣) كما كانت تحيط بها مجموعة من المدن والقلاع التابعة للصليبيين ، وأهمها شقيف أرنون وشقيـف تيرون وتبنين وهونين والحليل وصفد والنـــاصرة وصفورية (٤) ـ مما جعل اختيارها هدفا للحملة الصليبية التي أجمع اللاتين على القيـــام بهـا ، أمرا موفقا. (٥)

وفي الحال انقسم الجيش الصليبي إلى مقدمة وقلب وميمنة وميسرة وكان فرسان الداوية في المقدمة، والفرقة الملكية التي تتألف من المشاة والفرسان الفرنسيين وعلى رأسهم جوانفيل وجوفروا دى سارجين في القلب ،والاسبتارية في الميمنة ،

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠٤ ؛ وكذلك تقويم البلدان ص ٢٤٩ ؛ زبـــدة كشف الممالك ص ٤٦ . وجاء في ابن جبير (الرحلة ص ٣٠٠) أن قلعتها يستدير بها تحت السور نهر يفضي الى أحد أبواب المدينة .

(٢) أنظر تفاصيل النزاع حول بانيـاس بين المسلمين والصليبيين في القرن الثاني عشر في حوليات المؤرخ الصليبي وليم الصورى .Guill. de Tyr, 837, 844

(٣) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٦٥ أ.

(٤) فيما يتعلق بهذه الحصون ، راجع أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٤٥ ؛ القلقشندى : صبـح الأعشى ج ٤ ص ١٥٠ — ١٥٢ ؛ رحلة ابن جبير ص ٣٠١ ؛ خليل الظاهـرى: زبدة كشف الممالك ص ٤٤ . أنظر أيضا خريطة خط سير الفرنج من يافا الى صيدا ص ٢١٥ من هذا الكتاب .

(٥) رحلة ابن جبير ص ٣٠٠ـ٣٠١ ؛ وكذلك .Grousset, Crois., III, 507-8 أنظر أيضا مواقع القلاع الصليبية المجاورة لبانياس على الخريطة .

وبارونات سورية فى الميسرة . وتتلخص الخطة فى الهجوم على بانياس ومحاولة الاستيلاء عليها ، ثم احتلال المنطقة الواقعة بينها وبين قلعة الصبيبة . وعندما يتم تجمع الفرق الصليبية فى هذه المنطقة ، تقوم كلها بهجوم شامل على القلعة نفسها ينتهى بسقوطها فى أيديهم (١) .

وجدير بالذكر أن جوانفيل ، الذى حفظ لنا فى مذكراته تفاصيل هذه الحملة ، لم يعن بتحديد تاريخها . ولكنها على أى حال لابد أن تكون قد وقعت بعد يونيو سنة ١٢٥٣ م بأيام معدودة . إذ ذكر نفس المؤرخ أن هجوم قوات الناصر على صيدا كان فى أواخر يونيو من هذه السنة ، وأن لويس عندما علم بهزيمة الفرنج ، وكان فى يافا ، غادرها فى ٢٩ يونيو قاصدا صيدا . ثم تتابعت الحوادث بعد ذلك سراعا ، فعقد لويس مجلسا فى أرسوف ثم غادرها بعد أن أقام قبالتها يوما واحدا إلى عكا ومنها إلى صور ، حيث تقرر القيام بالحملة ضد بانياس ، وشرعت القوات الصليبية على الفور فى الزحف عليها ومهاجمتها . وعلى هذا يمكن القول بأن الحملة على بانياس وقعت فى شهر يوليو ١٢٥٣ م (جماد أول ٦٥١ هـ) ، أو بكلمة أدق ، فى الأيام الأولى منه .

ومهما يكن من أمر ، فقد زحف الفرنج على بانياس وفقا للخطة المرسومة . وكادت فرقة المشاة الملكية ، التى كانت أول من اقتحم المدينة ، أن تذهب ضحية حماسها وتهورها . إذ أن المسلمين ألحقوا برجالها الهزيمة عندما اندفعوا فى غير هوادة أو تريث صوب الأسوار والأبواب . فلما أطبق المسلمون عليهم أبصرهم جوانفيل وطلب من الفرسان الذين معه المبادرة بالذهاب إلى البقعة التى صدرت إليهم

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 312. Cf. Grousset, Crois , III, 508; Petit-Dutaillis, 198.

الأوامر بالتوجه إليها ، لانقاذ مشاتهم حتى لا يفتك المسلمون بهم . وكان الطريق الذى سلكه الفرسان الفرنسيون عموديا محفوفا بالمخاطر ، نظرا لصعوبة الموقع الذى اختيرلهم. كما كان عليهم اجتياز ثلاثة أسوار من الأحجار غير المتماسكة . وقد بلغ من شده انحدار الجدران أنه كان يصعب على الجواد حفظ توازنه أثناء سيره ، حتى لقد وقع أحد الفرسان تحت ثقل جواده على مرأى من جوانفيل الذى أسرع لانقاذه . هذا ، بينما كانت قمة التل الذى كانوا يتسلقونه زاخرة بفرسان المسلمين . ولكن عندما أبصر المسلمون فرسان الصليبيين يقتربون منهم على صهوات جيادهم ، تملكهم الفزع وتخلوا لهم عن هذا التل ، وسرعان ما احتله الفرنج .

ولما شاهد المسلمون داخل بانياس رجالهم يتراجعون أمام الفرسان الفرنسيين، سلموا لهم المدينة دون مقاومة أو إراقة للدماء . وهكذا نجح الجزء الأول من الخطة بسقوط المدينة واحتلال الفرسان الفرنسيين مركزهم بينها وبين قلعة الصبيبة ، وإنقاذ مشاتهم من الخطر الذى أحدق بهم فى بداية المعركة . وأقاموا ينتظرون وصول الفرق الأخرى ، للقيام بهجوم موحد على قلعة المدينة .

أما القوات الإسلامية المنسحبة فقد أسرعت إلى قلعة الصبيبة للاحتماء بها والدفاع عنها ضد هجوم الفرنج المرتقب . وكان من الممكن أن ينجح الشق الثانى من خطة الفرنج لو كان قد نفذ بدقة . ولكن حدث أن رجال فرقة كونت ايو ، وهم من الفرسان التيوتونية (١) ، خالفوا التعليمات الصادرة

---

(١) حول جماعة الفرسان التيوتونية Teutonic Order أنظر : King, Knights = Hospitallers, 305 – 306; Hélyot, Dict. des Ordres Religieux, III,

إليهم بالانتظار ريثما يتم وصول الفرق كلها . وساروا فى أثر القوات الإسلامية ، وقد اندفعوا بتهور نحو تلك القلعة الحصينة ، إعتقاداً منهم أنهم لن يجدوا صعوبة فى اقتحامها بعد النصر الذى أحرزوه . وقد أنذرهم جوانفيل بالعواقب التى ستترتب على تخطيهم للأوامر ، ولكنهم لم يستمعوا إليه ، وواصلوا تقدمهم فى اتجاه القلعة ، ضاربين بالأوامر عرض الحائط ، غير مبالين بالأخطار التى قد تعترضهم ، خاصة وأن الطريق المؤدى إلى القلعة كان صعبا وعرا مليئا بالصخور . وقد صح ما توقعه المؤرخ جوانفيل . ففى تلك الأثناء كان المسلمون الذين التجأوا إلى الصبيبة قد استردوا شجاعتهم وحماسهم ، وأعدوا عدتهم لمواجهة المسيحيين . فما أن أبصروا رجال كونت ايو مقبلين نحوهم حتى انقضوا عليهم ، واضطروهم إلى التراجع ثانية فى اتجاه بانياس حيث كان يقيم جوانفيل وباقى الصليبيين .

وقد حدث فى تلك اللحظة ما يحدث عادة عند ارتداد الجيوش المنهزمة . إذ سار المسلمون الظافرون فى أعقاب فرسان كونت أيو ، وقد أخذوا يرشقونهم بالسهام والرماح ، والفرسان يهرولون مسرعين نحو رفاقهم ، وقد وقع الخبل فى صفوفهم . وعندما شاهد رجال جوانفيل ذلك استولى عليهم الخوف ، واختل نظامهم . وقد اضطر جوانفيل إلى الترجل عن جواده والوقوف إلى جانبهم ، لأنهم كانوا جميعا مترجلين ، كى يشد من عزائمهم ويقوى روحهم المعنوية .

624–648; Woodhouse, Military Religious Orders, 263 - 292. =
وكان رئيس تلك الجماعة فى ذلك الحين يدعى جنستر دى شفرتزبورج Gunther de Schwarzburg الذى توفى فى ١٦ يوليو ١٢٥٣ م ، وخلفه فى ذلك المنصب بودسترنا Poppo d'Osterna ، أنظر Rey, Familles d'Outre- Mer, 904.

وحدث عند ارتداد قوات كونت ايو ، أن أصاب المسلمون أحـد فرسانه ويدعى يوحنا دى بوسى Jean de Bussey بسهم فى عنقه أرداه قتيلا، فكان هذا باعثا على زيادة الاضطـراب . وعنـدما التمس الفارس هيوج دسكوز Hugh d' Escoz من جوانفيل أن يعينهم على حمل الجثة ، رفض طلبه قائلا إنهم قد خالفوا الأوامر بصعودهم فى اتجاه القلعة ، وعليهم أن يتحملوا تبعة خطأهم وعصيانهم .

وكان جوانفيل وباقى الفرنج المرابطين على التل بين القلعة والمدينة فى موقف لا يحسدون عليه ، وقد وقع الهرج والمرج فى صفوفهم نتيجـة لتعقب المسلمين لقوات ايو عند انسحابها . ورأوا البقاء حيث هم إلى أن تأتى نجـدة مسيحية لإنقاذهم . عندئذ توجه الفارس يوحنا دى فالنسين إلى المعسكر المسيحى أسفل التل فى طلب مساعدة أوليفردى ترمز Oliver de Termes وغـيره من كبار رجال فرنسا ، لإنقاذ جوانفيل الذى كثرت الإشاعات حـول مصيره . وقرر أوليفر الذهاب إلى حيث يوجد جوانفيل واستقصاء أخبـاره هو ومن معـه لابلاغها للملك . واتخذ طريقه إليهم فى أعلى التل .

وبعد أن اطمأن عليهم أوضح لهم أنهم فى خطر داهم ، لأنهم إذا اتخذوا فى نزولهم نفس الطريق الذى صعدوا منه ، فلن يكون ذلك إلا بمخـاطرة كبيرة ، لأن التل كان شديد الانحدار وبوسع المسلمين الذين يتعقبون رجال كونت ايو مهاجمتهم والقضاء عليهم . لذا أخذوا يتدبرون أمرهم فى كيفيـة النجـاة من المأزق الذى أصبحوا فيه . ولم يطل بهم التفكير ، فقـد اكتشف أوليفردى ترمز خدعة حربية كان القصد منها التمويه على قـوات المسلمين ليتسنى للصليبيين الهروب . وتتلخص فى أن يتظاهر جوانفيل ومن معه بالاستعداد للتحول ناحية

مدينة دمشق إيهاما للمسلمين بأنهم قد غيروا اتجاههم ، وأنهم سينقضون عليهم من الخلف . كما كان عليهم فى نفس الوقت إشعال النيران فى الحقول تغطية لتراجعهم ، وانطلت الحيلة على المسلمين الذين اعتقدوا أن الصليبيين قد غيروا خط سيرهم ، فتحولوا لملاقاتهم من الجانب الآخر . ولم يتبينوا بين لهب الدخان المتصاعد بسبب إحراق المحاصيل خدعة الفرنج .

وعندما وجدوا أن الجو قد خلا لهم ، تراجعوا من نفس الطريق الذى صعدوا منه ، ووصلوا إلى المعسكر المسيحى سالمين . وفى صبيحة اليوم التالى لحقوا بالملك الفرنسى فى صيدا (١) .

وهكذا كان العصيان وعدم الطاعة سببا فى فشل الحملة التى تم تنفيذ القسم الاول منها بنجاح تام . فقد قضت محاولة فرقة كونت ايو على ثمرة النصر الذى أحرزه الفرنج ، حتى أنهم لم يعودوا يفكرون فى شىء سوى النجاة بأنفسهم من هزيمة محققة (٢) . والواقع أن عصيان الأوامر كان دائما من عوامل انهزام الصليبيين فى حروبهم . وهذا يذكرنا بموقف روبرت كونت ارتوا شقيق لويس التاسع عندما اندفع هو ومقدمة الجيش الصليبى داخل مدينة المنصورة عقب عبورهم بحر اشموم ، مخالفين أوامر قائدهم ، فدفعوا حياتهم ثمنا لهذه المغامرة الطائشة ، والتى كانت من أسباب فشل الغزوة على مصر (٣) .

وفى الوقت الذى شن فيه الفرنج هجومهم على مدينة بانياس ، واصل لويس ومن معه طريقهم إلى صيدا لترميم استحكاماتها التى كان قد دكها المسلمون .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 312-8. Cf. Grousset, Crois., III, 508-9; Perry, 217; Walsh, 209; Petit-Dutaillis, 198.

(٢) Stevenson, 331; Walsh, 209; Perry, 217.

(٣) Rothelin, II, 605. Cf. Oman, I, 352; Grousset, Crois, III, 459.

وقد لفت نظره ضحايا معركة صيدا الذين كانت جثثهم مكدسة على الشاطىء وداخل المدينة وكانت فى حالة تعفن ، إذ لم يعن أحد بدفنها . فتوقف وطلب من المندوب البابوى الذى كان بصحبته تكريس بقعة من الأرض لدفن الجثث فيها . وبعد ذلك أمر لويس رجاله مواراة الجثث ، ولكنهم أبدوا اشمئزازهم من هذا العمل ، خاصة وأنهم لم ينسوا بعد الوباء الذى تفشى بينهم فى مصر ، ونقلته فلول قواتهم معها إلى عكا . عندئذ ترجل لويس عن جواده ، وتولى بنفسه دفن إحدى الجثث . وسرعان ما حذا الآخرون حذوه . وقد استغرقت العملية خمسة أيام كاملة . وبعد الانتهاء منها ، أقام رئيس أساقفة صور ورجال الدين الصلاة الجنائزية على أرواح الموتى . ويقول وليم دى نانجى إنهم اضطروا إلى سد أنوفهم بسبب الرائحة الكريهة المنبعثة من الجثث ، ما عدا لويس . ومع ذلك فقد أصيب رئيس الأساقفة بالوباء ، ومات بعد ذلك بثلاثة أيام (١) .

وبعد ، فإن المعارك والمناوشات التى استعرضناها فى هذا الفصل تكشف عن فترة غامضة فى العلاقات بين المسلمين والصليبيين إبان إقامة لويس التاسع فى سورية ، وهى فترة أهملتها المراجع العربية إهمالا تاما ، ومرت عليها الأصول الغربية مرورا سريعا ، ولم تتعرض لها كتب المحدثين مهما وسعت إلا عرضا وفى أسطر معدودات . فكان علينا أن نجمع عنها كل ما عثرنا عليه من الشذرات المتناثرة فى بطون مصادر المعاصرين من أهل الغرب ، وعرضها داخل إطار يبدو فيه التسلسل والانسجام قدر الاستطاعة .

ولعل أهم ما نخرج به من هذه المعارك أنه لم تكن بينها معركة حاسمة بالمعنى المفهوم . ولكنها على أى حال أقلقت اللاتين وأقضت مضاجعهم ، وأثبتت

---

(١) Nangis, Vita, XX, 387. Cf. Guill. de Chartres, XX, 31-2; Joinville (ed. Wailly), 318.

ضعف إماراتهم ، وأن مقامهم فى الأراضى المقدسة بات مزعزعا ينتظر مصيره المحتوم من وقت لآخر . هذا ، فضلا عن أن حملة الفرنج المضادة على بانياس لم تلق نجاحا يذكر . وأخيرا لولا وجود لويس فى سورية فى تلك الفترة بالذات، ولولا الاستحكامات والتحصينات التى أقامها حول المدن الصليبية فيها ، لما صمدت أمام ضربات المسلمين القوية ، ولوقعت فريسة سهلة فى قبضتهم . ولكن هذا كله كان علاجا وقتيا زال بزوال مؤثره . إذ أنه لم تكد تمضى بضع سنوات بعد مغادرة لويس الأراضى المقدسة فى ابريل ١٢٥٤ م ، حتى بدأ المسلمون يشنون حملات واسعة على إمارات اللاتين ، انتهت باخراجهم نهائيا من الساحل السورى فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى .

الفصل السادس

لويس التاسع واسماعيلية الشام

لم تكن جهود لويس لاستئناف الجهاد المسلح ، واستغلاله انقسام المسلمين فى مصر والشام عقب ثورة المماليك البحرية ، هى كل ما أداه لقضيته الصليبية من خدمات طوال السنوات الأربع التى أقامها فى الأراضى المقدسة متنقلا بين مدنها المسيحية المختلفة ، بل عمل أيضا على إنشاء جبهة لاتينية اسيوية ذات أهداف مشتركة وغايات موحدة ، تقف فى وجه المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام، وتكون خير عون له على تنفيذ مآربه. (١) وكان من الطبيعى أن يسعى إلى تذليل العقبات التى تعترض مشروعه ، وأن يرحب من جانبه بكل خطوة تتخذ فى هذا السبيل. وكان من نتيجة ذلك أن اتصلت السفارة بينه وبين كبير الاسماعيلية فى بلاد الشام، وجرت بينهما مداولات ومفاوضات يستدل منها أن كلا منهما أخذ يستغل الآخر لمصلحته الذاتية ، وإن توحدت أهدافهما فى الصراع ضد العالم السنى ، والوقوف فى وجه أى تكتل إسلامى يضر بمصالحهما . (٢)

ومن الضرورى فى هذا المجال أن نستعرض تاريخ طائفة الاسماعيلية فى بلاد الشام ، وموقفها من المسلمين والصليبيين بالقدر الذى يعيننا على إيضاح هدفنا الأول ، وهو الكشف عن هذه الفترة الغامضة فى تاريخ الحركة المقدسة بصفة عامة ، وفى تاريخ العلاقات الصليبية الاسماعيلية أثناء إقامة لويس فى سورية بصفة خاصة ، ومدى صلتها بالأحداث الجارية فى بلاد الشرق العربى فى ذلك الحين ، والنتائج التى حققتها .

---

(١) Cf. Grousset, Crois., III, 516.

(٢) جبشى : حملة القديس لويس ص ١٢ – ١٣ ؛ و Bréhier, Crois., 227.

يكتنف تاريخ اسماعيلية الشام كثير من الغموض، إذ لا توجد لهم كتب مستقلة مفصلة على غرار الحوليات التى سجلها مؤرخو المسلمين السنيين فى مصر وغيرها من البلدان. وكل ما هنالك نتف مبعثرة فى شتى المراجع العربية والافرنجية لا تشفى غلة الباحث فى هذه الناحية.[١] ومنها نعرف أن الاسماعيلية يدينون بإمامة اسماعيل ابن جعفر الصادق (ت ١٤٥ هـ) الذى نجح أتباعه فى إقامة الدولة الفاطمية فى أخريات القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى). غير أنه حدث أن انشق اسماعيلية الشام بعد موت الخليفة المستنصر الفاطمى (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤م) على الدعوة القديمة، ونادوا بإمامة ابنه نزار، وبطلان إمامة إبنه الآخر المسمى المستعلى الذى ظل أتباعه فى مصر ينتمون إليه.[٢] وقد عرف فرع الشام فى كتب التاريخ باسم «الاسماعيلية النزارية» وباسم «الحشيشية» أيضاً.[٣]

ومما ساعد على نجاح الدعوة النزارية فى بلاد الشام فى أواخر القرن الخامس الهجرى (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى) أنها كانت مرتعا خصيبا للصراع بين الفاطميين والسلاجقة والصليبيين الذين أفلحوا فى تأسيس مملكة لاتينية لهم فى الأراضى المقدسة على حساب هذه الفوضى الضاربة أطنابها فى الشرق الإسلامى. كما مكنت هذه الاضطرابات الاسماعيلية من الاستيلاء على عدد من القلاع الجبلية القوية المتناثرة فى جبال لبنان، وتكوين مجتمعات إسماعيلية هناك

(١) Berchem, Épigraphie des Assassins, 6, 16.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٣٥ — ٢٣٧ ؛ ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩٤ . راجع أيضا طه شرف : دولة النزارية ص ٣ و ٨٣ ؛ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٩٧ ؛ شيخو : جولة فى الدولة العلوية ص ٤٩٣ .

(٣) أنظر شيخو : نفس المرجع والصفحة ؛ طه شرف : دولة النزارية ص ٩٨ ؛ عنان : تراجم إسلامية ص ٥٧ .

لا هم لها إلا العمل على تثبيت أقدامها بكافة الطرق والوسائل .(١)

والمتأمل فى الأوضاع السائدة فى بلاد الشام منذ بداية القرن السادس حتى أواسط القرن السابع الهجرى (١١٠٠ — ١٢٥٠ م) ، يتبين بجلاء أن تاريخ الاسماعيلية كان مختلطا بتاريخ الصليبيين والسنيين . وأنهم أضحوا قوة سياسية لايستهان بها ، وبات أمراء المسلمين والفرنج يخافـــون بطشهم ، ويحسبون حسابهم .(٢) وكانت سياستهم تقوم على الفتك بمن يعترضهم فى سبيل تحقيق غاياتهم الشخصية ، وقد حفل تاريخهم بالإرهاب السياسى والاغتيالات المنظمة ضد الزعماء السنيين وكبار الفرنج على السواء. (٣) فكان من بين ضحاياهم الأمير مودود اتابك الموصل الذى قتلوه سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م (٤) ، وكونراد دى منتفرات صاحب صور الذى اغتالوه فى ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م. (٥) وكاد صلاح الدين الأيوبى أن يذهب ضحية إحدى مؤامراتهم فى سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥م لولا أن أفلت بأعجوبة من موت محقق. (٦)

---

(١) Berchem, Épigraphie, 5; Hammer, Hist. des Assassins, 351; Rey, Essai sur la domination française en Syrie, 18. ؛ أنظر أيضا العبر ج ٤ ص ٩٦ — ٩٧ ؛ رحلة ابن جبير ص ٢٥٥ ؛ طه شرف : دولة النزارية ص١٧٦—١٧٨ و ١٢٥ ؛ كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ٣ — ٤.

(٢) Bréhier, Crois., 227, n. 1.

(٣) راجع فى ذلك كمال الدين : تاريخ حلب (مجموعة الحروب الصليبية ج ٣) ص ٦٠٣ ؛ وكذلك Berchem, Épigraphie, 16-7; Browne, Lit. Hist. of Persia, II, 209; Ambroise, Crusade of Richard, 335.

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١ لوحه ٧٨ .

(٥) Ambroise, Crusade of Richard, 334-5. Cf. Browne, Lit. Hist. of Persia, II, 209; Hammer, Hist. des Assassins, 345.

(٦) عنان : تراجم اسلامية ص ٥٩ — ٦٠ ؛ وكذلك Guyard, Un grand maître, 367; Berchem, Épigraphie, 16.

وهكذا غدت طائفة الاسماعيلية فى الشام عاملا قوى الأثر فى حوادث هذا العصر وتطوراته . وزاد من أهمية الدور الذى قامت به معاصرتها للحروب الصليبية الأولى ، فعاشت فى كنفها وترعرعت بين أحضانها . وقد ألفت فى انقسام المسلمين وفى المعارك الصليبية ، مجالا واسعا لنشاطها ومؤامراتها . واستطاع الاسماعيلية أن يستغلوا هذه الظروف فى ملء خزائنهم وتثبيت دعائم دولتهم . وكان أمراء المسلمين والفرنج يتوددون إليهم ويلتمسون محالفتهم خوفا من صولتهم . كما كان الاسماعيلية أنفسهم يتقلبون فى محالفة الفريقين طبقا لما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة .(١)

لذا كان من الطبيعى أن يغتنم الاسماعيلية فرصة انقسام أمراء مصر والشام عقب ثورة المماليك ، ووجود لويس التاسع فى الأراضى المقدسة ، ليظهروا على مسرح السياسة من جديد ، وليقوموا بنفس الدور الذى قاموا به فى مناسبات سابقة خلال الحروب الصليبية المتقدمة . وكان من الطبيعى أيضا أن تتصل السفارة بين كبيرهم وبين الملك لويس ، وأن تتوثق بينهما روابط المودة والصداقة .

ولم يصل إلينا من المصادر الغربية التى تحدثت عن هذه السفارات سوى ماسجله جوانفيل فى مذكراته عن « تاريخ القديس لويس » ، وإشارة سريعة فى كتاب روتلان لاتعدو بضعة أسطر .(٢) وإن المعلومات القيمة التى خلفها جوانفيل عن هذه الناحية تزيد من القيمة التاريخية لكتابه .(٣) فهى لاتلقى ضوءا على فترة غامضة فى تاريخ اسماعيلية الشام فحسب، وإنما تكشف أيضا عن جانب هام

(١) عنان : نفس المرجع السابق ص ٥٧ .

(٢) انظر Berchem, Épigraphie, 31 - 2, n.2. - ويلاحظ أن الأمر قد التبس على فان برشم ، فذكر أن هرقل هو الذى تعرض فى مؤلفه لهذه السفارت ، والصحيح روتلان وليس هرقل . أنظر Rothelin, II, 624.

(٣) Cf. Conder, Latin Kingdom, 360.

من خطة لويس الصليبية التي كان يبغى من ورائهـا كسب ما يمكن كسبه لصالح قضيته عن طريق المفاوضة والتحالف ، وضرب قوة بأخرى ، ومناصرة أمير على آخر .

وقد عدنا إلى المصادر العربية ، المعاصرة والمتأخرة ، من مخطوطة ومطبوعة علنا نعثر على ما يشير إلى هذه السفارات المتبادلة بين لويس التاسع وشيخ الجبل ، فلم نجد شيئا . ومن المرجح أن يكون المؤرخون السنيون مثل ابن واصل وسبط ابن الجوزى وأبو شامة وغيرهم من المتأخرين قد أغفلوا عن عمد أمر هـذه السفارات لما كان بينهم وبين الشيعة من تناحر وبغضاء ، ولأنهم كانوا ينظرون إلى هذه الفرق الشيعية الباطنية نظرة ريبة وتوجس ، خصوصا وأن هـذه الفترة كان قد قوى فيها النزاع بين المسلمين فى مصر والشام والفرنج متربصون لهم . وربما كانت هذه السفارات قد تمت بطريقة شفوية حرصا على سريتهـا حتى لا تقع فى أيدى أحد السنيين ، فيفتضح الاسماعيلية ويطلع السنيون على جليـة أمرهم ، فيتخذون الحيطة من جانبهم ويعدون عدتهم لمواجهة كافة الاحتمالات . على أى حال كان كبيرا اسماعيلية الشام ويعرف باسم « شيخ الجبل » (١) هو

(١) يطلق عليه كل من جوانفيل وروتلان Vieil de la Montaingne أنظر Joinville (ed. Wailly), 246, 248; Rothelin, II, 624. وقد انتشر هذا اللقب فى العـالم الغربى وكتب عنه كثير من مؤرخى الفرنج أنظر Hammer, Hist. des Assassins, 243-4 ومعناه الحرفى « عجوز الجبل » أى « Old man of the mountain » وهو الاسم الشائع فى تواريخ الحروب الصليبية . أنظر Travels of Marco Polo (tr. Masefield), 73-4,n.4 وهذا خطأ شائع لأن المقصود بكلمة شيخ هنا السيد أو الرئيس وليس الرجـل المسن حسب رواية الفرنج ، اللهم إلا إذا فسرنا الترجمة الأفرنجية بمعنى « الرجل الوقور » . هذا ، فضلا عن أن طبيعة استقرار الاسماعيلية فى قلاع مشيدة فوق الجبال ، جعلت كبيرهم خليقا بأن =

الذى بدأ المراسلة. إذ أنفذ سفارة من قبله إلى لويس التاسع فى عكا تحمل مطالبه. وقد تمت ثلاث مقابلات بين رسل الشيخ وبين الملك الفرنسى وكبار اللاتين فى الشرق ، بسط فيها الرسل مطالبهم وتلقوا ردود الملك . (١)

ولا نعرف على وجه التحديد متى وصلت هذه السفارة .إذ يكتفى جوانفيل بقوله إنها وفدت على لويس اثناء إقامته فى عكا (٢) ، أى فى الفترة الممتدة من مايو ١٢٥٠ م إلى مارس ١٢٥١ م . وكان روتلان أكثر دقة ، إذ رواها ضمن حوادث سنة ١٢٥٠ م . (٣) وعلى هذا يمكن تحديد تاريخ وصولها فيما بين مايو وديسمبر من سنة ١٢٥٠ م . وبتتبع سير الحوادث فى كتاب جوانفيل منذ مقدم لويس إلى عكا ، نجد أن هذه السفارة وصلت بعد مؤتمر عكا الصليبى وبعد رحيل كونت انجو وكونت بواتييه إلى الغرب ووصول رسل الناصر يوسف صاحب دمشق إلى عكا . وإذا علمنا أن مؤتمر عكا إمتد من ١٩ يونيو إلى ٣ يوليو ، وأن أخوى الملك أبحرا إلى الغرب فى أغسطس ١٢٥٠ م ، وأن رسل الناصر وصلوا إلى عكا بعد هذا التاريخ ، أمكننا القول إن سفارة شيخ الجبل وصلت إلى عاصمة مملكة اللاتين فى وقت ما فى الفترة من سبتمبر إلى ديسمبر من هذه السنة (٤) .

= يسمى شيخ الجبل ، أى رئيس قلاعه . أنظر عن ذلك : Hammer, Histoire des Assassins, 89-90.

(١) Joinville (ed. Wailly), 246; Rothelin, II, 624.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 246. Cf. Berchem, Épigraphie, 30.

(٣) Rothelin, II, 624.

(٤) ذكر ميشيليه أن سفارة كبير الاسماعيلية وفدت على لويس خلال اقامته فى جزيرة قبرص مما يتنافى والحقيقة التاريخية حسب رواية كل من جوانفيل وروتلان ويبدو أن الأمر =

كيفما كان الأمر ، عندما وصل الرسل استدعاهم لويس إلى مقابلته . ويظهر أن جوانفيل قد شهد هذا الاجتماع حسبما يتضح من التفاصيل المتعلقة به التى أوردها فى مذكراته . ووصف أعضاء البعثة فقال إن رئيسها كان فى زى حسن ودرع كامل ، وكان يجلس خلفه رجل آخر يحمل فى يده ثلاثة خناجر يصل أحدها فى مقبض الآخر ، وخلفه كان يجلس ثالث وقد لف ذراعه بكفن(١) . وواضح أن شيخ الجبل كان يهدف من وراء ذلك إلى تهديد الملك الفرنسى من طريق خفى بقوته وقوة جماعته ، وأن مصيره سيكون الموت إذا رفض إجابة رغباته (٢) .

وقد نتساءل عن السر فى تهديد رسل شيخ الجبل الملك الفرنسى . الواقع أن هذه كانت السياسة العامة التى سار عليها إسماعيلية الشام فى إرهاب الناس وتحطيم أعصابهم ، والقضاء على روحهم المعنوية لنيل أغراضهم ، وواضح من سفارة الحشيشية إلى لويس فى عكا ، أنهم كانوا يعلمون سلفا بوصوله إليها . ومعنى هذا أيضا أنهم كانوا يستقصون أخبار الفرنج أولا بأول . فما أن علم شيخهم بهزيمة لويس والصليبيين فى مصر ومغادرتهم دمياط إلى الميناء اللاتينى ، حتى أرسل رجاله إليه ، للفوز بما يمكن الفوز به عن طريق الضغط السياسى ، معتقدا أن الملك الفرنسى لن يبدى معارضة بعد إذلاله فى مصر .

ومهما يكن من شىء ، فبعد أن استوى الرسل فى جلستهم ، أمر لويس رئيسهم

قد التبس عليه فخلط بين هذه السفارة وبين بعثة المنول التى توجهت الى لويس فى قبرص قبل إبحاره الى مصر . أنظر . Michelet, I, 565

(١) Joinville (ed. Wailly), 246.

(٢) Grousset, Crois., III, 516; Boulenger, St. Louis, 183.

أن يبسط مطالبه . فقال إن سيده شيخ الجبل أوفده إليه ليستفسر منه إن كان يعرفه أم لا . فأجابه لويس بأنه لا يعرفه لأنه لم يره إطلاقا ، وإن كان قد سمع بعض أخباره . حينئذ أبدى الرسول الاسماعيلى دهشته لأن لويس لم يبادر بارسال التحف والهدايا إلى مولاه كسبا لصداقته ، وتأمينا لنفسه، كما يفعل غيره من الملوك والأمراء . وضرب له مثلا بامبراطور المانيا وملك هنغاريا وسلطان مصر الذين يدركون أن حياتهم فى يد مولاه (١) . ثم ختم حديثه قائلا للملك إنه إذا لم يستحسن تقديم فروض الطاعة لشيخ الجبل ، فلا أقل من أن يستغل نفوذه لإعفائه من الجزية التى كان يدفعها لجماعتى الاسبتارية والداوية ، مؤكدا له أن سيده سوف يقنع بذلك (٢) .

لقد كشفت خطبة المبعوث الاسماعيلى التى سجلها جوانفيل عن سبب مهمته ، وهو ينحصر فى أن يختار الملك بين أحد أمرين : إما أن يسرع بتقديم الهدايا إلى شيخ الجبل رمزا لتفوق الشيخ على الملك ، وإما أن يعفيه من الضريبة التى كان يدفعها للجماعتين الرهبانيتين فى الأراضى المقدسة (٣) .

---

(١) ان مزاعم شيخ الجبل فيما يتعلق بتزلف امبراطور المانيا وملك هنغاريا وسلطان مصر اليه ، لا تقوم على أساس تاريخى سليم ، بدليل أن مراجع العصر لم تتعرض لها . ولعل كبير الاسماعيلية أراد ايهام الملك الفرنسى بأن الملوك والأمراء فى الشرق والغرب ، يحاولون كسب صداقته خوفا من مؤامراته التى كثرت الأقاويل عنها .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 248. Cf. Defrémery, Rech. sur les Ismaéliens, 45; Berchem, Épigraphie des Assassins, 30-1.

(٣) عندما تعرض روتلان لهذه السفارة ذكر أن أحداً لم يكن يعرف سببها ، وبنص قوله :

« Le Viex de la Montaingne et sirez des Hssassis envoia ausint ses mesages au roi, mes nous ne savons pas bien de voir por quoi ce fu. » Rothelin, II, 624.

وكان اسماعيلية الشام فى ذلك الحين يدفعون الضريبة للداوية والاسبتارية الذين لم تكن تخيفهم خناجر الاسماعيلية وسكاكينهم المسمومة (١) . يقول جوانفيل « إن شيخ الجبل لن يجنى شيئاً من وراء اغتيال رئيس الاسبتارية أو رئيس الداوية ، إذ يعلم جيداً أنه لو قتل أحدهما لحل محله آخر لا يقل عنه مقدرة وكفاءة ، وإنه لهذا السبب لا يلقى بجماعته فى مغامرة جوفاء »(٢) . ولعل نظرة إلى خريطة قلاع الاسماعيلية فى بلاد الشام تفسر لنا السبب فى ذلك . فقد كان للاسماعيلية آنذاك سلسلة من القلاع الجبلية بين طرابلس وحماه هى مصياف والرصافة والخوابى والقدموس والكهف والمينقة والعليقة (٣) . وكانت تشرف عليها مجموعة من المدن والحصون التابعة الفرنج وجماعتى الاسبتارية والداوية . فكان الاسبتارية يمتلكون قلعة الحصن وقلعة المرقب ، أما الداوية فكان من

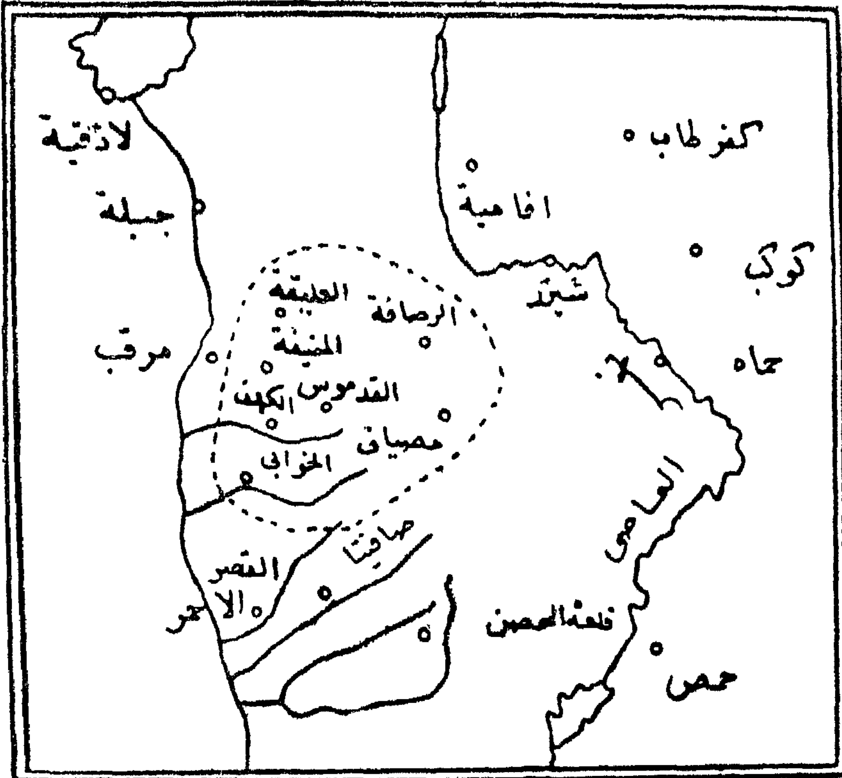
---

(١) Joinville (ed. Wailly), 248. Cf. Conder Latin Kingdom, 360; Rey, Essai sur la domination française en Syrie, 18; Bailly, 188.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 248. Cf. Defrémery, Rech. sur les Ismaéliens, 45-6; Guizot, 89-90.

(٣) ذكر القلقشندى (صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤٦ — ١٤٧) أن قلاع الدعوة عددها سبع ، مصياف وهى المركز الرئيسى ، ثم الرصافة وهى بالقرب من مصياف إلى الشمال منها ، والخوابى فى جهة الشمال من طرابلس على نحو مرحلتين منها ، والقدموس وهى بالقرب من الخوابى ، والكهف بالقرب من القدموس على نحو ساعة منها ومشيدة على جبل مرتفع ، والمينقة وهى قلعة بالقرب من الكهف على نحو ساعة على جبل مرتفع أيضا ، وأخيرا العليقة وهى قلعة على الجبل المذكور أيضا على نحو ساعة من المينقة . راجع فى ذلك أيضا : العبر ج ٥ ص ٣٩٠—٣٩١ ؛ الدويهى : الطائفة المارونية ص١٣ ؛ و Sanuto, Secrets for true Crusaders, 5; Guyard, Un grand maître, 351. أنظر كذلك خريطة قلاع الاسماعيلية فى بلاد الشام ، ص ٢٣٤ من هذا الكتاب .

خريطة رقم (٥)



قلاع الاسماعيلية فى بلاد الشام

فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى

أشهر قلاعهم برج صافيتا الذى يدعونه القصر الأبيض (١) . هذا ، فضلا عن المدن اللاتينية الساحلية الأخرى . وكان الفرنج بحصونهم هذه يسيطرون على طرق مواصلات أصحاب الدعوة فى الشام بل ويتحكمون فيها أيضا . كما كان بوسعهم الإغارة منها على قلاعهم . وهكذا نرى أن الاسماعيلية الذين كانوا يلقون الرعب فى قلوب الأمراء المسلمين والفرنج ، ويأخذون منهم الاتاوات صيانة لأرواحهم ، يدفعون هم أنفسهم ضريبة لهاتين الجماعتين للاطمئنان على سلامة مواصلاتهم ، وحتى لا يتعرض لهم أولئك الرهبان المحاربون بسوء (٢) .

وحرى بالذكر أن جماعتى الداوية والاسبتارية كانتا فى ذلك الحين تشبهان من بعض الوجوه اسماعيلية الشام فى نظمهم ووسائلهم . فبعد أن كان عملهم فى

---

(١) كانت قلعة الحصن أو حصن الأكراد تابعة لفرسان الاسبتارية المعروفين بفرسان القديس يوحنا، وهى تعرف عند الفرنج باسم **Krak des Chevaliers** وتمتاز بمناعتها وتحميها الأبراج وتحوطها الخنادق ، ولها سوران يحدقان بها ، وقد استولى عليها الاسبتارية سنة ١١١٠ م واستعادها الظاهر بيبرس منهم سنة ١٢٧١ م . أما قلعة مرقب والتى كانوا يدعونها **Margat** ، فهى تقع على قمة جبل يشرف على بانياس وعلى سواحل بحر الشام ، وهى الأخرى من قلاع الاسبتارية الحصينة ، تحرسها الأبراج ، وفى أسفلها صخور ضخمة ، وكانت هندستها خليطا من هندسة الحصون الواقعة جنوبى فرنسا والهندسة البيزنطية، وفى وسطها معبد واسع . وقد أخفق صلاح الدين وغيره من ملوك المسلمين فى الاستيلاء عليها إلى أن سلمها الفرسان الاسبتارية للسلطان قلاوون سنة ١٢٨٥ م وكان استيلاؤهم عليها حوالى ١١١٧ — ١١١٨ م . أما برج صافيتا الذى يسميه الفرنج القصر الأبيض **Chastel Blanc** فهو يتبع الداوية ويقع فوق جبل مرتفع إلى الجنوب الشرقى من أرواد ، وقد فتحه بيبرس سنة ١٢٧١ م . أنظر شيخو : جولة فى الدولة المملوكية ص ٤٩٠ — ٤٩١ ؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٦٧ ؛ وكذلك خريطة قلاع الاسماعيلية .

(٢) **Grousset, Crois., III, p. 517.**

البداية قاصرا على خدمة القضية الصليبية ، وبعد أن كان من مبادئهم الفقر والطاعة فترت روحهم الدينية واستحالوا إلى جمعيات نفعية تبحث عن مغانمها حيثما وجدتها دون نظر إلى اعتبار الدين أو الصالح المسيحى (١) .

لم يشأ لويس أن يعطى رسل شيخ الجبل ردا على مطالبهم ، خاصة وأن الأمر لم يعد يتعلق به وحده ، وإنما برئيسى الجماعتين الرهبانيتين اللذين لم يحضرا هذا الاجتماع . لذا صرفهم وطلب منهم أن يقابلوه بعد ظهر اليوم نفسه للتداول فى الأمر (٢) .

وفى الموعد المحدد اجتمع الملك للمرة الثانية برسل شيخ الجبل ، وكان يجلس إلى أحد جانبيه رينوه دى فيشيه رئيس الداوية ، وإلى الجانب الآخر وليم دى شاتنوف رئيس الاسبتارية . وقد حرص لويس على أن يحضر الرئيسان هذا الاجتماع ليستمعا إلى أقوال الرسل ويدليا برأيهما فى الموضوع . وعندما طلب الملك من رئيس البعثة أن يعيد ما قاله فى الصباح ، أجابه بأنه لن يكرر حديثه إلا فى حضرة أولئك الذين شهدوا المقابلة الأولى ، ولعله كان يخشى إثارة الرئيسين . وعندئذ ضغطا عليه لترديد أقواله ، فأجابهما إلى رغبتهما مكرها . ولما فرغ من حديثه ، طلبا منه بلسان عربى أن يقابلهما فى الغد بدير الاسبتارية فى عكا لاستكمال المحادثات (٣) .

(١) Lacroix, Chevalerie et Crois., 226; idem, Vie Militaire, 198-9; Taylor, Mohammedanism, 179. وكذلك عنان : تراجم اسلامية ص ٥٦ — ونجد أمثلة عديدة على ذلك فى كتاب جوانفيل . أنظر Joinville (ed. Wailly), 206 -210, 224-226.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 248.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 248. Cf. Grousset, Crois, III, 517; King, 249; Perry, 201; Boulenger, 184.

انتهت المقابلة الثانية دون الوصول إلى أية نتيجة . ويبدو أن لويس ورئيسى الجماعتين قد آثروا ألا يبتوا برأى فى مطالب مقدم الاسماعيلية ، إلا بعد دراستها وتمحيصها . وواضح أيضا أن الملك الفرنسى قد صدر الرئيسين لرسل شيخ الجبل ليتفاهما معهم بطريقتهم الخاصة . وقد دلت هذه الخطوة من جانبه على دهائه وسعة حيلته . فهو يعلم أن أولئك الاسماعيلية الذين يلقون الرعب فى النفوس ، هم أنفسهم الذين يحسبون حساب الداوية والاسبتارية ، وأن هاتين الجماعتين كانتا أعلم منه بطبائعهم ووسائلهم . وليس أدل على ذلك من تردد رسول شيخ الجبل فى إعادة حديثه على مسمع من الرئيسين الدينيين . لذا صدرهما لويس عنه ، واتخذهما ستارا للتعبير عن رأيه فى مطالب كبير الاسماعيلية .

وفى اليوم التالى تمت المقابلة الثالثة والأخيرة فى دير الاسبتارية بعكا بين الرسول الاسماعيلى ورئيسى الجماعتين بدون حضور لويس التاسع . وقد أبديا له فى لهجة حازمة دهشتهما لجرأة سيده ، وتوجيهه مثل هذه الرسالة السليطة إلى الملك ، ومخاطبته إياه بهذه اللهجة المنفرة التى تعتبر إهانة فى حقه لا يجوز السكوت عنها . وأضافا بأنه لولا مراعاتهما للملك الفرنسى ، لأغرقوهم جميعا فى بحر عكا دون اعتبار لكبيرهم . وطلبا منه فى ختام خطابهما أن يرجع فوراً إلى سيده ، ويعود ثانية فى خلال أربعة عشر يوما ، حاملا للملك خطابات مودة وهدايا لاسترضائه (١) .

كان الرد على قصره صريحا حاسما . فلم يكتف رئيسا الجماعتين برفض مطالب شيخ الجبل ، وإنما انذراه بالإسراع بإرسال الهدايا إلى الملك الفرنسى . وقد أتت

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 248, 250. Cf. Defrémery, Rech. sur les Ismaéliens, 46; King, 249; Walsh, 205.

هذه السياسة ، كما سنرى ، ثمارها المرجوة (١) . ولا يبعد أن يكون لويس قد اتفق مع رينو دى فيشيه ووليم دى شاتنوف على هذا الرد قبل اجتماعها الأخير برسل شيخ الجبل . ولا نستبعد أيضا أن يكون هو الذى زودهما به ، خاصة إذا عرفنا أن لويس كان الحاكم الفعلى فى مملكة اللاتين فى سورية أثناء الفترة التى أقامها فيها ، وأن الجميع كانوا يرجعون إليه فى الأمور التى تتعلق بالمصلحة العامة، قبل أن يبتوا فيهما برأى نهائى (٢) .

ومما تجدر الإشارة إليه ، قبل متابعة قصة العلاقات الصليبية الاسماعيلية ، أن المراجع لم تذكر شيئا عن شيخ الجبل الذى أوفد رسله إلى لويس فى عكا واستقبل مبعوثيه فيما بعد ، كما أن جوانفيل وروتلان لم يحددا اسمه الأمر الذى يلقى على تاريخ حياته وفترة حكمه ظلا كثيفا من الغموض . وقد اتجهت جهود الرحالة وعلماء العاديات المحدثين المشتغلين بتاريخ اسماعيلية الشام ، إلى التنقيب فى المنطقة الواقعة بين نهر العاصى (٣) وساحل البحر الأبيض ، حيث كانت توجد قلاع أصحاب الدعوة ، عساهم يهتدون إلى نقوش أو آثار تكشف عن هذه الفترة المبهمة من تاريخهم .

---

(١) Bray, 278; Perry, 201.

(٢) Cf. Daniel – Rops, Cathédrale et Crois., 592; Bailly, 185.

(٣) جاء فى العمرى (مسالك الابصار ج ١ ص ٨١) أن نهر العاصى هذا يسميه العرب ارنطى عن الأعجمية Oronte . وهو يصب من وراء بعلبك من منابع شتى فى وطائة أرض ويتجه شمالا حتى يقارب غربى حمص ، فيصب هناك فى بحيرة متوسطه الاتساع ، ثم يخرج عنها ويمر غربى حمص إلى حماة ، ثم إلى شيزر ، ومنها إلى أفامية فيصب فى بحيرة بها . ثم يخرج فيشق فى جبال تعرف بجبال الغرب إلى دير كوش ، ومنها إلى بلد يعرف بالاقليم ، ثم ينزل العمقا إلى انطاكية إلى السويدية ، ويصب فى البحر الشامى حيث ينعطف هناك . أنظر خريطة قلاع أصحاب الدعوة فى الشام .

ولم تؤت الرحلات الأولى ثمارها ، كما أن المعلومات التى أمدنا بها أولئك العلماء ناقصة مبتورة (١). وظل الحال هكذا حتى أخريات القرن التاسع عشر الميلادى، حينما زار فى خريف سنة ١٨٩٦م عالم فى العاديات يدعى م. فوسيه M. Fossey مدينة مصياف (٢) التى كان يقيم فيها الرئيس الأعلى وهو شيخ الجبل ، والتى كانت مركزا رئيسيا لنشاط الاسماعيلية ، أو بكلمة أخرى عاصمة ملكهم. وكان هذا العالم أكثر توفيقا من سلفه . إذ عثر على نقشين هامين على جانبى الباب الجنوبى لسور مصياف ، يرجعان إلى أواخر عام ٦٤٦ هـ (أوائل ١٢٤٩ م)، فأخذ لهما لوحتين شمسيتين وضمهما تحت تصرف الباحث المعروف ماكس فان برشم .

وقد تناول فان برشم هذين النقشين فى كتابه « نقوش الفداوية فى سورية »

(١) Berchem, Épigraphie, 5-6. ـ وقد زار بيركارد Burckhardt مدينة مصياف سنة ١٨١٢ م ، ولكنه عاد من رحلته بخفى حنين . أنظر فان برشم (نفس المرجع ص ٨ — ٩) وكذلك Guyard, Un grand maître, 351.

(٢) هى أعظم قلاع الاسماعيلية فى الشام ومركز دعوتهم ، وتقع على مقربة من طرابلس فى لحف جبل اللكام الشرقى ، على مسافة ١١ فرسخا الى الغرب من حماة وحوالى ثلاثة فراسخ الى الجنوب الشرقى من القدموس . أنظر صبح الأعشى ج ٤ ص ١١٣ ؛ معجم البلدان ج ٤ ص ٥٥٦ ؛ و Guyard, Un grand maître, 351. وقد استولى عليها الاسماعيلية سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠—١١٤١م) ولبثت بأيديهم الى أن ضمها الظاهر بيبرس الى ممتلكاته سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩م) أنظر : Berchem, Épigraphie, 16; Hammer, Assassins, 363, n. 1. — واختلف الكتاب فى صحة كتابتها . فمن قائل انها مصياف ، ويقال أيضا مصيات ومصياد ومصياث ومصياب ، وأكثرها شيوعا التهجئة الأولى . راجع فى ذلك Guyard, Un grand maître 392, n. 1; Berchem, Épigraphie, 9-10, n. 2.

بالدراسة والتحليل (١) . وخرج من دراسته بثلاث نتائج هامة : أولاها أن النقشين يرجعان إلى ذى القعدة سنة ٦٤٦ هـ (فبراير — مارس ١٢٤٩ م) ويتمم أحدهما الآخر . وثانيتها أن مقدم اسماعيلية الشام فى تلك السنة هو أبو الفتوح بن محمد الذي ورد ذكره فى النقش الأول فى معرض الحديث عن الأمر الذى أصدره بإقامة سور مدينة مصياف وبابها الجنوبى . أما النتيجة الثالثة والأخيرة ، فهى أن عبد الله بن أبى الفضل كان أحد دعاة شيخ الجبل وواليه فى مصياف ، وقد جاء اسمه فى النقش الثانى .

ويربط فان برشم بين النقشين وبين سفارة شيخ الجبل إلى لويس التاسع فى عكا ، فيقول إنهما يرجعان إلى أوائل سنة ١٢٤٩ م ، أى قبل سفارة شيخ الجبل بعام ونصف تقريبا . ويرجح ، بناء على ذلك ، أن يكون شيخ الجبل الذى اتصل بالملك الفرنسى واستقبل رسوله فيما بعد هو نفسه تاج الدنيا والدين أبو الفتوح ابن محمد (٢) .

وعلى الرغم مما لهذين النقشين من قيمة علمية وأثرية كبيرة ، وعلى الرغم من وجاهة رأى فان برشم ، إلا أننا يجب أن نتقبله بشىء من التحفظ والحذر ، لسبب بسيط وهو أن النقشين يرجعان إلى ذى القعدة سنة ٦٤٦ هـ — أى فيما

(١) أثبت فان برشم فى مؤلفه النص العربى لهذين النقشين وهما : النقش الأول : « أمر بعمارة سور مدينة مصياف وعمل هذا الباب المبارك المولا الصاحب تاج الدنيا والدين أبو الفتوح ابن محمد أعز الله أنصاره » . النقش الثانى : « ولاية أحد عبيد الدعوة الهادية عبد الله ابن أبى الفضل بن عبيد الله رحمه الله فى شهر ذى القعدة سنة ستة وأربعين وستمائة » أنظر : Van Berchem, Épigraphie des Assassins, 7–8.

(٢) Van Berchem, Épigraphie des Assassins, 6-15, 30, 32. وقد تقبل رينيه جروسيه هذا الرأى عن فان برشم ، أنظر — Grousset, Crois., III, 516 517, n. 4.

بين فبراير ومارس ١٢٤٩ م — بينما يرجع تاريخ بعثة شيخ الجبل إلى أواخر ١٢٥٠ م. وهناك احتمالان لا ثالث لهما : إما أن يكون ابو الفتوح الذى سور مصياف وشيد بابها الجنوبى فى أوائل ١٢٤٩ م هو نفسه الذى أنفذ رسله إلى لويس بعكا فى أخريات ١٢٥٠م، فتكون النتيجة التى وصل إليها فان برشم سليمة لاغبار عليها. وإما أن يكون أبو الفتوح هذا قد توفى بعد تسوير المدينة وإقامة بابها ، وحل محله رئيس آخر هو الذى تبادل الرسل مع الملك الفرنسى فى عكا ، وكان من دواعى الأسف أن مراجع العصر وحولياته ، من أوروبية وعربية ، لم تشر إليه إطلاقا .

وسواء أكان مقدم الاسماعيلية الذى اتصلت السفارة بينه وبين لويس التاسع هو أبو الفتوح أم غيره من المقدمين ، فقد عاد أعضاء البعثة الاسماعيلية إلى مصياف من عكا بعد أن انتهت مهمتهم . وأخبروا كبيرهم بما وصلوا إليه ، كما أحاطوه علما بمطالب لويس التى تقدم بها رئيسا الاسبتارية والداوية نيابة عنه. وأخذ شيخ الجبل يتدبر أمره على ضوء الردود والمعلومات التى وصلته، قبل أن يعلن قراره بشأن رغبات الفرنج .

كانت سياسة اسماعيلية الشام تقوم على استغلال الحوادث والظروف فكانوا يتقلبون فى خدمة الأصدقاء والأعداء كلما أنسوا فى ذلك غنما لهم. ووجدوا أن من مصلحتهم التفاهم مع لويس والصليبيين فى هذه الظروف التى كان يجتازها الشرق الاسلامى. فقد كان المسلمون السنيون فى مصر والشام منقسمين على أنفسهم بعد ثورة المماليك البحرية والملك الفرنسى يسعى من جهته لإثارة حملة صليبية جديدة ضد المسلمين . وألفوا فى انقسام السنيين واستعداد لويس فرصة سانحة يستفيدون من ورائها لتقوية أنفسهم فى الشام [1]. ولا يبعد أن يكونوا

(١) Cf. Grousset, III, 517.

قد تبينوا أحوال الفرنج والمسلمين بعـــد سفارتهم إلى لويس ، أو عن طريق عيونهم وجواسيسهم الذين كانوا يبثونهم فى كل مكان . ويحتمل أيضا أن يكون للموقف الحازم الذى وقفه رئيسا الاسبتارية والداوية من أعضاء البعثـــة الاسماعيلية ، أثره فى القرار الذى اتخذوه .

فـكل هذه الاعتبارات جعلت مقدم اسماعيلية الشام يسعى للتحالف مـــع الفرنج واكتساب صداقة لويس التاسع . (١) ولذا نراه يتنازل عن مطالبــه الأولى ، ويسرع إلى تلبية رغبة وليم دى شاتنوف ورينوه دى فيشيه . وأوفـد رسله ثانية إلى لويس ومعهم هدايا ثمينة تعبر عن رغبته فى التعاون معه .وقدعاد الرسل إلى عكا قبل انتهاء المهلة المحددة ، وأحضروا معهم للمـلك الفرنسى قميص شيخ الجبل . وأخبروه نيابة عنه أن هذا القميص تذكار للصـداقة ؛ فكما أن القميص أقرب إلى جسم المرء من أى رداء آخر ، فان شيخ الجبل يرغب فى أن يؤثر الملك بحبه أكثر من أى شخص آخر . وأهدوا الملك كذلك خاتم مولاهم وهو مصنوع من الذهب الخالص وقد نقش عليه اسمه ، وأوضحوا له أن مولاهم بخاتمه هذا قد ارتبط معه برباط مقدس ، وأنه يرغب فى أن يصير الاثنان شخصا واحدا . ومن بين التحف التى حملتها البعثة إليه فيل من البلور أبدع نحته ، وزرافة بلورية وأصناف مختلفة من الفاكهة المصنوعة من البلور أيضا ، ونرد ، ورقعـة شطرنج . وكانت هذه التحف محلاه بالكهرمان المثبت إلى الأحجـار الكريمة بواسطة قطع من الذهب الخالص . ويقول جوانفيل إن الرسل عنـدما فتحـوا الصناديق التى بداخلها التحف امتلأت الغرفة بعبير الطيب المنبعث منها . (٢)

(١) Besant & Palmer, Jerusalem, 515; Campbell, 434.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 250. Cf. Berchem, Épigraphie des Assassins, 31; Defrémery, Recherches sur les Ismaéliens, 46.

إلى هنا تنتهى رواية جوانفيل عن سفارة شيخ الجبل الثانية . ولم يذكر إن كان الرسل يحملون معهم عروضا صريحة بشأن التحالف مع لويس والفرنج أم لا . ولكن يمكننا القول ، ونحن مطمئنون إلى ذلك ، أن هدايا شيخ الجبل ، وبخاصة قميصه وخاتمه ، كانت تعبر عن استعداده للتعاون مع الصليبيين وعلى أن يسود السلام بينهما ، وأنها كانت خطوة طيبة فى سبيل توطيد أواصر الصداقة بين عاهل الفرنج وكبير الاسماعيلية . وليس فيما ذهبنا إليه إسراف أو مبالغة بعد الخطب الرقيقة التى مهد بها الرسل لتقديم الهدايا إلى الملك الفرنسى . (١)

لقد وجد لويس فى هذه الخطوة الجديدة من جانب اسماعيلية الشام فرصة طيبة استغلها لصالح المسيحية الغربية وهدفه الصليبى . ويهمنا هنا أن نتناول بالبحث موقف لويس من شيخ الجبل الذى مد يده للتعاون معه . نعلم أن الصراع كان فى ذلك الحين على أشده بين أمراء مصر والشام السنيين ، وأن البعوث كانت على قدم وساق بين لويس وبينهم ، وكل منهما يسعى لضمه إلى جانبه فى كفاحه ضد خصمه . وكان الملك الفرنسى من ناحيته يبذل جهودا متواصلة للقيام بحملة جديدة تحقق أطماعه وتعوض هزيمته فى مصر . لذا لم ير لويس بأسا من التعاون مع جماعة الاسماعيلية ، وإدخالهم طرفا ثالثا فى النزاع الدائر بين السنيين فى الشرق ، وهو يدرك تماما العداء المستحكم بين الشيعة والسنة . (٢) بل لعل ما وحد بين لويس وشيخ الجبل أن كليهما كان عدوا لدودا للمسلمين السنيين (٣) .

لقد كان حشيشية الشام شوكة فى جنب الاسلام والمسلمين وفى جنب كل مجاهد عربى يحاول توحيد القوى الاسلامية لدرء خطر الفرنج . وقد ظهر ذلك

---

(١) Cf. Besant & Palmer, 515; King, 249; Bray, 279.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 250-2. Cf. Grousset, Crois., III, 518.

(٣) Cf. Taylor, Hist. of Mohammcdanism & its Sects, 219.

واضحا منهم منذ البداية فى عهد الحروب الصليبية الأولى ، مما أتاح للفرنج فرصا عديدة استغلوها لتوطيد دعائم ممالكتهم . [1] ويكفى أن لقى نور الدين زنكى، وصلاح الدين الأيوبى على أيديهم الشىء الكثير من العنت والمضايقات . [2]
ولم تخف على لويس هذه النزعة من جانب الإسماعيلية فسعى للافادة منها، وليس بمستبعد أن يكون الملك الفرنسى قد فكر فعلا فى الاعتماد على شيخ الجبل الذى كان يبث بذور التوجس أينما حل ، وعلى خناجر فداويته التى فتكت بكثير من المجاهدين [3] ، للتلويح بها فى وجه خصومه فى مصر والشام . يتضح ذلك مما عنى جوانفيل بابرازه فى مؤلفه من أن شيخ الجبل عند خروجه كان يتقدمه أحد فداويته حاملا فأس حرب ذات مقبض طويل مغطى بالفضة وقد رشق كله بالخناجر ، وهو يصيح بصوت مرتفع : « أفسحوا الطريق أمام ذلك الذى يحمل مصارع الملوك فى قبضته » . [4]

ووفقا لذلك ، قرر لويس رد تحية شيخ الجبل بمثلها . فبعد أن تقبل هداياه حمل رسله فى عودتهم إليه كميات كبيرة من المجوهرات ، والأقمشة القرمزية ، والكئوس الذهبية ، ولجم خيل فضية ، تعبيرا عما يكنه هو الآخر نحوه من مودة خالصة . وأوفد معهم الراهب الدومينيكانى ايف لبرتون Yves le Breton الذى كان يتقن اللسان العربى [5] ، والذى سبق أن أرسله فى مهمة مماثلة

---

(١) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٢٢ .

(٢) أنظر طه شرف : دولة النزارية ص١٦٩؛ و Guyard, Un grand maître ,366

(٣) يتحدث الأصفهانى فى (تاريخ دولة آل سلجوق ص٦٣) عن خناجر الفداوية ، فيقول ان الخوف منها قد ملك على الناس قلوبهم حتى « لم يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة » .

(٤) Joinville (ed. Wailly), 252–4.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 250; Rothelin, II, 624.

إلى الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق.

توجه ايف بصحبة رسل شيخ الجبل إلى مصياف حيث قدم هدايا الملك الفرنسى إلى الشيخ الاسماعيلى . وعاد أدراجه إلى عكا ليقص على لويس ورفاقه الصليبيين ملاحظاته ومشاهداته فى بلاد الاسماعيلية ، والتى أثبتها جوانفيل فى كتابه . والغريب أنه بدلا من أن يفصح ايف عن نتائج مهمته ، وعما إذا كان قد أفلح فى عقد اتفاق مع شيخ الجبل أم لا ، نراه يعنى برواية بعض المسائل المتعلقة بأصول عقيدة الاسماعيلية . وهى على أى حال تدلنا على فهمه لمذهبهم، وإن كانت تبدو أحيانا مشوشة . [1] فقد ذكر أن الاسماعيلية ينتمون لعلى بن أبى طالب . ونراه يتعرض للخلاف القديم بين الشيعة والسنة ، الذى عبر عنه جوانفيل فى مذكراته تعبيرا غير سليم . [2]

وقد سجل جوانفيل رواية ايف عن اعتقاد الاسماعيلية فى التناسخ . فيقول إنه عندما يموت أحد الفداوية فى سبيل تنفيذ أوامر شيخ الجبل، فإن روحه تتقمص جسدا أسعد من ذلك الذى كانت تعيش فيه . وإنه لهذا السبب لا يتردد أحدهم فى بذل حياته رخيصة عندما يطلب إليه ذلك ، إذ يعتقدون أنهم سيكونون أكثر سعادة بعد مماتهم منهم قبل ذلك [3] . والواقع أن الاسماعيلية كانوا من أهل التناسخ . فقد ذكر القلقشندى [4] أنهم يرون ، أن الأرواح مسجونة فى هذه

---

(١) Berchem, Épigraphie, 31; Besant and Palmer, 359, 516.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 250-2. Cf. Grousset, Crois, III, 518; Defrémery, Rech, 46; Conder, Latin Kingdom, 360.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 252. Cf. Joinville (tr. Hafod), 472, n. 1, 473, n. 1; Grousset, Crois., III, 518.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ . أنظر أيضا ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٦٠ — ويرجع هذا الاعتقاد إلى ما قبل الإسلام بكثير ، ويبدو أنه قد =

الأجسام المكلفة بطاعـــة الإمام المطهر على زعمهم . فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت وانتقلت للأنوار العلوية ، وإن انتقلت على العصيان هوت فى الظلمات السفلية » .

ومما رواه ايف أن هؤلاء الفداوية كانوا لا يرهبون الموت ، ولا يتدرعون عندما يذهبون للقتال ، لأنهم يؤمنون أن لكل أجل كتابا ، وأن الإنسان لا يموت قبل أجله المقدر له ، وأنهم عندما يسبون أطفالهم يقولون لهم « ملعونون انتم كالفرنج الذين يلبسون الدروع خوفا من الموت »[1] .

ومن القصص الطريفة التى رواها ايف تلك التى تتعلق بتسلسل روح القديس بطرس . يقول جوانفيل إن الراهب ابرتون وجد كتابا عند مقدمة فراش شيخ الجبل أثناء زيارته له ، وقد سطرت عليه بضع كلمات موجهة من عيسى بن مريم عندما كان على الأرض إلى القديس بطرس . وعندما طلب ايف من شيخ الجبل أن يقرأ فى هذا الكتاب ، أجابه بأنه يفعل ذلك لأنه يكن للقـــديس بطرس احتراما زائداً . واستطرد معززا كلامه بقوله إنه « فى بدء العـــالم حلت روح

= انحدر الى المسلمين من الفيلسوف اليونانى أفلاطون . أنظر يوسف كــرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٠٥ — ١٠٧ . وذكر الاسفرايني (التبصير فى الدين ص ٨٠) أن أهل التناسخ هم قوم من الفلاسفة قبـل الإسلام ، وأنه كان منهم فى دولة الإسلام فريقـان : فريق من جملة القدرية ، وفريق من غلاة الروافض . ومن بين من قالوا بالتناسخ كذلك مانى الثنوى ، إذ ذكر أن أرواح الصديقين إذا خرجت من أبدانهم اتصلت بعمود الصبح الى أن تبلغ النور الذى فوق الفلك ويكونون فى السرور دائما ، وأرواح أهل الضلالة تتناسخ فى أجسام الحيوان ، فلا تزال تنتقل من حيوان الى حيوان الى أن يصفو من ظلمتـه ، فحينئـذ يتوصل بالنور الذى فوق الفلك . أنظر كذلك الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٤٨ — ١٥٠ و ١٤٩ — ١٥٠ .

(١) Joinville (ed. Wailly), 252.

هابيل بعد مقتله فى جسد نوح ، وعندما مات نوح انتقلت إلى جسد ابراهيم ، ومن ابراهيم بعد موته انتقلت إلى جسد القديس بطرس » . ويضيف جوانفيل أن ايف عندما سمع هذا الكلام أوضح لشيخ الجبل أن اعتقاده لا أساس له من الصحة ، ولكنه لم يصغ إليه [١] .

ولما كانت دعوة الاسماعيلية فى الشام تقوم على فكرة دينية يعززها أتباع وقصاد [٢] ، وبما أنهم قالوا صراحة بالتناسخ ، وبما أن الراهب ايف إلى جانب مهمته الدبلوماسية ، كان أصلا رجل دين — فلا نستبعد مطلقاً أن تكون قد دارت بينه وبين شيخ الجبل تلك المناقشات الدينية والفلسفية التى يذكرها جوانفيل ، وهو من المؤرخين الثقاة . يعزز ذلك موقف مشابه لهذا الراهب نفسه عندما أوفده لويس إلى الناصر يوسف صاحب دمشق ردا على سفارته إليه فى عكا بشأن التحالف معه ضد مماليك مصر . فقد قص على الملك والصليبيين بعد عودته من مهمته القصة التالية . ذكر أنه أبصر وهو فى طريقه إلى قصر السلطان بدمشق إمرأة طاعنة فى السن كانت تحمل فى يدها اليمنى وعاء مشتعلا نارا وفى يدها اليسرى قارورة ممتلئة ماء . فلما سألها عن سر ذلك أجابت بأنها ترى إلى إشعال النعيم بالنار وإخماد جذوة الجحيم بالماء ، حتى لا يكون هناك نعيم أو جحيم . وعندما طلب مزيدا من الإيضاح ، قالت إنها لا تريد أن يفعل الإنسان الخير من أجل ثواب النعيم أو خوفا من عذاب الجحيم ، وإنما من أجل الله

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 252. Cf. Grousset, Crois., III, 518; Berchem, Épigrphie, 31.

(٢) جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤٦) أن الاسماعيلية يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية وأنهم يعرفون فى ديوان الإنشاء بالقصاد ، وبين العامة بالفداوية .

فحسب [١] . كل هذا لا يدع مجالا للشك فى صحة الرواية التى ذكرها جوانفيل عن الراهب الدومينيكانى ايف لبرتون . ويختلف موقف هـذا الراهب تمـــام الاختلاف عن موقف زميله الفـــارس يوحنا دى فالنسين رسول لويس لدى أمراء مصر ، ذلك الفارس الذى دل على حنكة وبراعة سياسية ، وأحرز نجاحا لا بأس به فى المهام التى كلفه بها مليكه ، حتى لقد امتدحه جوانفيل ووصفـــه بالحكمة والشجاعة وبعد النظر .

ومهما يكن من شىء ، فقد اختلف المؤرخون المحدثون فى تقدير نتائج رحلة مبعوث لويس التاسع لدى شيخ الجبل . فمن قائل إن تبادل الرسل والهـدايا بين الملك الفرنسى والشيخ الاسماعيلى يعتبر تحالفا حقيقيا [٢] . ومن قائل إن ايف أخفق فى مهمته السياسية ، وعاد أدراجه دون إدراك الهـدف [٣] . وليس من الصواب التسرع فى الحكم على مهمة ايف بالنجاح أو الفشل ، طالما أنه لا توجد نصوص صريحة فى هذا الشأن . وكل ما نستطيع قوله إن البعثات المتبادلة بين كبيرى الجماعتين تدل على توثق المودة بينهما ، وعلى وجـود نوع من التفاهم لا يجوز اعتباره اتفاقا أو معاهدة بالمعنى المفهوم من الـكلمة . إذ أنه لو كانت هناك اتفاقية بينهما مثل معاهدة قيسارية التى عقدت بين لويس وأمراء مصر ، لوجدنا جوانفيل وغيره من مؤرخى تلك الحقبة يشيرون إليها وإلى النتائج المترتبة عليها . ولا يعقل أن يعنى جوانفيل بايراد بيـانات تتعلق بعقيـدة الاسماعيليـة ، بينما يسهو عليه التعرض لهذه المحالفة لو كانت قد تمت فعلا . بل أن أحاديث ايف لبرتون التى أدلى بها للملك عقب عودته من مصياف ، تدل فى حد ذاتهـا على عدم وصوله إلى نتيجة حاسمة فى تحقيق مهمته .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 242-4.

(٢) Grousset, Crois., III, 517.

(٣) Berchem, Épigraphie, 31; Campbell, 434.

يعزز ما ذهبنا إليه أن الصليبيين ظلوا خلال المدة الباقية من إقامتهم بالأراضى المقدسة فى خوف من غدر الفداوية وشيخهم . ونستدل على ذلك من الواقعة التالية التى حدثت إبان إقامة لويس فى صيدا لترميم استحكاماتها التى كانت قد دكها المسلمون . يقول جوانفيل إنه خرج فى فجر أحد الأيام هو والملك للتجول فى حقول المدينة على ظهرى جواديهما . وفى طريقهما مرا بكنيسة صغيرة وشاهدا قسيسا يتلو القداس . وأبدى الملك رغبته فى الاستماع إلى القداس الذى كان الكاهن قد بدأه ، فوافقه جوانفيل على ذلك ودخلا الكنيسة . وعندما بلغوا الجزء الذى يعرض فيه الصليب للتقبيل ، لاحظ جوانفيل أن الكاهن الذى يتلو القداس كان طويلا ، أسمر اللون ، ناحل القوام ، ذا شعر كثيف . فساورته الشكوك وخشى أن يكون من الفداوية (١) ، وأنه ربما يغتال الملك إذا ما حمل الصليب إليه .

---

(١) يسميهم جوانفيل Assacis أنظر Joinville (ed. Wailly), 248, 252, 322. و Heissesim أنظر Joinville (tr. Hafcd), 472, n. 1. أما روتلان فيسميهم Hassassis أنظر : Rothelin, II, 624. — وهذه الأسماء جميعها محرفة عن كلمة حشاشين أو حشيشية، الذين يقصد بهم الفداوية ، لاشتهارهم بتداول المادة المخدرة المعروفة بالحشيش . وربما يكون هذا الاسم قد أطلق عليهم لكثرة اغتيالاتهم ، خاصة وأن معنى Assassins هو « القاتلين غدرا » أنظر فى ذلك : Encyc. of Religion, Art. Assassins, II, 138; Bréhier, Crois., 227, n. 1. وبركلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية جـ٢ ص ١٣٨ ؛ وطه شرف : دولة النزارية ص ٩٧ — ١٠٤ . هذا ، وأصل كلمة الحشيشية أو الحشاشين ترجع إلى الأصل العامى وهو حش بمعنى قطع . فالحشاشون هم قاطعوا الرءوس أو القتلة ، وهذا هو المعنى الفعلى فى اللغات الأوروبية لهذه الكلمة ؛ وتكون المادة بعيدة عن فكرة الحشيش بالنسبة لما هو معروف عن تاريخ هذه الجماعة . ولعلها أيضا ترجع إلى الأصل العربى وهى كلمة حس بمعنى قطع . ولا نستبعد أن تكون السين قد انقلبت إلى شين فأصبحت حش ، كما حدث فى لغتنا العامية الحالية فى هذه الكلمة بالذات .

فبادر بالذهاب إلى الكاهن ، وأخذ الصليب منه وحمله بنفسه إلى لويس خوفا على حياته . وبعد الانتهاء من القداس شكا لويس إلى القاصد الرسولى من تصرف جوانفيل . وعندما أوضح جوانفيل للقاصد الرسولى السبب الذى من أجله أقدم على ذلك وافقه عليه دون أى اعتراض [١] .

لقد اتخذ جوانفيل هذا الموقف نظرا لخوفه من خناجر الفداوية التى كانوا يتخذونها وسيلة للتشفى والتخلص من مناوئيهم وكان شيخ الجبل يستخدمهم فى قتل أعدائه . ويشترط فيهم التفانى فى طاعته بحيث يضحون بأنفسهم فى سبيل تنفيذ تلك الطاعة لينعموا بدار الخلد المقيم [٢] . وأصبحوا أداة فعالة للانتقام والإرهاب [٣] . وزاد الكاتب براون الأمر وضوحا فقال إن الفداوية قد مهروا فى فن التنكر واستخدام السلاح ، كما كانوا يجيدون التكلم باللغات الأجنبية ، وكانوا يقتلون المسلمين أيام الجمع فى المساجد والمسيحيين أيام الآحاد فى الكنائس على مشهد من الجميع [٤] . وخلاصة القول إن برنامجهم الرئيسى كان يقتضى إجادة استخدام الخنجر ضد المعارضين [٥] ، فكان من أثر ذلك أن نشروا الرعب الذى كان يفزع له الملوك والأمراء [٦] .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 322, 324.

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٠ . أنظر أيضا : Joinville (tr. Hafod), 472, n. 1; Guyard, Un grand maître, 23; Hammer, Hist. des Assassins, 344; Ambroise, Crusade of Richard, 336.

(٣) طه شرف : دولة النزارية ص ٨٤ ؛ وكذلك : Sykes, Hist. of Persia, 55

(٤) Browne, Lit. Hist. of Persia, II, 209. Cf. Guyard, Un grand maître, 343. وكذلك حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ٩٨ — ٩٩ .

(٥) Hammer, Hist. des Assassins, 97; Ambroise, Crusade of Richard, 336.

(٦) Browne, Lit. Hist. of Persia, II, 202, 209.

لذا خشى جوانفيل على مليسكه من أن يفتك به هذا الكاهن وأنه ربما كان أحد الفداوية أرسله شيخ الجبل بخنجر أخفاه فى طيات ردائه للإجهاز عليه ساعة تقديم الصليب له . وقد يكون لمؤرخنا والقاصد الرسولى الذى أقـــره على ذلك عذرهما . فقد ذكر وليم دى نانجى فى حوادث سنة ١٢٣٦ م أن شيخ الجبل أنفذ إلى لويس فى فرنسا بعض فداويته لاغتياله . ولكن العناية الإلهيـة أنقـذته من موت محقق ، إذ بعث رئيس الدعوة رسلا آخرين لمنع أتباعه من تنفيذ المؤامرة. ويقـــول نانجى إن الملك عنـــد ما علم بذلك دعا الرسل إليه وغمرهم بعطفه وهداياه (١) .

وكل ما يعنينا من هذه الراوية أن اللاتين لم يكونوا مطمئنين تمام الاطمئنان إلى جماعة الاسماعيلية ، وأنهم كانوا يعلمون سلفا بمؤامراتهم وبطشهم . ولعل موقف لويس من أولئك الفداوية الذين حاولوا اغتياله فى فرنسا عنـدما شملهم بعطفه وأغدق عليهم هداياه ، ما جعل شيخ الجبل يبادر بإيفاد سفارته الأولى إلى لويس بعكا بعد هزيمته فى مصر ، طالبا منه المبادرة بتقديم الهدايا والأموال رمزا لخضوعه وولائه .

مما سبق يتضح لنا أن لويس واللاتين فى سورية ، طمعوا أن يجدوا عونا لهم من فئـة الاسماعيلية ضد المسلمين فى مصـــر والشام ، فى وقت كان فيـه الشرق الإسلامى يغلى كالمرجل عقب ثورة المماليك البحرية غير أن ظنهم خاب فى هذه الناحية ، ولم تؤت المفاوضات التى دارت بين العاملين المسيحى والاسماعيلى عن طريق رسلها ، ثمرتها المرجوة فى التعاون المشترك والقيام بعمل إيجابى واضح فى

(١) Guill. de Nangis, Hist. de Fr. (année 1236). Cf. Hammer, Hist. des Assassins, 364; Röhricht, Études sur les derniers temps du roy. de Jérusalem, A. O. L., I, 626, n. 55.

ميدان الكفاح ضد السنيين . وكان كل ما كسبه لويس من وراء هذه السفارات هو قميص شيخ الجبل وخاتمه وبعض التحف التى أرسل له عوضها ، ورطئة لتحالف لم يخرج إلى حيز التنفيذ . هذا ، فضلا عن أن كليهما تحاشى عداوة زميله ، فضمن لويس بذلك وقوف مقدم الاسماعيلية على الحياد فى الصراع السياسى الدائر بينه وبين المسلمين فى ذاك الحين .

وقد لبث الاسماعيلية بعد عودة لويس إلى الغرب بضع سنوات متحصنين بقلاعهم المشهورة فى جبال لبنان ، تلك القلاع التى ظلت قذى فى أعين الصليبيين والمسلمين إلى أن جاء السلطان الظاهر بيبرس فحاصرها فى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م وخربها وضمها إلى مملكته (١) . وبذلك أنهار نفوذهم فى الشام ، واستحالوا إلى شراذم لا أهمية لها ، وأسدل الستار على تاريخهم الحافل بالتقلب والارهاب والجاسوسية والمؤامرات .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩٨ و ج ٥ ص ٣٩٠ — ٣٩١ ؛ الدويهى : الطائفة المارونية ص ١١٣ ؛ شيخو : جولة فى الدولة العلوية ص ٩٣ ، ؛ وأنظر كذلك : Berchem, Épigraphie, 17. — وذكر فان برشم (نفس المرجع ص ٥ — ٦) أن هذه القلاع قد تهدمت واندثرت معالمها ، وإن كانت مواقعها لا تزال معروفة حتى اليوم .

الفصل السابع

لويس التاسع والتتار

أقام لويس التاسع فى الامارات اللاتينية بسورية أربع سنوات كاملة ، حاول خلالها بمختلف الوسائل تعزيز الممتلكات الصليبية وانتزاع البيت المقدس من أيدى المسلمين . فلم يكد يستقر بعكا حتى أخذ يسعى لإثارة حملة عسكرية جديدة تعوض هزيمته فى أرض النيل . كما تبادل الرسل مع مماليك مصر والأيوبيين فى حلب ودمشق . ولم يكتف بذلك بل مد يده إلى جماعة الشيعة الاسماعيلية بالشام بقصد الاتفاق معهم ، مستغلا الأوضاع السياسية التى آلت إليها بلاد هذه المنطقة فى ذاك الحين . وكان لويس يسير فى كل خطواته وفقا لخطة مرسومة واضحة ، بدت خيوطها الأولى قبل مغادرته مصر ، وأخذت تستكمل أطرافها بعد وصوله إلى الساحل السورى .

ولكن جهوده لم تقف عند هذا الحد ، بل اتجه بنظره إلى الشرق الأقصى موطن التتار ، واتخذ سياسة التقرب منهم لتوطيد العلاقات معهم ، عله يفلح فى ضمهم إلى المسيحية الغربية فى صراعها ضد الإسلام (١) . فقد علق لويس أهمية كبيرة على ميل التتار إلى المسيحيين وانعشت آماله عروضهم السخية التى تقدموا بها إليه فيما سبق أثناء إقامته فى قبرص قبل هجومه على مصر ، لمؤازرته على المسلمين . فأنفذ من هذه الجزيرة بعثة تحمل ردوده . ولكن انقضى زهاء ثلاثة أعوام قبل عودة البعثة ، وكان الملك الفرنسى قد غادر مصر منهزما إلى

(١) Cf. Iorga, 165; Guizot, 90.

سورية [١] . فكان من الطبيعى أن يترقب ما قد تسفر عنه هذه المفاوضات من نتائج ،وأن يعاود من ناحيته الاتصال بالتتار استكمالا للحادثات التى كان قد بدأها فى قبرص ، وتمشيا مع السياسة العامة للبابوية حيال هذا العنصر الذى أثار الرعب والهلع فى أوروبا والشرق الأوسط .

ولكى نقدر الآمال التى عقدها لويس التاسع على فكرة الاتحاد بين الغرب الأوروبى والشرق الأقصى ، يجدر بنا أن نمهد لذلك بالحديث عن ظهور التتار كقوة كاسحة يحسب حسابها فى ميدان الصراع بين المسيحية والإسلام ، وطبيعة العلاقات بينهم وبين العالم المسيحى فى تلك الحقبة من التاريخ [٢] .

انتقل ميدان الحروب الصليبية فى أواخر العصر الوسيط إلى ما وراء حدود سورية وفلسطين . وكان الغرب اللاتينى يتجه بأنظاره إلى الشرق الأقصى فى طلب المساعدة فى نضاله ضد القوات الاسلامية فى الشرق العربى فى وقت تكشف له فيه أنه لن يمكنه بمفرده إحراز نصر حاسم على العرب . [٣] فقد ظهر على مسرح السياسة الدولية فى القرن الثالث عشر الميلادى عامل من الخطورة بمكان عظيم . ذلك أن جنكيز خان أقام فى أوائل هذا القرن إمبراطورية مغولية مترامية الأطراف لا هى مسيحية ولا هى إسلامية ، واتخذ من مدينة قراقورم فى منغوليا حاضرة الملك . [٤] وقد امتدت هذه الامبراطورية من بكين شرقا إلى نهر دنيبر والفرات غربا ، فكانت بذلك تشمل شمال الصين وتركستان وفارس

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 74.

(٢) حول هذا الموضوع ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى ، ص ٣٣ وما يليها .

(٣) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 233.

(٤) Schlegel, Philosophy of Hist., 379; Barker, Crusades, 85.

وجورجيا وقسما من جنوب روسيا . [١]

كان الخطر المغولى ماثلا للعيان ، وبات يهدد القارة الأوروبية بشر مستطير. وأصبح واضحا أن جنكيز خان كان يهدف من وراء فتوحاته الغربية التى بدأها فى عهد الامبراطور فريدريك الثانى ، إلى تمهيد الطريق للتوغل فى أوروبا متى حانت له فرصة مواتية . [٢] فنرى التتار وقد أخذوا يعيثون فسادا فى بولندا وهنغاريا ، وأضحت المانيا نفسها تحت رحمتهم . [٣] واستمرت حملاتهم على الغرب حتى سنة ١٢٤١ م حينما أغاروا على شرق المانيا ، والقوا الرعب فى قلوب المسيحيين بسبب ما اقترفوه من فظائع وتخريب. وأرسل البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١ م) يدعو أمراء العالم المسيحى للقيام بحملة صليبية ضد التتار لصد تيارهم الجارف . [٤]

أخذ القلق يدب فى نفوس البابوات ومسيحيى الغرب ، ورأوا أن الطريقة السليمة لاتقاء خطر التتار هى الاتصال بهم ومحاولة التفاهم معهم . وعلى هذا الأساس كانت سياسة البابوية فى الشرق الأقصى ترمى إلى ثلاثة أهداف أملتها الظروف والحوادث الملابسة ، وهى :

أولا — استمالة التتار فى الصين وفارس إلى اعتناق الديانة المسيحية والدخول فى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، وبذلك يضمنون كسبا عظيما

(١) Jacobs, Geographical Discovery, 70; Sykes, Hist. of Exploration, 66; Archer & Kingsford, 412; Conder, 367; Barker, 85.

(٢) Conder, 369; Schlegel, 379.

(٣) Matt. Paris, II, 165. Cf. Sykes, 66; Schlegel, 380.

(٤) Browne, Lit. Hist of Persia, II, 451. Cf. Jacobs, 70; Woodhouse, 230.

لأوروبا والمسيحية الغربية .

ثانيا - استطلاع نواياهم إزاء الغرب ، والعمل على استبعاد خطرهم بإيفاد البعثات والارساليات ، خاصة وأن ذكرى ما أحدثوه من فظائع وتدمير فى أعوام ١٢٢٢ — ٣ م و ١٢٤١ — ٢ م كانت لا تزال ماثلة فى الأذهان [١].

ثالثا — إشتراك التتار مع اللاتين فى القيام بحرب صليبية عامة لانتزاع الأراضى المقدسة من الحكم الاسلامى . وقد لقيت هذه الفكرة اعتبارا عظيما فى ذلك الحين . [٢] ولهذا السبب أرسل البابا إنوسنت الرابع عدة بعثات وحذا حذوه لويس التاسع فأرسل بعثتين لتحقيق هذه السياسة .

ويحسن بنا هنا أن نستعرض بايجاز انتشار المسيحية الأولى بين التتار، الأمر الذى شجع كلا من إنوسنت ولويس على السير قدما فى سبيل إنشاء كتلة متحدة من الغرب الأوروبى والشرق الأقصى .

لم تكن المسيحية مجهولة فى تلك البقعة من العالم خلال العهد الأول من العصور الوسطى ، على الرغم من أن متى ريتشى Matteo Ricci وغيره من المرسلين لم يجدوا عند وصولهم إلى الصين فى أواخر القرن الخامس عشر أثرا للمسيحية هناك . ومن الثابت حسب الشواهد المحلية أن نشاط الكنيسة النسطورية امتد إلى الصين منذ القرن السابع الميلادى . ويستدل على ذلك من نقوش مسيحية

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 233. Cf. Deguignes, Hist. des Huns, III, 116; Ross, Prester John, 181; Jacobs, 70; Heyd, Hist. du Com., II, 66.

(٢) Atiya, op. cit., 234. Cf. Browne, Lit. Hist. of Persia, II, 440-1; Arnold, Preaching of Islam, 221; Sykes, Hist. of Exploration, 67.

باللغة الصينية تمت بالصلة إلى كنيسة شيدت سنة ٦٣٨ م فى الصين ، ومن أن أحد أباطرة الصين أمر فى نفس السنة ببناء أبرشيه لكاهن فارسى تتسع لعشرين من الرهبان ، وسمح لذلك الكاهن فى التبشير بالدين المسيحى هناك . (١) ويبدو أن عدد المسيحيين قد أخذ فى الازدياد بتلك المناطق فى القرون التالية . ويتضح ذلك من بعض النقوش الصينية والسريانية التى تدلنا على أن الصين كانت بالنسبة للأجانب ملجأ للسلام والأمن خلال العصور الوسطى .

ونظرا لوجود مثل هذا « السلام التترى » الذى يعرف فى الأصول اللاتينية باسم **Pax tatarica** ، فقد استطاع كل من الكاهن النسطورى والرحالة المسلم والمبعوث الكاثوليكى ، أن يتنقل بحرية فى جميع أنحاء البلاد الخاضعة لحكم التتار . ولقد وضح تاريخ هذه الحركة من الوثائق التى كشف عنها البحاثة منذ عهد قريب ، ومن بينهما كتابات الرحالة اللاتين ، والرسائل الدبلوماسية المتبادلة بين انوسنت ولويس من ناحية وبين ايلخانات التتار من ناحية أخرى ، وكذلك النصوص التى سجلتها البعثات الدينية من لدن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية (٢) .

وإن تسامح التتار مع مختلف الأديان وعطفهم على المسيحيين والنساطرة منهم بصفة خاصة ، شجع الرهبان المسيحيين على ارتياد أواسط آسيا غير مبالين

---

(١) Atiya, op. cit., 234–5; Moule, Christians in China, I, 27-35,65, 66; Travels of Marco Polo, 435–6. ونجد فى مقالتى شيخو (أثر جديد بين قدماء النصارى فى الصين ص ٩٣١ ، والنصرانية بين قدماء الأترك والمغول ص ٧٥٧ — ٧٥٩) شواهد أخرى على انتشار المسيحية بين التتار فى العصور الأولى ، وما كان للنساطرة من نشاط بارز فى هذا المضمار .

(٢) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 235-8.

بالصعاب والمخاطر التى قد تعترض طريقهم . وترتب على ذلك أن أخذ الغرب يرسل البعثات الدينية إلى ايلخانات منغوليا وفارس آملا فى كسبهم إليه (١)، تلك البعثات التى تعتبر على حد قول الكاتب برسى سيكس جزءا متمما للحروب الصليبية (٢) .

وقد حدث أقدم تبادل للسفارات منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى بين البابا انوسنت الرابع وبين كيوك خان (٣) Guyuk Khan . ففى سنة ١٢٤٥ م، خلال انعقاد مجلس ليون الكنسى ، أرسل البابا سفيرين من قبله مزودين بخطابات لدعوة ايلخان العظيم ورعاياه من التتار لاعتناق مذهب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والسعى لاحلال السلام محل الحرب بين الغرب والتتار .(٤) وأحد هذين السفيرين هو لورنزو البرتغالى Lorenzo of Portugal .وقد أختير للذهاب إلى البلاط التترى بطريق ارمينية وفارس . ويلوح أنه لم يصل إلى أبعد من مدينة لاجازو Lajazzo ، كما أن معلوماتنا عن رحلته قليلة . أما السفير الثانى فهو جيوفانى دى بلانو كاربينى Giovanni di Plano Carpini من جماعة الفرنسيسكان. وقد غادر ليون فى ١٦ أبريل ١٢٤٥ م ، وسار فى الطريق

---

(١) Heyd, Hist. du Com., II, 66. Cf. Ross, Prester John, 180 - 1; Huzayyin, Arabia & the Far East, 173.

(٢) Sykes, Hist of Exploration, 63.

(٣) جاء فى كتاب السلوك (جـ ١ قسم ٢ ص ٣٧٩ حاشية ٣) أن كيوك خان حكم من ٦٤٤–٦٤٦هـ/١٢٤٦–١٢٤٨م ، وهو ابن اوغطاى بن جنكيز خان . وفيما يتعلق بتنصيبه خاقانا أعظم ، أنظر تاريخ الفازانى جـ ٤ ورقة ١٠٦ ؛ الرمزى : تلفيق الاخبار جـ١ ص ٣٨٩–٣٩١ .

(٤) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 238.

الشمالى عبر بوهيميا وسيليزيا إلى كييف التى وصلها فى ٣ فبراير ١٢٤٦ م. ومنها واصـل الرحلة إلى سيرا أردو Sira-Ordu حيث المعسكر الامبراطورى فى منغوليا على مسيرة نصف يوم من قراقورم ، وقد بلغها فى ٢٢ يوليو ١٢٤٦ م بعد رحلة شاقة تعرض فيها للأهوال ، حتى أنه توفى بعد عودته إلى أوروبا بقليل متأثرا من ذلك . وقد أحسن استقباله فى البلاط الامبراطورى التترى ، وهناك شاهد حفلة تتويج كيوك خان فى ١٥ أغسطس . وظل ضيفا مكرما على بلاط ايلخان التتار حتى ١٣ نوفمبر من نفس السنة . وفى نهاية سنة ١٢٤٧م عاد ومعه ردود كيوك خان إلى انوسنت الرابع .(١)

والمادة الخاصة بسفارة بلانوكاربينى على جانب عظيم من الوفرة فى السجلات البابوية ، وفى تواريخ متى الباريزى وفنسان دى بوفيه . هـذا ، بالإضافة إلى ما تركه لنا الرسول نفسه عن رحلاته (٢) . ويتضح منها أن كيوك كان يعطف على المسيحيين ، وأن اثنين من وزرائه كانا يدينان بالمسيحية . ولكنه مع ذلك أخفق فى اجتذاب ايلخان اليها ، وإن كان قد أفلح فى دفع الخطر المغولى الذى كان يهدد الغرب الأوروبى (٣).

---

(١) Atiya, op. cit., 238-9. Cf. Pelliot, Mongols et Papauté, 6-7; Howorth, I, 162, IV, 93-4.

(٢) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 239; Beauvais, Hist. de Fr., XXI, 75. — وامتاز كاربينى بصدق روايته ودقة ملاحظتـه ، إذ سجـل أحوال التتار وعاداتهم وتقاليدهم والبلاد التى مر بهـا والأشخـاص الذين التقى بهم ، كما ترك لنا وصفا قلميا رائعا للحفلات التى أقيمت بمناسبة تتويج كيوك خان أنظر : Power, Routes to Cathay, 129.

(٣) Sykes, Hist. of Exploration, 67; Heyd, Hist du Com., II, 66.

ولكن هناك سفارة ثالثة أرسلها إلى التتار البابا انوسنت الرابع أثناء انعقاد مجلس ليون أيضا ، وكان على رأسها الراهب الدومينيكانى اسلين اللمباردى [1] ، وكان برفقته ثلاثة من جماعته (٢) ، وزود أعضاء هذه البعثة بخطابات إلى ايلخان التتار العظيم تدعوه إلى اعتناق المسيحية على المذهب الرومانى . وقد انضم إليهم فى طريقهم إثنان آخران هما جويشار دى كريمونا Guichard de Crémone واندريه دى لونجيموه André de Longjumeau ، الذى سيلمع اسمه فى بعثة لويس الأولى إلى التتار . وكانت الخطابات التى زود بهـا اسلين تماثل تلك التى أعطيت لجيوفانى دى بلانوكاربينى ، وموجهة إلى ايلخان العظيم وأمم الشرق الاقصى .

بدأ اسلين رحلته فى يونيو ١٢٤٥ م من مدينة ليون ووصل إلى تفليس ، وقد انضم إليه رفاقه فى طريقه إليها . وتقدم منهـا عبر ارمينية وجورجيا وسورية وفارس إلى معسكر باتو قائد ايلخان العظيم فى آسيا الغربيـة ، وبقى هناك حتى يوليو من السنة نفسها . وفى أول الأمر لم يكن شعور التتـار نحو السفراء يبشر بنتيجة طيبة. فقد جاء السفراء دون أن يحملوا معهم الهدايا كما يفعل غيرهم ، واقتصروا على حمل خطابات تتضمن تفوقا ونفوذا بابويا . هـذا ،

---

(١) ورد اسلين فى المصادر الغربية بأسماء مختلفة هى : Ansellimus, Anselmus, Azelino, Anzolin, Ezzelino, Ascelinus, Azelinus, Ezelino . وقد استعرض بليوت هذه الأسماء وناقشها فى مؤلفه عن «المغول والبابوية» وأخذ بالتهجئة التى وردت فى تاريخ فنسان دى بوفيه وهى Ascellinos أنظر :
Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 239, n 6; Pelliot, 87–94.

(٢) Albéric, Alexandre, & Simon de Saint—Quentin. Atiya, op. cit., 239, n. 7; Pelliot, 67.

بالإضافة إلى أن أعضاء البعثة الدومينيكان رفضوا أداء التحية التى جرى عليها التتار فى السجود أمام عرش سيدهم كفريضة . وتحدث بعض القواد التتار فى أمر إعدامهم جزاء وفاقا على كبريائهم . ولكن أنقذ الموقف وصول رسول من قبل ايلخان العظيم يأمر قائده بأن يسلك مسلكا وديا مع السفراء الغربيين . وهكذا عادت البعثة إلى أوروبا بسلام مزودة بردود التتار ، وهى تشبه تلك التى حملها كاربينى من كيوك خان . وقد أرسل القائد باتو مع ممثلى البابا سفيرين من قبله هما ايبج Ai - beg ولعله من أصل تركى ، وسرجيس Sargis الذى يظن أنه أحد أتباع الكنيسة النسطورية . وكان الباعث على إرسالها هو رغبة التتار فى التجسس لمعرفة مدى قوة كل من البابا والدول الغربية ، حتى يتسنى لهم تحديد موقفهم من الكتلة الغربية على ضوء المعلومات التى تصلهم . واتخذت البعثة فى عودتها الطريق إلى عكا . ثم توجهت إلى ليون ، ومكثت فى البلاط البابوى حتى موت الامبراطور فريدريك الثانى فى ديسمبر ١٢٥٠ م ، وعودة البابا إلى روما . وقد عقد انوسنت الرابع عدة اجتماعات مع السفيرين الشرقيين ليعرف مدى استعداد شعبهما للتحول إلى الكاثوليكية والتعاون مع الغرب . وبعد ذلك سمح لهما بالعودة بعد أن زودهما بهدايا ورسائل ينشد فيها صداقة التتار وتأييدهم [١] .

وعلى الرغم من أن رسل البابا لم يفلحوا فى تحويل ايلخان التتار إلى المسيحية الغربية إلا أن ردوده كانت تبشر بالخير . كما أن المعلومات التى أتى بها الرسل اللاتين كانت مشجعة على مواصلة السياسة التى سارت عليها البابوية فى التودد إلى التتار ومحاولة ضمهم إلى المعسكر الغربى . وليس من شك أن هذه

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 239—241. Cf. Pelliot, Mongols et Papauté, 66—139; Howorth, II, 72—6.

المحاولات قد أنارت الطريق أمام الملك الفرنسى لويس التاسع عنـــدما اتصلت السفارة بينه وبين ايلخان التتار فى كل من قبرص وقيسارية.

على أى حال ،تجددت المفاوضات بين الطرفين بعد الارساليات البابوية بفترة قصيرة . وكان التتار هم الذين بدأوا المراسلة فى هذه المرة.فقد حدث فى فترة إقامة لويس التاسع وجيشه فى قبرص قبل إبحارهم إلى دمياط (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩ م) ، أن أرسل جغطاى خان (١) أحد حكام التتار فى وسط فارس إلى لويس ، حالما ذاعت فى الشرق أنباء مشروعه الصليبى (٢) ، سفيرين هما داود ومرقس (٣) من المسيحيين النساطرة . وقد زودهما برسالة يطلب فيها الاتحاد مع الفرنسيين ، مبديا استعداده للمساهمة معهم فى سبيل الاستيلاء على بيت المقدس من أيدى المسلمين . (٤) وجدير بالملاحظة أن فى أسلوب الرسالة ما يتفق مع تعبير

---

(١) يعرف جغطاى خان فى المصادر الغربية بأسماء مختلفة هى: Elchalchai, Elgigaday, Elchelchai, Elcheltay, Ercalthay, Eschartay, Achatay. Cf. Atiya, op. cit., 241, n. 4; Joinville (tr. by Johnes), 385, n. 1; Wallon, I, 277; Wiegler, 256. وفيما يتعلق بأحوال جغطاى راجع تاريخ الفازانى ج٤ ورقة ٥٨ و ٧٨ — ٨٠ . وحـــول دقائق سفـارة جغطاى خان الى لويس فى قبرص ، أنظـر جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ، ص ٦٨ — ٧٢ والحواشى .

(٢) علم التتـار بوصول لويس الى قبرص من رسالة بعث بها اليهم صاحب الموصل الذى بلغه النبأ بدوره من سلطـان مصر . أنظر Bréhier, 222 . ولا نستبعد ذلك خاصة وأن المصـادر العربية ذكرت أن أخبار الحملة كانت تصل الى الصالح أيوب أولا بأول، منذ وصول لويس التـاسع وجيشه الى الجزيرة .

(٣) داود هذا مسيحى نسطورى ويحتمل أنه من الموصل ، أما مرقس فهو نسطورى أيضاً والغـالب أنه كان فى خدمة المغول . أنظر Atiya, op. cit., 241, n. 5 .

(٤) Joinville (ed. Wailly), 74. Cf. Rothelin, II, 569-71; Nangis, Vita, XX, 360; Atiya, op. cit., 241-2; idem, Nicopolis, 168, n. 20; Deguignes, III, 126; Cahun, 391.

كاتب شرقى مسيحى ، من ذلك ماجاء فيها أنه فى شريعة الله « ليس هناك أى فارق بين جميع من يدينون بالصليب ، سواء أكانوا لاتين أم أغريق أم أرمن أم نساطرة أم يعاقبة . » (١)

لقد اعتبرت سفارة التتار على جانب عظيم من الأهمية لما كانت تدعو إليه من التعاون مع الفرنسيين ضد خصومهم المسلمين، حتى رجح الكاتب الفرنسى لويس برييه أن قرار لويس التاسع مهاجمة مصر ، كان على أثر الدعوة التى تلقاها من ايلخان التتار . (٢) ويجب أن نتقبل هذا الرأى بشىء من الحذر لعدة أسباب . أولا لأن بعثة التتار لم تؤت ثمارها من حيث التعاون مع الصليبيين فى حرب مشتركة ضد المسلمين ، كما أن لويس هاجم مصر دون أن ينتظر لمعرفة نتائج سفارته إليهم ، والتى لم تحقق الغاية المرجوة منها . وثانيـــا لأن فكرة الهجوم على مصر كانت أقدم من ذلك بكثير حسبما يتضح مما سبق أن بيناه فى صدر الفصل الاول . وأخيرا فاننا لا نجد فى مصادر تلك الحقبة ما يؤكد أن سفارة التتار كانت عاملا محركا فى توجيه لويس شطر الديار المصرية ، وإن كانت قد أوضحت أنه فى الإمكان الاعتماد عليهم والإفادة منهم إن عاجلا أو آجلا .

ومهما يكن من شىء، فقد كانت الرسالة عملا دبلوماسيا رائعا قام به المغول، يشهد على بعد نظرهم وسياستهم الحكيمة . (٣) والواقع أن الدارس لتاريخ العلاقات بينهم وبين المسيحية فى ذلك الحين يجد أن كلا منهما كان يعمل على استغلال الآخر لمصلحته الشخصية، ولو أنه كان يجمعهما هدف واحد هو العمل على إزالة قوة مصر من الميدان حتى يسهل عليهما تحقيق مطامعهما . فاذا نظرنا إلى التتار نجد أنهم قد أخذوا منذ

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 242; Pelliot, 163.

(٢) Bréhier, 222.

(٣) Atiya, op. cit , 242.

وقت غير قريب فى وضع الخطط الأولية لتكوين إمبراطورية قوية لهم تدخل فى نطاقها بلاد العراق والشام(١) . وكانوا يعرفون جيداً مبلغ الضعف الذى وصلت إليه الخلافة العباسية فى بغداد آنذاك ، وأنها لابد أن تسقط قريباً عند أول ضربة قوية توجه إليها . بل انهم كانوا فعلا يستعدون للاستيلاء عليها بعد أن تكررت إغاراتهم على أطرافها (٢) . وقد أدرك التتار أيضاً أنه يستحيل على مصر - زعيمة العالم الإسلامى - أن تقف من هجومهم على بغداد موقف المتفرج ، بل لابد لها من أن تقوم فى وجههم لصد عدوانهم الذى كان يهددها هى الأخرى تهديداً مباشراً . لذا وجد أولئك القوم أن أسلم الطرق لتحقيق مآربهم القادمة فى رقعة الشرق الإسلامى هى العمل يداً واحدة مع الصليبيين للقضاء على سلطان مصر والمسلمين (٣) . ولعلهم عمدوا كذلك أن يشغلوا المصريين مع لويس التاسع والفرنسيين ، حتى تنصرف مصر عن مساعدة الخلافة العباسية إذا ما هاجموها ، وهو أمر كانوا يفكرون فيه تفكيراً جدياً (٤) . ولا يبعد أيضاً أن يكونوا قد أوفدوا بعثتهم إلى لويس فى قبرص بقصد التجسس لاستطلاع أخباره والتعرف على نواياه عندما بلغتهم أنباء استعداداته الحربية فى الجزيرة اللاتينية ،

---

(١) Sedillot, Hist. générale des Arabes, I, 292–3.

(٢) Cahun, Intr. à l'hist. de l'Asie, 391; Bréhier, 222. وقد أحسن اليونى (ذيل الجمان ج ٢ ورقة ١٣٢ ب) وصف حالة الخلافة العباسية وقتذاك ، فقال إن ولاية المستعصم بالله آخر خلفاء بنى العباس فى العراق كانت « وبال على الإسلام ، ودمار البلاد ، وهلاك للعباد » .

(٣) راجع حبشى : حملة القديس لويس ص ٢٦ — ٣٦ ؛ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٣٧ .

(٤) Atiya, op. cit., 242.

كما فعل القائد باتو عندما أرسل سفيريه إلى البابا انوسنت الرابع من قبل .

وصفوة القول ان سفارة التتار هـذه تعتبر فى الواقع استعـداداً دبلوماسياً من ناحيتهم أرادوا أن يكملوا به استعدادهم الحربى ، لتوسيع رقعة أملاكهم على حساب الخلافة العباسية التى كانت تحتضر فى ذاك الحين . ويؤيد ما ذهبنا إليه أنه لم تـكد تمضى بضع سنوات بعد مغـادرة لويس سورية حتى قضى التتـار على حصون الإسماعيلية فى فارس ، وعلى الخلافة العباسية فى بغـداد فى ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . (١) وانطلقـــوا بعد ذلك فى ربوع الشام الذى كاد أن يقع تحت رحمتهم ، لولا أن قيض الله للمسلمين الملك المظفر قطز والأمير بيبرس البندقدارى ، اللذين الحقا بالتتار هزيمة منـكرة فى واقعـة عين جالوت الفـاصلة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، تلك الواقعة التى أنقذت مصر والشرق الإسلامى من غارات أولئـك الغزاة ووضعت حداً لتقدمهم (٢) .

لقد رحب الملك لويس بهـــذه البعثة التترية التى تعرض التحالف معه ضد

---

(١) راجع التفاصيل فى أبى الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٤٧١ — ٤٧٥ ؛ أبى شامة : تراجم رجال القرنين ص ١٩٨ — ١٩٩ ؛ ابن الساعى : مختصر أخبار الخلفاء ص ١٢٦ — ١٢٧ ؛ البغدادى : عيون الأخبـــار ج ٢ لوحة ٤٢٥ ؛ الديار بكرى : الخميس ج ٢ س ٤٢٠ — ويلاحظ أن جوانفيل ذكر أن استيلاء التتار على بغداد حدث فى فترة إقامة الملك لويس فى صيدا لتحصينها ، وكان ذلك فى عام ١٢٥٣ م . والحقيقة أنهم استولوا عليها فى ١٢٥٨ م ، أى بعد ذلك التاريخ بخمس سنوات . أنظر Joinville (ed. Wailly), 320-2. ويبـدو أن الأمر قد التبس على مؤرخنا ، خاصة إذ علمنا أنه لم يدون مذكراته عن القديس لويس إلا بعد عودته إلى الغرب بفترة طويلة .

(٢) فيما يتعلق بموقعـة عين جالوت أنظر : تاريخ مختصر الدول ص ٤٧٦ — ٨ ؛ تتمـة المختصر ج ٢ ص ٢٠٢ — ٧ ؛ خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٣٨ ؛ العبر ج ٥ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ و ٣٧٩ — ٣٨٠ .

المسلمين . ولم يجد من جانبه غضاضة فى السير على نهج سياسة البابا انوسنت الرابع فى التقرب إليهم والتحالف معهم ، إذ كان يعاق آماله على اكتساب هذا العنصر فى ديانته (١) ، للحصول على مساعدته ضد المسلمين من جهة ، والتقوى به المسيحية الغربية من جهة أخرى (٢) ، خاصة وأنه كان يدرك ميول التتار - لاسيما زعيمهم كيوك - إلى النساطرة ، واستوزاره جماعة من المسيحيين واعتماده عليهم فى إدارة شئون بلاده (٣) . والخلاصة أن لويس التاسع كان يهدف إلى تحقيق الغاية التى ترمى إليها الحروب الصليبية من تحويل التتار إلى المسيحية الكاثوليكية ، وبذلك تقع الأراضى المقدسة بين التتار وأوروبا الغربية، فلا يكون هناك مفر من بقائها فى قبضة الغربيين بقاء دائماً .

على أى حال ، أكرم الملك الفرنسى وفادة سفيرى جغطاى خان (٤) مرحباً بفكرة التعاون معه ، ودعاهما لمشاركة اللاتين فى احتفالاتهم فى قبرص . وسمح لهما بالعودة إلى بلادهم فى ٢٧ يناير ١٢٤٩ م ، وكان ذلك قبل مغادرته الجزيرة إلى مصر بأربعة أشهر تقريباً . وأرسل معهما بعثة مكونة من ثلاثة من الاخوان الدومينيكان هم اندريه دى لونجيموه ووليم دى لونجيموه ويوحنا الكركسونى . وعين اندريه الذى كان قد عاد من الشرق رئيساً لهذه البعثة نظراً لما اكتسبه من

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 74; Matt. Paris, II, 319. Cf. Daguignes, III, 126.

(٢) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 242.

(٣) Rothelin, II, 569. Cf. Heyd, Hist. du Com., II, 66; Dubeux et Valmont, Tartarie, 329; Howorth, Hist. of the Mongols, I, 165.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 74. Cf. Atiya, Nicopolis, 168, n. 20; Cahun, 391 .

خبرة مع التتار (١) . وأرسل مع رجاله هدية ثمينة إلى ايلخان هى عبارة عن خيمة من قماش قرمزى على هيئة كنيسة صغيرة ، نقشت بداخلها بعض الآيات والصور الدينية ، وذلك بقصد استمالته إلى المسيحية . كما أرسل معهم كؤوس العشاء الربانى وكتبا وكل ما يلزم لإقامة القداس فى حضرة ايلخان (٢) .

أبحرت البعثة الصليبية من قبرص إلى انطاكية (٣) ، ومنها أخذت الطريق البرى إلى الموصل وتبريز، ووصلت فى النهاية إلى معسكر جغطاى خان فى وسط فارس. ولكن لسوء الحظ كان كيوك ايلخان التتار العظيم قد مات فى ذلك الحين، ولم يعد فى وسع جغطاى — وهو أحد الحكام المحليين — أن يتحمل بمفرده مسئولية تقرير سياسة جديدة فيما يتعلق بالتعاون مع لويس التاسع . وقد اضطر رسل الملك الفرنسى مواصلة الرحلة شرقا نحو البلاط الامبراطورى حيث اعتلت قلقميش (٤) Q'ul-qaimis زوجة كيوك العرش فى الفترة القصيرة الممتدة بين موت زوجها وتتويج منكوخان . (٥) وسرعان ما تولى منكوخان العرش ، وتبادل الهدايا مع أفراد

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 74. Cf. Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 242; Power, Routes to Cathay, 129.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 74 Cf. Atiya, Crusade of Nicopolis, 168, n. 20; Howorth, Mongols, I, 170. وكانت هذه الصور تمثل بشارة الملاك جبريل لمريم ، والميلاد ، والمعمودية ، وآلام السيد المسيح ، وحلول الروح القدس ، وغير ذلك من أصول العقيدة المسيحية . أنظر جوانفيل (نفس الطبعة والصفحة) وكذلك Deguignes, Hist. des Huns, III, 126; Wiegler, 256-7; Conder, Latin Kingdom, 370.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 258.

(٤) يطلق عليها أبو الفرج (تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٧) أغول غانميش.

(٥) اسم هذا الخان فى المراجع الشرقية «منكو» أو « مونككا » ، وهو ابن تولوى =

البعثة ، ولكنه رفض هو الآخر تحمل مسئولية اتباع نفس السياسة التى انتهجها سلفه من قبل فيما يختص بالتعاون مع القديس لويس والفرنسيين (١) .

يقول جوانفيل إن ايلخان دعا إليه عددا من الملوك والأمراء الذين لم يعلنوا خضوعهم له بعد، وأقام الكنيسة الصغيرة التى أحضرها رسل لويس أمامهم، وخاطبهم قائلا: «أيها السادة، لقد أعلن ملك فرنسا خضوعه لنا، وهاهى الجزية التى أرسلها. فاذا لم تضعوا أنفسكم تحت رحمتنا ، فسنبعث فى طلبه للقضاء عليكم». وكان من نتيجة ذلك أن أعلن عدد كبير خضوعهم له خوفا من بطش الملك الفرنسى . (٢) وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد، ان ايلخان التتار تسلم هدية لويس كما لو كانت ضريبة ملزما بتقديمها رمزا لخضوعه كما يفعل غيره من الملوك والأمراء، وأن ايلخان استغل هذه الفرصة لإظهار سطوته وإرهاب اتباعه . (٣) هذا ،فضلا عن أن الخطبة لم تكن تحمل بين كلماتها ما يوحى بالوصول إلى أى تفاهم بين الشعبين ، يحقق الأمنية التى يسعى إليها الملك الفرنسى .

طالت بعثة لويس التاسع بأرض التتار مـــدة عامين وقعت فيها فى الشرق

ابن جنكيز خان . أنظر البغدادى: عيون الأخبار ج٢ لوحة ٤٢٥ ؛ تاريخ الغازانى ج٤ ورقة ٩١ و ٩٢ ؛ أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٦ . وقد وقع تتويجه وإعلانه خاقانا أعظم سنة ٦٤٩ هـ/ ١٢٥١ م فى مجمع رؤساء التتر . راجع تفاصيل تتويج منسكوخان ودسائس البلاط التى وقعت بمناسبة انتخابه فى : أبى الفرج ص ٤٥٦ — ٤٥٨ ؛ الرمزى : تلفيق الأخبار ج ١ ص ٣٩١ ، وكذلك : Barthold, Hist. des Turcs, 144.

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 243.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 268, Cf. Bréhier, 222.

(٣) Perry, 207.

الإسلامى أحداث جسام . فقد غادر لويس وجيشه قبرص إلى دمياط حيث تم له الاستيلاء عليها فى مايو ١٢٤٩ م . ولكن هذا النصر سرعان ما تحـول إلى هزيمة تامة ، إذ انكسر الجيش الفرنسى فى واقعتى المنصورة ، وأسر الملك وكبار رجاله خلال الارتداد من هذه المدينة شمالا إلى دمياط . وانتهى الأمر بعقـد معاهدة دمياط ومغادرة لويس وفلول قواته الساحل المصرى إلى مدينة عكا فى مايو ١٢٥٠ م ، ليواصل نشاطه الاستعمارى من جديد للقيام بمحاولة ثانيـة تهدف إلى تثبيت النفوذ اللاتينى فى بلدان الشرق العربى .

حدث كل هذا أثناء غيبة رسل لويس فى بلاد التتار ، وهـو لا يعـلم عنهم شيئا ، وهم بدورهم لا يعلمون ما استجد من تطورات بعد مغادرتهم الجزيرة . وأخيرا عاد لونججيمو ورفاقه إلى مدينة قيسارية عن طريق حلب فى ١٢٥١ م وكان لويس قد انتقل اليها من عكا بقصد تحصينها . (١) وجاء بصحبتهم سفراء من قبل ايلخان التتار ومعهم رسالة متعالية يطلب فيها سيدهم من الملك الفرنسى الاسراع بتقديم الهدايا والضرائب كسبا لصداقته، وضمانا لاقرار السلام بينهما(٢)، مما يؤيد رواية جوانفيل عن موقف ايلخان التتار إزاء بعثة لويس عندما مثلت فى حضرته .

وهكذا فشلت البعثة فى تحقيق أغراضها ، لأن الدسائس التى أعقبت وفاة كيوك خان أحدثت حالة من الفوضى منعت قيام أى عمل جـدى (٣) . وهكذا عاد الرسل دون أن يكسبوا التتار إلى الغرب ، أو حتى يضمنوا تعاونهم معهم فى

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 74, 258. Cf. Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 243; Archer & Kingsford, 412.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 268–270.

(٣) Cf. Howorth, Mongols, I, 170 – I.

حملة صليبية مشتركة ضد المسلمين . ولكنهم على أى حال أوضحوا للملك لويس إمكانية نجاح بعثات التبشير بين التتار فى منغوليا ، الأمر الذى أنعش آماله . فلم يقطع الرجاء ، وقام بمحاولة ثانية لاستمالتهم إلى الكاثوليكية (١) من ناحية ، واستخدامهم فى صراعه ضد العرب والإسلام من ناحية أخرى . هذا فى الوقت الذى كان يسعى فيه سعيا حثيثا للدعوة إلى حملة صليبية جديدة تعوض هزيمته فى مصر . فكان من المنتظر فى مثل هذه الظروف أن يدلى بدلوه مرة أخرى فى ميدان الشرق الأقصى .

لم يفت إخفاق البعثة إذن فى عضد الملك لويس . وقرر معاودة الاتصال بالتتار ، مقتفيا أثر الخطة التى وضعتها وسارت عليها البابوية ، واستمرارا لموقفه منهم الذى تجلى فى سفارته الأولى إليهم . وكانت الظروف آنذاك مواتية لتدعيم العلاقات بين اللاتين والتتار . فقد وجدا أنهما أمام خصم عنيف يتمثل فى مماليك مصر البحرية الذين ألحقـــوا بلويس ورجاله شر أنواع الهزيمة ، والذين اغتالوا المعظم توران شاه ، وأقاموا ملكهم على أنقاض دولة الأيوبيين بمصر . وأدركا أيضا أن مصلحتهما المشتركة تقتضى تعاونهما معا لمجابهة هذا الخطر الجاثم(٢). وكان

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 243; idem, Crusade of Nicopolis, 168, n 20. Cf. Conder, Latin Kingdom, 370. ولعل أهم ما رواه الرسل للملك لويس بعد عودتهم ما شاهدوه فى رحلتهم وما سمعوه عن أصل التتار ، ومنشأهم ، وأسلوب معيشتهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، والكيفية التى كانوا يختارون بها حاكمهم ، وانتشار المسيحية بينهم وأسطورة الكاهن يوحنا التى ألهبت خيال المسيحيين فى العصور الوسطى . وغير هـذا وذاك من المعلومات التى تزخر بهـا عادة مذكرات الرحالة والمرسلين اللاتين الذين ارتادوا هذه البلاد . أنظر Joinville (ed. Wailly), 258-268.

(٢) Ross, Prester John, 181.

لويس يدرك من ناحيته أطماع المغول فى بلاد المسلمين بعد سفارتهم إليه فى قبرص . هذا ، فضلا عن آماله الواسعة فى إمكان كسب هذا العنصر إلى دينه ، حتى أنه أظهر حماسا أعمى فى تصديق الشائعات الباطلة التى وصلته عن تحول بعض أمراء المغول إلى المسيحية [١] . وكان قد أذيع فى ذلك الحين عن طريق بعض النساطرة العائدين من تلك البلاد أن أحد حكام التتار الحاليين ، ويدعى سارتاك ، قد اعتنق هذا الدين [٢] .

ووفقا لهذه الاعتبارات أرسل لويس التاسع عقب عودة هذه البعثة ، سفارة أخرى مكونة من الراهب الفرنسيسكانى وليم دى روبروك Guill. de Rubruck وراهب آخر هو برثولماوس دى كريمونا Bartolomeo de Cremona ، وذهب بصحبتهما تابع يسمى نيقولا . وقد كتب روبروك أخبار رحلته ومخاطراته فى الشرق الأقصى على هيئة مذكرات وجهها إلى القديس لويس . واعتبر علماء الشرق الأقصى هذه المذكرات مصدرا له أهمية كبيرة فيما يختص بأحوال الهجرة والارتحال فى آسيا فى العصور الوسطى ، ولاسيما للأجناس التتارية فى ذلك الزمان . وتعرض فيها روبروك لتقاليد التتار وطبائعهم وعاداتهم الاجتماعية ، وغير ذلك مما صادفه فى رحلته . وبالإضافة إلى ما تقدم يجد الباحث فى تلك المذكرات أدلة قوية للنشاط التبشيرى فى منغوليا ، ومادة طيبة عن موضوع التعاون بين الشرق الأقصى والغرب الأوروبى للقيام بحملة صليبية مشتركة (٣) ، تحقق أطماعها التى

(١) Arnold, Preaching of Islam, 222; Guizot, St. Louis, 90.
وكذلك الدكتور حسن ابراهيم : انتشار الاسلام بين المغول ص ٢٩ .

(٢) d'Ohsson, Hist. des Mongols, II, 283; Conder, Latin Kingdom, 374.

(٣) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 243 & 243 notes 4 & 5.

لا تنتهى فى الشرق الاسلامى .

رحل روبروك ورفيقاه سنة ١٢٥٢ م من قيسارية إلى القسطنطينية ، التى أقاموا فيها حتى مايو من السنة التالية يستقصون ما كانوا يفتقرون إليه من أخبار تساعدهم فى مهمتهم . وبعد ذلك أبحـــروا إلى شبه جزيرة القرم ، التى كانت وقتذاك فى أيدى الاغريق الذين كانوا يتاجرون مع أهل الشمال فى أنواع الفراء . ومن هناك أخذوا الطريق البرى حتى مصب نهر الدون ، ووجـدوا أن جنوب روسيا آهل بالمسلمين وقبائل الألآن Alan ، وهم اغريق مسيحيون يعيشون على نهر الفولجا (١) . وقد قاسى روبروك خلال هذه الرحلة الكثير من المشاق . ويقول إنهم لم يناموا فى مسكن أو خيمة ، ولكن فى الخـلاء تحت عرباتهم . ولم يعثروا فى طريقهم على أثر لأى قرية أو أطلال مبان ، وإنما وجدوا أعدادا لا حصر لها من المقابر (٢) .

وكان أول اتصال لروبروك بالتتار عند نهر الفولجا ، حيث أشيع أن أحد ايلخاناتهم ويدعى سارتاك Sartak كان مسيحيا . وهناك وجد روبروك فارسا من جماعة الداوية حضر من جزيرة قبرص ، وكاهنا نسطوريا يدعى كويات Coiat وهو الذى تولى تقديمه إلى سارتاك وكانت المقابلة بين روبروك وزميله وبين الزعيم المغولى غريبة لحد ما . فقد كان روبروك يحمل انجيـلا أعطاه له الملك لويس ومسبحة نفيسة أهدتها له الملكة مرجريت ، بينما حمل برثولماوس صليبا وكتابا دينيا ، وأمسك التابع بمبخرة . وكان التتار يسكنون العربات التى ينصبون عليها خياما من اللبد أشبه ما تكون بالمنازل ، وقد جلسوا يتناولون

(١) Atiya, op. cit., 244, n. 2; d'Ohsson, op. cit., 283–4; Power, Routes to Cathay, 129

(٢) d'Ohsson, op. cit., 284.

شراب الكوميس ، وهو لبن الفرس المخمر المعروف منذ أيام هيرودوت. وقد طلب من ثلاثتهم وفقا لتقاليد التتار ، ألا يطأوا بأقدامهم عتبة باب القصر عند دخولهم ، ونصحوهم أن يرتلوا بعض الأناشيد الدينية تحية لسارتاك . و فلا دخلوا عليه وهم يرتلون الأناشيد . وبعد أن أشبع سارتاك وزوجاته فضولهم بفحص أردية الراهبين وكتبهم ، تقدم روبروك بخطاب الملك لويس لايلخان . وفيه يطلب السماح لرسوله بالبقاء فى بلاد التتار للدعوة إلى المسيحية على مذهب الكنيسة الرومانية . وبعد أن علم سارتاك بفحوى الرسالة ، قال لروبروك فى اليوم التالى إنه إذا أراد البقاء ، فيجب عليه أن يحصل على تصريح بذلك من أبيه باتوخان ، وأفاده بأنه سيرسل معه قائدا من لدنه ليرشده إلى معسكر باتو . ولاحظ روبروك أنه يوجد إلى جانب سارتاك بعض الكهنة النساطرة الذين يقومون بالخدمة الدينية ، ولكنه علم أن سارتاك نفسه لم يكن مسيحيا حسبما كان يظن (١) .

وبعد أن أقام رسل لويس فى بلاط سارتاك أربعة أيام كاملة لم يتناولوا فيها طعاما أو شرابا ، اللهم إلا قليلا من الكوميس الذى قدم لهم ، واصلوا الرحلة إلى بلاط باتوخان بمحاذاة نهر الفولجا . وكان باتو يقيم خيامه على الضفة الشرقية لنهر الفولجا فى مدينة اسمها أردو ، وهى ذات اتساع كبير من أكواخ من اللبد . (٢) وكان قد زاره قبل ذلك التاريخ بثمان سنوات رسول البابا انوسنت الرابع جيوفانى دى بلانو كاربينى الذى سبق الإشارة إليه .

استقبل باتو الراهب روبروك فى اجتماع حافل ، داخل خيمة كبيرة كان قد أمر باقامتها لهذا الغرض . ويقول روبروك إنه بقى وزميله واقفين فى وسط

(١) d'Ohsson, op. cit., II, 284–5. Cf. Conder, Latin Kingdom, 371.

(٢) d' Ohsson, Mongls, II, 285 & 285, n. 1; Conder, op. cit., 371.

الخيمة بأرديتها الكهنوتية ورأسيها العاريتين ، بحيث كان يسهل على الجميع رؤيتهما . ولم يطلب منهما فى بادىء الأمر تقديم فروض الاجلال بالسجود كما اعتاد أن يفعل غيرهم من الرسل . وينتقل رسول لويس إلى وصف باتو ، فيقول إنه كان يجلس هو وزوجه على عرش عريض مموه بالذهب له ثلاث درجات ، ويحيط بالعرش زوجاته الأخريات ، ومن الجانبين باقى أفراد الحاشية من الرجال . كما كان عند مدخل الخيمة مصطبة عليها الشراب المعروف باسم السكوميس ، وأكواب كبيرة من الذهب والفضة المرصعة بالجواهر .

وبعد أن تطلع باتو إلى الرسولين ، أذن لروبروك بالكلام . فسجد الراهب على ركبتيه ، ثم أخذ يحث ايلخان على اعتناق المسيحية معددا له مزاياها . واستطرد قائلا إن مولاه ملك فرنسا أرسله إلى ابنه سارتاك عندما بلغه أنه اعتنق المسيحية ، ثم طلب منه فى ختام خطبته السماح له بالبقاء فى بلاده للتبشير بهذا الدين . وسأله باتو عن الدافع الذى من أجله قام لويس بحملته ، فأجابه بأن مليكه يهدف إلى الاستيلاء على الأراضى المقدسة من أهلها المسلمين ، وأنه يأمل تعاون جيوشها فى حملة مشتركة لتحقيق هـــذه الغاية . وبعد أن انتهى روبروك من إلقاء خطابه ، أذن له باتو بالنهوض ، وتولى القائد الذى صحبه تقديمه وزميله باسميهما لايلخان . وعلم رسول لويس بعد ذلك أنه يجب عليه أن يقطع مسافة طويلة شرقا ليلتقى بمنكوخان كبير ايلخانات التتار ، الذى كان قد دخل امبراطوريته بعبوره نهر الفولجا ، وذلك للحصول على تصريح منه بالبقاء فى بلاده .(١)

وقد أتم الراهب الفرنسيسكانى هذه الرحلة العجيبة بسلام راكبا لمسافات طويلة كل يوم ، على طول نهر الفولجا . فقد غادر هو وزميله بلاط باتوخان فى

(١) d'Ohsson, Mongols, II, 286-9; Condor, Latin Kingdom, 371-2.

منتصف سبتمبر ١٢٥٣ م ، وكان يرافقهما أحد قواده ليدلهما على الطريق . وكانت الرحلة شاقة ، واستغرقت أكثر من ثلاثة أشهر . وكان يقطع مسافة تتراوح بين ٢٥ و ٤٠ ميلا فى اليوم الواحد ، إلى أن وصل إلى بلاط منكوخان بالقرب من قراقورم حاضرة المغول فى أواخر ديسمبر من السنة نفسها .(١)

وقد شاهد أعضاء البعثة على مرمى سهم من البلاط الامبراطورى كنيسة صغيرة فيها مذبح مكسو بالأقمشة الموشاة بالذهب، وعليها صورة للسيد المسيح والعذراء والقديس يوحنا المعمدان واثنين من الملائكة كما أبصروا صليبا عظيما من الفضة محلى بالأحجار الكريمة ، وأمام المذبح شمعدان موقد بالزيت والتقوا فى الكنيسة براهب أرمينى جاء قبلهم بشهر ، وذكر أنه من بيت المقدس ، ونصحهم أن يخبروا منكو خان أنه لو اعتنق المسيحية لخضع العالم كله لسلطانه . فأجابه روبروك بأنه يسره اقناع ايلخان العظيم باعتناقها ، لأنه جاء لهذا الغرض ، ولكن لم يسعه التعهد بأن يدفع له الفرنسيون أو البابا ضريبة كغيرهم من الأمراء والحكام (٢) .

وسرعان ما استجوب الراهبان عن سبب مجيئهما . فأوضح روبروك لقواد ايلخان التتار أنه مجرد مبعوث دينى أوفده لويس التاسع ملك فرنسا إلى الأمير سارتاك عندما بلغه أنه أصبح مسيحيا . لم يقتنع القواد بذلك ، واعتقدوا أنهما حضرا لتقديم فروض التبعية والولاء لمنكو خان نيابة عن ملكهم كما يفعل غيرهما من الرسل . وعبثا حاول روبروك إقناعهم بسبب مقدمه (٣) .

---

(١) d'Ohsson, op. cit., 290; Deguignes, Hist. des Huns, III, 126; Conder, 372.

(٢) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 244 – 5 & notes 47 – 9.

(٣) d'Ohsson, op. cit., 290. Cf. Lamb, 393.

على أى حال تمت أكثر من مقابلة بين روبروك وايلخان العظيم (١) . وكانت المقابلة الأولى فى يوم عيد الميلاد عندما سمح منكو باستقبال أفراد البعثة . وكان جالسا على فراش صغير ، وقد اتزى برداء ثمين من الفرو اللامع ، وإلى جانبه جلست الامبراطورة وإحدى بناتها وكان إلى جواره أيضا أحد المسيحيين النساطرة ليقوم بمهمة الترجمة له (٢) . وأنشده الرسل عند دخولهم ترنيمة عيد الميلاد (٣) . وعندما سمح ايلخان لروبروك بالكلام ، قال إنه موفد من قبل لويس التاسع ملك فرنسا إلى سارتاك خان عندما بلغه أنه مسيحى ، وإن سارتاك أحاله بدوره إلى أبيه باتوخان الذى أحاله هو الآخر إلى شقيقه منكو ايلخان التتار الأعظم . ثم التمس منه السماح له بالبقاء فى بلاده للدعوة إلى المسيحية على المذهب الرومانى بين التتار ، والسعى لما فيه صالح شعبيهما (٤) . ولكن هذه الخطبة التى ألقاها روبروك فى حضرة ايلخان لم تؤت ثمارها ، لأنه لم يكن قد أفاق بعد من طرب الليلة السابقة حيث شرب حتى الثمالة (٥) . وكان كل ما فاز به الرسول أن منكو خان أذن له ولزميله بالبقاء فى بلاده إلى حين انقضاء موجة البرد ، إذ كان الوقت شتاء (٦) .

وحدث أن شهد ايلخان وزوجه بعد ذلك قداسا دينيا فى كنيسة تابعة للنساطرة حضره وليم روبروك وزميله . وقد أحرق البخور لايلخان وباركه الكهنة ، وأثار

(١) Sykes, Hist. of Persia II, 93.

(٢) d'Ohsson, Mongols, II, 292 – 3.

(٣) Cf. Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 245.

(٤) d'Ohsson, Mongols, II, 293 – 5. Cf. Deguignes, Hist. des Huns, III, 126 – 7.

(٥) Atiya, op. cit., 245.

(٦) d' Ohsson, op. cit, 295.

انتباهه انجيل كان يحمله الراهبان . وحملت زوجة منكو خان الثانية، وكانت مريضة على تقبيل صليب فضى ، ووهبت للراهبين لحما وشرابا وقدم لهما شراب الراوند فعوفيت من مرضها . وكل ما أمكن روبروك قوله فيما يتعلق بموضوع عماد هذه الزوجة التى كثرت الشائعات حولها ، إنه أبصر الكهنة يحضرون حوضا فضيا ، ولكنه لا يعلم إن كانوا قد عمدوها أم لا (١) . ويبدو أن هذه الرواية من اختلاق روبروك، لأنها لو صحت لكان قد أكدها فى مذكراته ، ولجاء ذكرها فى كتابات غيره من المعاصرين لهذه الفترة .

وكل ما فى الأمر أن ايلخان وأسرته كانوا يعطفون على المسيحيين ويزورون كنائسهم فى المناسبات والأعياد فحسب (٢) . وقد تناسى المسيحيون أن هذه المعاملة لم تكن مقصورة عليهم وحدهم . فقد اعتاد منكو خان حضور الاحتفالات الدينية الخاصة بالبوذيين والمسيحيين والمسلمين ، ضمانا لالتفاف الجميع حوله وتأييدهم له (٣) . ويلاحظ أنه كان يسير على سياسة جنكيزخان التى ترمى إلى إعفاء رجال الدين من أتباع هذه الديانات الثلاث من الضرائب ، والمساواة بينهم ، ومنحهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية دون أى تفرقة (٤) . ومما يدل على ذلك أن أم منكوخان ، رغم أنها كانت تعتنق المسيحية ، فانها كانت شديدة العطف على المسلمين ، حتى لقد أغدقت عليهم الكثير من أموالها . فنراها

---

(١) Conder, Latin Kingdom, 374 - 5. Cf. Deguignes, III, 127; d'Ohsson, II, 296 - 8, n. 1.

(٢) Heyd, Hist. du Com., II, 67.

(٣) Deguignes, III, 527; d'Ohsson, II, 296.

(٤) Cf. Browne, Lit. Hist. of Persia, II, 440; Vambery, Hist. of Bokhara, 139; d'Ohsson, II, 298 - 9; Howorth, I, 215. كذلك أوضح =

مثلا تمنح المسلمين مبلغا كبيرا من المال لبناء مدرسة إسلامية فى مدينة بخارى، كان يؤمها عدد كبير من طلاب العلم . (١)

والواقع أنه ليس هناك فى تاريخ العالم نظير لتلك المعركة التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام فى أواسط آسيا ، كل ديانة منها تنافس الأخرى ، لتكسب قلوب أولئك المغول إليها . وحاول كل فريق أن يكون له قصب السبق فى هذا المضمار (٢) . وكان الصراع بينها عنيفا نظرا لأنها كانت من الديانات التبشيرية تسعى أولا وأخيرا إلى اكتساب المغول إلى حظيرتها (٣) .

ظهر منكوخان إذن بمظهر التسامح مع أهالى هذه الديانات، وكان كهنة كل فريق يقومون بمناظرات دينية مع كهنة الفريق الآخر فى حضرته . ففى إحدى المقابلات بينه وبين روبروك ، استمع ايلخان للمناقشات التى أدلى بها راهب نسطورى ليستدل على أفضلية مذهبه عن بقية المذاهب الأخرى. وقد رحل منكوخان تاركا الملكة لتوزع الهدايا على المتحاجين . (٤)

= القلقشندى (صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٢) أن « من طرائفهم (يعنى التتار) أنهم لا يتعصبون لمذهب ».

(١) حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

(٢) Arnold, Preaching of Islam, 219, 220. Cf. d'Ohsson, II, 297 - 8; Power, Routes to Cathay, 130. وكذلك الدكتور حسن ابراهيم : انتشار الاسلام بين الدول ص ٢٦ .

(٣) Huzayyin, Arabia & the Far East, 261.

(٤) Atiya, op. cit., 245. — وحرى بالذكر هنا أنه كان محرما استخدام العنف والألفاظ الجارحة ، او إحداث أى شغب فى مثل هذه المناظرات . وكانت المحاجاة الأولى فى ذلك اليوم بين راهب فرنسيسكانى وأحد الصينيين الذى استدرج الى أن أعلن عدم وجود إله مطلق القوة ، الأمر الذى أثار استنكار المسلمين والمسيحيين على السواء . أما المناظرة الثانية =

ويبدو أن النساطرة كانوا يتمتعون بالعطف الامبراطورى (١) ، وكان لهم المكان الأول بين الطوائف المسيحية الأخرى فى بلاط ايلخان (٢) ، مما جعلهم يعقدون الآمال فى تحويله ورعاياه إلى مذهبهم . (٣) والحقيقة أنهم أبدوا من ضروب الصبر والجلد فى هذا الميدان مالم يبده أهل الغـــرب الأوروبى . وكانوا يروجون من وقت لآخر شائعات باطلة مفادها أن هذا الخـــان أو ذاك الحاكم المغولى قد اعتنق المسيحيـة ، أو أنه على وشك التحول إليها . ولا شك أنهم بالغوا فى تقدير نفوذهم وتأثيرهم على ايلخانات التتار ، وأنهم قد خدعوا من موقف أولئك الحكام منهم . (٤)

ولا يخفى روبروك كراهيته للنساطرة والأغريق المنشقين على المـــذهب الكاثوليكى فى منغوليا ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الرسل والمبعوثين من أهل ذلك المذهب ، الذين كانوا يعتبرون الوثنى أفضل بكثير من أى منافس مسيحى يدين بغير مذهبهم . (٥) وإن البيانات التى أمدنا بها الراهب روبروك تكشف عن تحامله عليهم فهو يتهم رهبانهم وكهنتهم بأنهم مرابون وفاسقون وسكيرون(٦). ويقول عنهم أيضا إنهم كانوا شديدى الجهل ، وإنهم لم يستطيعوا حتى فهم كتب

= فكانت بين النساطرة والمسلمين ، ولم تنته المناقشات بينهما إلى أية نتيجة . أنظر : Conder, Latin Kingdom, 375.

(١) Atiya, op. cit, 245.

(٢) Cf. Sylvain, L'Expansion nestorienne en Asie, R. O. C., IX, 334, 335.

(٣) Conder, op. cit., 373.

(٤) Heyd, Hist. du Com., II, 67.

(٥) Power, Routes to Cathay, 130. Cf. Sykes, Hist. of Exploration, 67.

(٦) Conder, Latin Kingdom, 375. أنظر أيضا شيخو : النصرانية بين قدماء الأتراك والمغول ص ٧٦٦ .

صلواتهم التى كانت مدونة بالسريانية. ثم يوازن بين حياتهم وحياة القسيسين من البوذيين المعروفين بالشامان موازنة ليست فى مصلحتهم إطـــلاقا . ويضيف روبروك إلى ماتقدم أن النساطرة كانوا يتجرون بالمناصب الدينية ولا يبالون بجمع الثروات من وراء تعليم طقوس الكنيسة ، ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الدين . (١) ومع ذلك فقد شهد روبروك بطريق غير مباشر بنشاط النساطرة فى ميدان التبشير بين التتار . فهو مثلا يقول لنا إنهم عمدوا فى ليلة العيد الكبير أكثر من ٦٠ شخصا ، وإن جميع المسيحيين ابتهجوا لهذا الكسب العظيم .(٢)

وهكذا نرى أنه على الرغم مما كانت تلقاه المسيحية من عطف وتأييد فى بلاط ايلخان ، فقد تبين روبروك بفطنته ودقة ملاحظته أن ايلخان العظيم إنما كان يسعى إلى اكتساب الجميع إلى جانبه فحسب ، وأنه لم يكن هناك أى بادرة توحى باستعداده للتحول إلى المسيحية . ولقد أوضح منكوخان معتقداته إلى ذلك المبعوث الفرنسيسكانى فى إحدى مقابلاتهما فى الكلمات التالية ، وهى تغنى عن كل بيان : « نعتقد نحن المغول أنه يوجد اله واحد به نحيا ونموت ، وأن قلوبنا تتجه نحوه باخلاص . ولكن الله الذى جعل لليد أصابع مختلفة ، قد أرشد الناس إلى عبادته بطرق عديدة . لقد أعطاكم الكتب المقدسة ، ولكن المسيحيين لايتبعونها . أما نحن فقد أعطانا الشامانيين الذى نتبع ما يأمرون به فنعيش فى ســـلام .(٣)

---

(١) Arnold, Preaching of Islam, 222-3; Howorth, I, 215-6. راجع كذلك الدكتور حسن ابراهيم : إنتشار الإسلام بين المغول ص ٢٩ — ٣٠ .

(٢) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 245.

(٣) أنظر ما قاله روبروك فى .Condor, Latin Kingdom, 373

وهذا يقودنا إلى التعرض لمعتقدات التتار. لقد كانت الشامانية Shamanism هى الديانة القديمة لهم . فكانوا على رغم اعترافهم باله قادر عظيم ، لا يؤدون له الصلوات ، وإنما كانوا يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة التى كانوا يتقدمون لها بالقرابين والضحايا ، لما كانوا يعتقدونه فيها من القدرة على إيذائهم . كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التى يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم . ولكى يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلى كانوا يلجأون إلى الشامان والسحرة وإلى رجال الطب ، الذين كانوا يعتبرونهم ذوى نفوذ خفى على أرواحهم . (١)

وفى حوالى العيد الكبير لسنة ١٢٥٤ م ذهب روبروك وزميله فى ركاب منكوخان إلى قراقورم (٢) عاصمة المغول . ويصف فى مذكراته هذه

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام (الترجمة العربية) ص ١٩١ ؛ حسن ابراهيم : إنتشار الاسلام بين المغول ص ٢٦ — ٢٧ . راجع أيضا شيخو : النصرانية بين قدماء المغول ص ٧٥٦ — ٧٥٧ ؛ و .Travels of Marco Polo, 127, 219-220 — وان المعلومات المبعثرة فى مذكرات روبروك عن تلك الخرافات الدينية الشائعة لها فى الواقع أهميتها فى الكشف عن معتقدات المغول الحقيقية . ومنها نعرف أنهم كانوا شعبا يمتاز بالمكر والدهاء ، ويهدف إلى السيادة والسلطان ، كما أنهم لم يعترضوا فى أن يعتبرهم مسيحيو الغرب حلفاء لهم . هذا ، فضلا عن أن الوثنية القديمة التى سبقت ظهور الديانة البوذية وبعثات التبشير المسيحية لم تكن قد انقرضت بعد . فقد ثبتت على جدران الأكواخ صور من شعر الأغنام تمثل شراب الكوميس المعروف عندهم وهو يقدم للنار والماء والريح وأرواح الموتى . وكانت توجه أيضا عناية كبيرة فى ألا تطأ العتبة عند دخول القصر ، وهذه خرافة قديمة شائعة ، وقد حرم زميل روبروك من دخول البلاط لأنه تعثر فى مدخل القصر أنظر : .Conder, Latin Kingdom, 373–4

(٢) جاء فى أبى الفداء (تقويم البلدان ص ٥٠٤ — ٥٠٥) أن قراقورم كلمة تركية =

المدينة بأنها أصغر بكثير من مدينة القديس دنيس بفرنسا ، وأن البلاط الامبراطورى فيها كبيرا ، ويوجد بها شارعان رئيسيان ، أحدهما خاص بالمسلمين والثانى للصناع الصينيين وكان سكانها يتألفون من عدد كبير من الغرباء ، وهم من الهنغاريين وقبائل الالان والروثينيين وأهالى جورجيا وأرمينية . ولا شك أن بعض هؤلاء قد أسرهم المغول فى حروبهم السابقة . وكان بالمدينة أيضا اثنا عشر معبدا للبوذيين وجامعان وكنيسة واحدة . (١) وهذا أيضا دليل واضح على سياسة التسامح التى سار عليها المغول حيال مختلف الأديان ، وعلى أن البوذية والاسلام لم يكونا أقل شأنا من المسيحية فى بلاط ايلخان .

ويتحدث روبروك أيضاً عن كتابة المغول فيقول إنها كانت فى خطوط رأسية وليست أفقية . وكان يوجد وقتذاك فى منغوليا ثلاثة أنواع من الكتابات بحروف أبجدية مختلفة : الأبجدية الهندية التى أدخلها البوذيون ، والعربية التى نقلها المسلمون ، وتطور للسوريانية أدخله النساطرة . (٢)

= معناها الرمل الاسود ، وهى من أقاصى بلاد الترك الشرقية ، وقاعدة التتر ، وفى جهاتها بلادهم ومنها ايلخاناتهم .

(١) d'Ohsson, II, 303-5. Cf. Deguignes, III, 127-8; Conder, 372.

(٢) أنظر Taylor, The Alphabet, I, 297-312. — وقد توغل هؤلاء النساطرة فى الصين قبل منتصف القرن السابع الميلادى ، وعلموا الكتابة للايغور ، وهى قبيلة تركية كان منها رؤساء كتاب بلاط منكوخان . وكانت أبجدية هؤلاء مستعملة فى وسط آسيا من الشرق حتى منشوريا حيث دونت قصيدة تترية من القرن الحادى عشر عن واجبات الانسان واسمها « المعرفة المباركة » ، وهى موجودة فى مخطوط يرجع الى القرن الخامس عشر فى فيينا . وتحمل الكتابة الرأسية التى لاحظها روبروك الأثر السريانى للكتابة . ومثل هذا الترتيب لم يكن غير شائع فى سورية فى العصور الأولى سواء بين الاغريق أو اليعاقبة ، ولو أن هذا قد يحمل أيضا أثر طريقة الكتابة الصينية . أنظر Conder, Latin Kingdom, 375-6. ، وكذلك شيخو : النصرانية بين قدماء الأتراك والمغول ص ٧٥٥ — ٧٥٦ .

وأخيرا ، بعد أن أخفق روبروك فى مهمته بالدعوة إلى المسيحية وكسب المغول إليها ، وبعـــد أن فشل فى التأثير على ايلخان العظيم وشقيقه باتو وابنه سارتاك ، اضطر إلى العودة إلى الغرب مزودا بردود منكوخان إلى لويس التاسع ، تاركا زميله برثولماوس دى كريمونا ليستمر فى التبشير بالكاثوليكية بين التتار (١) وهذه الخطابات لاتختلف فى معناها عن تلك التى أرسلها منكو نفسه إلى لويس فى قبرص ، والتى أرسلها كيوك خان إلى انوسنت الرابع من قبل . وفى هـــذه الخطابات يدعو منكو خان الملك الفرنسى لأن يصبح تابعا له ليكسب صداقته ويعيش معه فى سلام .(٢)

وسار روبروك فى رحلة العودة بمحاذاة نهر الفولجا ، ثم اتخذ الطريق البرى إلى القسطنطينية عبر أرمينية وآسيا الصغرى. (٣) وتابع رحلته إلى أن بلغ عكا فى أوائل ١٢٥٥ م ،وكان لويس قد رحل إلى فرنسا فى ابريل سنة ١٢٥٤م . (٤) وقد أشار فى مذكراته التى كتبها للملك لويس التاسع إلى أن بلاد الترك ملأى بالمسيحيين ، وأن سلاطينها لم يكونوا سوى أطفالا ضعفاء . ومن هنا يتضح لنا

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 246. Cf. d'Ohsson, Mongols II, 305-6; Power, Routes to Cathay, 131.

(٢) d'Ohsson, II, 306 - 9. Cf. Conder, 377; Deguignes, Hist. des Huns, III, 128, n, a; Howorth, III, 81.

(٣) هذا،وقد قابل روبروك فى جورجيا أربعة من الرهبان الدومينيكان من مقاطعة بروفانس بفرنسا مزودين بخطابات من البابا لمنكوخان ، غير انه لم يقابل هيتوم ملك ارمينيه الذى اتخذ طريقا آخر وسافر فى ١٢٥٤ — ١٢٥٥ م لمقابلة باتو ومنكوخان ، ووصل الى البلاط الامبراطورى بعد رحيل رسول لويس بقليل · أنظر Conder, Latin Kingdom, 376.

(٤) Cf. d' Ohsson, op. cit., 310.

السبب الذى من أجله فضل روبروك عند عودته اتباع الطريق البرى عبر آسيا الصغرى . بل أنه أوصى أن تتخذ الحروب الصليبية المقبلة هـــذا الطريق فى حملاتها ، وأن لا يعتمد على أية معاهدة تعقد مع التتار . كما التمس من البابا بعد إخفاقه فى مهمته أن يوفد أسقفا إلى التتار ليرد على حماقاتهم وهفواتهم .(١)

هكذا أخفقت بعثة لويس الثانية فى بلاد التتار ، ولاقت نفس المصير الذى لاقته بعثته الأولى . فقد اتضح لروبروك أن سارتاك لم يكن مسيحيا ، وأن الأمر لا يعدو إشاعة كاذبة . كما لم يتمكن من إحداث انقسام بين النساطرة وغيرهم من الطوائف المسيحية الشرقية ، مما يعـــود بالنفع على الكاثوليكية الغربية . وأخيرا ذهبت محاولاته فى التأثير على ايلخان ورعاياه أدراج الرياح . وقد كان لهذا أثره فى إضعاف آمال الغرب الأوروبى فى إمكانية تحـــويل التتار إلى المسيحية على المذهب الرومانى ، والاستفادة بهم فى صراعـــه ضـــد الإسلام (٢) . ولعل الكسب الوحيد الذى حققته رحلة روبروك هـــو ازدياد معلومات الأوروبيين عن البلاد الآسيوية فى النواحى الجغرافية والاثنولوجية واللغوية (٣) .

ومن المفيد أن نختتم هذا الفصل باستعراض سريع للعلاقات بين المسيحية والتتار بعد عودة لويس إلى الغرب . لم تكن بعثة روبروك هى خاتمة البعثات المسيحية إلى الشرق الأقصى . فقد ظلت السلطتان المسيحيتان فى الشرق والغرب تتطلعان إلى المغول لمساعدتهما فى حروبهما ضد المسلمين فى سبيل امتلاك الأراضى

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 246.

(٢) Cf. Heyd, Hist. du Com., II, 67.

(٣) Barker, Crusades, 86; Power, Routes to Cathay, 13'; Sykes, Hist. of Exploration, 64.

المقدسة (١) . وقد شجعهما استمرار تسامح المغول مع مختلف المذاهب المسيحية على مواصلة هذه السياسة (٢) . وكان هيثوم الأول ملك ارمينية المسيحى (١٢٢٦-١٢٧٠ م) هو العامل الرئيسى فى إقناع منكوخان بارسال تلك الحملة التى قضت على الخلافة العباسية فى بغداد بقيادة هولاكو (٣) (٦٥٤-٦٦٣هـ / ١٢٥٦ - ١٢٦٥ م) ، الذى أظهر عطفا ملموسا على المسيحيين ، والنساطرة منهم بوجه خاص ، بدافع قوى من ناحية زوجته المسيحية (٤) .

وجدير بالذكر أنه حتى ذلك الوقت لم يقم أى رحالة لاتينى بالسفر إلى أبعد من فارس ومنغوليا ، ولم يصل أحد إلى داخل الصين نفسها . وقد تم هذا لأول مرة فى التاريخ على أيدى اثنين من تجار البندقية هما نيقولا ومافيوبولو Nicolo & Maffeo Polo . وقد رحل هذان الشقيقان لغرض الاشتغال بالتجارة . وتقدما عبر بلاد الخطا ، ووصلا حوالى ١٢٦٥ م إلى بلاط قوبيلاى خان . وعند عودتهما أبلغا البابا جريجورى العاشر أن ايلخان لا يمانع فى إيفاد ارساليات إلى امبراطوريته . وفى ١٢٧١م ذهب الرحالة البندقى ماركوبولو إلى

---

(١) d'Ohsson, II, 226-7; Arnold, Preaching of Islam, 221.

(٢) أنظر شيخو : النصرانية بين قدماء الاتراك والمغول ص ٧٦٦ — ٧٦٩ .

(٣) فيما يتعلق برحلة هيثوم الى بلاد التتار (١٢٥٤ - ١٢٥٥) راجع أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٩ — ٤٦٠ و ٤٦٢ ؛ انطون خانجى : مختصر تواريخ الأرمن ص ٢٣٩ ؛ وكذلك Eracles, II, 441 & 441, n. f.; d' Ohsson, II, 310-2; Sykes, Hist. of Exploration, 68; Morgan, Hist. du peuple arménien, 204-6.

(٤) ارنولد : الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية) ص ١٩٣ ؛ الدكتور حسن ابراهيم : انتشار الاسلام بين المدول ص ٢٨ ؛ وكذلك Heyd, Hist. du Com., II 67—8.

الصين يقضى فيها سبعة عشر عاما (١٢٧٥ — ١٢٩٢ م) ، ووجد أن النسطورية قد توطدت أركانها هناك . كما وصل المسلمون إلى بلاط ايلخان على شكل بعثات إسلامية . ويوجه ماركوبولو اللوم إلى البابا لعدم استجابته لرغبة ايلخان ، ويؤكد أنه لو كان قد أوفد هذه البعثات لتحولت الصين كلها إلى الكاثوليكية (١) .

والشيء الذى لا جدال فيه أن الرحلات التى قام بها ماركوبولو كانت أشهر من تلك التى قام بها سلفه روبروك . كما كان أولهما أكثر استعدادا لمهمة الكشف من زميله . هذا ، فضلا عن أن ماركو كان يكتب ويقرأ أربع لغات يتكلم بها التتار . كما أنه سافر أبعد من روبروك بكثير ، إذ وصل إلى الصين والهند وجاوه . وان فيما كتبه ماركو عن البلدان التى زارها لدليل واضح على انتشار التجارة فى ذلك العصر ، التى أثرت من ورائها جنوه والبندقية (٢) .

على أن كل هذه المحاولات التى بذلها المسيحيون من أهل الغرب والشرق ، لاجتذاب التتار اليهم سياسيا ودينيا ، أخذت تتضاءل شيئا فشيئا ، ولم تؤد فى النهاية إلى النتيجة المرجوة منها . وكان السبب الرئيسى فى ذلك هو ظهور الاختلافات الدينية بين المذاهب المختلفة لكل من اللاتين والاغريق والنساطرة والأرمن ، وامتدادها إلى قلب معسكر التتار نفسه . فقد انقسم أصحاب هذه المذاهب ولم يتفقوا حتى فى العقيدة أو طريقة التبشير ، مما أضعف من نفوذهم

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 246–8. Cf. Moule, Christians in China, 129, 131, 138, 141.

(٢) Conder, Latin Kingdom, 378, 379.

وجعل مجهوداتهم قليلة الأثر فى نشر دينهم بين التتار . يضاف إلى ما تقدم أن أوهام اللاتين ، دعاويهم المريضة دفعت التتار إلى أن يعدلوا عما كانوا يحبون به رسلهم من ذلك العطف الذى أظهروه لهم فى أول الأمر . فضلا عن أن النضال المرير بين البابوية والامبراطورية قد شغل العالم الغربى عن اتخاذ خطوات عملية فى هذا الشأن . فكل هـــذا وغيره كان من الأسباب التى ساعدت على إخفاق البعثات السياسية وحركات التبشير التى قامت بها الارساليات الرومانية فى الشرق الأقصى طيلة قرن من الزمان (١) . وكانت النتيجة النهائية لذلك بالنسبة للفرنج فى الأراضى المقدسة ، هى ضياع تلك الرقعة الساحلية الضيقة التى كانوا يمتلكونها هناك ، والتى كان قد حفظها لهم لويس التاسع ملك فرنسا مدة من الزمان (٢).

هكذا ضعف أمل الاتحاد بين أوروبا والتتار ضد الاسلام . ولم يلبث أن تحطم هذا الأمل نهائيا عندما اعتنق ايلخانات التتار فى أوائل القرن الرابع

---

(١) حول أسباب إخفاق الارساليات المسيحية فى الشرق الأقصى ، راجع الدكتور حسن ابراهيم: انتشار الاسلام بين المغول ص ٢٩؛ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٤٩ وكذلك Cahun, Intr. à l'hist. de l'Asie, 408-412; Arnold, Preaching of Islam, 222; Browne, Lit. Hist. of Persia, II, 440-1; Huzayyin, Arabia and the Far East, 262.

(٢) Conder, Latin Kingdom, 383. وكان ذلك بعد هزيمة التتار أمام قوات قطز وبيبرس فى موقعة عين جالوت الفاصلة سنة ١٢٦٠ م التى أنقذت مصر وبلاد الشام من غارات هؤلاء الغزاة . وكان من نتيجة ذلك أن توحدت قوات المسلمين فى مصر والشام مرة ثانية ، كما كانت فى عهد صلاح الدين الأيوبى . وأخذ بيبرس وخلفاؤه يكيلون الضربات المتلاحقة للبلاد الباقية للاتين فى الساحل السورى ، حتى انتهى الأمر بإخراجهم نهائيا منها فى عهد الأشرف خليل فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى .

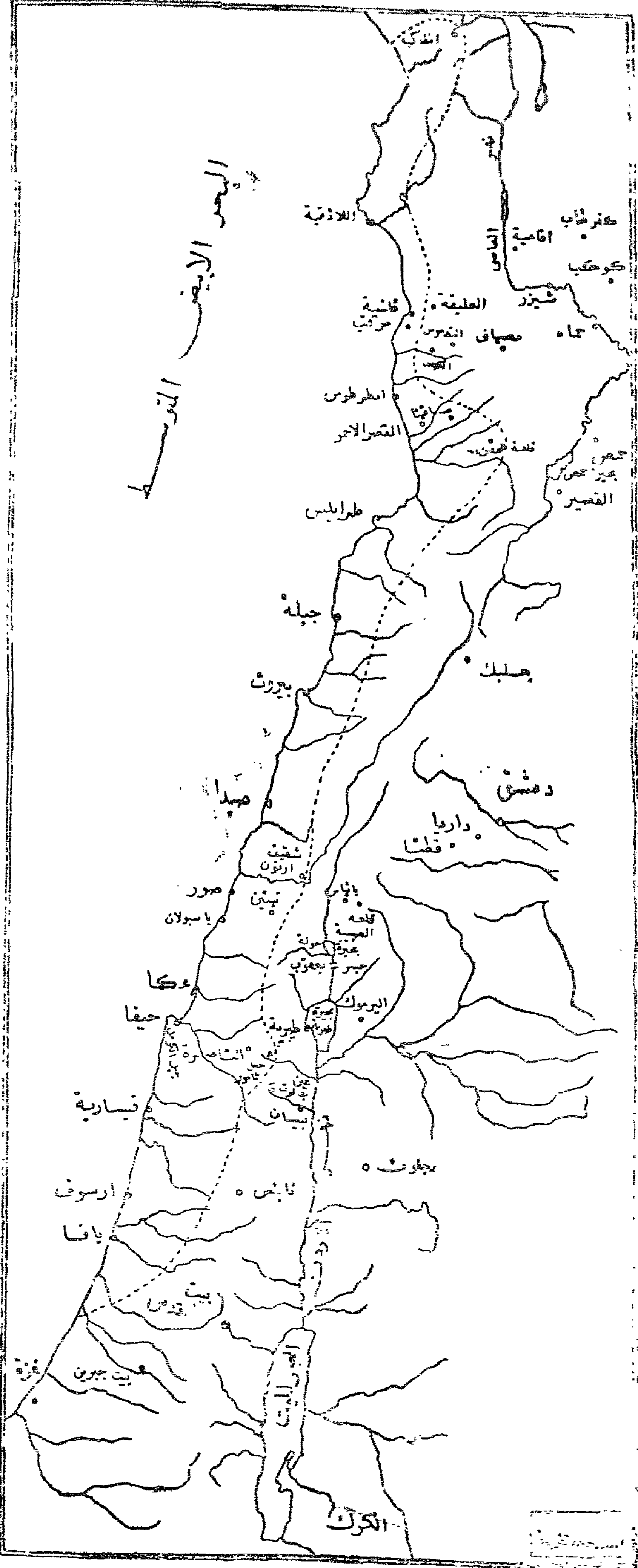
عشر الميلادى الدين الاسلامى ، وأعلن الاسلام دينـــا رسميا لامبراطوريتهم الواسعة (١) . وهكذا أيضا نهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى بعد غزوات المغول القاسية ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين إليه ويحملهم على اعتناقه (٢) ، فكان هذا نصرا للاسلام على المسيحية والتتار (٣) .

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 256.

(٢) Arnold, Preaching of Islam, 219.

(٣) Conder, Latin Kingdom, 366.



المتلكات الصليبية فى بلاد الشام
فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى

الفصل الثامن

لويس التاسع والمسيحيون فى الشرق

رأينا فى الفصول السابقة كيف عمل لويس التاسع منذ مغادرته مصر على تحقيق هدفه الرئيسى فى إعادة بيت المقدس إلى اللاتين . ورأينا أيضا كيف أخفق فى الوصول إلى غايته عن طريق إثارة حملة عسكرية جديدة،أو عن طريق السياسة والدهاء وتبادل البعثات الدبلوماسية مع كل من المسلمين والمغول .

ولكن ليس معنى ذلك أن مهمته فى الأراضى المقدسة قد انتهت ، أو أنه لم يعد هناك ما يستوجب العناية والاهتمام . (١) فما كانت هذه الاستعدادات وتلك السفارات لتصرفه عن العناية بالاصلاح الداخلى فى الامارات اللاتينية نفسها . وهو يعلم جيدا أن كل إصلاح داخلى إنما هو لبنة فى بناء مملكة صليبية على أسس متينة ، يمكنها المحافظة على نفسها ، والصمود أمام الهزات العنيفة التى كانت تتعرض لها من حين لآخر . وكانت هذه المشروعات الإصلاحية العديدة تسير جنبا إلى جنب مع جهوده الحربية والسياسية بقصد غزو البيت المقدس (٢) . وكان لها أثرها الواضح فى الابقاء على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام زهاء نصف قرن من الزمان بعد رحيل لويس إلى الغرب .

لم تستطع الأحداث التى تكالبت على الملك الفرنسى أن توهن من عزمه . وأدرك أنه لا ينبغى عليه أن يقف مكتوف اليدين بعد هذه السلسلة الطويلة من الفشل ، بل لابد من أن يتخذ خطوات إيجابية سريعة تعود على اللاتين فى الشرق

---

(١) Cf. Grousset, Crois., III, 505.

(٢) Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 197.

بالخير . فسعى مخلصا لما فيه صالحهم ، وبذل قصارى جهده لضمان سلامتهم ، وإعدادهم ليكونوا رجالا صالحين لخدمة قضيته الصليبية . (١)

ومن أهم المشروعات الاصلاحية التى قام بها تحصين المدن اللاتينية الساحلية فى بلاد الشام لدرء الهجوم المحتمل (٢) وتكشف عن ذلك خريطة الحروب الصليبية ، إذ تبين أن الممتلكات الفرنجية كانت تنحصر منذ البداية فى شريط ساحلى اختلفت مساحته من حيث الضيق والاتساع باختلاف الظروف والأزمان؛ ولكنه على أى حال لم يتجاوز هذه الحدود ، ولم يتيسر له الاتساع شرقا . ولم يفلح الصليبيون فى الاستيلاء على البلاد الداخلية مثل حلب أو حماة أو حمص أو دمشق التى ظلت فى قبضة المسلمين .وبمعنى آخر كان الفرنج يمتلكون منطقة ساحلية رأسية تحيط بها من الشمال والشرق والجنوب بلاد اسلامية داخلية ، متحفزة للانقضاض عليها فى أول فرصة مواتية. ولم يكن للاتين منفذ سوى البحر (٣) ، وهم يعلمون أنهم سيلقون بأنفسهم فيه ، أو بكلمة أدق ، سيقذفون فيه ، إن عاجلا أو آجلا .

لذا اهتم لويس بتعزيز هذا المدن ، وجند نفسه ورجاله فى سبيل إقامة سلسلة

---

(١) Cf. Guizot, 87; Bray, 276.

(٢) «Mes aprés ce fu pour poy delivré e sa gent aussi, en s'n ala en la terre de Sirie ... e ferma les cités que crestiens tenoient, si que elles pouoient bien sousteni les assaus des Sarrazins » Nangis, Chronique abrégé, XX, 650.

(٣) Grousset, Sum of Hist., 175. Cf. Knox, Court of a Saint, 192-3. وحتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٨٣١ — ٨٣٢ . أنظر خريطة الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى قبالة ص ٢٨٩ .

منيعة من الاستحكامات حولها . وقد بدأ بمدينة عكا (١) باعتبارها عاصمة مملكة اللاتين فى الشام منذ ضياع بيت المقدس ، ولأنها أول مدينة توجه اليها بعد مغادرته مصر .

وعلى الرغم من ابتهاج الفرنج فى عكا لمقدمه، إلا أنه كان بالنسبة له ولفلول قواته المحطمة ابتهاجا فاترا يشوبه الحزن والأسى ، لأن عكا نفسها كانت فى حالة لا تحسد عليها إذ كانت مسرحا للاضطرابات وعدم الاستقرار ، فضلا عن ان وسائلها الدفاعية لم تكن كافية ، حتى أن أى هجوم مفاجىء أو إغارة أحكم تدبيرها كانت تكفى لتخريبها [٢] . وكان يحكمها فى ذلك الحين يوحنا شقيق مارى امبراطورة القسطنطينية وزوجة الامبراطور بلدوين الثانى [٣] .

شرع لويس على الفور فى تحصين هذا الثغر اللاتينى ، واستغرقت المهمة زهاء عشرة أشهر ، منذ منتصف ١٢٥٠م حتى أواخر مارس من السنة التالية [٤] . وأصبحت المدينة عزيزة على من يرومها (٥) ، حتى أن قوات الناصر لم تجسر على مهاجمتها أو تخريب حدائقها عند عودتها من معسكرها بالقرب من غزة إلى قواعدها فى دمشق بعد الصلح بين الناصر والمعز .

---

(١) Acre, Achon, Cf. Saint-Pathus, XX, 68; Nangis, Vita, XX, 385; d'Avesnes, XXI, 170.

(٢) Bray, 252.

(٣) Joinville (ed. Wailly), p. 78-9, 140-2. — وقد تزوج يوحنا هذا فى سنة ١٢٥١ م من جين صاحبة منتفرت Jeanne de Châteaudun أرملة يوحنا كونت منتفرت الذى مات فى قبرص فى شتاء ١٢٤٩ م .

(٤) « Multa iusuper posuit in ampliando et fortificando muros civitatis Achon,» Beaulieu, XX, 16.

(٥) Tenison, Chivalry and the Wounded, 34.

وحرى بالذكر هنا أن المنازعات التى نشبت بين أمراء مصر والشام عقب ثورة المماليك البحرية ، أتاحت الملك الفرنسى الفرصة ليعمل فى هدوء دون أدنى مضايقة من جانب المسلمين (١) . ولولا ذلك لما تيسر له تعزيز البلدان الصليبية .

بعد أن فرغ لويس من عكا ، غادرها فى ٢٩ مارس ١٢٥١ م(٢) قاصدا قيسارية التى أقام فيها حتى ابريل من السنة التالية (٣) ، وذلك بقصد تحصينها عندما بلغه إغارة المسلمين عليها . وذهب برفقته السيد راوول دى سواسون (٤) Raoul de Soissons . وكان حاكم قيسارية آنذاك هو يوحنا أليمان Jean Aleman الذى تولاها عن طريق زوجته مرجريت دى ليرون Marguerite de Layron . وقد قاست المدينة من اعتداءات المسلمين المتكررة عليها . وكانت موضع عناية اللاتين الذين كانوا يسرعون بتقويتها اثر كل ضربة توجه اليها(٥).

---

(١) Perry, 202.

(٢) ذكر جوانفيل أن لويس استعد لمغادرة عكا الى قيسارية فى بداية الصوم الكبير لسنة ١٢٥١ م ، وهو يوافق أول مارس . وجاء فى حوليات الأراضى المقدسة أنه غادر عكا فى ٢٩ مارس ١٢٥١ م . أنظر : Joinville (ed. Wailly), 256 & 257, n. 470-1; Annales, II, II, 445.

(٣) مكث فيها حتى ابريل ١٢٥٢ م وفقا لحوليات الأراضى المقدسة ، وفى كتاب جوانفيل حتى مايو من نفس السنة . أنظر Annales, II, II, 445; Joinville (ed. Wailly), 282

(٤) Joinville (ed. Wailly), 256-8. Cf. Eracles, II, 440; Rothelin, II, 627.

(٥) Rey, Familles d'Outre Mer, 283-5; King, Knights Hospitallers, 250. وقد بقيت قيسارية بأيدى اللاتين الى أن استولى عليها الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٥م / ٦٦٣ هـ . أنظر المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٥٢٦ — ٥٢٧ .

واستغرقت أعمال التحصين التي قام بها لويس سنة بأكملها . ويمـــدنا المؤرخ وليم دى سانت باثوس بمعلومات وافية فى هـذا الشأن . ومـا ذكره أن الملك أحاطها بأسوار عالية وأبراج ضخمة (١) ، لا تزال آثارهـــا باقية إلى اليوم (٢).

وذكرت بعض الأصول الغربية أن لويس حصن فى تلك الأثنـاء مدينـة حيفا (٣) التى كانت خاضعة لحكم اللاتين ، ولـكنها لم تحدد بالضبط تاريخ توجهه إليها أو فترة إقامته بها . ويغلب على الظن أنه عززها وهو فى طريقه من عكا إلى قيسارية ، وأن مقامه لم يطل فيها . وكان لحيفا مركزا يجعلها من المدن الساحلية المعتبرة ، وذلك لوقوعها عند رأس جبل الكرمل وهو طرف خارج فى البحر ، وبه مرسى لإرساء الأساطيل وغيرها (٤) . وقـد سهل هذا تحصينها بالمعاقل لرد غارات العرب عنها ، حتى لقد وصفها ياقوت بأنها « حصن على ساحل بحر

(١) «il fist fermer a ses propres despens une cité qui a non Cesaire, a murs si hauz et si lez, qui lon peust par desus mener un char; et fist fere les murs a tors et a breteches et defenses mout espesses.» Saint - Pathus, XX, 68.

(٢) Grousset, Crois., III, 505, n. 3; Conder, Latin Kingdom, 359.

(٣) «il fit fermer le chatel de Cayphas,» Nangis, Vita, XX, 385.

(٤) ذكر الكرملى (حيفا ص ٦٩ و ٧١) أنه بقى من حيفا القديمة حتى اليـوم بعض الآثار التى تدل على مكانها ، ومنها مدافن ترى بلحف جبل الكرمل . وأوضح أنها غير حيفا الحديثة التى تقع على بعد كيلومترين إلى الشمال منها ، وقد شيدت الثانية فى أواسط القرن الثامن عشر الميلادى . واشتهرت حيفا القديمـة بحصانتهـا ، وظلت بأيدى اللاتين إلى أن استردها منهم السلطان الأشرف خليل سنة ١٢٩١ م . راجع فى ذلك بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة جـ ١٠ لوحة ٢٨٩ .

الشام» (١) . يضاف إلى ما تقدم أن طرقا عديدة كانت تفضى إليها ، كما أنه كان لابد للسابلة من المرور بها ذهابا وإيابا إذا ساروا بمحاذاة الطريق الساحلى (٢)، كما فعل لويس التاسع .

على أى حال ، طالت إقامة لويس فى قيسارية قرابة عام ، ورحل عنها جنوبا فى ١٥ ابريل ١٢٥٢ ، ووجهته يافا (٣) . ويبدو أنه ذهب إليها فى هذه الفترة بالذات لتنفيذ التحالف العسكرى الذى نصت عليه معاهـــدة قيسارية المبرمة بينه وبين أمراء مصر ضد صاحب الشام (٤) . ويافا هذه تقع على بعد ستة أميال إلى الشمال الغربى من الرملة . وهى مدينة ساحلية صغيرة لها « ميناء كبير فيه مرسى المراكب الواردة إلى فلسطين والمقلعة منها إلى كل بلد » (٥) مما يزيد فى أهميتها . ولقد أشار إلى هذه الأهمية البشارى المقدسى فقال إنها « خزانة فلسطين ، وفرضة الرملة ، عليها حصن منيع بأبواب محددة ، وباب

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨١.

(٢) الكرملى : حيفا ص ٧٢ .

(٣) ١٥ ابريل سنة ١٢٥٢ م وفقا لحوليات الأراضى المقدسة ، وحوالى مايو من نفس السنة وفقا لجوانفيل. أنظر Annales, II. II. 445; Joinville (ed. Wailly), 282.
وقد وردت يافا فى الأصول الغربية تحت الأسماء الآتيــة : Jaffe, Joppen, Jopen, Japhe, Yaffé, Cf. Eracles, II, 440; Annales, II. II. 445; Beaulieu, XX, 16; Saint-Pathus, XX, 68; Nangis, Vita, XX, 385; d'Avesnes, XXI, 170.

(٤) Cf. Joinville (ed. Wailly), 282.

(٥) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٣٩ . أنظر أيضا صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠٠ .

البحر كله حديد» (١) . وكان يحكمها وقتذاك يوحنا الابليني Jean d'Ibelin صاحب المؤلف المعروف باسم « محاكم بيت المقدس » (٢) Assizes des Jerusalem ، والذى حضر مؤتمر عكا الصليبي (يونيو — يوليو ١٢٥٠ م) وطالب الملك لويس باسم افرنج سورية بالبقاء فى الأراضي المقدسة لحمايتها والدفاع عنها .

وقد أحسن صاحب يافا استقبال لويس . يقول جوانفيل: «وعندما علم صاحب يافا أن الملك مقدم ، زين قلعته وحصنها بحيث أصبحت من المنعة حتى أنه لم يعد بوسع العدو الاستيلاء عليها . وعلق على منافذ الحصن البالغ عددها خمسمائة شعاره وعلمه وهى التى كان يسر الرائى مشاهدتها ، لأنها كانت مصنوعة من الذهب الخالص» (٣) . وعندما وصل الملك ورجاله ، أقاموا خيامهم فى الحقول الواقعة حول الحصن

---

(١) البشارى : أحسن التقاسيم ص ١٧٤ .

(٢) هو يوحنا الابليني صاحب يافا ، وقائد حامية مملكة بيت المقدس فيما بين ١٢٤٥ م و ١٢٥٦ م . وقد أصدر عدة قرارات خلال حكمه لصالح جماعة الاسبتارية . ويستعرض فى مؤلفه « محاكم بيت المقدس » الأحكام التى صدرت فى تلك المدينة ، ويتحدث أيضا عن أفراد أسرته وعن مسألتى الوراثة والوصاية وما يتعلق بها . وتدل هذه المحاكم على ما اتصف به المجتمع الصليبي فى الأراضى المقدسة من استعداد حربى ، كما تكشف كيف جعل اللاتين من تلك البقعة قطعة صادقة من الغرب الأوروبى . وقد توفى يوحنا سنة ١٢٦٦ م . وبعد ذلك بعامين استولى بيبرس على يافا فى مارس ١٢٦٨ م / ٦٦٦ هـ وضمها إلى ممتلكاته . ولا نعرف شيئا عمن تولى أمر يافا فى الفترة القصيرة بين وفاته واستيلاء الظاهر بيبرس عليها . أنظر فى ذلك Eracles, II, 441, 442; Rey, Familles d' Outre Mer, 348-351; Grousset, Crois., III, 505, n. 4; Smith, Historical Geography, 17.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 282-4. Cf. Grousset, op. cit., 505.

بجوار البحر . وعلى الرغم من مناعته ، فقد كانت المدينة نفسها غير مسورة ومعرضة لأى هجوم مفاجىء قد ينزل بها أفدح الخسائر . لذا أسرع لويس باقامة سور حولها له ثلاثة أبواب ، وكان هذا السور يمتد من شاطىء إلى شاطىء ، وحصنه بأربعة وعشرين برجا وخندقين (١) .

وبعد أن أتم الملك الفرنسى تحصين يافا ، غادرها فى ٢٩ يونيو ١٢٥٣م (٢) ، وسار شمالا بمحاذاة الساحل قاصدا صيدا (٣) لترميم ما هدمته قوات الناصر منها فى إغارتها الخاطفة عليها عند ارتدادها حسبما أسلفنا . وكانت صيدا « مدينة بساحل البحر الرومى ، ذات حصن حصين » (٤) ، وقد توالت عليها هى الأخرى هجمات المسلمين ، وأقر بها تلك التى وقعت فى سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م بعد استيلاء لويس على دمياط ، عندما أعمل فيها عسكر دمشق النهب والتخريب (٥) ، إنتقاما منهم للعدوان اللاتينى على مصر . وكان على صيدا

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 306-8. Cf. Eracles, II, 440; Nangis, Vita, XX, 385; Beaulieu, XX, 16; d'Avesnes, XXI, 170; Annales, II, II, 445; Rey, Colonies franques, 410.

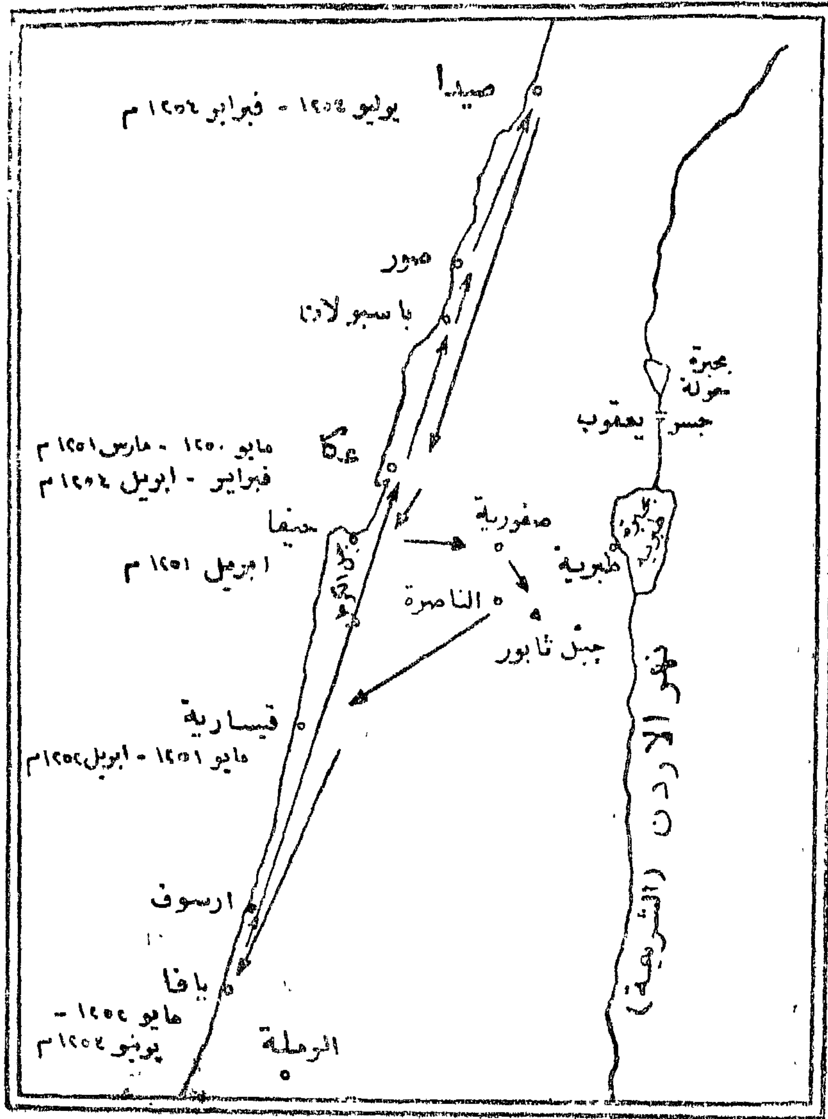
(٢) Joinville (ed. Wailly), 282, 308.

(٣) وردت صيدا فى الأصول الغربية تحت الأسماء الآتية : Saiete, Sydoine, Sidonem, Cf. Eracles, II, 441; Nangis, Vita, XX, 385; Annales, II. II. 445; d'Avesnes, XXI, 170; Saint-Pathus, XX, 68; Beaulieu, XX, 16.

(٤) صبح الأعشى ج ٤ ص ١١١ . أنظر كذلك تقويم البلدان ص ٢٤٩ ؛ زبدة كشف الممالك ص ٤٧ . ومن المفيد أيضا الاطلاع على ما جاء فى لامنس (السواحل اللبنانية ص ٩٤٨ — ٩) ومارتن (تاريخ لبنان ص ٢٧٢ — ٢٨٦ و ٤٢٢ — ٤٣٢ و ٤٦٤ — ٤٦٧) فيما يتعلق بأسماء مدينة صيدا وتاريخها القديم .

(٥) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ب ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ ؛ أنظر كذلك أحمد الزين : تاريخ صيدا ص ٥٧ .

خريطة رقم (٧)



خط سير لويس التاسع فى الأراضى المقدسة

(مايو ١٢٥٠ — ابريل ١٢٥٤ م)

وقتذاك جوليان دى باليان [1] Julian de Balian . ولم يضيع لويس وقتا ، بل شرع فى رفع الأنقاض وإعادة بناء الاستحكامات ، وحشد لذلك مئـــات العمال . وأحاط المدينة نفسها بالأسوار والأبراج المنيعة والخنادق المتسعة [2] . واستغرق تحصينها زهاء ثمانية أشهر [3] .

وقد كلفت هذه التحصينات الملك الفرنسى نفقـــات باهظة (٤) . وأشار جوانفيل بصفة خاصة إلى المبالغ التى أنفقت على تحصين مدينة يافا ، إذ قال إن القاصد الرسولى كان قد تطوع ببنـاء أحـــد الأبواب وجانب من السور على حسابه ، وان ذلك كلفه ٣٠ ألف جنيه (٥) . وهذا دليل واضح على أن لويس

(١) هو جوليان بن باليان صاحب صيدا من زوجته مرجريت دى رينل ابنة عم يوحنـا دى برين قائد الحملة الصليبية الخامسة . وقد باع المدينة إلى الداوية فى ١٢٦٠ م عندما أدرك أنه ليس بوسعه المحافظة عليها من الاعتداءات المتـكررة التى تعرضت لها . وترتب على ذلك أن قام النزاع بين أولئك الفرسان وبين هيثوم الأول ملك ارمينية الذى كان جوليان قــد تزوج من ابنته المسماة فيمى Fémie فى ١٢٥٢م ، وتوفى جوليان بطرابلس سنة ١٢٧٥ م. أنظر : Eracles, II, 440 & 440, note n; Rey, Familles d'Outre Mer, 437-8.

(٢) حول تحصين صيدا ، راجع : Joinville (ed. Wailly), 308, 318, 336; Eracles, II, 441; Beaulieu, XX, 16; Saint - Pathus, XX, 68; Nangis, Vita, XX, 385; d'Avesnes, XXI, 170; Annales, II, II, 445.

(٣) Stevenson, 331 & 331, n. I. — وقـــد ذكر جوانفيل أن لويس غادر يافا إلى صيدا فى ٢٩ يونيو ١٢٥٣ م . وجاء فى تاريخ هرقل أنه عاد إلى عكا قادما من صيدا فى ٨ مارس ١٢٥٤ م . ومعنى هذا أن فترة إقامته بصيدا دامت زهاء ثمانية أشهر. أنظر : Joinville (ed Wailly), 308; Eracles, II, n. h.

(٤) d'Avesnes, XXI, 170; Saint-Pathus, XX, 68.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 308. Cf. Perry, 212.

تكبد أضعاف هذا المبلغ لاتمام تسوير المدينة وإقامة البابين الآخرين ، وبالتالى على باقى الاستحكامات الأخرى . ولا تزال آثار الأسوار التى شيدها باقيــة إلى اليوم يمكن للزائر مشاهدتها (١) . ولاشك أن لها قيمتها التاريخية والأثرية التى لا تنكر ، وأنها ما زالت تتطلب المزيد من جهود المشتغلين بالتاريخ وعلماء العاديات .

وقد جنى الملك الفرنسى ثمار أعماله هذه ، وهى تتلخص فى صمود الامارات اللاتينية أمام الهجمات الاسلامية الشديدة التى استهدفت لها بعد الصلح الذى تم بين أمراء مصر والشام فى ابريل ١٢٥٣ م . ويكفى أن المدينة الوحيدة التى أغار عليها المسلمون ولم يكن قد تم تسويرها بعد ، ونعنى بها صيدا ، قد تعرضت لأقسى الضربات ، وكادت أن تقع فى قبضتهم لولا مناعة قلعتها . ولا مشاحة أن هذا المصير كان ينتظر المدن الأخرى مثل يافا وقيسارية وعكا لولم يعجل لويس بتعزيز مرافقها .

وكان لويس يصمد للعمل المستمر الشاق . وآية ذلك وقوفه بين العمال ، وإشرافه عليهم ، واشتراكه بشخصه فى أعمال البناء المضنية ، تشجيعا لمن معه ، وبغية الحصول على الغفران بتعذيب الجسد . وكان القاصد الرسولى قد وعــد بمنح صك الغفران لكل من يعمل بنفسه فى هذه التحصينات [٢] . ويقــول جوانفيل إنه شاهد الملك نفسه يعمل مرارا فى حفر الخنادق وإقامة المتاريس [٣] .

---

(١) Hitti, Hist. of Syria, 607; King, Knights Hospitallers, 251; Walsh, Saint Louis, 211.

(٢) Saint-Pathus, XX, 68.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 284. Cf. Chanteur, Hist. de Syrie, 61; Lammens, Syrie, I, 230. والمتاريس هذه جمع متراس ، وهو ما تترس به ، أى ما لستتر من حائط ونحوه من العدو . أنظر صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ ؛ وكذلك مادة ترس فى محيط المحيط .

وإن نسينا فلا ينبغى أن ننسى موقفه من ضحايا معركة صيــدا ، عندما ترجل عن جواده وحمل بكلتا يديه إحدى الجثث المنحلة وقد انبعثت منها رائحة تزكم الأنوف ، وتولى مواراتها التراب أمام رجاله الذين تأففوا من أداء هـذا العمل . ولكن عندما وجدوا كبيرهم يشمر عن ساعديه ، حذوا حذوه ، وتم دفن الجثث جميعها [١] .

كان الملك لويس يرى أن سبيله إلى تحقيق ما يرجوه للامارات اللاتينية فى الأراضى المقدسة من منعة واتحاد لا يتأتى بتقويتها فحسب ، بل من الضرورى اتخاذ خطوة أخرى ترمى إلى جمع كلمة الفرنج فى تلك المنطقة ، والسعى لمنع أسباب الفرقة والانقسام بينهم .

لقد كانت الامارات الفرنجية فى سورية فى ذلك الحين نهبا للانقسامات ، والخلاف المستمر ، والحروب الأهلية بين الجاليات اللاتينية المختلفة . فالمنافسة التجارية على أشدها بين البنادقة والبيازنة والجنوية . والعــداء مستحكم بين الجماعات الرهبانية العسكرية ، وعلى وجــه أخص بين الداوية والاسبتارية . والبلاد بين هؤلاء وأولئك تسير بخطى سريعة نحو مصيرهــا الرهيب [٢] . نضرب مثلا لذلك بالصراع الذى نشب سنة ١٢٤٩م بين الجنوية والبيازنة فى عكا ، أثناء إقامة لويس فى قبرص قبل إبحاره إلى مصر . وقد تطور إلى حرب مكشوفة بينهما فى شوارع المدينة استمرت احدى وعشرين يوما ، واستخدمت فيها آلات القتال المختلفة . وفيها رجحت كفة البيازنة على الجنوية الذين قتل أحد قناصلهم ، كما نال المدينة نفسها الشىء الكثير من التخريب . وتعتبر هذه الحرب طورا من أطوار الصراع المستمر بين الجنوية والبيازنة فى عكا ، الذى

(١) Joinville (ed. Wailly) 318.

(٢) Archer & Kingsford, Crusades, 410.

امتلأ به تاريخ النصف الأول من القرن الثالث عشر . وكانت غالبـا ما تقوم لأسباب تتعلق بالملكيـة أو المسائل التجـارية ، كما كانت من العـوامل التى أضعفت قوى الفرنج فى الشرق اللاتينى (١) . ولكن لويس تمكن بفضل ما كان يتمتع به من مكانة بين المسيحيين ، وما كانوا يكنونه هم له من احترام وتقدير ، من وضع حد لهذه الخلافات ، وإقرار السلام بين اللاتين خلال السنوات الأربع التى أقامها بينهم (٢) .

ومع ذلك فقد لقى لويس بعض المضايقات من جانب الجاليات الإيطالية . لقد كانت حرفتها التجارة ولم تكن تعنى كثيرا بالحرب المقدسة كعمل دينى بحت ، ولم تسهم فيها إلا بالقدر الذى يحقق مصالحها (٣) . وعنـدما اشترك البنادقة والبيازنة والجنوية فى حملة لويس على مصر ، كانت تحدوهم الآمال فى إنماء تجارتهم وثرواتهم بعد استيلاء الصليبيين على الثغور المصرية . ولكن هزيمة لويس قضت على أطماعهم ، وطردوا من دميـاط التى كان السلاطين يسمحون لهم بدخولها قبل ذلك ، واتهموا الملك الفرنسى بأنه السبب فيما لحق

---

(١) Wanderings of Brother Fabri, 367; Heyd, I, 343–344.

(٢) Archer & Kingsford, 410.

(٣) أنظر Grousset, Sum of Hist., 181. — ومما يذكر عن البنادقة بالذات أنهم كانوا قوما نفعيين يجرون وراء مصالحهم الخاصة ، وكان شعارهم الذى عرفوا به « لنكن أولا بنادقة ، ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين » "Siamo Veneziani poi Christiani" Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 114; Davis, Invasion of Egypt, 24.

وللمزيد من المعلومات عن هذه الجاليات وأطماعها وموقفها من الحـركة الصليبية ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٨٧ — ٩٠ .

بهم من خسائر مادية . ويقول متى البـاريزى إنهم كانوا يقومون بأعمـال القرصنة ضد الفرنسيين فى البحر ، ويستولون على متاعهم وحاجياتهم إنتقاما لما أصابهم من أضرار (١) . ويبـدو أن هـذه الحركات كانت فى نطاق ضيق جدا ، بدليل أن باقى المؤرخين المعـاصرين الملك الفرنسى لم يتعـرضوا لها فى مؤلفاتهم بكلمة واحدة .

عاشت الإمارات الصليبية فى سلام نسبى فرضه عليها لويس التاسع بحكم مركزه وقوة شخصيته . ولكن سرعان ما تجددت الخلافات القديمة بعد رحيله إلى أوروبا . إذ نشبت فى عكا سنة ١٢٥٨م حرب دامية اشتركت فيها الجماعات اللاتينية المختلفة وطالت زهاء عامين . وقد بلغ من عنفها أن توجه بوهيمند السادس صاحب انطاكية إلى الثغر اللاتينى ، وحاول عبثا التوسط لإقرار الصلح بين المتخاصمين . وقد دفعت عاصمة اللاتين الثمن غاليا ، إذ تهدم جانب كبير منها (٢) . وكانت هذه الخلافات من العوامل الرئيسية فى سقـــوط الامارات الصليبية فى أخـــريات القرن الثالث عشر الميلادى . (٣)

لم يقف نشاط لويس التاسع عند هذا الحد ، وإنما كان يهدف أيضا إلى أن

---

(١) Matt. Paris, II, 419–420. — وقد ذكر رنسيمان أن البنادقة وضعوا فى ذلك الحين أسس جمهورية تجارية تتحكم فى تجـــارة الشرق كله ، وأنه كانت لهم مستعمرات تجارية فى شرقى البحر الأبيض المتوسط وفى بحر ايجه والبحر الأسود . أنظر: Runciman, Byzantine Civilisation, 169, 170.

(٢) Archer & Kingsford, 411-2; Iorga, Crois., 172; Daru, Hist. de Venise, I, 182–3; Guérin, 168-9.

(٣) Tension, Chivalry and the Wounded, 34; Grousset, Sum of Hist., 176.

يرى كل شيء فى هذه الإمارات يسير فى نظام لتستقر دعائمها ، فيتحقق بذلك ما يرجوه لها من قوة ولقضيته من نجاح .

وقد لاقت مساعيه الاصلاحية فى أنطاكية قسطا كبيرا من النجاح . ففى أثناء إقامته فى عكا ، توفى بوهيمند الخامس صاحب انطاكية وكونت طرابلس (١٢٣٣ — ١٢٥١ م) . (١) وخلفه فى الحكم ابنه بوهيمند السادس (١٢٥١ — ١٢٦٨ م) (٢) ، وكان عمره آنذاك لا يتجاوز أربعة عشر عاما ، وهو آخر من حكم انطاكية من اللاتين . أما أمه فهى الأميرة لوسى الإيطالية ، وقد عينت وصية على ابنها الذى لم يبلغ بعد سن الرشد . وانصرفت لوسى عن انطاكية لتقيم فى طرابلس بصفة دائمة . (٣) والواقع أن حكام انطاكية كانوا منذ بداية القرن الثالث عشر يؤثرون الإقامة فى تلك المدينة الساحلية نظرا لحسنها وجمال موقعها . (٤)

وهكذا أصبحت أنطاكية بلا حاكم يدير دفة شئونها ، وباتت مسرحا

---

(١) جاء فى حوليات الأراضى المقدسة أنه توفى فى ٨ يناير ١٢٥١ م ، أنظر : Annales, II, 445.

(٢) Eracles, II, 440; Annales, II, 445. — وتوفى بوهيمند السادس فى طرابلس سنة ١٢٧٥ م وله من العمر ٣٧ سنة لأن مولده كان فى ١٢٣٧ م . وقد عاصر استيلاء المسلمين على أنطاكية فى مايو ١٢٦٨ م/ رمضان ٦٦٦ هـ . وخلفه على طرابلس ابنه بوهيمند السابع من زوجته ايزابيل ابنة هيثوم الأول ملك أرمينية . أنظر Eracles, II, 440, n. h; Rey, Princes d'Antioche, 400-7; idem, Familles d'Outre Mer, 207-8, 485.

(٣) Eracles, II, 440, n. h; Rey, Princes d'Antioche, 400; Grousset, Crois., III, 511-2.

(٤) Bouchier, Short Hist. of Antioch, 266.

عجيبا للفوضى السياسية والمنازعات الدينية . (١) وقد استغل السكان الأغريق، وهم العنصر الأصلى بالمدينة ، هذه الظروف الفريدة ، وسعوا لبسط نفوذهم على اللاتين الدخلاء ودل داود (٢) ، البطريارك الأغريقى فى انطاكيـــة ، على دهائه وسعة حيلته ، عندما هادن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فيما بين عامى ١٢٤٠ و ١٢٤٦ م ، فنال رضاءها وموافقتها على إقامته فى أنطاكية إلى جانب منافسه البطريارك اللاتينى . وكانت السياسة العامة للبابوية ترمى منذ أيام انوسنت الثالث إلى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سلطانهـا ، فتضمن بذلك بسط نفوذها الروحى والدنيوى على المسيحيين جميعا، من شرقيين وغربيين(٣) .

ولقد عقد البابا انوسنت الرابع الآمال الكبار على ذلك . وكان يعتقد أن البطريارك الأغريقى مخلص فى دعواه . وبعث إليه برسالة فى أغسطس ١٢٤٦ م يعلن فيها وصول لوران Laurent الراهب الدومينيكانى رسولا من قبله إلى الشرق للعمل على تذليل العقبات التى تحول دون تحقيق هذه الأمنيه . وكلف البابا مبعوثه بوضع حد لاضطهادات اللاتين للاغريق المنشقين على الكنيسة الكاثوليكية ، ومعاملة أتباع المذهبين دون تفرقة أو تمييز . كما أمره أن يتصل برومارأسا إذا

---

(١) Bouchier, op. cit., 268; Rey, op. cit., 401.

(٢) جاء داود عقب البطريارك أثناثيوس الثالث ، وقد نصب بطرياركا على الاغـــريق فى أنطاكية أيام بوهيمند الخامس . وخلفه فى هذا المنصب البطريارك أيوثيم **Euthyme** الذى كان فى أول الأمر أسقفا على طرابلس ، ومات حوالى ١٢٧٠ م . أنظر :

Rey, Dignitaires d'Antioche, 147, 148-9; Grousset, op cit., 516, n. 3.

(٣) حرى بالذكر هنا أنه قامت فى أخريات العصور الوسطى محاولات عديدة فيما بين مجمع ليون ١٢٧٤ م ومجمع فلورنسا ١٤٣٩ م لتحقيق الاتحاد بين الكنيستين الغربية والشرقية، حتى يمكن للصليبيين القيام بحملة جامعة ضد المسلمين ، ولكن هذه الجهود فشلت جميعها . أنظر فى ذلك **Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 261–8.**

استدعت الضرورة ذلك . وفى أغسطس ١٢٤٧ م أرسل إنوسنت إلى الراهب لوران كتابا بنفس المعنى السابق ، وفيه يحثه على الاسراع لتحقيق الاتحاد بين الكنيستين الأغريقية واللاتينية فى سورية بالوسائل السلمية . (١) وهكذا نرى أن المصالح الشخصية والمنافع الذاتية هى التى كانت ترسم للبابوية سياستها وتحدد أهدافها .

نستبين مما سبق حكمة البابوية فى موقفها من الأغريق المشقين . ومع ذلك فقد حالت الفوارق العنصرية والثقافية والمذهبية ، والاعتبارات السياسية كذلك ، دون تحقيق هذه الوحدة المنشودة . وأحسن ستيفن رنسيمان عندما وصف قصة العلاقات بين الكنيستين الكبيرتين بأنها قصة غير مشرفة للعالم المسيحى . (٢)

ومهما يكن من شيء ، فإن تقرب البطريارك الأغريقى من البابوية فى روما ، واعترافها به رسميا ، كان بمثابة نصر سياسى ودينى للاغريق على اللاتين فى انطاكية .

---

(١) أنظر Rey, Dignitaires d'Antioche, 147–148. – وأوفد هذا البابا رسلا من قبله إلى يوحنا فاتاس لمبراطور نيقية الاغريقى لنفس الغرض فى مهمة مماثلة . أنظر : Wiegler, Infidel Emperor, 202.

(٢) لزاداد اتصال الشرق بالغرب نتيجة للحروب الصليبية ، الا أن نتائج هذا الاتصال لم تكن طيبة . ولان سوء الظن السياسى جعل اللاتين يحقدون على الاغريق المنشقين ويشكون فيهم ، بينما احتقر الاغريق الهراطقة اللاتين . كما كان مسيحيو سورية موضع اضطهاد اللاتين . وازداد العداء بسبب مذبحة الايطاليين فى القسطنطينية عام ١١٨٣ م . وبلغت الحالة نهايتها المريرة فى الحرب الصليبية الرابعة التى قضت على أمل الاتحاد بين اللاتين والاغريق . وكانت الاعتبارات السياسية من الأسباب الرئيسية فى فشل المحاولات التى بذلت للتوحيد بين الكنيستين . أنظر فى ذلك Runciman, Byzantine Civilisation, 124–8. وللمزيد من المعلومات عن طبيعة العلاقات بين اللاتين والبيزنطيين ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ١١١ — ٢٥٨ .

وترتب على ذلك أن ازداد نفوذ داود بطريارك الأغريق على منافسه اللاتيني ، بينما أخذ سلطان الأخير في التقلص تدريجيا إلى أن زال في نهاية الأمر . [1]

وجدير بالذكر في هذا المجال أن بطاركة اللاتين في انطاكية كانوا يميلون إلى عدم الإقامة فيها ، شأنهم في ذلك شأن حكامها . مثـــال ذلك البرت دى رزاتو [2] Albert de Rezato الذى كان بطرياركا من ١٢٢٨ م إلى ١٢٤٥م ، والذى شاهد في أخريات عهده إقامة بطريارك إغريقي إلى جانبه . فرحل إلى الغرب محتجا على هذا الإجراء ، حيث قضى بقية أيامه هنـاك . [3] ولم يظهر خليفته المسمى ايليا (١٢٤٧ — ١٢٥٣ م) على مسرح الحوادث على الرغم من إقامته في سورية فترة بطرياركيته . أما خليفة ايليـــا المسمى ابزوفيسكي Opizo Fieschi الذى شغل هذا المنصب من ١٢٥٤ إلى ١٢٩٢ م ، فقد رحل إلى الغرب تاركا بانطاكية عددا من رجال الدين ينوبون عنه فيها . نذكر منهم برثولماوس الذى صار مطرانا على انطرطوس Tortose في ١٢٦٤م،وكريستيان الدومينيكانى الذى قتله بيبرس عام ١٢٦٨ م عندما استولى على انطاكية [4] .

لقد كان لهذه المنازعات الدينية المذهبية أثرها في تدهور أحوال تلك الامارة. وزاد الطين بله أن اجتذبت مدينة طرابلس الأميرة لوسى إليها ، بينما تركت انطاكية في حماية جماعة من رجال الدين اللاتين الذين انكمش نفوذهم بعد المهادنة

---

(١) Matt. Paris, II, 436. Cf. Bouchier, Hist. of Antioch, 266.

(٢) فيما يتعلق بسيرة هذا البطريارك راجع : Mas Latrie, Patriarches Latins d'Antioche, 196–7.

(٣) Rey, Familles d'Outre Mer, 746; idem. Dignitaires d'Antioche, 142–3.

(٤) Rey, Dignitaires, 143–4; Grousset, Crois., III, 513.

بين روما وبطريارك الأغريق . (١) واستغل المسلمون هذه الفرصة فعملوا على توطيد أقدامهم فيها . وتعرضت المدينة لإغاراتهم أكثر من مرة خلال إقامة لويس فى عكا ، (٢) وبات الاستعمار اللاتينى فيها مهددا بالزوال . (٣)

وفى سنة ١٢٥٢ م بلغ بوهيمند السادس صاحب انطاكية الخامسة عشرة من عمره . وكان شابا موهوبا ، يتمتع بذكاء غير عادى ، وعزيمة ثابتة ، ومثابرة على العمل . وقد توجه هو وأمه لوسى لزيارة لويس التاسع أثناء اقامته فى مدينة يافا ، (٤) وانتهز الأمير الصغير هذه الفرصه ، فبسط على الملك ما كانت تعانيه انطاكية من ضعف وانحلال بسبب إهمال أمه لها . وقد اكبر لويس فى هذا الشاب أفكاره الناضجة وروحه الوثابة ، حتى أنه نصبه فارسا بنفسه. يقول جوانفيل الذى سجل مادار فى المقابلة التى تمت بين بوهيمند ولويس ، وكان شاهد عيان لها « وقد استقبله الملك باحترام زائد ، ونصبه فارسا فى احتفال مهيب ، ولم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره . ولكن لم يسبق لى أن قابلت صبيا فى مثل عقله وذكائه » . (٥)

بعد ذلك أوضح بوهيمند للملك فى حضرة أمه ، الخطر الذى بات يهدد إمارته بسبب تخليها عنها، راجيا إياه التأثير عليها للسماح له بممارسة سلطاته والتوجه الى انطاكية لإنقاذ ما يمكن انقاذه. جاء ضمن أقواله فى كتاب جوانفيل : « حقا

---

(١) Rey, Princes d' Antioche, 400–1.

(٢) Matt. Paris, II, 436.

(٣) Grousset, Crois., III, 513.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 286; Annales, II. II. 445.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 286. Cf. Annales, II. II. 445; Bouchier, Antioch, 267.

ياسيدى انه من حق والدتى أن تبقينى تحت وصايتها أربع سنوات أخر . (١) ولكن ليس من الحكمة أن تترك بلادى تضيع أو تنهار . وانى إنما أقول ذلك لأن مدينة انطاكية فى طريقها إلى الخراب على يديها . لذا التمس من مولاى أن يحثها على إمدادى بالمال اللازم حتى يمكننى الذهاب لنجدة شعبى ومساعدته.»(٢) واختتم الأمير حديثه بقوله إن بقاءه مع أمه فى طرابلس لن يعود عليه وعلى بلاده بنفع أو فائدة ، فضلا عن الأموال التى تذهب هباء منثورا دون إنفاقها فى الوجه الصحيح لها .

اهتم لويس بحديث بوهيمند ، ووجد فيه تجاوبا لما كان يحتمل فى نفسه من آمال عريضة ، وتوسط لدى لوسى لإجابته إلى مطالبه . وقد نجحت وساطته ، وتوجه الأمير بعد أن حصل على المبالغ الضرورية إلى انطاكية(٣) ، تاركا

---

(١) الواقع أن تحديد سن البلوغ فى أنطاكية ومما يتصل به من أمور كان يتفق والنظام السائد فى فرنسا ، وكان يتحدد بسن الحادية والعشرين . ولكن سن البلوغ وفقا لشرائع بيت المقدس كانت خمسة عشر عاما للذكور واثنى عشر عاما للاناث . وفى كلتا الحالتين لا يمكن للقصر تولى زمام اقطاعياتهم إلا بعد بلوغ سن الرشد . وفى فترة قصورهم يتولى أوصياؤهم إدارة ممتلكاتهم نيابة عنهم. أنظر Joinville (Johnes' tr.), 487, n. 1.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 286. Cf. Rey, Princes d'Antioche, 401; Bouchier, 267.

(٣) تقع انطاكية إلى الغرب من حلب . وقد أشاد الجغرافيون المسلمون بذكر أهميتها وحصانتها. اذ جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ج٤ ص ١٢٩) أنها « قاعدة بلاد العواصم .. وهى مدينة عظيمة على ساحل بحر الروم.. ولها سور عظيم من صخر ليس له نظير فى الدنيا . ويمر بظاهرها العاصى والنهر الأسود مجموعين .. وهى أحد كراسى بطاركة النصارى ، ولها عندهم قدر عظيم. » راجع أيضا تقويم البلدان ص ٢٥٧ ؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

والدته فى طرابلس . وقام على الفور بتنظيم شئونها ، وتعزيز وسائل دفاعها(١) . ولم ينس بوهيمند فضل لويس عليه ، وأنه لولاه لما أمكنه العودة إلى إمارته لاصلاح أحوالها ، وقرر أن يرد له الجميل مضاعفا . يقول جوانفيل: « وبموافقة الملك ضم شعاره وسلاحه إلى شعار فرنسا وسلاحها ، نظرا لأن الملك كان قد نصبه فارسا . » (٢)

وبعث البابا انوسنت الرابع يؤيد الملك الفرنسى فى مسعاه . ففى نوفمبر ١٢٥٢م أرسل إلى ايليا البطريارك اللاتينى فى انطاكية ، وإلى وليم أسقف طرابلس(٣) ، يدعوهما لنجدة الشاب الصغير بوهيمند السادس الذى تحرر من وصاية أمه بناء على طلب لويس ، ويطلب منهما تقديم كل مساعدة ممكنة له فى فترة انتقال الحكم فى انطاكية وطرابلس إليه . (٤)

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 286. Cf. Rey, Princes d'Antioche, 401.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 286. Cf. Rey, op. cit., 400; idem, Familles d'Outre Mer, 207; Bouchier, Antioch, 267. وكان شعار فرنسا فى ذلك الحين هو العلم الخاص بدير القديس دنيس St. Denis ولونه أحمر ، وهو مشقوق من جانبه الطليق ، بحيث كان يبدو عندما يرفرف كألسنة النار . وكان هذا العلم فى أول الأمر شعار رجال دير دنيس الخاص فى حروبهم ، ولم يصبح شعار ملوك فرنسا إلا منذ عهد فيليب اغسطس وابنه لويس الثامن ، بعد ضم مقاطعتى بنتوازومنت الى الدومين الملكى ، أنظر : Joinville (Johnes' tr.), 390 - I, n. 2

(٣) من جماعة الاخوان الدومينيكان . كان أسقفا على طرابلس منذ سنة ١٢٥٠م وعين أسقفا على بيت لحم فى ١٢٦٣ م . أنظر Rey, Familles d'Outre Mer, 812.

(٤) Rey, Dignitaires d'Antioche, 143; Grousset, Crois, III, 514 - 5.

لم يكن هـذا هو كل ما أداه لويس لقضيته من خدمات ، بل تدخل أيضا للصلح بين البلاد الفرنجية المتنازعة ، لإزالة ما بينها من جفاء وانقسام ، حتى تتفرغ للمحافظة على كيانها ضد أى هجوم قد يقع عليها .

وقد فازت انطاكية كذلك بعناية خاصة من جانبه فى هذه الناحية . إذ سعى لتصفية الخلافات القائمة بينها وبين أرمينية(١)، وكان العداء بينهما قديما ومستحكما، يرجع إلى اوائل الحركة الصليبية منذ استيلاء اللاتين على أنطاكية . وقد ساءت العلاقات بينهما إلى درجة كانت تنذر بعواقب وخيمة أيام بوهيمند الخامس ، بسبب اغتيال الأرمن زوج ملكتهم الأرمينية الأمير فيليب الأنطاكى .(٢) وصرفهما هذا النزاع عن الاهتمام بشئونهما الداخلية ، مما عاد على المسلمين وحدهم بالنفع . والدليل على ذلك هجماتهم المتكررة على انطاكية وبلاد الأرمن فى ذلك الحين. (٣)

وقد أدرك لويس منذ وصوله إلى قبرص فى ١٢٤٨م الخطر الذى كان يتهدد البلدين ، وتوسط للصلح بين بوهيمند الخامس صاحب انطاكية وهيتوم الأول ملك أرمينية .(٤) وخفت حدة النزاع بينهما إلى أن انتقلت مقاليد الحكم فى

(١) جاء فى ابى الفداء (تقويم البلدان ص ٢٣٤ — ٢٣٥) أن الأرمن « طائفة من الروم ويقال لبلادهم بلاد الأرمن» . وفى ابن الشحنة (الدر المنتخب ص ١٨٧) أن بلادهم الكبار خمسة هى : آياس ، وسيس ، والمصيصة ، وأدنة ، وطرسوس . وبهذه البلاد قلاع كثيرة وحصون منيعة . أنظر أيضا ابن الوردى : خريدة العجائب ص ٢٥ .

(٢) راجع تفاصيل هذا النزاع وأسبابه فى أنطون خانجى : مختصر تواريخ الأرمن ص ٢٣٥ - ٢٣٧ ؛ وكذلك Grousset, Crois , III, 268, 515.

(٣) Rothelin, II, 623, 624.

(٤) Rey, Princes d' Antioche, 401; Grousset, Crois , III, 515.

وقد أصبح هيتوم ملكا على أرمينية بزواجه من إيزابيل ابنة ملك ليون ، ومما يذكر عنه أنه =

انطاكية إلى بوهيمند السادس بوفاة والده فى ١٢٥١ م ، وكان الملك الفرنسى قد غادر الديار المصرية منهزما إلى سورية . فاستأنف مساعيه لإزالة الجفاء بين البلدين . وأخذت الهوة تضيق بينهما بعد عودة بوهيمند إلى انطاكية واستقراره بها . وتوثقت بينهما روابط الصداقة ، حتى انتهى الأمر بزواج صاحب انطاكية من ايزابيل ابنة هيثوم فى أخريات سنة ١٢٥٤ م ، بعد مغادرة لويس بلاد الشام إلى الغرب بأشهر قليلة (١).

حقا إن الأصول الغربية لم تشر من قريب أو بعيد إلى دور لويس فى إتمام هذه الزيجة . ولكن الأمر الذى لاشك فيه أن الفضل الأول يرجع إليه فى تسوية الخلافات القديمة بين أنطاكية وبلاد الأرمن . ولا نستبعد ، بناء على ما تقدم ، أن يكون هو الذى أشار بهذا الزواج قبل مغادرته سورية إلى فرنسا فى ابريل ١٢٥٤ م كوسيلة لمنع وقوع أى خلاف بينهما فى المستقبل . ولولا الدور الذى قام به الملك الفرنسى ، ونجاحه فى إقرار الصلح بين البلدين وتأليف جبهة متحدة منهما ، لأمكن للقوات الاسلامية حينذاك تأديبهما وإلحاق الهزيمة بهما.

وقد بذل الملك الأرمينى وسعه لارضاء زوج ابنته ، وكانت الظروف مواتية لإظهار شعوره الطيب نحوه . ذلك أن العداء كان قائما آنذاك بين البلاط

= عندما علم فى سنة ١٢٤٨ م بوصول لويس التاسع إلى جزيرة قبرص ، أوفد رسلا من قبله محملين بالهدايا ، يعرضون على لويس خدمات مولاهم . وقد أحسن الملك الفرنسى استقبالهم ، وسعى لاحلال الوفاق محل الخصام بين هيثوم وبين صاحب انطاكية . أنظر Rey, Familles d' Outre Mer, 127-8. ويبدو أن هذه السفارة قد تركت أثرا طيبا فى نفس الملك لويس ، حتى أنه بذل مساعيه الصادقة لخدمة الأرمن أثناء إقامته فى سورية .

(١) Eracles, II, 442. — وقد تم الزواج وفقا للنص الوارد فى هرقل بعد منتصف سبتمبر سنة ١٢٥٤ م .

الأنطاكى والفرسان الاسبتارية ، بسبب التنازع على بعض القلاع . فتوسط هيثوم لعقد اتفاق مؤقت بين بوهيمند السادس ووليم شاتنوف رئيس الاسبتارية فى ابريل ١٢٥٦ م. (١) وفى ابريل ١٢٥٩ م عقد صلح شامل بين بوهيمند وهيوج ريفل الرئيس الجديد للجماعة ، قبل الأول بمقتضاه التنازل للاسبتارية عن جميع الأراضى التى اغتصبت منهم منذ أيام بوهيمند الرابع .(٢)

وفى نفس هذه السنة توسط هيثوم مرة أخرى للصلح بين بوهيمند وأتباعه الثائرين فى ولاية طرابلس ، كما أعانه على التخلص من نفوذ الاغريق فى أنطاكية، ولإبعاد ايوثيم البطريارك الاغريقى عن المدينة ، وهو خليفة داود الذى عرف بمهادنته للبابوية فى روما .(٣)

لم يكن الأرمن هم الطائفة الوحيدة من الطوائف المسيحية الشرقية(٤) التى اتصل بها لويس التاسع واختصها بعنايته أثناء إقامته فى سورية . فقد توطدت

---

(١) Rey, Princes d'Antioche, 402.

(٢) Groussot, Crois , III, 516. Cf. Bouchier, Antioch, 268. —وتولى هيوج ريفل شئون الاسبتارية فى الأراضى المقدسة من ٩ أكتوبر ١٢٥٨ م إلى أول ابريل سنة ١٢٧٧ م . أنظر Grousset, op. cit., 516, n. 2.

(٣) Rey, Princes d'Antioche, 402 - 3; idem, Dignitaires d'Antioche, 148; Grousset, Crois., III, 516.

(٤) كان الصليبيون يطلقون على الجماعات الشامية المسيحية لفظ « السريان المسيحيون » Surienz Crestienz أنظر . Rothelin, II, 592 وقد اشتهر من بينهم الاغريق والنساطرة والأرمن والموارنة ، وهم جميعا من الطوائف المسيحية الشرقية ، أنظر . Chanteur, Hist. de Syrie et du Liban, 66-7.

العلاقات كذلك بينه وبين جماعة الموارنة بجبل لبنان .(١) وقد قام هؤلاء الموارنة بدور غير تافه فى تاريخ الحركة الصليبية ، واتجهت أهواؤهم منذ البداية إلى الصليبيين ، وأبدوا ميلا شديدا نحوهم . وكان من نتيجة ذلك أن أنس إليهم الفرنج ، وأدخلوهم تحت حمايتهم .(٢) وساعد على ذلك أن عقيدة الموارنة كانت تتفق إلى حد بعيد مع مبادىء العقيدة الرومانية الكاثوليكية .(٣)

وعلاقة لويس بهؤلاء الموارنة ترجع إلى سنة ١٢٤٨ م عندما نزل بقواته فى قبرص ، حيث رحبت به جاليتهم المقيمة هناك .(٤) ولم يكتفوا بذلك، بل اشترك عدد كبير منهم معه فى الحملة على مصر ، وأبلوا بلاء حسنا فى وقعة المنصورة .(٥)

---

(١) ينتسب الموارنة إلى القديس مارون الذى ظهر فى نواحى أفامية فى أخريات القرن الرابع الميلادى . وأقيم بعد موته دير باسمه فى أوائل القرن الخامس على ضفاف نهر العاصى بالقرب من أفامية . وكان أكثر هؤلاء الموارنة بجبل لبنان وحمص وأعمالها . وقد اشتهروا بتمسكهم بتعاليم المجمع الخلقيدونى الذى عقد سنة ٤٥١ م ، وبحثت فيه مسألة الطبيعتين والطبيعة الواحدة للمسيح . وفيه أخذ الحزب الأوروبى بالقول الأول ، بينما أخذ الحزب المصرى بالقول الثانى ، واعتبر مذهب الطبيعة الواحدة هرطقة وإلحادا . ولعل أخذ الموارنة بمبادىء تعاليم مجمع خلقيدونية ما قرب بينهم وبين اللاتين فى سورية . راجع فى ذلك يوسف دريان: لباب البراهين الجلية ص ٣٣٠ — ٣٣٧ ؛ أصل الطائفة المارونية ص ٤٢ — ٤٣ و ٤٥ ؛ الدويهى : تاريخ الطائفة المارونية ص ٨ — ١٢ و ١٣ — ١٦ وكذلك : Lamartine, Voyage en Orient, I, 453.

(٢) يوسف دريان: لباب البراهين الجلية ص ٣٠٩ ؛ أصل الطائفة المارونية ص ٥٩ — ٦٠ ؛ وكذلك Lamartine, op. cit., II, 535.

(٣) راجع يوسف دريان : لباب البراهين الجلية ص ٣٠٩ — ٣١٠ ، ٣١١ — ٣٢٧.

(٤) الدويهى : تاريخ الطائفة المارونية ص ١١٠ .

(٥) دريان : أصل الطائفة المارونية ص ٥٦ ؛ وكذلك Lamartine, Voyage, II, 535.

وبعد إطلاق سراحه وإبحاره إلى عكا ، أرسل أمير الموارنة بجبل لبنان وفدا يتألف من خمسة وعشرين الفا من أتباعه على رأسهم أحد كبار الطائفة ويدعى سمعان ، ليكون فى استقبال الملك عند وصوله (١) ، فبعث لويس من عكا فى ٢١ مايو ١٢٥٠ م - أى بعد أسبوع واحد من مقدمه إليها - برسالة رقيقة إلى أمير الموارنة وإلى رجال الدين وعامة الشعب المارونى ، وفيها يشكرهم على حفاوتهم به ، وعلى الهدايا التى حملها الوفد إليه . ويؤكد لهم اهتمامه بأمرهم وأنهم موضع رعايته ، وأنه يعتبرهم كالفرنسيين تماما ، من حقهم أن يتمتعوا بكافة الامتيازات التى يتمتع بها رعاياه .

ويتوجه فى ختام رسالته إلى البطريارك المارونى(٢) ورجال الدين طالبا منهم التمسك بأصول العقيدة المسيحية على المذهب الكاثوليكى . (٣) وهذا يعزز

---

(١) Lamartine, op. cit., 536.

(٢) كان بطريارك الموارنة فى ذلك الحين يسمى سمعان ، ومقامه بانطاكية وقد حكم من سنة ١٢٤٥ م إلى ١٢٧٧ م. وأرسل اليه البابا انوسنت الرابع فى ١٢٤٦ م لوران الدومينيكانى نائبا من قبله للسعى بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية .وكان البطريارك سمعان على علاقة طيبة بالبابوية فى روما . وهو الذى كتب إليه البابا اسكندر الرابع يشكره على قبوله الافرنج المهاجرين إلى لبنان مع طائفته ، ويفوضه بأمورهم الروحيه .أنظر طوبيا العنيسى : البطاركة الأنطاكيين الموارنة ص ٢٣—٢٤ ؛ الدويهى : سلسلة بطاركة الطائفة المارونية ص ٣١١ - ٣١٢ ؛ دريان : أصل الطائفة المارونية ص ٥٩ ؛ الدبس : تاريخ سورية مجلد ٦ ص ٣٧٣ .

(٣) هذه الرسالة مازالت محفوظة عند الموارنة بمكتبة البطرياركية المارونية بلبنان ، وتوجد ترجمة حرفية لها بالعربية فى الدويهى : تاريخ الطائفة المارونية ص ١١٠ — ١١١ ؛ دريان: أصل الطائفة المارونية ص ٥٧ — ٥٩ .

ما أوضحناه من اتفاق الموارنة واللاتين فى أمر العقيدة .

وثمة مسألة تستحق الذكر ، وهى أنه تمت خلال إقامة لويس التاسع فى بلاد الشام زيجات ربطت بين بعض الإمارات المسيحية التى كانت فى تنازع فيما بينها قبل ذلك . وقد أشارت إليها المصادر القديمة أمثال تآليف جوانفيل وروتلان وهرقل وحوليات الأراضى المقدسة . ويحتمل انعقاد هذه الزيجات بفضل الملك الفرنسى بدافع خدمة قضيته الكبرى ، بعد أن تبينا نشاطه الملموس فى النواحى الأخرى .

ففى شهر سبتمبر من سنة ١٢٥٠ م تزوج هنرى الأول لوسنيان ملك قبرص من بليزانس Plaisance ابنة بوهيمند الخامس صاحب انطاكية من زوجته الأميرة لوسى.(١) وذكر روتلان فى حوادث سنة ١٢٥٠ م أنه وفد على لويس فى عكا رسول يحيطه علما بهذا الزواج.(٢) ولهذا النص أهمية خاصة، فهو يكشف أولا عن اتساع دائرة نفوذ لويس فى الشرق اللاتينى ، حتى بات الملوك والحكام يفيدونه أولا بأول بكل كبيرة وصغيرة تجرى فى بلادهم (٣) فضلا عن أن مضمونه يوحى بأن رأى الملك الفرنسى كان يؤخذ فى مثل هذه الأمور ، وإلا لما كان هناك أى داع لايفاد رسول إليه فى مهمة خاصة بشأن هذا الزواج .

وفى سنة ١٢٥٢ م تم عقد جوليان دى بليان صاحب صيدا على فيمى Fémie

---

(١) Eracles, II, 439 & 439, n. e; Annales II, II, 444. وتوفى هنرى الأول لوسنيان فى ٨ يونيو ١٢٥٣ م . وفيما يتعلق بسيرته راجع : Eracles, II, 360, 441, 443; Rey, Familles d'Outre Mer, 40-1, 59-62.

(٢) Rothelin, II, 624.

(٣) Cf. Rothelin, II, 625.

ابنة هيثوم الاول ملك أرمينية. (١) فكانت هذه خطوة طيبة للتقريب بين الأرمن واللاتين، أعقبها فى عام ١٢٥٤ م زواج بوهيمند السادس صاحب انطاكية وكونت طرابلس من ابنة هيثوم الثانية المسماه ايزابيل حسبما أسلفنا.

وذكر جوانفل أنه بينما كان الملك الفرنسى يحصن مدينة صيدا، جاءه رسل من قبل أمير طرابزون Trebizond، ويسمى كومنين العظيم، مزودين بهدايا وتحف نادرة. وطلبوا منه على لسان مولاهم أن يرسل إليه أميرة من أسرته ليتخذها زوجة له. فاعتذر لويس بأنه لم يحضر معه من وراء البحر واحدة منهن، وأشار عليهم بالتوجه إلى بلدوين الثانى امبراطور القسطنطينية اللاتينى (١٢٣٧ - ١٢٦١ م)، ورجائه أن يعطيهم أميرة من سلالته لسيدهم كزوجة. ويضع جوانفيل النقط فوق الحروف، فيقول إن لويس التاسع كان يهدف من وراء ذلك إلى تحالف أمير طرابزون مع بلدوين الثانى ضد يوحنا الثالث فاتاس امبراطور نيقية الاغريقى(٢) John III Vatatzes.

وإذا كان جوانفيل قد حدثنا عن رسل أمير طرابزون إلى لويس، فقد ذكر روتلان أن السفارة اتصلت كذلك بين هذا الملك وبين يوحنا فاتاس امبراطور نيقية الاغريقى. ولكنه لم يحدد تاريخ وصول الرسل، أو أسباب مهمتهم ونتائجها، واكتفى بسرد النبأ فى عبارة سريعة غامضة ضمن حوادث سنة ١٢٥٠ م، مبينا أن أحدا لم يكن يعرف كنه السفارة. (٣)

---

(١) « A.M.CC. LII. espousa Julian sire de Saiete la fille de Heiton roi d'Ermenie» Eracles, II, 440. Cf. Annales, II, II, 445; Rey, op. cit., 437-8.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 321. Cf Perry, 218.

(٣) « Li granz Princes des Grifonz, Vataiches, envoia ausine ses mesaiges au roi, mais nous ne savons pour quoi ce fu. Mes li roiz envoia ces mesaiges a celui Vataiche. » Rothelin, II, 624.

ولا جدال أن لهذين النصين أهميتهما التى لاتنكر ، ودلالتهما فى الكشف عن حقيقة العلاقات بين امبراطوريتى نيقيـة وطرابيزون الاغريقيتين من ناحيـة وامبراطورية اللاتين بالقسطنطينية من ناحية أخرى ،وبين هذه الامبراطوريات الثلاث من جهة والملك الفرنسى لويس التاسع من جهة ثانية .

ولتفهمهما يحسن بنا أن نعـود قليلا إلى الـوراء ، فنستعرض بإيجـاز تاريخ الامبراطـورية البيزنطية فى النصف الأول من القـرن الثالث عشر . على الرغم من استيلاء اللاتين على القسطنطينية فى الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م، فقد أخفقت المحاولات التى بذلت للاستيلاء على الامبراطورية كلها . وبقيت أجزاء من آسياء الصغرى التابعة للامبراطـورية فى أيدى الاغريق . ففى نيقيـة أسس ثيـودور الأول لاسـكاريس Theodore Lascaris زوج ابنة الامبراطـور الـكسيوس الثالث ، بلاطا سرعان ما أصبح مركز السلطة الامبراطورية فى المنفى . وفى طرابيزون أعلن فـرد من أسرة كومنين استقلاله . وقـد تنازعت هاتان الامبراطوريتان فى المطالبة بشرعية الامبراطورية الرومانية الشرقية فى المنفى . وكانت امبراطورية نيقية مرضيا عنها ، وتتمتع بتأييد أكبر من منافستها ، وفى هذا المعترك يعزى النصر الذى أحرزته امبراطورية نيقية إلى مقدرة أباطرتها ، وخاصة ثيودور الأول (١٢٠٤ - ١٢٢٢ م) وزوج ابنته يوحنا الثالث فاتاس (١٢٢٢ - ١٢٥٤ م) الذى يشير إليه كل من جوانفيل وروتلاف ، وكان كلاهما محاربا كفأ وسياسيا محنكا .(١)

(١) Runciman, Byzantine Civilisation, 55. Cf. Eracles, II, 382 n e. كذلك ظهر فى ابيروس Epirus فرد من أسرة انجيل البيزنطية Angelus Dynasty ، الذى سرعان ما فاز بمدينة تسالونيكا Thessalonica من حكامها اللاتين . ولـكن امبراطورية تسالونيكا هذه سقطت أمام سلطة نيقية سنة ١٢٤٦ م ، وانكمشت أسرة انجيل فى حدود ابيروس ، وقد اعترفت فى النهاية بسيادة امبراطور نيقية . أنظر Runciman, Byzantine Civilisation, 55. ؛ وكذلك خريطـة القسطنطينية ونيقية وطرابيزون ص ٣١٨ من هذا الـكتاب .

خريطة رقم (٨)



القسطنطينية ونيقية وطرابيزون

في مفاوضات لويس التاسع

وفى تلك الأثناء كانت امبراطورية اللاتين بالقسطنطينية غارقـــة فى الفقر والانهيار . وقد ازدادت حالتها سوءا فى عهد بلدوين الثانى الذى قضى معظم حكمه متجولا فى طلب المساعدة من أهل الغرب الأوروبى ضد الاغريق المنشقين. (١) وفى أثناء إقامة لويس التاسع وجيشه فى قبرص ، وفدت إليه هناك الامبراطورة مارى زوجة بلدوين الثانى ، تلتمس العون منه ومن كبار الصليبيين لإقرار مركز زوجها المزعزع فى عاصمة ملكه . ولكنها لم تلق إلا عطفا ووعودا لم تلبث أن ذهبت أدراج الرياح بعد مغادرتها الجزيرة(٢) ، لأن لويس كان فى ذلك الحين يعد العدة لهجومه الكبير على مصر ، ولم يكن مستعدا للتضحية بجانب من قواته فى أى مشروع آخر .

ولكن قدر لحملة لويس على مصر أن تتحطم أمام قوات المماليك البحرية ، وأبحر هو ومن نجا من رجاله إلى سورية يجرون وراءهم أذيال الفشل . هذا، فى الوقت الذى كانت فيه امبراطورية القسطنطينية تسير نحو انهيار سريع ، بعد أن توالت اعتداءات الاغريق عليها .(٣) وأصبحت امبراطورية نيقية مصدر قلق

---

(١) Matt. Paris, II, 65. Cf. Runciman, op. cit., 56 - 7; Gibbon, Crusades, 122 - 3; Tout, Empire & Papacy, 353.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 76 – 8 & 76, n. 137 – 1. — وقد بلغت الامبراطورية آنذاك درجة من العوز والفاقة ، حتى أن بلدوين الثانى رهن أسقف قصره وتحفه وكنوزه وابنه كذلك للبنادقة ، أنظر . Runciman, op. cit, 57 كما باع إلى لويس التاسع بعض المخلفات المقدسة ومن بينها تاج الشوك الحقيقى وقطعة من خشب الصليب التى ابتنى لها لويس كنيسته المعروفة باسم « الكنيسة المقدسة » لحفظها بها . أنظر : Gibbon, 123 - 4; Tout, Empire and Papacy, 353

(٣) Cf. Daru, Hist. de Venise, I, 163.

كبير لها ،وكان حاكمها وقتذاك هو يوحنا الثالث فاتاس .(١) وقد اضطر اللاتين بالقسطنطينية إلى التحالف مع الكومان Comans وهم من العناصر التركية ضد الاغريق فى نيقية الذين كانوا يتطلعون لاسترداد امبراطوريتهم وتحريرها .(٢)

وكان لويس على علم بهذه التطورات . يقول جوانفيل إن أحد الفرسان المغامرين الذى التحق بخدمته فى قيسارية ، ويدعى فيليب دى توسى ، قص على الملك نبأ هذا التحالف،وما كانت تعانيه امبراطورية القسطنطينية من تدهور.(٣)

من الطبيعى إذن أن يولى لويس هـــذا الموضوع عنايته ، خاصة وأن امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية كانت تعتبر جزءا مكملا لممتلكاتهم فى الأراضى المقدسة . وقد وجد الظروف مواتية للافادة منها عندما اتصلت السفارة بينه وبين حاكمى طرابيزون ونيقية المتنافسين فبادر إلى مناصرة كومنين العظيم على يوحنا فاتاس الذى أقلق اللاتين فى القسطنطينية ، عندما أشار عليه بالتوجه إلى بلدوين الثانى للحصول على زوجة له من سلالته . وبذلك يضمن تحالفهما ضد الاغريق فى نيقية وفقا لرواية جوانفيل . هـــذا ، بينما لم تصل السفارة بينه وبين فاتاس إلى أية نتيجة حسبما يفهم من نص روتلان ، ويؤيد ذلك التطور الطبيعى للحوادث .

ولكن هذا كله لم يوقف عجلة الزمن التى كانت تسير فى الطريق المرسوم لها . فعلى الرغم من أن امبراطورية طرابيزون بقيت غير مقهورة إلى أن قضى عليها العثمانيون سنة ١٤٦١ م ، لم يستطع كومنين العظيم مطلقا إحراز نصر حاسم على يوحنا فاتاس الذى توفى سنة ١٢٥٤ م . فكانت وفاته سببا فى الابقاء

---

(١) Cf. Tout, op. cit., 353-4.

(٢) Daru, op. cit , 164.

(٣) Cf. Joinville (ed. Wailly), 272 – 4.

على امبراطورية اللاتين المنهارة بالقسطنطينية لبضع سنين أخر . وكان الخلاص على يد خليفته ميخائيل بليولوجس (١٢٥٨ - ١٢٨٢م) الذى شقت قواته طريقها إلى عاصمة قسطنطين فى ١٢٦١ م ، بينما أسرع كل من بلدوين الثانى والبطريارك اللاتينى والبنادقة إلى الميناء وأبحروا غربا .(١)

كان من الأهداف الرئيسية التى عمل من أجلها الملك الفرنسى أثناء إقامته فى سورية ، تطهير الإمارات اللاتينية من الفساد الذى استشرى فيها . وكان يرى أن هذه الإمارات لن تصل إلى ماتصبو إليه إلا على بناء متين أساسه الأخلاق الفاضلة . (٢) والحقيقة أنها كانت مرتعا للفسق والشرور . يذكر جوانفيل أنه فى إحدى مقابلاته مع القاصد الرسولى ، تطرق الحديث بينهما إلى التدهور الخلقى بين اللاتين فى الأراضى المقدسة وأخذ كل منهما يقص على زميله ما يعرفه فى هذا الشأن ، واختتم القاصد الرسولى كلمته بقوله : « لا يعلم أحد مثلى الآثام والمعاصى التى ارتكبت فى عكا . ولذا فان المولى سينتقم من سكانها حتى تغسل المدينة بدمائهم ، وحينئذ سوف يأتى شعب آخر للاقامة فيها . »(٣) ولم تكن هذه العبارة إلا نبوءة صادقة حققتها الايام . فلم تكد تمضى أربعون سنة بعد مغادرة لويس الأراضى المقدسة ، حتى استولى المسلمون على عكا فى ١٢٩١ م وأعملوا الذبح فى سكانها ، فكان هذا جزاء عادلا على ما اقترفوه من زلات . (٤)

ولعل السبب فى ذلك أن الإمارات اللاتينية كانت موئلا لأجناس شتى من

---

(١) Vasiliev, Hist. de l'Empire Byzantin, II, 210 - 7; Runciman, Byzantine Civilisation, 55, 57.

(٢) Grousset, Crois , III, 509.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 334-6.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 336 & 336, n. 613-1.

الخلق الذين تباينت مصالحهم وميولهم ومطامعهم . فكان فيها البنادقة والبيازنة والجنوية وأهل مرسيليا وأمالفى الذين يمثلون النشاط التجارى البحرى ،وكذلك الاسبتارية والداوية والتيوتونية من الرهبان المحاربين . هذا، إلى جانب جماعات من المخاطرين والقتلة واللصوص والخارجين عن القانون ، الذين قدموا هناك من مختلف بلاد العالم مدفوعين بعوامل شتى ، أهمها حب المغامرة وأقلها العامل الدينى . (١)

تألم الملك لويس لهذا الانحلال الخلقى الذى أوشك أن يودى بتلك الإمارات إلى الحضيض ، وتناول الأمر بالحزم والعزم . فهو نشأ نشأة دينية خالصة ، كما عملت أمه بلانش على تلقينه مبادىء العقيدة المسيحية منذ نعومة أظفاره، وبلغ من تدينها أنها كانت تقول له إنه أهون على نفسها أن تشاهد موته بعينى رأسها من أن تراه يقترف إثما يغضب الله . فلا عجب إذا شب لويس وقد انطبعت فى نفسه هذه التعاليم ، وانعكست آثارها فى حياته وأعماله وتصرفاته . (٢) ولا عجب أيضا أن يعلنها ثورة على الفسق والفساد الذى لمسه بنفسه فى البلاد الصليبية . فيسعى إلى تقويم ما اعوج من الأخلاق ، ضاربا على أيدى العابثين والمستهترين دون أن تأخذه نحوهم رحمة أو هوادة . (٣) وقد حدث أن طرد من معسكره وهو فى قيسارية ، أحد الفرسان لأنه ضبط بمنزل يدار للفساد . ويكفى أن صرح جوانفيل أنه اعتاد أن يضع فراشه عند مدخل خيمته بحيث أن كل من يدخل كان يراه راقدا عليه ، وذلك منعا للشبهات التى قد تحوم حول اتصاله

---

(١) Cf. Burchard, Description of the Holy Land, 102-3.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 4, 10-38, 356-94. Cf. Lavisse, III. II. 18-9; Wallon, I, 2-3, 61-75.

(٣) Besant & Palmer, Jerusalem, 516.

بالنساء . (١) ويذكر جوانفيل أنه حدث أثناء إقامة لويس فى قيسارية أن حلف صائغ مسيحى باسم الله زورا وبهتانا ، فأمر الملك بوضعه على سلم بملابسه الداخلية فحسب ، وقد لفت رقبته بأمعاء خنزير ، عقابا له على فعلته هذه . (٢)

واضح إذن أن لويس التاسع كان يتصرف فى سورية ليس باعتباره قائد حملة صليبية فحسب ، وإنما باعتباره حاكما وملكا ، وكما لو كانت البلاد بلاده والشعب شعبه . (٣) فكان يتنقل من مدينة إلى أخرى، متفقدا أحوالها ، معززا استحكاماتها متى وجد الضرورة تستدعى ذلك . وكان إذا وجد خلافا بين بلدين قام بالصلح بينهما . وهو إلى جانب ذلك يصدر الأوامر والأحكام الرادعة ، بينما أخذ الرسل يفدون إليه من كل مكان : من القاهرة ودمشق ومصياف ، ومن أرمينية وقبرص ولبنان ، ومن القسطنطينية ونيقية وطرابيزون ، ومن أواسط آسيا . فنهم من جاء ساعيا لكسب وده ، ومنهم من قدم لتحيته ، ومنهم من حمل إليه الهدايا النفيسة ، ومنهم من أتاه بالأخبار الهامة ومنهم من جاءه مهددا متوعدا (٤). كذلك سعى إليه حكام الإمارات اللاتينية فى سورية نفسها . مثال ذلك بوهيمند السادس صاحب أنطاكية وأمه لوسى ، وقد توجها إليه فى يافا حيث نصب لويس بوهيمند فارسا . وكذلك باليان الابلينى ابن صاحب أرسوف الذى وفد عليه فى عكا قبل إبحاره منها إلى الغرب (فبراير — ابريل ١٢٥٤ م) ، ونصبه الملك الفرنسى فارسا بنفسه . (٥)

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 276.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 378.

(٣) Grousset, Crois., III, 569.

(٤) Cf. Rothelin, II, 623-5.

(٥) باليان بن يوحنا الثالث الابلينى صاحب يافا وأرسوف من زوجته اليكس ابنة وهاير =

وقد بالغ مسيحيو الشرق فى الحفاوة بلويس والالتفاف حوله ، وتطلع الجميع لرؤيته والتحدث إليه ، كما أصبح اسمه وشخصه موضع الفضول والاحترام. يذكر جوانفيل أنه أثناء عودة الجيش الصليبى من يافا شمالا إلى صيدا لتحصينها ، جاء إليه جماعة من أرمينية العليا فى طريقهم للحج إلى بيت المقدس ، وطلبوا منه السماح لهم برؤية الملك القديس . وكان سرورهم عظيما عندما حظوا بهذه المقابلة ، وأخذوا يبتهلون إلى الله من أجله . (١)

هكذا تمتع لويس بتأييد اللاتين فى الشرق ، الذين نظروا إليه بوصفه ملكا عليهم ، مع أنه لم يكن يحمل لقبا شرعيا . وذلك بعكس معاصره الامبراطور فريدريك الثانى الذى لم يستطع غزو قلوب أولئك اللاتين، على الرغم من الالقاب الضخمة التى كان يحملها، والتى عددها العينى فى مؤلفه عقد الجمان. ويرجع الفضل فى التفاف الفرنج حول لويس التاسع إلى مساعيه لما فيه مصلحتهم ، تحقيقا لغرض فى نفسه (٢) .

= صاحب حيفا ، وقد خلف أباه على أرسوف بموته فى ١٢٥٨ م. وتوجه إلى لويس فى عكا سنة ١٢٥٤ م ، حيث نصب فارسا على يديه . وتزوج فى نفس هذه السنة من بليزانس أرملة هنرى الأول لوسنيان ملك قبرص اللاتينى وابنة بوهيمند الخامس صاحب انطاكية وطرابلس . وفى ١٢٦١ م باع أرسوف للفرسان الاسبتارية نظير مبلغ معلوم من المال يدفعونه له فى كل عام ، ولكن المدينة لم تلبث أن سقطت فى قبضة المسلمين بعد ذلك بفترة قصيرة (٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م) . وتوفى باليان فى سنة ١٢٧٧ م. أنظر
Eracles, II, 441, 446,450; Annales, II. II. 446;Rey, Familles, 224-225.
وكذلك المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٥٢٩ — ٥٣٠ .

(١) Joinville (ed. Wailly), 308-310. Cf. Guizot, 89.

(٢) Grousset, Crois , III, 438, 509-510.

وجدير بالتنويه هنا أن بارونات سورية وكبار اللاتين فيها كانوا ، قبل مقدم لويس ، لا يعرفون معنى الطاعة والنظام ، وكانوا يضربون بالقوانين والأوامر عرض الحائط . ولكن الملك الكابيتى علمهم كيف تكون الطاعة ، وكيف يكون النظام واحترام الأوامر .

أما الذين كانوا يتصرفون وفق هواهم ، فقد اشتد فى معاملتهم . وتمدنا مذكرات جوانفيل بكثير من الشواهد التى تؤيد ذلك ، ولعل أهمها موقف لويس من جماعة الفرسان الداوية .

كانت الجماعات الرهبانية العسكرية فى ذلك الحين تتمتع داخل قلاعها وحصونها ، ولها جيوشها ومواردها المالية الخاصة بها . وبالاختصار كانت تتمتع باستقلال ذاتى كامل داخل المملكة الصليبية ، ولها سياستها الخارجية التى تتفق ومصالحها الخاصة التى كانت تتعارض مع مصالح الافرنج الآخرين المستقرين فى الشرق (١) .

فقد حدث فى فترة وجود لويس التاسع بقيسارية أن دخل جماعة الداوية مع الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق فى مفاوضات تهم الطرفين، وذلك دون علم الملك الفرنسى . وقام بهذه الحركة كبير الداوية رينوه دى فيشيه . إذ أرسل إلى السلطان قائد الجماعة هيوج دى جوى Bugh de Jouy لتسوية الخلاف الذى ثار بشأن بعض المناطق المتنازع عليها بينهما. وبعد أن عقد الاتفاق، قفل هيوج راجعا إلى قيسارية وبصحبته رسول من قبل الناصر لعرض الاتفاق على لويس لاعتماده، وهو يقضى أن تكون المقاطعات موضع الخلاف مناصفة بين الداوية والدماشقة. وعندما أخبر رئيس الداوية الملك بذلك انزعج للأمر وقال « إنه لمن الحمق

---

(١) Grousset, op. cit., 510.

والغرور أن يقوم رئيس الجماعة من جانبه بعقد اتفاق ، أيا كان نوعه ، مع السلطان قبل التحدث إلى فى هذا الشأن » . وزاد من سخط الملك أن الاتفاق تم فى الوقت الذى تعهد فيه مماليك مصر بإعادة بيت المقدس إلى الفرنج مقابل انضمامه إليهم فى صراعهم ضد صاحب الشام .

واتخذ غضب لويس على الداوية صورة عملية ، وأصر على ضرورة مرضاته ومصالحته . فأمر برفع ثلاث خيمات من خيامه المنصوبة ليتسع المكان لأكبر عدد ممكن من المتفرجين وأقبل عامة رجال الجيش لمشاهدة ما يحدث . وجاء أيضا رئيس الداوية وفرسانه وهم حفاة الأقدام . ثم طلب الملك من رئيس الجماعة ومندوب السلطان أن يجلسا أمامه ،وخاطب الرئيس الدينى بصوت مرتفع قائلا : « أيها الرئيس ، قل لرسول السلطان إنك آسف لعقدك معاهدة معه قبل أن تحدثنى فى هذا الشأن . ونظرا لأنك لم تبدأ بذكر الأمر لى، فهو ليس مرتبطا بما وعدته به ، كما أنك غير مرتبط بوعوده » . فانصاع كبير الداوية لما أمره به الملك ، وأخذ الاتفاق وسلمه للرسول .

ولم يكتف لويس بذلك ، بل طلب من الرئيس وجماعته الوقوف ، ففعلوا . ثم طلب منهم أن يركعوا ويلتمسوا عفوه لتصرفهم دون استئذانه . فسجد رينوه دى فيشيه وناول طرف عباءته للملك ، كما تقضى بذلك تقاليد تلك البلاد ، واضعا نفسه وما يملك تحت تصرفه ، ليختار ما يعوضه عما بدر منهم . حينئذ أصدر لويس حكمه بإبعاد هيوج دى جوى رسول الداوية لدى الناصر عن مملكة اللاتين فى بيت المقدس . ويقول جوانفيل الذى انفرد بذكر هذه الرواية ، إن مساعى رئيس الجماعة وكبار الصليبيين والملكة نفسها للعفو عن هيوج والحيلولة دون نفيه ، ذهبت أدراج الرياح [1] .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 280 - 282.

هكذا كبح لويس جماح هذه الجماعة ، وأذل رئيسها ، ونفى أحد كبار رجالها . وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على اتساع سلطته على جميع المسيحيين في الأراضي المقدسة ، واعتبارهم إياه ملكا عليهم (١) .

هذا ، وقد تدخل لويس في كل صغيرة وكبيرة من السياسة المحلية والادارة في البلاد اللاتينية في الشام ؛ من ذلك الأثر الذي تركه في العملة المتداولة فيها فيما بين ١٢٥٠ و ١٢٥٤ م. فقد ورد في بعض الأصول الغربية شذرات خاطفة لها قيمتها في هذه الناحية .

أول ما يسترعي انتباهنا أن الصليبيين كانوا يجلبون معهم العملة الغربية إلى الشرق ، كما كانت ترسل لهم النقود اللازمة من وراء البحار للإنفاق منها على قواتهم ووسائل معيشتهم . وقد عددت إحدى الوثائق القديمة في شيء من التفصيل المقادير المرسلة إلى الفونس كونت بواتييه شقيق لويس في عكا اثر وصوله إليها ، وهي تتضمن كميات كبيرة من السبائك والعملة المسكوكة من فضية وذهبية (٢) . وكانت النقود التي ترسل بهذه الطريقة عرضة للضياع بسبب مخاطر الطريق وبعد الشقة . فقد حدث أن بعثت الملكة بلانش إلى ابنها لويس في عكا عددا من الصناديق المملوءة بالعملة الفضية ، ولكن السفينة التي كانت تحمل الصناديق غرقت وهي في طريقها إلى عكا بسبب هبوب زوبعة بحرية .

وقد اعتاد الملك الفرنسي خلال إقامته في الشرق أن يستخدم عملته الخاصة المسكوكة باسمه (٣) ، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا نادرا وبمحض رغبته . من

---

(١) Grousset, Crois., III, 511.

(٢) Schlumberger, Principautés franques du Levant, 6.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 256. Cf. Schlumberger, Principautés franques du Levant, 45. ومما يذكر هنا أن العملة المتداولة في فرنسا في ذلك العصر =

ذلك أنه حضر ذات يوم صلاة جنائزية فى دير الاسبتارية بعكا، دعته إليها السيدة مرجريت دى رينل [١] صاحبة صيدا بمناسبة دفن عظام ابن عمها الكونت ولتر دى برين صاحب يافا الراحل . وعندما قــــدم طبق الزكاة للملك ، دفع بيزنطا ذهبيا من عمـــلة صاحبة صيدا ، الأمر الذى أثار دهشة الحـاضرين ، لأنهم لم يعرفوا عنه إطلاقا أنه يدفع إلا من عملته المنقوشة باسمه . ويقول جوانفيل إن الملك تصدق بمبالغ من عملة صاحبة صيدا إجلالا لها فحسب[٢] . وهذه الرواية فضـلا عن ذلك تثبت أن أمراء اللاتين فى الأراضى المقدسة ، كانت لهم عملاتهم الخاصة التى يتعـاملون بها [٣] ، وهى الآن نادرة الوجـود فى مجموعات النقود المعروفة فى متاحف أوروبا الكبرى [٤].

ويتحدث شلومبرجيه عن بعض التعديلات التى طرأت على عمـــلة سورية اللاتينية أثناء إقامة لويس التاسع فيها . يقول إن الافرنج كانوا يستخدمون قبل ذلك عملة على النسق الاسلامى ، منقوش عليهـــا بالعربية اسم الرسول والسنة الهجرية — وذلك ضمانا لاستمرار حركة المعاملة والتبادل التجارى مع جيرانهم

= كانت تعرف باسم تورنوا Tournois نسبة إلى مدينة تورز Tours . وقد استحدث القديس لويس إبان حكمه عملة ذهبية جديدة أسماها « التورنوا الكبير » Gros Tournois تمييزا لها عن التورنوا العادى المعروف، وقيمتها توازى ١٢ وحدة منه . أنظر : Grande Encyc. Art. France, Numismatique, XVII, 1141 & Art. Tournois, XXXI, 247.

(١) ورد اسم هذه السيدة فى مؤلف جوانفيل أكثر من مرة منذ وصول لويس التاسع إلى عكا ،وكانت وفاتها فى يونيو ١٢٥٤ م ، أنظر : Eracles, II, 441 & 441, n. n; Annales, II. II 446.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 254-6. Cf. Schlumberger, op. cit., 45.

(٣) Bray, 273.

(٤) شيخو : بيروت ، أخبارها وآثارها ص ٨٦٥ ؛ وكذلك Schlumberger, 45.

المسلمين . وقد خففت هذه الحركة التجارية من الحدة الدينية التى بين الفريقين. ومع ذلك كانت تعلو بين وقت وآخر صيحات السخط والاستنكار من المتعصبين من رجال الدين اللاتين ضد هذا الإجراء . فقد حدث أن بعث القاصد الرسولى الذى رافق لويس التاسع إلى سورية برسالة إلى البابا انوسنت الرابع فى هـذا الشأن . وقد فقدت هذه الرسالة ، ولكننا نحتفظ برد البابا عليها ، وفيه يطلب من رسوله اتخاذ الوسائل اللازمة لمنع استخدام هـذه العملة فى الإمارات اللاتينية ، ويخوله سلطة إصدار قرار الحرمان الكنسى ضـد كل من تسول له نفسه سك عملة إسلامية .

وقد تضايقت الجاليات الايطالية فى الأراضى المقدسة ، وخاصة البنادقة(١) من هذا الاجراء ، وأدركت أنه سيقف حجر عثرة فى سبيل مصالحها التجارية فى الشرق الاسلامى . فلجأت ، وفقا لرواية شلومبرجيه ، إلى حيلة دينية للتهرب من أوامر البابوية وعقابها . ذلك أنها بدلا من أن تضرب عملة إسلامية بحتة ، ضربت عملة مسيحية ، ولكن الكتابات المنقوشة عليها كانت تحمـل التاريخ الميلادى وبعض العبارات المسيحية باللغة العربية .

والغريب أن العملات التى عثر عليها من هذا النوع ضربت كلها فى عكا ، فيما بين ١٢٥١ م و ١٢٥٥ م . ومعنى ذلك أنه كانت فى مدينة عكا آنذاك دار لسك النقود ، وأن هذه العملات التى عثر عليها يرجع تاريخها إلى الفترة التى أقامها لويس التاسع فى سورية . ويرجح شلومبرجيه ، بناء على ذلك ، أن يكون

---

(١) كان للتجار البنادقة فى الاسكندرية فى ذلك الحين فندنان لسكنهم ولتخزين بضائعهم ، كما كان لهم كنيسة خاصة ، وغير ذلك من الامتيازات التى منحها لإياهم سلاطين مصر. أنظر:
Hyed, Hist. du Com , I, 410-2; Lane-Poole, Hist. of Egypt, 218.

للملك الفرنسى أثر فى هذا التعديل (١) . ولكن كيفما كان الأمر ، وسواء أكان لويس هو الذى أشار بهذا التعديل أم غيره من اللاتين ، فإنه لم يكن حيلة دينية حسبما ذكر شلومبرجيه . فقد أطاع التجار البنادقة البابا ، غير أن هدفهم من استخدام الكتابة العربية كان لدوافع اقتصادية بحتة . إذ كان المقصود من هذه العملة الجديدة هو استمرار حركة التعامل مع المسلمين . ولعل التجار البنادقة أدركوا ما يمكن أن يكون لاستخدام عملة منقوشة باللاتينية أو الفرنسية القديمة من أثر على التجار المسلمين ، بعد أن كان التعامل بالعملة الاسلامية . فلجأوا إلى هذه الحيلة ، متخذين قطعا فى نفس حجم القطع الإسلامى ، وإن اختلفت فى النقش ، حتى لا يشعر التجار المسلمون بانتقال فجائى شامل . فهى إذن حركة ذات هدف اقتصادى أكثر منه دينى .

وأخيرا ، وبعد أن درسنا علاقة لويس التاسع بالمسيحيين فى الشرق ، فإنه يجدر بنا أن نرسم للقارىء صورة سريعة عن أسلوب معيشته وحياته الخاصة هو ورجاله فى الأراضى المقدسة .

لاخلاف أن الأعمال والمشروعات التى قام بها هـذا الملك ، على تنوعها وكثرتها ، قد استنفدت الجانب الأكبر من وقته ، ولم تترك له إلا فترات قصيرة يعيش فيها بعيدا عن ضجيج السياسة وصخبها .

كان لويس مثالا للبساطة التى اشتهر بها طوال حياته . يذكر مؤرخه جوانفيل أنه دخل عليه فى خيمته ذات يوم فوجده مستندا إلى أحد أعمدتها ، وقد جلس على الرمل دون أن يفترش تحته شيئا (٢) . وحتى بعد عودته إلى

---

(١) Schlumberger, Principautés franques du Levant, 22-4.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 308.

فرنسا ، نراه يبتعد عن زخرف الحياة ، ويعيش عيشة النساك ، متوخيا البساطة التامة فى ملبسه ومأكله (١) . ولعل نشأته الدينية قد أثرت فى أسلوب معيشته .

كذلك جمعت المحبة والألفة بين الملك ورجاله فى تلك الفترة ، إيمانا منه بأن ذلك من العوامل التى تساعد الوصول إلى الغاية المنشودة . وكانت اجتماعاته بهم أشبه ما تكون باجتماعات عائلية لا تقيدها الرسميات ، يتناولون فيها الحديث الأخوى دون تكلف ، وبحرية تامة (٢) . ذهب جوانفيل يوما إلى الملك فى خيمته عندما كان معسكرا فى قيسارية ، وما أن أبصره لويس يدخل الخيمة ، وكان يتحدث مع القاصد الرسولى ، حتى نهض وجذبه إليه قائلا : « أنت تعلم أنى أبقيتك تحت نفقتى حتى عيد الفصح (٣) . لذا أتوسل اليك أن تخبرنى ماذا بوسعى أن أعطيك لعام آخر ابتداء من الفصح ؟ » فأجابه جوانفيل بأنه لا يريد أن يمنحه من ماله أكثر مما أنفقه عليه من قبل . وأضاف بأنه يؤثر أى يعقد معه معاهدة أخرى ، قائلا له : « إنك تغضب دائما عندما أطلب منك أمرا . وأود أن تعدنى بألا تثور إذا ما طلبت شيئا خلال هذه السنة . أما من ناحيتى فلن أغضب إذا ما رفضت إبقائى على نفقتك » . وعندما سمع الملك هذا الكلام انفجر ضاحكا ، وأجابه بأنه يوافق على إبقائه على نفقته وفقا لهذه الشروط . ثم قاد جوانفيل إلى القاصد الرسولى ومجلس مشورته ، وأعاد على مسامعهم المعاهدة الثنائية التى أبرمت بينهما، حتى أن الجميع لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك(٤) . وحدث بعد ذلك أن التمس جوانفيل من الملك أن يهب

(١) Joinville (ed. Wailly), 366-8.

(٢) Cf. Bray, 281.

(٣) المقصود هنا عيد الفصح لعام ١٢٥١م ، أنظر : Joinville (ed. Wailly), p. 274, n. 499-1.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 274.

أحد المقاتلين المعوزين فى المعسكر المسيحى جـوادا ، فأجابه بأن طلبـه غير معقول لأن الجواد يساوى مبلغا كبيرا .حينئذ ذكره جوانفيل بالمعاهدةالمعقودة بينهما ، وبأنه فقد أعصابه من أجل ما طلبه منه . فأجابه لويس ضاحكا بأنه من حقه أن يطلب منه ما يريد ، وأنه من ناحيته لن يثور إطلاقا . ويقـول المؤرخ الفرنسى : « ومع ذلك فلم أحصل على الجواد لهـذا السيد المسكين » (١).

وكان يطيب للملك لويس أحيانا أن يتريض فى الحقول ممتطيا جواده ، بمفرده أو فى صحبة أحد المقربين إليه . (٢) وكان جوانفيل من ألزم رجاله إليه. ويقول المؤرخ نفسه إنه لم يفارق مليكه طوال إقامته فى الأراضى المقـدسة . فكان من رجال مشورته الأخصاء ، يرافقه فى حله وترحاله ، ويتناول الطعام على مائدته صباح ومساء كل يوم (٣) .

ولعل أبرز سمة فى حيـــاة هذا الملك هى تقواه وتدينه . (٤) فـكان يؤدى الفروض الدينية فى أوقاتها ، ويعترف بآثامه من وقت لآخـر بين يدى معـرفه الخاص جوفروا دى بلييه ، ملتمسا منه العفو والغفران ، وكان يجد فى ذلك راحة نفسية كبيرة (٥) . كما كانت له كنيسة صغيرة خاصة به داخل المعسكر الصليبى حيث يستمع إلى القداس والمواعظ الدينية ، ويقضى فيهـا كذلك سويعـــات فراغه (٦) . يقول جوانفيل إن قوات دمشق هاجمت المعسكر المسيحى قبـالة يافا

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 278.

(٢) Joinville (ed Wailly), 322.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 222, 224, 234, 274, 325 etc. Cf. Sepet, St. Louis, 41, 47 – 52.

(٤) Guizot, 117.

(٥) Nangis, Vita Ludovici, XX, 387.

(٦) Nangis, Vita, XX, 387. Cf. Bray, 289.

فى عيد القديس يوحنا لسنة ١٢٥٣ م ، وذلك بعد انعقاد الصلح بينها وبين أمراء مصر . فأخذ أحد المقاتلين الصليبيين فى البحث عن الملك الفرنسى ليفضى إليه بالخبر ، وأخيرا وجده فى الكنيسة يستمع إلى الموعظة الدينية ، فدخل عليه أثناء الوعظ ، وأحاطه علما بما حدث (١). ويمكن القول دون مغالاة بأن تنشئة لويس الدينية قد بلغت حد التعصب . ولعل من أبلغ آثاره تلك الحملات الصليبية التى شنها على بلدان الشرق العربى بغية بسط النفوذ اللاتينى عليها .

ومن الطبيعى أن ينتهز الملك لويس فرصة وجوده فى الشرق، فيزور الأماكن المقدسة فيها كأى حاج عادى ، خاصة وأن الظروف كانت مهيأة لهذا الغرض . فكان مما زاره صفورية وقرية قانا الجليل وجبل تابور والناصرة (٢) . ولم تحدد الأصول الغربية تاريخ قيامه بهذه الزيارات الدينية (٣). واكتفى كل من وليم دى نانجى وجوفروا دى بلييه ، بقولهما إنه قام بها بعد مغادرته عكا . فإذا علمنا أنه رحل عنها قاصـــدا قيسارية فى ٢٩ مارس ١٢٥١ م (٤) ، وأنه أقام فى قيسارية من مايو ١٢٥١ م إلى ابريل من السنة التالية (٥) — أمكننا القول أن هذه الزيارات قد تمت فى خـــلال شهر ابريل من سنة ١٢٥١ م .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 298, 326.

(٢) « Li roys se parti d'Acre et vint Jusques a Cephore, qui est en la Chane de Galilee .. et vint par le mont de Thabor, la vegile de Iesumption Nostre Dame en la cité de Nazareth » Nangis, Vita Ludovici, XX, 385; cf. Beaulieu, Hist. de Fr., XX, 14. أنظر كذلك خريطة خط سير لويس التاسع فى الأراضى المقدسة .

(٣) Bray, 277.

(٤) Annales, II, II, 445.

(٥) Ludovici noni mansiones, XXI, 414.

ويتحدث معرف الملك عن خشوع لويس وتواضعه فى رحلتـــه إلى النـاصرة . يقول إنه عندما أبصر المدينـة عن بعد ، ترجل عن جواده وخر ساجـــدا ، ثم قطع المسافة إليها سيرا على الأقدام ، إجلالا لتلك البقعة التى بشر فيها الملاك مريم بالمسيح (١) .

وبينما كان لويس مقيما فى يافا دعاه النـــاصر يوسف سلطان دمشق لزيارة بيت المقدس تحت حمايته (٢) . ولم يشأ أن يبت برأى فى هـذا الأمر ، وعقد مجلسا، كعادته دائما ، لبحث الموضوع . وقد أجمع الحاضرون بأنه لا يجوز للملك أن يذهب حاجا إلى تلك المدينة التى قدم خصيصا للاستيلاء عليها . وقالوا إنه إذا قبل الحج إليها ، فسيكون ذلك سابقة لمن يأتى بعده من الحجاج والمحاربين الصليبيين الذين سيترسمون خطاه ، ويكتفون بأداء فريضة الحج إلى بيت المقدس؛

---

(١) " inde eadem Vigilia descendit in Nazareth. Cum autem a longe locum sanctum videret, descendens de equo flexis genibus devotissime adoravit, et sic pedes incessit donec humiliter civitatem sacram, et pium locum incarnationis intravit. E die in pane et aqua devote jejunavit, quamvis plurimum laborasset., etc. " Beaulieu, XX, 14. Cf. Nangis, Vita, XX, 385.

(٢) ترجح مدام براى أن يكون صاحب دمشق قد علم برغبة لويس فى زيارة بيت المقدس من رسوله إليه ايف لبرتون. وتذكر أن لويس أسف لأن الفرصة سنحت له دون أن يستغلها. أنظر Bray, St. Louis, 277. وهذا احتمال بعيد ، لأنه لو كانت عنده نية زيارتها، لما كان هناك أى داع لعرض الأمر على معاونيه ، ولتوجه مباشرة إليها . والمعقول أن اتفاق لويس مع مماليك مصر آنذاك جعله يخشى تلبية هذه الدعوة التى تقدم بها صاحب الشام حتى لا تسوء العلاقات بينهما . وإذن فان مسألة رفض لويس زيارة اورشليم ترجـع لأسباب سياسية أملتها الظروف المحيطة ، وليس استجابة لرغبة المجلس وفقا لرواية جوانفيل فى هذا الشأن .

دون أن يشغلوا أنفسهم بفكرة غزوها . واستشهد أعضاء المجلس بواقعة معروفة في تاريخ الحملة الصليبية الثالثة ، وهي أنه عندما اقتربت القوات الصليبية في سنة ١١٩٢ من أسوار بيت المقدس ، أسرع أحد الفرسان إلى ريتشارد قلب الأسد مستدعيا إياه لرؤية المدينة . ولكن الملك الانجليزي أجابه بأنه لن يسمح لنفسه برؤيتها طالما لم يكن بامكانه امتلاكها (١) .

إن أعمال لويس المتواصلة أنسته نفسه وواجبه نحو زوجه وطفليه الذين كانوا معه . يقول جوانفيل إن الملك عندما غادر يافا إلى صيدا لتحصينها ، اضطر إلى ترك زوجته مرجريت في المدينة لأنها كانت تعاني آلام الوضع وقد أنجبت طفلة أطلق عليها لويس اسم « بلانش » نسبة إلى أمه (٢) . وبعد أن تعافت الملكة أبحرت إلى صيدا للحاق بزوجها ، ولكنه لم يتوجه لاستقبالها . فذهب جوانفيل للقائها ، وقادها إلى قلعة المدينة . ولما عاد إلى لويس وكان في كنيسته ، سأله عن زوجه وطفليه ، فطمأنه عليهم . وحينئذ قال له الملك : « علمت تماما عندما نهضت وتركتني أنك ذاهب لمقابلة الملكة ، ولهذا السبب انتظرت لسماع الموعظة الدينية » . ويقول المؤرخ إنه لم يسمع الملك يتحدث إليه أو إلى غيره خلال الفترة التي أقامها في سورية عن أسرته ، ويأخذ عليه

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 304-5. Cf. Guizot, 91-2; Ludlow, 357; Perry, 212; Walsh, 208.

(٢) « A Japhe ot la royne Marguerite une fille, que li roys Loys fit apeler Blanche, pour lamour de sa chiere mer » Nangis, Vita, XX, 385. وكانت مرجريت قد وضعت قبل ذلك طفلا ذكرا أثناء إقامتها بدمياط اسمته يوحنا الحزين Jean Tristan نظرا للظروف القاسية التي ولد فيها ، أنظر Joinville (ed. Wailly), 281. وقد توفي وهو على حصار تونس سنة ١٢٧٠ م ، أنظر Joinville (Johnes'tr.) 459, n. 1.

موقفه هذا قائلا : «لأنه حسبما يلوح لى ليس من المستطاب أن يكون الملك منعزلا عن زوجته وأولاده » (١) .

وكان جوانفيل ذا نزعة دينية مثل مليكه . فقد التمس منه أثناء وجوده فى صيدا السماح له بزيارة مدينة انطرطوس (٢) القريبة من طرابلس ، وكانت قبلة الحجاج لأنه شيدت فيها أول كنيسة للسيدة العذراء . فأجابه الملك إلى سؤله ، وكلفه أن يشترى له من هناك مائة قطعة من القماش المصنوع من وبر الأبل لإهدائها للإخوان الفرنسيسكان بعد عودته إلى فرنسا وعند مرور جوانفيل بطرابلس فى طريقه إلى انطرطوس رحب به صاحبها بوهيمند السادس ، وقدم له هدايا فاخرة فاعتذر عن قبولها ، واكتفى بقبول الآثار المقدسة التى أعطاها للملك لويس هى وقطع الثياب التى جلبها له (٣) .

ويروى جوانفيل حادثة طريفة وقعت بسبب هذه الأقمشة . ذلك أنه أرسل أربع قطع منها مع أحد فرسانه إلى الملكة كهدية . وعندما أبصرت مرجريت الفارس يدخل غرفتها . اعتقدت أنه يحمل لها بعض الآثار المقدسة ، فسجدت أمامه ، وسجد الفارس بدوره أمامها . فطلبت منه أن ينهض ، لأنه لا يليق بمن يحمل هذه الآثار أن يسجد . فأجابها الفارس بأنها ليست كذلك ، وإنما أقمشة من

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 324-6. Cf. Perry, 218.

(٢) جاء فى ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ٣٨٨) أنها « بلد من سواحل بحر الشام .. وهى من أعمال طرابلس مطلة على البحر فى شرقى عرقة بينهما ثمانى فراسخ ، ولها برجان حصينان كالقلعتين » ، وتعرف فى التواريخ اللاتينية باسم طرطوسا Tortosa وأسمها اليوم طرطوس .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 328. — وإن دل نص جوانفيل على شىء فانما يدل على تخصص البلاد الصغيرة فى الشام فى صناعة النسيج الذى اشتملت بتصديره خاما الى الخارج ونسج بعضه محليا . أما المراكز الرئيسية لصناعة الحرير فيها فكانت انطاكية وطرابلس وصور . أنظر Heyd, Hist. du Com., 178.

وبر الابل بعث بها سيده إليها . وعنـدما سمعت الملكة ذلك انفجرت هى ومن معها ضاحكات ، وقالت مخاطبة الفارس : « قل لسيدك إنى أتمنى له حظـا سيئـا لأنه جعلنى أسجد أمام أقمشته » (١) .

وإذا انتقلنـا إلى باقى الصليبيين ، نجد أنهم كانوا ـ عنــدما يدق ناقوس الخطر ـ يهبون للدفاع عن أنفسهم وعن الإمارات اللاتينية ضد الهجمات التى تتعرض لها (٢) . وفيما عدا ذلك كانوا يقضون أوقات فراغهم فى اللهو والصيد والشجار المستمر . ومؤلف جوانفيل ملىء بالأمثلة التى تشهد بذلك. فقد حدث أن تشاجر اثنان من فرسانه ، بدعوى أن كلا منهما أعد له مأوى أفضل مما أعده زميله ، وانتهى الأمر بأن وثب أحدهما على الآخر وجذبه من شعـره ، فاضطر جوانفيل إلى طرد المعتدى من خدمته جزاء على تصرفه . وقد توسط جيل ابرن ماريشال فرنسا لدى جوانفيل للعفو عن الفارس المذنب ، فأجابه بأنه لن يعيده إلى خدمته ما لم يجعله القاصد الرسولى فى حل من اليمين الذى أخـذه على نفسه . وعنـدما عرضت ظروف الحادث على القـاصد الرسولى أجاب بدوره بأنه ليس من سلطته إعفاؤه من قسمه ، وأضاف بأن الفـارس يستحق الجـزاء الذى وقع عليه (٣) .

وحدث أيضا أثناء إقامة لويس وقواته فى قيسارية ، أن تطاول أحد جنوده على أحد فرسان جوانفيل باليد . فتوجه جوانفيل إلى الملك شاكيا من تصرف هذا الجندى ، طالبا ضرورة إنصافه . فوافق لويس على أن تأخذ العدالة مجراها وفقا لعادات تلك البلاد ، وهى أن يأتى الجندى عارى القدمين إلى خيمة جوانفيل

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 328–330. Cf. Bray, 283-4.

(٢) Cf. Joinville (ed. Wailly), 276.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 310.

وهو بملابسه الداخلية فقط ، يمسك بيده سيفا مسلولا ، ثم يخر ساجدا أمام الفارس الذى تطاول عليه قائلا له : « استميحك عذرا يا سيدى لتطاولى عليك باليد . وها أنا قد جئت لمصالحتك ، وقد أحضرت لك هذا السيف لتقطع به يدى إن قبلت ذلك » . حينئذ رجا جوانفيل فارسه أن يصفح عن الجندى ففعل ، وانصرف الرجل بسلام (١) .

ويقول جوانفيل فى مناسبة أخرى إنه بينما كان فرسانه يصطادون أحد الحيوانات المفترسة ، هجم عليهم فرسان الاسبتارية وأبعدوهم بالقوة . فشكا إلى كبيرهم الذى أجابه بأنه سينصفه وفقا لما هو متبع فى الأراضى المقدسة ، وهى أنه سيأمر الرهبان الذين اقترفوا هذا العمل أن يتناولوا وجباتهم على الأرض جالسين فوق عباءاتهم إلى أن يعفى عنهم أولئك الذين أهينوا . وقد حافظ الرئيس على وعده . وعندما قضى الرهبان بعض الوقت فى تناول الطعام على هذه الصورة ، توجه جوانفيل إلى كبير الجماعة ، وتوسل إليه أن يأذن لهم بالنهوض . وكذلك رجاه فرسان جوانفيل ، فرفض قائلا بأنه لا يرضى أن يهين الإخوان أولئك الذين يفدون إلى الأراضى المقدسة . حينئذ افترش جوانفيل الأرض إلى جانبهم ، وأخذ يتناول الطعام معهم وأخبر كبيرهم بأنه لن ينهض ما لم ينهضوا . فأجابه إلى مطلبه ، ودعاه هو وفرسانه لتناول الطعام على مائدته الرئيسية ، بينما انضم الرهبان إلى باقى إخوانهم (٢) .

وقد تبدو مثل هذه الحوادث العابرة تافهة فى حد ذاتها ، ولكنها لم تكن كذلك فى العصر الذى حدثت فيه . فضلا عن أنها تلقى بعض الضوء على العرف

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 2/8–280.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 278. Cf. Bray, 281-2; King, Knights Hospitallers, 250.

السائد فى تلك البلاد وعلى عاداتها وتقاليدها (١) ، التى احترمها الملك الفرنسى، وحكم بين الناس بموجبها (٢) .

وإذا كان لنا أن نستخلص حقيقة مما سبق أن بيناه مفصلا ، فهى أن الملك الفرنسى لويس التاسع كان يرى أن السبيل الوحيد إلى تحقيق غايته الرئيسية - بعد أن أخفقت محاولاته العسكرية والسياسية - هو العمل على ضم صفوف الفرنج بالشرق ، وتقويتهم ، وتحصين إماراتهم ، وإصلاح أحوالهم . وبذلك يصبح أمر تنفيذ غرضه الصليبى سهلا ميسورا .

هكذا عمل لويس وثابر فى العمل لتحقيق مآربه ، ودعا إلى تنظيم الصفوف وتوحيد الجهود ونجح فى دعواه بعض النجاح . وهكذا تخلصت الإمارات اللاتينية خلال السنوات الأربع التى أقامها بين ظهرانيها من الضعف الذى كان مستوليا عليها ، والخلافات التى كانت تنخر فى عظامها . ولكن لم يكد لويس أن يبحر إلى بلاده ، حتى عادت الدسائس والانقسامات تدب فيها بلا هوادة ، فسهل ذلك على بيبرس وقلاوون والأشرف خليل مهمة الاستيلاء عليها ، وطرد اللاتين منها إلى غير رجعة فى وقت كان فيه ميزان القوى قد اعتدل بصفة نهائية لصالح العرب وأصبح مركز الثقل يميل بقوة إلى جانبهم .

أما إصلاحات لويس الإنشائية فكانت أعم نفعا وأبقى أثرا . ولا تزال أطلال القلاع والأسوار التى أقامها شاخصة حتى يومنا هذا على طول الساحل السورى ، تروى ذكريات ترجع إلى سبعة قرون خلت .

---

(١) Bray, 280, 284. — ومن تقاليد مدينة قيسارية أيضا ما ذكره جوانفيل من أنهم كانوا أثناء تناول الطعام يجلسون فى مواجهة بعضهم بعضا على حصر مبسوطة على الأرض. أنظر Joinville (ed Wailly), 276.

(٢) Perry, 210.

الفصل التاسع

أثر لويس فى الحركة الصليبية

إن أعز أمنية عند الملك لويس التاسع كانت بلا شك الاستيلاء على بيت المقدس والعمل على تعزيز ممتلكات اللاتين فى الشرق . ولهذه الغاية وحدها قصد مصر فى حملته المشئومة ، ثم توجه إلى سورية حيث أمضى أربع سنوات كاملة فى عمل شاق طويل ، قفل بعدها عائدا إلى بلاده .

ولم يكن قرار لويس العودة إلى فرنسا مفاجئا أو غير متوقعاً . فهناك عدة أسباب مهدت له ، وأخرى عجلت بتنفيذه .

فبينما كان الملك فى صيدا يشرف بنفسه على تحصينها بلغه نبأ وفاة والدته الملكة بلانش(١) التى كانت تنوب عنه فى الحكم . وكان أول من علم بالنبأ القاصد الرسولى ، فتوجه هو ورئيس أساقفة صور والراهب جوفروا دى بلييه إلى لويس فى كنيسته الخاصة ، حيث نعوا إليه الخبر . وكان وقع الصدمة شديدا عليه ، حتى أنه لم يتمالك نفسه وانفجر باكيا (٢). وبقى منطويا على نفسه لا يقابل أحداً ولا يتحدث إلى أحد طيلة يومين كاملين ، إلى أن كان اليوم الثالث ، فاستدعى جوانفيل ليفضى إليه بحزنه ومصابه ، وأخذ صديقه فى تهدئته راجيا إياه أن يتمسك بحبل الله ، وأن يتذرع بالصبر (٣) .

---

(١) توفيت بلانش فى أواخر نوفمبر ١٢٥٢ م ، ولو أن النبأ لم يبلغ لويس الا فى مستهل ١٢٥٣م ، وكان فى ذلك الحين يشرف على تحصين صيدا . أنظر عن ذلك :

Eracles, II, 440 & 440 n. L.; Joinville (ed Wailly), 331. n. 603-1.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 330; Nangis, Vita, XX, 385.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 330.

لقد أدرك لويس باعتباره إبنا وملكا أن موت بلانش خسارة لا تعوض . إذ كانت من أكثر نساء عصرها حزما وتبصرا . كما كانت تتمتع بذكاء خارق ، وشجاعة فائقة مع نبل فى الأخلاق ، ومثابرة على العمل . ويكفى أنها نجحت فى حفظ المملكة سالمة مما كان يتهددها أثناء قصور ابنها وفى فترة تغيبه فى الشرق ، فأثبتت أنها جديرة بالملك ومجابهة المخاطر والصعاب (١) . ولا شك أنها كانت المرأة التى أعجب بها لويس دون غيرها ، والتى كانت موضع ثقته واحترامه وتقديره (٢) . وغير خاف أن من العوامل التى شجعته على القيام بحملته الأولى على مصر ، وإطالة إقامته فى الأراضى المقدسة ، اطمئنانه إلى أن البلاد فى أيد أمينة . ولكن بعد أن فقد بلانش اختلفت الأوضاع ، وأخذ يفكر جديا فى أمر العودة.

أصبحت فرنسا بعد موت بلانش مسرحا للفوضى والحروب الأهلية، وباتت الأخطار تهددها من الداخل والخارج . فقد تولى مقاليد الحكم ابنها شارل كونت انجو الذى قاده طموحه وتهوره إلى صعوبات جديدة ، بينما لم يتمكن الفونس كونت بواتييه من الاشتراك الفعلى فى الادارة بسبب مرضه . كما كانت الحرب قائمة فى الأراضى الواطئة من أجل الوراثة ، الأمر الذى كان يحتمل أن يسبب للمملكة بعض المضايقات (٣) . ثم أن الاضطرابات التى وقعت فى مقاطعة جاسكونيا ، ولم يتمكن حاكمها سيمون دى منتفرت من كبحها ، حملت ملك انجلترا على المجىء إلى فرنسا . واستغل هذه الفرصة لتجديد علاقاته

---

(١) Nangis; Vita, XX, 387. Cf. Chronique Anonyme des rois de Fr., XXI, 83.

(٢) Guizot, 94; Perry, 213.

(٣) Chronique Anonyme des rois de Fr., XXI, 83. Cf. Matt. of Westminster, Flowers of Hist., II, 334.

ومؤامراته ضد الملكية الفرنسية فى كل من بواتييه ونورمانديا . هذا ، فى الوقت الذى انتهى فيه أجل المعاهدة المعقودة بين البلدين . ويبدو أن هنرى الثالث كان يستعد آنذاك لاسترداد ممتلكاته المغتصبة منذ أيام فيليب اغسطس (١) . أضف إلى ما تقدم أن مطامع البابا انوسنت الرابع ، ونزاعه مع الامبراطورية ، أوجدا نوعا من القلق فى فرنسا نفسها (٢) .

وصلت أنباء هذه الاضطرابات إلى لويس فى سورية . كما وصلته رسائل عديدة من البارونات وكبار رجاله يستعجلون حضوره حتى لا تقع البلاد فريسة للطامعين والنهازين للفرص (٣) . فأخذ يبحث أمر بقائه فى الأراضى المقدسة أو عودته إلى فرنسا (٤) ، كما فعل تماما عقب وصوله إلى عكا فى مايو ١٢٥٠ م قادما من مصر .

لقد حمل هذا الملك الصليب لهدف واضح هو امتلاك بيت المقدس . ووضع خطة ضخمة سار عليها أثناء إقامته فى بلاد الشام لتحقيق هذا الهدف . ولكن خطته كانت قد وصلت عند نهاية معلومة فى الوقت الذى بلغه فيه نبأ موت أمه بلانش ، فوقف بذلك استمرار نشاطه فى الشرق (٥) ، بعد أن ضحى بجيشه فى مصر ، وذهبت محاولاته لإثارة حملة عسكرية أخرى فى الشام أدراج الرياح (٦) .

---

(١) Nangis, Vita, XX, 389.

(٢) Kitchin, I, 347.

(٣) Nangis, Vita, XX, 839; Anonymous, Hist. de Fr., XX, 56.

(٤) Bray, 292.

(٥) Petit – Dutaillis, Monarchie Féodale, 198; Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 198; Ludlow, 359.

(٦) Stevenson, Crusaders in the East, 331; Bray, 292.

كما أن الدور الذى قام به للإفادة من النزاع الذى نشب بين المسلمين فى مصر والشام عقب ثورة المماليك البحرية باء بالفشل بعد الصلح بينهما . هذا ، فضلا عن أن ردود التتار لم تكن توحى بامكان الوصول إلى عمـــل إيجابى مشترك من شأنه إقلاق المسلمين ومضايقتهم . ثم أن سفارته التى أرسلها إليهم من قيسارية والتى كان يترأسها وليم روبروك ، سافرت متأخرا ولم يكن من المنتظر عودتها فى وقت مناسب إذا قورنت ببعثته التى قامت من قبرص فى ١٢٤٨ م ، إذ لم تعد إليه إلا بعد مضى ثلاث سنوات تقريبا ، وكان قد غادر الديار المصرية إلى سورية . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد وصلت بعثة روبروك إلى عكا بعد رحيل لويس إلى الغرب الأوروبى ببضعة أشهر .

لقد أثارت هذه المسائل كلها صراعا أليما فى نفس لويس المضطربة . فهل يبيح له فشله فى انتزاع القدس أن يتراجع عن قضية سعى جاهـــدا لتحقيقها ؟ ومن ناحية أخرى ، هل يمكن أن يبرر بقاءه فى الأراضى المقدسة لشعبه الذى اختارته العناية الإلهية ليحكمه ويسوسه ؟ وبكلمة أخرى ، هل يترك بلاده تضيع فى سبيل قضية فاشلة ؟

كان عليه إذن أن يختار بين أحد أمرين : إما أن يستجيب لنـــداء الوطن الذى فقد بلانش وبات عرضه للقلاقل ، وهو يدرك تماما أن موتها ترك فراغا كبيرا لن يملأه أحد غيره . وإما أن يبقى فى الأراضى المقـدسة ، وهو يعلم كذلك أنه أدى واجبه فيها ، وأن مهمته انتهت أو أوشكت على الانتهاء ، ولم يعد هناك ما يبرر بقاءه . ولكنه مع كل هذا ، لم يبت برأى نهائى سريع ، بل استدعى إليه القاصد الرسولى ، وكشف له عما يدور بخلده ، وطلب منه إقامة طقوس دينية ، عسى أن يهديهم الله إلى معرفة الطريق الصحيح (١) .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 330.

بعد ذلك عقد لويس فى مدينة صيدا التى كان يقيم فيها، مجلسا من مستشاريه ورجال الدين الذين معه للتباحث فى الأمر (١) . وهـذا المجلس يذكرنا بمجلس عكا الصليبى ، الذى عقده لويس عقب مقدمه مع فلول قـواته إلى عكا ، وقـرر فيه البقاء فى الأراضى المقدسة لحمايتهـا والدفاع عنهـا . ولـكن الظروف كانت تختلف تماما فى كلتا الحالتين . ففى أثناء المجلس الأول كانت فرنسا آمنة مطمئنة تحت حكم الملـكة بلانش . كما كانت بلاد اللاتين فى الأراضى المقدسة فى حاجة إلى من يرعاها ، ويصلح أحوالها ، ويقوى وسائل دفاعهـا . وفوق هـذا وذاك كانت الظروف السياسية فى الشرق مشجعة على بقائه . أما الآن فقـد أصبحت المملـكة بلا حاكم يحفظها ويدير شئونها ، وأخذت أطماع الطامعين تظهر من جديد . هذا ، فضلا عن أن لويس كان قد بذل أقصى ما يمكن بذله من النشاط السياسى ، ولم يعد هناك ما يستوجب بقاءه لفترة أخرى . وقد أدرك الافرنج المستقرون فى الشرق هـذه الظروف .

يقول جوانفيل إن أشراف سورية ورجال الدين فيها جاءوا إلى لويس فى صيدا ، وخاطبوه قائلين: «لقد حصنت يا مولانا صيدا وقيسارية ويافا ، ويعتبر هذا كسبا عظيما للأراضى المقدسة . كما أنك عززت عكا بالأسوار والأبراج . مولانا ، لقد تدبرنا الأمر فيما بيننا ، ووجدنا أن إقامتك هنا (بعـد الآن) لن تعود بنفع آخر على مملـكة بيت المقدس . لذا ننصحك الرأى بالتوجه إلى عكا فى عيد الفصح القادم ، والاستعداد للسفر ، حتى يتسنى لك العودة إلى فرنسا بعد العيد .» (٢) وإن دل هـــذا النص على شيء فإنما يدل على أن افرنج الشرق لم

---

(١) Nangis, Vita Ludovici, XX, 389. Cf. Anonymous, Hist. de Fr., XX, 56.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 336. Cf. Watson, Story of Jerusalem, 236.

ويرجح الـكاتب هارولد لامب أن بارونات سورية ورجال الدين فيها قد ملوا سياسة =

يعارضوا فى أمر عودة الملك هذه المرة ، ولم يضغطوا عليه لإطالة إقامته بينهم بعد أن أدى واجبه نحوهم كاملا ، وبعد أن أطمأنوا إلى مناعة بلادهم ، وأنها أصبحت فى مأمن من الهجمات المفاجئة (١) .

لكل هذه الأسباب مجتمعة ، أشار أعضاء مجلس صيدا على لويس بالعودة إلى فرنسا ، ولم يسعه إلا الموافقة (٢) . ويبدو أن جوانفيل لم يحضر هذا المؤتمر ، وأنه علم بالقرار من القاصد الرسولى . يقول فى مؤلفه إن القاصد بعث فى طلبه ، بعد انتهاء الاحتفالات الدينية التى كان الملك قد أمر بإقامتها فى المعسكر الصليبى ، وقال له : « أيها الحاكم إن الملك يقدر خدماتك حق قدرها . ولقد طلب منى أن أخبرك أنه رتب شئونه بحيث يعود إلى فرنسا بعد عيد الفصح القادم . » فأجابه جوانفيل بأنه يرجو أن يحقق المولى رغبته (٣) .

= الحزم والشدة التى انتهجها لويس فى سورية ، فعملوا على التخلص منه . ووجدوا الفرصة مواتية لتنفيذ خطتهم عندما بلغ لويس خبر موت بلانش ، واستدعائه للعودة إلى بلاده . أنظر Lamb, 325. ويجب أن نتقبل هذا الرأى بشىء من الحذر ، أولا لأن إقامة لويس فى الشام عادت بفائدة محققة على الإمارات اللاتينية فيها . ثم أن اللاتين فى الشرق ، كانوا يكنون له الحب والتقدير والاحترام ، ونظروا إليه باعتباره حاكما عليهم . ويكفى أنهم هم الذين ألحوا عليه فى مجلس عكا بالبقاء فى الأراضى المقدسة ، لاتخاذ الوسائل الكفيلة لحمايتهم ، ويؤيد ذلك التسلسل التاريخى لحوادث تلك الفترة .

(١) Perry, 221; Walsh, 214.

(٢) «Quand li roys entendi ce, si prit conseil a ses barons et aus prelas qui estoient avecques lui, si que il saccorderent et donnerent conseil au roy que il retournat en France. A ce conseil se consenti li roys. » Nangis, Vita, XX, 339.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 334. ، والمقصود هنا ، عيد الفصح لعام ١٢٥٤ م .

بعد ذلك جرت محادثة بين الرجلين لها دلالتها . قال القاصد الرسولى لصاحبه إنه يتوجه بالشكر إلى الله لنجاة الملك الفرنسى والحجاج الآخرين من الأخطار التى أحاقت بهم فى تلك البلاد . ثم أبدى حزنه الشديد لاضطراره إلى مفارقة لويس ورجاله ، والعودة إلى البلاط البابوى فى روما لكى يعيش بين الغادرين الذين هناك (١) . ويكشف هذا النص عن المكانة التى كان يتمتع بها لويس من ناحية ، كما أنه يعزز تفسيرنا للموقف الذى اتخذه البابا حيال الملك الفرنسى فى سورية من ناحية أخرى . ويقول أحد الكتاب المحدثين إنه « لما يدعو إلى الدهشة أن ينصرف أحد كبار رجال الدين عن رفاقه الكنسيين ، وعن أسمى مكان فى العالم المسيحى ، سعيا وراء الحق والصلاح فى معسكر ملك » (٢) .

والواقع أن هذه اللهجة الشديدة التى استخدمها القاصد الرسولى تتفق تماما مع روايات متى الباريزى وملاحظاته المتكررة فى هذا الصدد ، كما أنها تتفق ورأى لويس التاسع والملكة بلانش فى البابا وكرادلته (٣) .

على أى حال ، تنفيذا للقرار الذى اتخذه مجلس مشورة الملك ، وعملا بنصيحة افرنج الشام ، غادر لويس مدينة صيدا فى فبراير ١٢٥٤ م قاصدا صور حيث كانت الملكة مرجريت وطفلاه قد سبقوه إليها فى معية جوانفيل . ومنها واصل الجميع الرحلة إلى عكا ، فبلغوها فى الخامس والعشرين من نفس الشهر ،

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 334.

(٢) Perry, 221.

(٣) Bray, St. Louis, 293.

وهو يوافق بداية الصوم الكبير عند المسيحيين الكاثوليك (١) .

أخذ الملك بعد ذلك يستعد لركوب البحر ، فجهز السفن اللازمة ، وكان عددها ثلاث عشرة قطعة ما بين كبيرة وصغيرة . وفى الرابع والعشرين من أبريل سنة ١٢٥٤ م ، امتطى هو وأتباعه متن اليم توطئة للرحيل . وكان فى توديعهم القاصد الرسولى (٢) وبطريارك بيت المقدس ، وأشراف سورية ورجال الدين فيها ، وجمع غفير من مختلف الرتب والطبقات ، وقد بدا عليهم الحزن العميق ، وكأنهم أحسوا أنه سيكون الوداع الأخير (٣) .

وأخيرا فى مساء عيد القديس مرقس الذى يوافق ٢٥ أبريل، أقلع الأسطول الصليبى الصغير من ميناء عكا يقل الملك والملكة وطفليها ومن تبقى من رجالهما، وأخذ يبتعد تدريجيا عن الساحل الشامى ميمما شطر الغرب الأوروبى (٤). وقد ترك لويس فى الأراضى المقدسة على نفقته الخاصة (٥) قوة رمزية تتألف من مائة فارس على رأسهم السيد جوفروا دى سارجين، للمحافظة على بقايا ممتلكات اللاتين هناك (٦) .

---

(١) Joinville (ed. Wallly), 336, 338. — وفى تاريخ هرقل أنه وصل الى عكا قادما من صيدا فى ٨ مارس ١٢٥٤ م ، أنظر Eracles, II, 441, n. h.

(٢) كان القاصد الرسولى وفقا لرواية جوانفيل قد قرر البقاء فى سورية لمدة سنة أخرى، حتى ينفق المال المتبقى معه فى أعمال البر والتحصين ، ثم يعود الى وطنه فى روما صفر اليدين نقى السمعة . أنظر Joinville (ed. Wallly), 334.

(٣) Bray, 294; Perry, 222; Walsh, 214.

(٤) Annales, II Il. 446; Eracles, II, 441 & 441, n. L; Joinville (ed. Wailly), 338.

(٥) Nangis, Vita, XX, 389. Cf. d'Avesnes, XXI, 170.

(٦) = « et laissa a mon seignor Giefroi de Sergines senesehal du

وبعد رحلة بحرية شاقة بسبب رداءة الجو وهبوب العواصف البحرية، وصل الأسطول الصليبي ميناء هيير Hyères بفرنسا في يوليو ١٢٥٤م، وهو من ممتلكات كونت انجو وبروفانس الذي أصبح فيما بعد ملكا على صقلية. ونزل لويس في هذا الميناء، واتخذ الطريق البرى إلى باريس التي بلغها في سبتمبر من نفس السنة(١).

وكان فرح الشعب بالغاً بعودة مليكه سالماً بعد غيبة ست سنوات ذاق فيها الأمرين وتلقى اللطمات الشديدة. وبين مظاهر هذا الابتهاج، بدا لويس حزينا مكتئباً هزيلا (٢). لقد انتهت محنته، ولم يكن بوسعه الآن إلا أن يفكر في أنه عاد إلى مملكته رجلا مريضاً فاشلا محطما، بعد أن أنفق ثروة طائلة وبذل جهوداً ضخمة، في سبيل فكرة جاءت نتائجها مخيبة لظنه وآماله.

هكذا أقام لويس في بلاد الشام، بعد خذلانه في مصر، أربع سنوات حاول خلالها بكافة الطرق غزو البيت المقدس والمحافظة على كيان اللاتين الدخلاء هناك. ووضع لذلك برنامجاً كبيراً محكما، واضح المعالم متشعب الأطراف. وكان من الطبيعي أن يتجه تفكيره أول ما يتجه إلى إثارة حملة عسكرية جديدة تعوض إخفاقه الذريع على ضفاف النيل. ولكن العالم اللاتيني آنذاك لم يكن مستعدا أو مهيأ للاشتراك في حرب خارج أراضيه، ففشلت مناوراته الحربية هذه. ولم يقف لويس مكتوف اليدين، بل استغل الظروف المحيطة به استغلالا ينم عن مهارة سياسية، وحصافة في الرأي، وبعد في النظر، وروية في التفكير.

---

roiaume C. chevaliers por le roiaume de Surie garder» Eracles, II, 441, Cf. Annales, II. II. 446.

(١) Joinville (ed. Wailly), 338–366. Cf. Nangis, Vita Ludovici, XX, 389, 391.

(٢) Chronique Anonyme des rois de France, XXI, 83.

فقد أتاح له النزاع بين مسلمى مصر والشام عقب اغتيال المعظم توران شاه ، ثم العداء التقليدى المستحكم بين الشيعة والسنة ، فرصة طيبة لتبادل البعوث والرسل مع كل من المماليك فى مصر والأيوبيين والحشيشية فى بلاد الشام . فيهدد أمراء مصر بالانضمام إلى خصومهم بنى أيوب إن لم يسرعوا باجابته إلى مطالبه ، وهو يعلم سلفاً أثر هذا الوعيد . ثم يؤكد للأيوبيين أنه لن يتردد فى مناصرتهم على أعدائهم بمصر إن أهمل المماليك مطالبه ، فيبعث الطمأنينة إلى نفوسهم . فهو لم يوصد الباب نهائيا فى وجوههم ، بل تركه مفتوحا ليلج منه فى أى وقت يشاء . وبعد ذلك يترك الفريقين المتنافسين جانبا ، ويتجه إلى خصم ثالث عنيد عرف بمؤامراته وبطشه ومواقفه المشهودة فى فترة الحروب الصليبية المتقدمة ، وهو اسماعيلية الشام ، فيلوح بهم فى وجه السنيين ، من مماليك وأيوبيين على السواء . ويدل هذا التصرف على دهاء لويس وسعة درايته بأحوال العالم الإسلامى فى ذاك الحين . فنراه يتنقل بين المسلمين فى مكر وترقب وحذر ، ويستقبل رسلهم ويتباحث معهم ، ثم يوفد إليهم مندوبيه مزودين بمطالبه وتعليماته وإرشاداته . كل هذا فى آن واحد ، أو فى فترات متقاربة . وقد شهدت مدينة عكا الجانب الأكبر من هذه المناورات السياسية التى كان محورها الملك الفرنسى .

ولم تقتصر خطته على المسلمين فى الشرق العربى ، وإنما اتجه بأنظاره إلى الشرق الأقصى موطن التتار — ذلك العنصر الذى كان يتنافس على اكتسابه كل من المسيحية والإسلام . فتتصل السفارة كذلك بينه وبينهم فى كل من قبرص وسورية ، عساه أن يفلح فى ضمهم إلى الكاثوليكية ، واستخدامهم فى صراعها ضد المسلمين .

وهو فوق هذا وذاك لا يغفل أمر الفرنج فى الشرق ، وإنما يشملهم بحدبه ورعايته وتوجيهاته السديدة . ولم يترك ناحية من نواحى الإصلاح فى الإمارات

اللاتينية إلا وطرقها ، لعلمه أن السبيل لوصولها إلى هدفها البعيد هو فى قوتها وتماسكها وتكتلها ، وأن هذا هـو السلاح الوحيد لها بعد أن أخفق فى تحقيق منيته عسكريا .

تلك هى الخطوط العريضة لخطة لويس فى بلاد الشام ، التى التقت كلها عند هدف واحد ، هو الهدف الذى من أجله قامت الحركة الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر ، والتى شنها العالم العربى ضد بلدان الشرق الإسلامى . وجدير بالذكر هنا أن النكبات التى تكالبت على هذا الملك فى مصر ، قد هذبته وصقلته ، وعلمته كيف يتخذ من ماضيه عبرة لمستقبله ، وكيف يجهز نفسه لكافة الاحتمالات . كما أصبح أكثر مرونة واستعدادا للتفاهم مع خصومه بالوسائل السلمية والطرق الدبلوماسية ، بعد أن كانت القوة هى اللغة الوحيدة التى يفهمها ، وبعد أن لقنته مصر درسا قاسيا جعله يحنى هامته ويقبـل الأمر الواقع . فسعى إلى تعويض إخفاقه الحربى فى الديار المصرية بنصر سياسى فى سورية . وقد لاقت جهوده فى هذا السبيل بعض النجاح . وهكذا كان لويس فى سورية سياسيا ومفاوضا ومصلحا أكثر منه محاربا . وإن مواقفه العديدة التى أبرزناها لدليل واضح على صدق ما نقول . أما عن المعارك القليلة التى نشبت بين المسلمين والصليبيين فى تلك الأثناء ، فلم تكن بينها معركة حاسمة بالمعنى المفهوم ، كما أنها كانت نتيجة طبيعية للصلح الذى انعقد بين الناصر والمعز ، ومقدمة طيبة للضربات القوية التى كالتها القوات الإسلامية للاتين المغيرين وإماراتهم فيما بعد .

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن نشاط لويس التاسع فى الشام خـلال السنوات الأربع التى أقامها متنقلا بين بلدانه يعتبر فى الواقع حملة صليبية قائمة بذاتها ، لها كيانها ومقوماتها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الحملات الأخرى المعروفة فى تاريخ هذه الحركة . ولكنها تمتاز عنها بأنها حملة سياسية إصلاحية

أكثر منها حربية عسكرية . فلم تسمح له الظروف بحشد عشرات الآلاف من المقاتلين كما فعل غيره ، ولم يعلنها حربا شعواء على المسلمين فى عقر دارهم كما فعل هو نفسه فى مصر وتونس ؛ ولكنه حشد برنامجا قويا قوامـــه السياسة والدبلوماسية والخبث والدهاء والإصلاح ، وهدفه النهائى أورشليم والأراضى المقدسة (١) .

ولتفهم هذه النظرية الجديدة ، يحسن بنا أن نتساءل عن طبيعة الحركة الصليبية وماهيتها . لقد أجمع المؤرخون ، القدامى منهم والمحدثون ، على أن الحروب الصليبية بمعناها المعروف لابد أن يتوفر فيها ما يلى :

أولا — هدفها الاستيلاء على بيت المقدس ، والمحافظة على كيان اللاتين المنهار فى الشرق .

ثانيا — فكرتها الصراع بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى ، أيا كان لون هذا الصراع .

وإذا دققنا النظر فى حملة لويس فى بلاد الشام ، نجد أنه يتوفر فيها هذان الشرطان . فهى كانت تهدف أولا وأخيرا إلى امتلاك أورشليم وضمها إلى حظيرة اللاتين ، والمحافظة على ما تبقى من مملكتهم المتداعية فى الشرق . وهى فضلا عن ذلك تمثل الصراع العنيف بين الغرب الأوروبى والشرق العربى لتحقيق هذه الغاية . حقا انه لم يكن صراعا عسكريا مسلحا مثل الحمـــلات الصليبية الأخرى ، لكنه كان نضالا

---

(١) حول هذه النظرية أنظر مقالى بالانجليزية :

Joseph N. Youssef, « The Crusade of Louis IX on Syria : 1250-1254 A. D., » Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. XVII, 1963, Alexandria, 1964 (57 - 69).

سياسيا دبلوماسيا . وهذا يذكرنا بحملة فريدريك الثانى الصليبية ، التى انتهت باستيلائه على القدس دون حرب أو إراقة للدماء . فبدلا من أن يستخدم لويس التاسع أدوات الفتك والدمار ، لجأ إلى حيلة أخرى لا تقل عن ذلك خطراً ، ونعنى بها الوسائل الدبلوماسية وأسلوب السياسة والمداهنة والدهاء ، للوصول إلى غرضه . وجدير بالتسجيل هنا أن هذا الملك استأنف نشاطه عقب وصوله إلى عكا بعد هزيمته فى مصر بالاستبداد العسكرى . ولكنه سرعان ما تطور إلى نضال سياسى دبلوماسى بعد أن فشلت مناورته الحربية ، وكانت الظروف فى الشرقين الأوسط والأقصى مشجعة على ذلك .

ويلاحظ أن الكتاب والمؤرخين المحدثين ، وخاصة المهتمين منهم بتاريخ الحركة الصليبية قد مروا جميعا مر الكرام على هذه السنوات الأربع ، ولم يعنوا بإبراز معالمها على الرغم من أهميتها البالغة وأثرها الواضح . واكتفى بعضهم بأن جعلها ذيلا على حملة لويس ضد مصر . ومنهم من كان أكثر كرما ، فأفرد لها بضع صفحات أو بعض فصل فى كتاب يستعرض فيه جانبا ناقصاً مبتورا من خطة هذا الملك الصليبى وأعماله فى الشام .

ولكن بعد أن تكشفت لنا دقائق هذه الخطة ، وسلطت الأضواء على أطرافها من كل جانب ، أصبح من الضرورى وضع هذه السنوات الأربع فى المكان اللائق بها فى الإطار التاريخى العام للحركة الصليبية التى دامت زهاء ثلاثة قرون من الزمان . لهذا كله نقدم على القول بأن لويس التاسع قام فعلا بثلاث حملات صليبية : الأولى على مصر ، والثانية فى سورية ، والثالثة ضد تونس — وهذا غير ما أجمع عليه المؤرخون من أنه لم يقم إلا بحملتين اثنتين فقط هما حملتا مصر وتونس . فتلك هى الحلقات الثلاث من التدخل اللاتينى فى بلدان الشرق العربى ، من مصر إلى سورية إلى شمال افريقية ، فى عهد الملك

لويس التاسع ، والتى ترجع بنا إلى سبعة قرون مضت من الزمان .

أما نتائج تلك الحملة الثانية التى كادت أن تصبح نسيا منسيا ، فهى أيضا بدورها جديرة بالنظر والاعتبار على الأقل من حيث هدفها الأساسى وهو غزو بيت المقدس . والواقع أنها لم تسفر عن أية نتيجة حاسمة فى هذا الصدد لأسباب خارجة عن طوق لويس التاسع نفسه ، وأهمها إخفاق جهوده فى حشدالقوى لحملة عسكرية جديدة . وكادت مناوراته الدبلوماسية أن تؤتى ثمارها ، بل أنها أثمرت فعلا بمعاهدة قيسارية التى عقدها مع أمراء مصر ، والتى تعهدوا بموجبها التنازل له عن القدس نظير انضمامه إليهم ضد الأيوبيين فى الشام ولكن نجاح خليفة بغداد فى إقرار الصلح بين مسلمى مصر والشام كان صدمة قوية للملك الفرنسى وعملا سياسياً خطيرا من وجهة النظرالإسلامية ؛ إذ أنه أفسد خطة الملك لويس إفسادا تاما ، وقرب شقة الخلف بين المسلمين ، بعد أن كان من الجائز جدا لو لم يبذل الخليفة العباسى مساعيه الطيبة ، أن يستمر النزاع قائما بين الفريقين ، وأن يحصل لويس على بيت المقدس ، كما فاز بها من قبل الامبراطور فريدريك الثانى دون حرب أو إراقة للدماء عندما استنجد به الكامل محمد سلطان مصر ضد أمراء أسرته فى الشام . وعلى ذلك فإن صلح مصر والشام أدى إلى تكتل المسلمين واتحادهم فى تلك المنطقة من أرض العروبة ، وكان بشيرا بحركة يقظة عربية أتت ثمارها المرجوة من حيث شن الحملات العنيفة على لويس واللاتين فى الشرق .

ومع ذلك فان حملة لويس فى بلاد الشام جاءت غنية بالبعوث والسفارات والوقائع النادرة والحوادث الطريفة ، ذات الأثر التاريخى الذى لا يمكن إغفاله . فإن كان هذا الملك قد أخفق فى استيلائه على القدس التى ظلت بأيدى

المسلمين ، إلا أنه أثبت من ناحية أخرى مهارته وسعة حيلته فى ميدان السياسة والدبلوماسية . ودليلنا على ذلك السفـــارات التى تبودلت بينه وبين كل من المسلمين والتتار والمسيحيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم . ويجب أن نذكر هنا أن تدخله فى النزاع الذى قام بين المسلمين ، نجم عنه تحرير آلاف الأسرى الفرنج الذين كانوا يرزحون فى سجون مصر جزاء عدوانهم على بلاد آمنـــة؛ كذلك وفر عليه مبلغا ضخما من المال كان من المقرر أن يدفعه للمصريين فتنازلوا له عنه . فأنفقه فى إصلاح أحوال الإمارات اللاتينية بغية معاودة النضال . كما أن علاقة لويس بالحشيشية أماطت اللثام عن فترة غامضة فى تاريخ هذه الجماعة ، وفى تاريخ الحركة الصليبية نفسها . وإن كانت علاقته بالتتار قد أخفقت فى تكوين جبهة لاتينية تتارية ضد الإسلام ، إلا أنهـــا كانت من الحركات الأولى التى فتحت مغاليق الشرق الأقصى فى العصور الوسطى . وأخيرا فإن علاقة الملك الفرنسى بالمسيحيين أنفسهم تدل على حكمة وإدراك لحقائق الأمور . إذ عالج مسائلهم معالجة سليمة وخرج منها بنتائج مرضية . ومن أمثلة ذلك موقفه من الأرمن والأنطاكيين ، ثم الدور الذى قام به بين القسطنطينية ونيقيـــة وطرابيزون ، وكذلك المساعى التى بذلها لدى الأميرة لوسى من أجل ابنهـــا بوهيمند السادس صاحب انطاكية وطرابلس . فضلا عن أنه أفلح فى الاحتفاظ بكيان اللاتين فى الشرق ، وفى أن يحفظ لإماراتهم مكانتها بفضل تحصيناته لها وإصلاحه أحوالها وتنظيمه شئونها . ولم يكن مجهوده فى ذلك خافيا . فبعد أن كادت الانقسامات والحزازات أن تقضى عليها قبل مقدمه ، أصبحت كتلة واحدة أمكنها الصمود أمام القوات الناصرية بعـــد الصلح بين مصر والشام ، وأمام الضربات القوية التى تعرضت لها بعد رحيل لويس إلى فرنسا . ولولا هـــذه التحصينات والاصلاحات لما عمرت الممتلكات الصليبية حتى أخريات

القرن الثالث عشر ، ولسقطت فى قبضة المسلمين عند أول ضربة نزلت بها فى ذلك الحين .

وقد يكون من الملائم هنا أن نذكر أن حملة لويس هذه قد تركت أيضا أثرا هاما غير مباشر ، يظهر جليا فيما أدخله هذا الملك فى فرنسا من إصلاحات عديدة نتيجة للخبرة الطويلة التى اكتسبها خلال إقامته فى الشرق . إذ استن القوانين العادلة ، وقضى على الفساد الشائع فى الأداة الحكومية ، واعتنى بالعلم والمتعلمين . كما منح المدن الفرنسية حقوقا وامتيازات تشبه تلك التى كانت تتمتع بها المستعمرات الإيطالية فى الشرق بما حملوه إليها من الحريات السائدة فى جمهورياتهم الأصلية باوروبا ؛ وبذلك ضمن لويس ولاءها والتفافها حوله ومساهمتها فى كبح جماح باروناته (١) .

لقد أخلص لويس لقضيته الصليبية التى تبناها وظل يكافح من أجلها طيلة ربع قرن من الزمان . وفى سبيلها قام بحملاته الثلاث التى كان يهدف من ورائها تمكين النفوذ اللاتينى فى بلدان الشرق الاسلامى ، متخذا من الدين ستارا رقيقا شفافا يخفى أطماعه ومآربه . وعلى هذا فإن حملات لويس أحق الحملات بأن توصف بالصليبية . فهو قد قام بها غازيا فاتحا ، كما فعل غيره من زعماء الحركة الصليبية الذين هرعوا إلى الشرق العربى ليملأوا أيديهم من أمواله وغنائمه، ولينهبوا خيراته وثماره، وليستقروا فيه ملوكا وحكاما، وليستغلوا كل شبر من أراضيه . نضرب مثلا لذلك بيوهيمند النورماندى ابن روبرت جيسكار أحد قواد الحملة الصليبية الأولى ، الذى كان يطمع فى تأسيس إمارة له فى

---

(١) Conder, Latin Kingdom, 363—4.

الشرق (١) . بل إن معظم الذين اشتركوا مع لويس نفسه فى حملته على مصر ، وعلى رأسهم أخواه كونت بواتييه وكونت انجو ، كان الدافع الحقيقى لهم هو حب المغامرة وامتلاك أراض جديدة ، والرغبة فى الفتح والتوسع . ولكن عندما فشلت الحملة ولم تتحقق أطماعهم قفلوا عائدين إلى بلادهم ، تاركين لويس يستأنف النضال بمفرده مع حفنة ضئيلة من الفرسان. ولا ينبغى أن ننسى كذلك موقف كبار البارونات الفرنسيين فى مؤتمر عكا المعروف عندما عارضوا أمر بقاء الملك فى سورية ، وأسرعوا بالعودة إلى بلادهم .

تلك هى النتائج التى وصلت إليها حملة لويس فى بلاد الشام . ولن نستطيع تقدير الأثر الذى تركته إلا بالمقارنة بينها وبين غيرها من الحملات الصليبية التى قامت لنفس الغرض ، وإن تباينت الأهواء واختلفت النتائج .

فإذا ألقينا نظرة على الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ — ١٠٩٩ م) التى دعا إليها البابا اربان الثانى فى ١٠٩٥ م ، نجد أنها تمكنت فعلا من تأسيس أربع إمارات لاتينية فى الشرق [٢] . وغير خاف أن ذلك إنما يرجع قبل كل شىء إلى

(١) الواقع أن تحمس بوهيمند لفكرة الحرب الصليبية لم يكن بقصد امتلاك البيت المقدس، وإنما لتحقيق أغراضه الواسعة بعد أن ضاقت إيطاليا بمطامعه . فهو كان يهدف فعلا إلى إنشاء إمارة له فى الشرق . ويثبت تاريخه وما كتبته عنه آن كومنين ابنة الامبراطور الكسيس كومنين ، أنه قد فكر فى الاستعانة بالدولة البيزطية لتنفيذ هذا الغرض . أنظر

Chalandon, Première Croisade, 132; idem, Essai sur la Régne d'Alexis Ier Comnène, 184.

وللمزيد من المعلومات عن الاتجاهات الاستعمارية للحركة الصليبية التى جاءت متسترة بقناع الدين لتحقيق أطماعها فى رقعة العالم العربى من المحيط الى الخليج، أنظر جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين ، ص ٦١ — ١١٠ والحواشى .

(٢) Cf. Stevenson, Crusaders in the East, 2, 7, 12-37; Grousset, Épopée des Crois., 16—54.

ضعف العالم الاسلامى آنذاك وانقسامه على نفسه ، مما سهل على اللاتين الغزاة مهمتهم الشاقة فى بلاد غريبة عنهم [١] . وساعد على ذلك أيضا تعصب الصليبيين وحماسهم لحركة جديدة عليهم . ولو أن مثل هذه الظروف قد تهيأت للويس التاسع ، لربما أمكنه تحقيق غايته الرئيسية ، وتوسيع رقعة الممتلكات الصليبية على حساب جيرانهم المسلمين .

ومن الواضح أن حملة صليبية أخرى لم تستطع أن تحقق ما حققته تلك الحملة الأولى [٢] . فان الحملة الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩ م) التى بشر بها القديس برنارد فى ١١٤٦ م من أجل استرجاع الرها التى كان قد استولى عليها عماد الدين زنكى فى ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م من جوسلين الثانى [٣] ، انصرفت حين وصولها إلى الشرق عن هدفها إلى المنازعات الداخلية . ثم حاول قائدا الحملة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا الاستيلاء على دمشق فأخفقا فى هذا أيضا ، وعادا أدراجهما دون أن يحققا الغرض الأصلى الذى قاما من أجله (٤) . وكانت النتيجة أن خابت الحملة خيبة تامة ، وآذت القضية الصليبية أذى لا يدرك مداه (٥) .

ولعل الحملة الصليبية التى تهمنا أكثر من غيرها هى الحملة الثالثة (١١٨٩ — ١١٩٢م) التى قادها أكبر ملوك الغرب الأوروبى وقتذاك ، وهم فريدريك

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٢) Cf. Fisher, Hist. of Europe, I, 227.

(٣) ابن الاثير : اتابكة الموصل ص ١١٨ — ١٢٥ ؛ ابن القلانسى ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٣٦ — ٣٧ ؛ وكذلك Grégoire le Prêtre, I, 157.

(٤) Guill. de Tyr, R H. C. — H. Occ., T. I. IIe., 758 -- 768. أنظر كذلك ذيل ابن القلانسى ص ٢٩٧ — ٣٠٠ ؛ الروضتين ج ١ ص ٥٢ — ٥٣ .

(٥) Fisher, I, 231.

بارباروسا امبراطور المانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، بقصد استعادة بيت المقدس التى استولى عليها صلاح الدين فى ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م . ولكن هذه المحاولة لم تأت بشىء يذكر ، اللهم إلا استيلاء الصليبيين على عكا ، وعقد صلح الرملة فى ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م الذى ضمن للحجاج المسيحيين حرية الوصول إلى كنيسة القيامة ببيت المقدس (١) . ويتضح من هذه النتيجة الضئيلة شناعة الخاتمة التى حلت بما عقده الغرب على تلك الحملة من آمال ، كما يتضح فداحة الدليل على عجز أوروبا عن توحيد المسيحية الغربية وتوجيهها نحو هدف عام (٢) .

كما اتضح للغرب أن المسألة ليست بمثل تلك السهولة التى كان يتخيلها ، وأن مثل تلك الحملات لا تعنى سوى استنزافا دائما للموارد البشرية والمادية فى الغرب دون تحقيق أى كسب أيا كان ، اللهم إلا إذا كانت الخسارة البشرية والمادية كسبا يذكر . وكانت الميزة الوحيدة التى جنساها قلب الأسد بطل الحملة ، هى شهرته وشجاعته (٣) . ويبالغ جوانفيل فى وصف هذه الشجاعة

---

(١) راجع العبر جـ ٥ ص ٣١٨ — ٣٣٠ ؛ المختصر جـ ٣ ص ٧١ — ٨٧ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥٢٥ — ٥٢٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ لوحة ١٨٨ ا — ١٠٧ ب و ١٢٤ ا — ١٣١ ب ؛ التاريخ الصالحى لوحة ٢٠٥ ب — ٢٠٨ ا ؛ وكذلك Ambroise, The Crusade of Richard Lion-Heart. New York, 1941.

(٢) Fisher, I, 234.

(٣) يصف ابن شداد الذى عاصر أحداث الحملة الصليبية الثالثة وكان شاهد عيان لها ريتشارد قلب الأسد قائلا : « .. وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوى الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب . وهو دون الفرنسيس عندهم فى الملك والمنزلة ، لكنه أكثر مالا منه وأشهر فى الحرب والشجاعة » . ويقول فى موضع آخر : « وأثر قدومه (أى ريتشارد) فى قلوب المسلمين خشية ورهبة » . أنظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٤ و ١٤٨ .

فيقول إنه عندما كانت جياد المسلمين تجفل أمام شجرة يصيح فيهـــا راكبوها « هل تظنونه ريتشارد مالك انجلترا ؟ » [١] . ولكنها كانت شهرة زائلة ، فقد غادر ريتشارد الأراضى المقدسة إلى أوروبا ليجد نفسه أسيراً فى قبضـــة عدو نمساوى حقير . وبعد أن افتدى نفسه وعاد إلى بلاده ، مات فى قتال ضـد أحد البارونات المتمردين أمام قلعة شالوز [٢].

أما الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة التى دعا اليها البابا انوسنت الثالث بقصد امتلاك القدس ، فقد استحالت إلى عصابات ناهبة استقر زعماؤها فى القسطنطينية، واقتسموا أشلاء الدولة البيزنطية فيما بينهم ، بعد أن نبذوا فكرة الحرب المقدسة، وبعد أن سيطرت عليهم الأطماع الشخصية والمصالح المادية [٣] . وهكذا برهنت الحملة على عقمها [٤] ، وعلى فشل سياسة البابوية الخارجية ، وانحـــلال الدافع الدينى بين كثير من المسيحيين (٥) . وقد اعتبرت هذه الحملة وصمة عار فى جبين المسيحية الغربية ، حتى أن بعض المؤرخين لا يدخلونها فى عـداد الحركة الصليبية (٦) .

ولم تؤت حملتـا جان دى برين (٦١٥ — ٦١٨ هـ / ١٢١٨ — ١٢٢١ م) ولويس التاسع على مصر (٦٤٦ — ٦٤٨ هـ / ١٢٤٨ — ١٢٥٠ م) ثمارهما .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 306.

(٢) Bray, 97.

(٣) ابو الفداء : المختصر ج ٣ ص ١١٠ — ١١١ ؛ ابو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٣٩٦ — ٣٩٧ . راجع أيضا عنان : فكرة الحروب الصليبية ص ٧١٣ .

(٤) أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٢٣ .

(٥) Fisher, I, 266.

(٦) Cf. Davis, Invasion of Egypt, p. 1.

فقد أخفق القائدان فى غزو بيت المقدس ، بعد أن استنفدا قواهما ومواردهما فى محاولات عقيمة فى وادى النيل ، انتهت بنكبتهما وتمزيق جيوشهما شر ممزق .

أما حملة الامبراطور فريدريك الثانى ، فقد انتهت بمعاهدة سلمية فى ٦٢٨هـ/١٢٢٩ م مع الكامل محمد سلطان مصر ، حصل بمقتضاها على بيت المقدس دون حرب أو قتال . ولكن يجب ألا يغرب عن بالنـــا أن الظروف السياسية فى الشرق الاسلامى وقتذاك كانت عاملا هاما فى إتمام هـــذه الصفقـة . ذلك أن نزاع الكامل مع أفراد أسرته فى الشام هو الذى دفعه إلى استدعاء صديقـــه فريدريك والتنازل له عن بيت المقدس حتى يضمن انضمامه إليه ضـــدهم (١) . ولاشك لو أن السلطان كان قد امتنع عن تسليمها للامبراطور ، لمـا أمكنه الاستيلاء عليها عنوة ، خاصة وأنه لم يكن مزودا بالعدد الكافى والعدد اللازمة لفرض حصار قوى حولها ينتهى بسقوطها فى أيدى اللاتين . أضف إلى ما تقدم أن روح التسامح الدينى التى اشتهر بها الزعيمان ، فى عصر امتاز بالتعصب الأعمى فى هذه الناحية ، أوجدت نوعا من التفاهم بينهما . وإن كان لهذه الحملة التى قام بها الامبراطور الألمـانى من أثر ، فإنما هو ازدياد تأثره بالآراء والعـادات الإسلامية (٢) ، حتى لقد اعتبره المسلمون بأنه أميل إلى الإسلام منه إلى النصرانية واعتبره المسيحيون بأنه شبه مسيحى أو نصف مسلم (٣) .

كانت معاهدة فريدريك والكامل هى أغـرب ما تم بين قوتين مسيحية

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ لوحـه ٢٤٥ ب — ٢٥٣ ب ؛ المختصر ج ٣ ص ١٤٨ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٥٠ . أنظر أيضا بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ ؛ شاروبيم : الكافى ج ٢ ص ٤١٩ — ٤٢٠ .

(٢) أنظر حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٧٩٠ — ٧٩٦ .

(٣) Davis, Invasion of Egypt, 4.

وإسلاميه فى العصور الوسطى ، حتى لقد أطلق البابا على فريدريك بأنه من أتباع الرسول ، كما ثار المسلمون على الكامل واتهموه بالخيانة . ثم أن المناقشات التى تمت بين فريدريك وسفراء الكامل تدل كلها على وجهات نظر متسامحة . وكان الكتاب المسلمون يعجبون به كثيرا . أما السلطان الكامل فقد أثبت أنه واسع الأفق بعيد النظر فى موقفه من الامبراطور . وليس من العجب بعد ذلك أن ينظر إليه أفاضل القوم من المسلمين نظرة البابا والمسيحيين لفريدريك (١) . والواقع أن التقاليد والعادات المسيحية المرعية التى تمسك بأهدابها لويس التاسع ، لم تكن مما يأبه له فريدريك الذى نشأ فى صقلية ملتقى مختلف الاجناس والأديان ، والذى اتهمته الكنيسة بالهرطقة واعتبرته خارجا عن تعاليمها (٢) ، لا لشىء إلا لوجهة النظر المتسامحة التى اعتنقها وآمن بها وعمل على تحقيقها .

مع كل هذا ، فإن نجاح فريدريك فى الحصول على بيت المقدس كان نذيرا بفقدان اللاتين لها وعودتها إلى حظيرة الإسلام إلى الأبد فى ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م . ذلك أن الامبراطور الألمانى لم يقم فيها ، بل أهمل أمرها ورحل عنها إلى الغرب ، وأضحت المدينة نفسها نهبا للمطامع والاضطرابات حتى انتهى الأمر باستيلاء الصالح نجم الدين أيوب عليها فى تلك السنة .

واضح إذن أن الحملات الصليبية المتقدمة التى استعرضنا ثمارها ، قد أخفقت فى تحقيق أهدافها إخفاقا يكاد أن يكون تاما شاملا ، باستثناء الحملتين الأولى والسادسة اللتين هيأت لهما الظروف الفرصة للوصول إلى غايتهما . وواضح

---

(١) Lane-Poole, Story of Cairo, 196.

(٢) Fisher, I, 272.

أيضا أن ما حققته حملة لويس السياسية فى الشام ، على الرغم من فشلها فى امتلاك القدس ، يفوق بكثير ما حققته تلك الحملات العسكرية الضخمة .

وهناك أيضا مسألة لها اعتبارها يكشف عنها تاريخ الحركة الصليبية ، وهى أن فرنسا التى أنجبت لويس التاسع ، كانت تعتبر بحق الدولة الصليبية الكبرى فى أوروبا (١) . إذ أن أول أول نداء أذيع للحروب الصليبية كان من فرنسا ، وأول من لبى النداء هم فرسانها الذين أصبحوا نموذجا لغيرهم من الفرسان الأوروبيين . فالبابا الذى نادى بالحركة فى كليرمون وهو أربان الثانى كان فرنسيا ، والمدينة التى شهدت مولد الحركة تقع فى وسط فرنسا . كما أن بطرس الناسك أحد زعماء الحملة الشعبية كان راهبا فرنسيا ، وكذلك كان معظم زعماء الحملة الأولى من أصل فرنسى . ثم أن أحد قواد الحملة الثانية هو لويس السابع ملك فرنسا . بينما اشترك فيليب اغسطس جد لويس التاسع مع عدد كبير من المقاتلين الفرنسيين فى الحملة الثالثة . وكانت بعض هذه الحملات تتسم بالطابع الفرنسى الخالص ، ونعنى تلك التى قام بها لويس التاسع (٢) . والخلاصة أن الفرنسيين هم الذين أقاموا مملكة بيت المقدس اللاتينية ، وكانت حضارتهم هى الغالبة فيها . ونستطيع اليوم أن نقول دون مغالاة إن الانتداب الفرنسى الذى تعرضت له كل من سورية ولبنان فى العصر الحديث يعد أثرا من آثار الحروب الصليبية (٣) . هكذا اشتهرت فرنسا بعدائها للعرب منذ

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 6.

(٢) Grousset, Sum of Hist., 172; Tilley, Med. France, 81—3.

(٣) باركر : الحروب الصليبية (الترجمة العربية) ص ١٤٠ — ١٤١ . وحول دور فرنسا فى الحركة الصليبية ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٥٧ — ٦٠ .

أجيال بعيدة ، كما كانت لها اليد الطولى فى تلك الحروب المريرة التى سميت بالحروب الصليبية .

وتوجد فى المراجع الاسلامية حقائق تاريخية هامة عن لويس التاسع والدور الذى قامت به فرنسا فى الحركة الصليبية . يقـــول ابن خلدون : « وكانت دولة هؤلاء الافرنس من أعظم دولهم (يعنى دول الغرب) واستفحل أمرهم بعد الروم ، وصدرا من دولة الإسلام العربيـة ، فسموا إلى ملك بـلاد الشرق من ناحيتها ، وتغلبوا على جزر البحر الرومى ... ثم سمـــوا إلى ملك ماوراء البحر من افريقية ، بلاد الشام ، والاستيلاء على بيت المقدس ، وطال ترددهم فى ذلك »(١) . ويقول فى موضع آخـــر إن « افرنسة أمة عظيمة من الأفرنج . والظاهر أنهم أصل الافرنج ، وإن افرنسة هى افرنجة انقلبت السين بها جيما عنـــدما عربتها العـــرب . وكان ملـكها (يقصد لويس التاسع) من أعظم ملوكهم لذلك العصر ، ويسمونه رى الافـــرنس ، ومعنى رى فى لغتهم ملك افرنس . فاعتزم هذا الملك على سواحل الشام ، وسار لذلك كما سار من قبله من ملوكهم »(٢). أما ابن واصل فيتعرض للويس قائلا « وكان هذا ريد افرنس(٣) من أعظم ملوك الفرنجـــة وأشدهم بأسا ، وافرنس هى أمـــة من

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق جـ ٥ ص ٣٥٩ .

(٣) لعل هذه اللفظة مأخوذة عن الفرنسية القديمة Rey de France ومعناها ملك فرنسا ، ويؤكد هذا ما ذكره ابن خلدون فى صدد الـكلام عن لويس التاسع . وحول مختلف التسميات التى أطلقتها المصادر الاسلامية على لويس التاسع ، انظر جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٧٧ ح ٢ و ٣٠٠ .

الفرنج »⁽¹⁾ . وجاء فى أبى المحاسن أن لويس « كان من أجل ملوك الفرنج ، وأعظمهم قدرا ، وأكثرهم عساكرا ، وأوسعهم بلادا ، وأكثرهم أموالا »⁽²⁾ . وذكر أيضا « وكان ريد افرنس المذكور عنده شجاعة وإقدام ومكر ودهاء »⁽³⁾ . وكتب العمرى يقول إن « أجل ملوك الفرنج قدرا الريد فرنس صاحب فرنسة ... والريد فرنس عريق النسب فى الملك القديم والمملكة المأخوذة عن السلف ، وهو أكبر ملوك بنى الأصفر مكانة ، وأتمهم بختا ، وأعظمهم تاجا ، وله مدن كثيرة عامرة ، وعساكر كثيرة وافرة » . وجاء فى موضع آخر من كتابه أن لويس « ملك جليل الخطر لا يكاد يخطيه إدراك وتر . وليس فى ملوك الفرنجة أعرق منه نسبا ، ولا أرسخ فى العلياء أصلا . وهو فى عساكره فى البر أطول منهم فى البحر يدا وأثبت رجلا »⁽⁴⁾ .

لقد برز لويس التاسع بين كبار القادة والزعماء الصليبيين الذين امتلأ بهم تاريخ تلك الحركة ، واشتهر بحملاته الثلاث ضد بلدان الشرق الإسلامى التى دفعه الغرور والطمع إلى القيام بها . وكان من أثر ذلك أن تعرض لنقد الناقدين ولوم اللائمين من بنى جلدته . فقد أخذ عليه بعض الكتاب المحدثين تحمسه الأعمى لفكرة كانت تحتضر فى ذلك الحين . واعتبروا أن واجبه الأقدس كان يتمثل قبل كل شىء فى وجوده على عرشه وبين رعاياه ، يساطرهم آلامهم وآمالهم ، ويعمل على إسعادهم ورفاهيتهم ، وليس على متن البحر ، أو على ضفاف النيل ،

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٥ ب . أنظر أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٠ .
(٢) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣٥٨ ا .
(٣) نفس المرجع السابق ونفس الجزء ورقة ٣٥٨ ب .
(٤) العمرى : مشاهير ممالك الفرنج ص ٢ و ٣ .

أو فوق رمال سورية ، أو أمام أسوار تونس . ويرون أيضا أنه أنزل بشعبه أخطارا وكوارث وتضحيــات لا طاقة له بها ، فى سبيل مشروع عقيم ، لم يعد عليهم بنفع أو فائدة (١) . وحتى لو انه انتصر ، لكان فى اعتقاد هؤلاء النقـاد ، قد بذر بذور الفوضى والاضطراب فى وطنه ، ولأنتج ثمرة طبيعية يجنيها كل ملك فى القرون الوسطى يغـادر مملكته لأداء واجب آخر ، أيا كان هـذا الواجب (٢) وفى هذا المجال يمكن القول إنه كان من المحتمل او لم يغامر لويس بحملتيه على مصر والشام ، وحملته الثالثة على تونس التى لقى فيها حتفه ، وبقى فى مملكته ، لأمكنه أن يؤدى لها الكثير من الأعمال النافعة الصالحة . ولكن رغبة الفتح والتحكم أعمت بصيرته ، وأوردته مورد التهلكة .

لقد كان لويس مصابا بحمى دينية جعلته يقامر بكل شىء حتى بنفسه فى سبيل قضية خاسرة . ومع أنه عاد إلى بلاده من الشرق دون امتلاك بيت المقدس ، فان هذا الحلم ظل يراوده طوال حياته . وكان يترقب الفرص لاستئناف نشاطه . لقد أعلن عقب عودته من بلاد الشام أن حجه لم ينته ، ولكنه أجل لموسم آخر . وقد قدر لتأجيل حملته الجديدة أن يطول ؛ إذ كان عليه أن يعمل الكثير داخل فرنسا وخارجها ، فيصحح الأخطاء ، ويحل المشاكل ، ويهدىء ثائرة الأعداء ، وهذه كلها أمور يتطلب حلها عناية كبيرة ووقتا طويلا (٣) .

وأخيرا ، وبعد ثلاثة عشر عاما من انتهاء حملتيه فى الشرق ، حمل الملك الفرنسى الصليب مرة أخرى فى ١٢٦٧ م . وقام فى ١٢٧٠ م ، بعد ثلاث سنوات أمضاها

(١) Cf. Guizot, 141; Tilley, 84; Funck - Brentano, 110; Bray, 267.

(٢) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 73.

(٣) Perry, 228.

فى الاستعداد ، بحملته الصليبية الثالثة والأخيرة ، ولكن وجهتها كانت تونس فى هذه المرة. وكان يهدف من وراء ذلك استمالة صاحبها محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر إلى المسيحية الغربية ، ومواصلة الزحف على مصر خط الدفاع الأول عن بلاد الشرق الإسلامى آنذاك . وبالقضاء عليها يمكنه استخلاص القدس بسهولة من أيدى المسلمين ولكنه لم يوفق إلى تحقيق حلمه العزيز ، إذ قضى نحبه وهو على أبواب قرطاجنة ، اثر مرض لم يمهله طويلا ، يوم الاثنين الموافق ٢٥ أغسطس سنة ١٢٧٠ م [١]. وكان آخر ما هتف به وهو على فراش الموت « أورشليم ... هيا إلى أورشليم » [٢] .

لقد عجل موت لويس باضمحلال الروح الصليبية فى وقت كانت تكابد فيه طور النزع الأخير . وسرعان ما تلاشى أمل توحيد اللاتين فى حملة مشتركة ضد المسلمين (٣) . كما فتر الحماس الدينى للحركة الصليبية فتورا ملموسا ، وأخذ الناس من كافة الطبقات يشكون فى جدواها ونتائجها ، وأحسوا بالملل والضيق منها . ولم يكن جوانفيل هو الوحيد الذى كف عن تأييد هذه الحركة وأبدى ريبته فى نجاحها عندما دعاه الملك الفرنسى للاشتراك فى حملته الأخيرة ، ولكن بادله هذا الشعور سكان المدن والقرى أيضا [٤] .

---

(١) Joinville (ed. Wailly) , 396-406. Cf. Lavisse, III. II. 99-102; Guizot, 131-9; Campbell, 443-6. أنظر كذلك أبو المحاسن: المنهل الصافى ج١ ورقة ٣٥٨ ا — ٣٥٩ ا؛ الكتبى : فوات الوفيات ج ١ ص ٨٣ — ٨٤ .

(٢) Archer & Kingsford, 403; Sepet, 157; Guizot, 139.

(٣) Archer & Kingsford, 403-4.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 398. Cf. Guizot, 142; Calmette, 418; =

وأخـــذ أمل الإمارات اللاتينية بالشام فى الحصول على مساعدة الغـرب الكاثوليكى يتضاءل تدريجيا ، إلى أن زال فى نهاية الأمر . وزاد الطين بلة أن هذه الإمارات نفسها عادت إلى منازعاتها القديمة ، فأتاحت لدولة المماليك البحرية بعد أن لقنت التتار درسا قاسيا فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م الفرصة لتوجه الضربات النهائية إلى مملكة الصليبيين . وتم طرد اللاتين منها إلى الأبد فى ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م فى عهد السلطان الأشرف خليل (١) . وقد عد جهاد المماليك ضد اللاتين من أروع الصفحات التى سجلها التاريخ المصرى الوسيط .

ولـكن ليس معنى ذلك أن النضال فى سبيل غزو الأراضى المقدسة قد انتهى بصفة نهائية باستئصال شأفة المسيحيين منها واستيلاء المسلمين على آخر معـاقلهم الهامة فيها فى أخريات القرن الثالث عشر. لقد ظلت هذه النظرية سائدة حتى أثبتت أحدث البحوث التاريخية أن فـكرة الحـروب الصليبية لم تمت ، بل عاشت نحو قرن من الزمان بعد سقوط عكا ، ولم تفقد صفاتها الحقيقية إلا بعد القرن الرابع عشر (٢) . وفى خلال هذه الفترة وضعت المشروعات الضخمة والمؤلفات العديدة

= وقد تناولت هذه الفـكرة بشىء من التفصيل والتحليل فى دراسة لى عنوانها «العدوان الصليبى والرأى العام الدربى» ، محاضرة من سلسلة المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية للعام الجامعى ٦٧–٦٨ — الاسكندرية ١٩٦٨ — ص ٢٩ — ٥٢ .

(١) بيبرس المنصورى: زبدة الفـكرة جـ ١٠ لوحة ٢٨٢ — ٩. راجع أيضا كنز الدرر جـ ٨ ورقة ٣٣٠ — ٥ ؛ قلادة النحر جـ ٣ قسم ١ لوحة ٩٨٨ ؛ المختصر جـ ٤ ص ٢ — ٥ و ٢٢ — ٢٧ ؛ تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٣٤ — ٢٣٦ .

(٢) لقد أثبت هـــذه النظرية الجديده الاستاذ الدكتور عزيز سوريال عطيه فى مؤلفه الـكبير عن تاريخ الحروب الصليبية فى أخريات العصور الوسطى، أنظر: **Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 10, 480.**

لغزو الشرق وإثارة أهل الغرب . كما قامت الحملات الصليبية ، وكانت آخرها وأوسعها نطاقا هى حملة نيكوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦ م التى قامت بها أوروبا بأسرها لا لإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول إلى بيت المقدس فى قلب امبراطورية المماليك . وانتهت الحملة بهزيمة الصليبيين أمام قوات السلطان بايزيد الاول حتى أنه لم تقم لهم من بعد ذلك قائمة (١) .

وكان فشل هذه الغزوة بمثابة مسمار دق فى نعش الحركة الصليبية ؛ إذ أصيب مسيحيو أوروبا بضربة قاضية ، جعلت اليأس يتمكن من نفوسهم ، وجعلتهم ينصرفون عن فكرة الحروب المقدسة بمعناها القديم إلى مصالحهم الخاصة ومشاغلهم الداخلية (٢) . وأصبحت فكرة غزو الاراضى المقدسة حلما من أحلام الماضى البعيد ، عملت المسيحية الغربية على تحقيقها عدة قرون متلاحقة ، فكان نصيب هذه المحاولات الإخفاق والخذلان .

« هكذا أراد الله » — تلك هى الصيحة التى انبعثت من أفواه الجموع الزاخرة التى احتشدت لسماع خطبة البابا اربان الثانى الملتهبة فى مؤتمر كليرمون بفرنسا سنة ١٠٩٥ م ، والتى دعاهم فيها لحمل الصليب وغزو أرض الميعاد . ولكن بعد انقضاء أكثر من ثلاثمائة سنة من ذلك التاريخ فى قتال فاشل طويل الأمد ، تنازل الغرب عن صيحته ، وتقبل الأمر الواقع ، وأصبح يؤمن بأن «إرادة الله» التى بدأت بها الحروب الصليبية ، هى التى اقتضت أن تظل هذه البقعة المقدسة أمانة فى أيدى المسلمين.

---

(١) Atiya, Crusade of Nicopolis; idem, Crusade in the Later Middle Ages, 435—462, 480.

(٢) Atiya, op. cit., 481.

ثبت المراجع

بيان بالمختصرات

بيان بالمختصرات

A.O L.	— Les Archives de l'Orient Latin.
Bib. des Crois.	— Michaud, Bibliothèque des Croisades.
Encyc. Brit.	— Encyclopaedia Britannica.
Encyc. of Islam	— Encyclopaedia of Islam.
G. D. F.	— Bongars, Gesta Dei per Francos.
Hist, de Fr.	— Recueil des Historiens des Gaules et de la France.
J.A.	— Journal Asiatique.
Mon. Cart.	— Y. Kamal, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti.
R.H.C.-Doc. Arm.	— Recueil des Historiens des Croisades— Documents Armeniens.
R.H.C.-H.Occ.	— Recueil des Historiens des Croisades— Historiens Occidentaux.
R.H.C -H. Or.	— Recueil des Historiens des Croisades— Historiens Orientaux.
R.O.C.	— Revue de l'Orient Chrétien.
R.O.L.	— Revue de l'Orient Latin.

(١)

مجموعات الحروب الصليبية

Bongars, J. (ed.) , Gesta Dei per Francos, sive orientalium e peditionum et regni Francorum hierosolimitani historia (ab a. 1095 ad 1420) a variis, sed illius aevi scriptoribus, litteris. 2 t. Hanover, 1612.

Bouquet, M. (ed.), Recueil des Historiens des Gaules et de la France. 24 vols. Paris, 1738-1904.

Michaud, J., Bibliothèque des Croisades. 4 vols. Paris, 1829 :
I. Chroniques de France;
II. Id. et Chroniques d'Italie et d'Angleterre;
III. Chroniques d'Allemagne, des pays du nord, grecques, turques;
IV. Chroniques arabes.

Reinaud, M., Extraits des historiens arabes relatifs aux guerres des Croisades. Paris, 1829.

Recueil des Historiens des Croisades, publié par les soins de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, in 16 huge folio vols. Paris, 1841–1906:
I. Historiens Occidentaux, 5 tomes (1844–1895) :
II. Historiens Orientaux, (Arabes), 5 tomes (1872–1906);
III. Historiens Grecs, 2 tomes (1875-1881);
IV. Documents Armeniens, 2 tomes (1869–1906);
V. Lois, 2 tomes (1841–1843).

Les Archives de l'Orient Latin, publiées par la Société de l'Orient Latin. 2 vols. Paris, 1881 et 1887. Textes, inventaires, et études originales.

Palestine Pilgrims' Text Society. 13 vols. and general Index. London, 1887-1897.

Revue de l'Orient Latin, publiée sous la direction de MM. Le Marquis de Vogué et Ch. Schefer. Paris, 1893–1911.

Revue de l'Orient Chrétien, dirigée par R. Graffin et F. Nau. Paris, 1906-1924.

(٢)

المخطوطات والمخطوطات المصورة(١)

ابن ابى السرور (ت١٠٢٨هـ/١٦١٩م) محمد بن محمد بن ابى السرور زين الدين البكرى:

١ - « النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية » - دار الكتب المصرية - رقم ٢٢٦٦ تاريخ .

٢ - « عيون الاخبار ونزهة الابصار » - دار الكتب المصرية - رقم ٧٢ م تاريخ .

ابن ايبك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ابو بكر بن عبد الله :

١ - « درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان » - دار الكتب المصرية -رقم ٤٤٠٩ تاريخ .

٢ - « كنز الدرر وجامع الغرر » - ٩ ج - دار الكتب المصرية - رقم ٤٦٤٣ تاريخ .

ابن بهادر (عاش فى القرن التاسع هـ / الخامس عشر م) محمد بن محمد بن بهادر :

« فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر » - دار الكتب المصرية - رقم ٤٩٧٧ تاريخ .

ابن الجوزى « سبط » (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) ابو المظفر شمس الدين يوسف ابن قزاوغلى :

« مرأة الزمان فى تاريخ الأعيان » - جـ ٨ - دار الكتب المصرية - رقم ٢١٨١ تاريخ - طبع « زنكوغراف » شيكاجو ١٨٠٧م .

ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى :

---

(١) أشرنا فى حواشى الكتاب الى المخطوط بـ(ورقة) والمصور بـ(لوحة) والمطبوع بـ(صفحة).

١ - « نزهة الانام فى تاريخ الاسلام » - الموجود منه قطعتان : إحداهما تبتدىء من ٦٢٨ هـ وتنتهى إلى ٦٥٩ هـ ، والثانية تبتدىء من ٧٧٨ هـ وتنتهى إلى ٨٠٤ هـ - دار الكتب المصرية - رقم ١٧٤٠ تاريخ . وتهمنا القطعة الأولى، وهى مأخوذة بالتصوير الشمسى .

٢ - « الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » - دار الكتب المصرية - رقم ١٥٢٢ تاريخ .

ابن الشحنة الحلبى (ت ٨١٥ هـ/١٤١٢-٣ م) ابو الوليد محب الدين محمد بن محمد :

« روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر » - دار الكتب المصرية - رقم ٤٥ م تاريخ .

ابن الفرات (ت ٩٠٧ هـ/١٥٠١ - ٢ م) ناصر الدين محمدبن عبد الرحيم بن على :

« تاريخ الدول والملوك » - ١٨ مجلدا - دار الكتب المصرية - رقم ٣١٩٧ تاريخ - تصوير شمسى .

ابن منكلى (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ - ٧ م) محمد بن منكلى :

« كتاب الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر » - مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - رقم ٩ م «تصوير شمسى» .

ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سليم :

١ - « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » - ٢ جـ - مكتبة جامعة الاسكندرية - رقم ٦٤ مخطوط « تصوير شمسى » .

٢ - « التاريخ الصالحى » - مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - رقم ٣١٤٣ ب - « تصوير شمسى » .

ابو شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان :

« الذيل على الروضتين فى أخبار الدولتين » - ٢ج - دار الكتب المصرية - رقم ٩٩٣ تاريخ - « تصوير شمسى » .

ابو المحاسن (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغرى بردى:

« المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » - ٣ ج - دار الكتب المصرية - رقم ٢٣٥٥ تاريخ .

بامخرمة (عاش فى القرن العاشر هـ / السادس عشر م) ابو محمد بن عبد الله بن احمد بن على :

« قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر » - ٦ ج - دار الكتب المصرية - رقم ٤٤١٠ تاريخ .

البغدادى (ت ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م) احمد بن عبد الله :

« عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصر والأزمان » - ٢ ج - دار الكتب المصرية - رقم ٣٨١٠ تاريخ - « تصوير شمسى » .

بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ/١٣٢٥ م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى:

« زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » - ج ١٠ - مكتبة جامعة القاهرة - رقم ٢٤٠٢٨ تاريخ - « تصوير شمسى » .

الذهبى (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م) أبو عبدالله محمدبن احمدبن عثمان قايماز شمس الدين:

« تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام » - قطعتان فى مجلد واحد : الأولى منهما تشتمل على الطبقة ٢٧ من سنة ٢٦١ هـ إلى ٢٧٠ هـ ، والثانية من سنة ٥٤٦ هـ إلى ٦٥٠ هـ - دار الكتب المصرية - رقم ١٤٥٢ تاريخ .

السخاوى (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) شمس الدين ابو الخير محمد بن عبد الرحمن:

« تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم

والبقاع المباركات وما يتبـــع ذلك » ـ مكتبة بلدية الاسكندرية ـ رقم ١٤٨٦ ب .

السلامى (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين احمد :

« مختصر التواريخ » ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٤٣٥ تاريخ .

السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) ابو الفضل عبد الرحمن :

« تاريخ السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى » دار الكتب المصرية ـ رقم ١٥٥٩ تاريخ .

الصفدى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) صلاح الدين أبو الصفا خليل :

« الوافى بالوفيات » ـ ٧ جـ فى ١٧ مجلدا ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٢١٩ تاريخ « تصوير شمسى » .

العمرى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) ابن فضل الله :

« مسالك الابصار فى ممالك الامصار » ـ جـ ٢٧ فى ٤ مجلدات ، ويبتدىء من سنة ٤١ هـ وينتهى إلى أثناء سنة ٧٤٣ هـ التى هى آخر الكتاب ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٥٦٠ معارف عامة ـ « تصوير شمسى » .

العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين أبو محمد محمود بن احمد بن موسى :

« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ـ ٢٣ جـ فى ٦٩ مجلدا ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٥٨٤ تاريخ « تصوير شمسى » .

الفازانى (عاش فى القرن الثامن هـ / الرابع عشر م) فضل الله ابو الخير الملقب بالرشيد :

« تاريخ الفازانى » ـ ٤ جـ ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٥٤٢٦ تاريخ .

الفيومى (ت حوالى ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) احمد بن محمد بن على :

«نثر الجمان فى تاريخ الأعيان» - المجلد الثانى ويبتدىء من أثناء سنة ٦٢٣ وينتهى إلى أثناء ٦٨٩ هـ - دار الكتب المصرية - رقم ١٧٤٦ تاريخ .

الكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر بن احمد بن عبد الرحمن فخر الدين :

« عيون التواريخ » - ١٦ مجلدا ، بينها منها مجلد مكتوب عليه أنه الجزء العشرون ، ويبتدىء من ٦٤٥ هـ وينتهى إلى ٦٧٠ هـ - دار الكتب المصرية - رقم ١٤٩٧ تاريخ - « تصوير شمسى » .

النويرى الكندى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ابن محمد :

« نهاية الأرب فى فنون الأدب » - ٥٥ مجلدا - دار الكتب المصرية - رقم ٥٤٩ معارف عامة - « تصوير شمسى » .

اليونينى (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) موسى بن محمد بن احمد قطب الدين :

« ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » - جـ ١٥ و ١٧ - دار الكتب المصرية - رقم ١٥١٦ تاريخ .

(٣)

المصادر الأصلية الأوروبيــــة

Ambroise, The Crusade of Richard Lion – Heart. Tr. from the old French by M. J. Hubert. New York, 1941.

Annales de Terre Sainte 1095-1291, publiées par R. Röhricht et G. Raynaud, in A. O. L., II. II. pp. 429-461.

Anonymous, Chronique Anonyme des rois de France, finissant en 1286. Ed. Hist. de Fr., XXI, pp. 80 - 102.

Anonymous, Extraits d' une chronique anonyme, finissant en 1380. Ed. Hist. de Fr., XXI, p. 141.

Anonymous, Gesta alia Sancti Ludovici noni, Francorum regis. Ed. Hist. de Fr , XX. pp. 45 - 57.

Anonymous, Poéme Anglo-Normand sur la Bataille de Mansourah. Texte original, accompagné d' une traduction en Français moderne par M Francisque Michel, in Hist. et chronique du très chrétien roi St. Louis. Paris, 1881. (pp. 327 - 358).

Artois, Robert d', Lettre du comte d'Artois sur la prise de Damiette. Ed. Michaud, Croisades, t. IV. Paris, 1822. (pp. 610 - 611).

Beaulieu, Geoffroi de, Vita et sancta conversatio piae memoriae, Ludovici noni regis Francorum. Ed. Hist. de Fr, XX, 1 - 27.

Beaumont, Jean de, Lettre à Geoffroi de la Chapelle sur la prise de Damiette Ed. A. O. L., t. I, Paris, 1881. (pp. 389 - 90).

Beauvais, Vincent de, Selecta e speculo Historiali Vincentii Bellovacensis. Ed. Hist. de Fr , XXI, pp. 71-75.

Burchard of Mount Sion; A Description of the Holy Land (A. D. 1280) Tr. from the original Latin by A. Stewart. London, 1896 Cf. Palestine Pilgrims' Text Society, XII, pp. 1 - 136.

Chartres, Guillaume de, De vita et actibus inclytae recordationis regis Francorum Ludovici et de miraculis quae ad ejus sanctitatis declarationem contigerunt. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 27-41.

d'Avesnes, Baudoin, Extraits de la Chronique attribuée a Baudoin d'Avesnes. Ed. Hist. de Fr. XXI, pp. 159-181.

Dépenses de Saint Louis, de M. CC. L. a M. CC. LIII Ed. Hist. de Fr. XXI, pp. 512-515.

Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer. Ed. R. H. C. - H. Occ., t. II, Paris, 1859, pp. 1-481.

Fabri, F., The Wanderings of brother Felix Fabri (Circa 1480-1483 A. D.), tr. by A. Stewart. London, 1893. Cf. Palestine Pilgrims' Text Society, IX. London, 1897.

Gesta Crucigerorum Rhenanorum, «Les exploits de Croisés Rhénans», écrits entre 1217 et 1219. Ed. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. IV (P. 938).

Grégoire le Prêtre, Chronique. Ed. R. H. C. – Doc. Arm., t. I. Paris, 1869, (pp. 151 - 201).

Joinville,(١) Jean de,:

(١) اعتمدت على الطبعات الثلاث الموضحة بعد الكتاب جوانفيل: الأولى طبعة «Wailly» وهى التى نقلت عنها نصوص جوانفيل نفسها، أما الثانية والثالثة فقد استخدمت حواشيهما فقط لأهميتها التاريخية .

1. Histoire de Saint Louis. Texte original du XIVe Siècle, accompagné d'une traduction en Français moderne par M. Natalis de Wailly, Paris, 1874.

2. Memoirs of Louis IX, King of France (commonly called Saint Louis) An English translation by Colonel Johnes of Hafod. Cf. Chronicles of the Crusades. Bohn's ed. pp. 341 - 556. London, 1848.

3. Saint Louis, King of France, tr. into English by James Hutton London, 1868.

Louis IX (St. Louis),

1. St. Louis nolise seize navires génois pour sa première croisade. Ed. A. O. L., t. II. Paris, 1884. (pp. 232 - 6).

2. Ludovici regis de capitione et liberatione sua epistola. Ed. G. D. F., t. I, pp. 1196 - 1200.

3. Lettre de St. Louis sur sa captivité et sa déliverance. French tr. by Michaud, Crois , t. IV. Paris, 1822. (pp. 619 - 631).

Matthew of Westminster, The Flowers of History, 2 vols. London, 1853.

Melun, Guy de, Lettre a B. de Carn., sur la prise de Damiette, Trad. en Fr. par Michaud, Crois., t. IV. Paris, 1822. (pp. 611-9).

Michel le Syrien, Extrait de la chronique de Michel le Syrien. Ed. R. H. C. - Doc. Arm., t. I. Paris, 1869, (pp. 311-407).

Nangis, Guillaume de,

1. Vita Sancti Ludovici regis franciae. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 312–465.

2. Gullelmi de Nangiaco Chronicon (1226 - 1300). Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 543–582.

3. Chronique Abrégée ou « Chronique des rois de France ». Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 647-653.

Padua, Guillaume de, Historiae Albigensium, auctore Guillelmo de Podio Laurentii, Pars ultima, ab anno 1230 ad 1272. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 764–776.

Paris, Matthew, Matthew Paris' English History from the year 1235 to 1273, trans. from the Latin by J. A. Giles, 2 vols, London, 1852-3.

Polo, Marco, The Travels of Marco Polo the Venetian. London, 1907. (Everyman's s Library).

Regum mansiones et itinera secundum adscriptas cuique instrumento loci et temporis notas explicata - Ludovici noni mansiones et itinera. Ed. Hist. de Fr., XXI, pp. 408–423.

Robert le Moine, Roberti Monachi historia Iherosolimitana. Ed. R. H. C. - H. Occ., t. III. pp. 716-859. Paris, 1866.

Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin (1229-1261). Ed. R. H. C.-H. Occ., t. II, Paris, 1859. (pp. 489-639).

Sanuto, Marino, Secrets for the Crusaders to help them to recover the Holy Land. Written in A. D. 1321. Part XIV.

of Book III tr. by A. Stewart. London, 1896. Cf. Palestine Pilgrims' Text Society, XII, pp. 1-73.

St. Denis, Extraits des Chroniques de Saint-Denis, ou les Grandes Chroniques de France. Ed. Hist. de Fr, XXI, pp. 103-123.

St. - Pathus, Guillaume de,

1. Vie de Saint Louis. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 58-121.

2. Les miracles de Saint Louis, éd. par Percival B. Fay. Paris, 1931.

Sarrasin, Jean Piérre, Lettre à Nicolas Arrode, prévôt des marchants de Paris, en 1289 et 1291 sur la première croisade de Saint Louis. Ed. M. F. Michel, Hist. et chronique du très chrétien roi St. Louis. Paris, 1881. (pp. 253-313).

Tyr, Guillaume de, Willermi Tyrensis Archiepiscopi, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum. Ed. R. H. C.-H. Occ., t. I, Ire. partie (pp. 1-702); t. I, IIe partie (pp. 703-1134). Paris, 1844.

Vartan le Grand, Extrait de l'histoire universelle de Vartan le Grand. Ed. R. H. C.-Doc. Arm, t. I, pp. 431 - 443. Paris, 1869.

Vitry, Jacques de, Siège de Damiette 1218 de J. C. Lettres au pape Honorius III., 1216 à 1227. Ed. Mon. Cart., t. III, fasc. IV. (pp. 936, 944).

Wiegler, Paul, The Infidel Emperor and his struggles against the pope. A chronical of the 13 th. century by P. Wiegler, tr. by Brian W. Downs. London, 1930.

(٤)

المصادر الأصلية العربية

ابن الاثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٢٤ م) أبو الحسن بن أبى الكرم . .
الملقب عز الدين :

١ - منتخبات من كتاب الكامل فى التاريخ . أنظر : R. H. C. - H.
Or., t. I. Paris, 1872, et t. II, Ire. partie Paris, 1887.

٢ - تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصــــل أنظر : R. H. C. - H.
Or., t. II. IIe. partie. Paris, 1876. (pp. 5 - 375).

ابن اياس (ت ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٣ م) ابو البركات محمد بن احمد :
كتاب تاريخ مصر ، المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور - ٤ جـ -
الطبعة الأولى - القاهرة (بولاق) ١٣١١ - ١٣١٤ هـ .

ابن بطوطه (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله :
مهـــذب رحلة ابن بطوطه المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار ،
وعجائب الأسفار - ٢ جـ - القاهرة (بولاق) ١٩٣٤ - ١٩٣٧ م .

ابن جبير (ت ٦١٤ هـ/ ٢١٧ م) ابو الحسن محمد بن احمد الأندلسى :
رحلة ابن جبير - قام على نشرة وليم رايت - الطبعة الثانية - ليدن (بريل)
١٩٠٧ م .

ابن الجيعان (ت ٨٨٥ هـ/ ١٥٨٠ - ١ م) شرف الدين يحيى بن المعز .
التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية - القاهرة (بولاق) ١٣١٦هـ/١٨٩٨م.

ابن الحسين (عاش فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى) اسحق بن الحسين :
آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة بكل مكان . أنظر :

Kamal, Mon. Cart., t, III, fasc. II, 1932 (PP. 623-4).

ابن حوقل (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) ابو القاسم محمد :
المسالك والممالك والمفاوز والمهالك . أنظر : Kamal, Mon. Cart., t.
III, fasc. II. 1932 (PP. 647-654).

ابن خرداذبة (ت فى حدود ٣٠٠ هـ) ابو القاسم عبيد الله بن عبدالله :
كتاب المسالك والممالك ـ ليدن (مطبعة بريل) ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٩ م .

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد :
العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوى السلطان الأكبر ـ ٧ جـ ـ القاهرة (بولاق) ١٢٨٤ هـ .

ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) شمس الدين أبو العباس احمد بن ابراهيم:
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ ٢ جـ ـ القاهرة (بولاق) ١٢٩٩هـ.

ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ /١٤٠٦ م) صارم الدين ابراهيم بن محمدبن أيدمرالعلائى:
الانتصار لواسطة عقد الأمصار ـ جـ ٤ و ٥ فى مجلد واحد ـ بولاق ـ
١٣٠٩ ـ ١٣١٠ هـ .

ابن الراهب (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ ـ ٣ م) ابو شاكر بن ابى الكرم بن المهذب :
تاريخ ابن الراهب ـ عنى بنشرة الاب لويس شيخو ـ بيروت (مطبعة
الآباء اليسوعيين) ١٩٠٣ م .

ابن الساعى البغدادى (ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) تاج الدين على بن أنجب :

مختصر أخبار الخلفاء ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة (بولاق) ١٣٠٩ هـ .

ابن شاهين (ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ - ٨ م) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى:
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ـ اعتنى بنشره وتصحيحه بولس راويس ـ باريس (المطبعة الجمهورية) ١٨٩٤ م .

ابن الشحنة (ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م) ابو الفضل محمد بن الشحنة الحلبى :
الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ـ بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٩ م .

ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة:
سيرة صلاح الدين الايوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ مصر (مطبعة الآداب والمؤيد) ١٣١٧ هـ .

ابن الطقطقى (المتوفى بعد ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م) فخر الدين محمد بن على :
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ـ القاهرة (مطبعة الموسوعات) ١٣١٧ هـ .

ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله :
منتخبات من تاريخ حلب ، أنظر، R.H. C - H. Or., t. III, Paris, 1884 (PP. 571 — 690).

ابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) ابو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد :
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ ٨ جـ ـ القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ .

ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) ابو يعلى حمزة بن اسد بن على ابن محمد:

تاريخ ابى يعلى حمزة بن القلانسى ، المعــــروف بذيل تاريخ دمشق ـ بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م .

ابن كثير القرشى (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م) عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر :
البداية والنهاية فى التاريخ ـ ١٤ جـ ـ القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .

ابن مطروح (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) جمال الدين يحيى :
ديوان ابن مطروح ـ الطبعة الأولى ـ قسطنطينية (مطبعة الجوائب) ١٢٩٨ هـ .

ابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) أبو المكارم أسعد بن الخطير ابى سعد :
كتاب قوانين الدواوين ـ جمعه ونشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطيه ـ القاهرة (طبعة الجمعية الزراعية) ١٩٤٣ م .

ابن منقذ (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) مؤيد الدولة ابو المظفر أسامة بن مرشد :
كتاب الاعتبار ـ اعتنى بتصحيحه هرتويغ ورتبرغ ـ ليـــدن (مطبعة بريل) ١٨٨٤ م .

ابن الوردى (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م) ابو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر:
١ ـ تتمة المختصر فى أخبـــار البشر ، ويعرف بتاريخ ابن الوردى ـ ٢ ـ جـ القاهرة (المطبعة الوهبية) ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .
٢ ـ خريدة العجائب وفريدة الغرائب ـ القاهرة (مطبعة عثمان عبـــد الرازق) ١٣٠٣ هـ .

ابو شامة (ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان شهاب الدين :

١ ـ كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين النورية والصلاحية ـ جزءان فى مجلد واحد ـ القاهرة (مطبعة وادى النيل) ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ .

٢ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ـ نشرة السيد عزت العطار الحسينى ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .

٣ ـ ترجمة ابى شامة منقولة من ذيل كتاب الروضتين . أنظر . R. H. C. H. Or., t. V, Paris, 1906.

ابو الفداء (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين ابو الفداء اسماعيل ابن على :

١ ـ المختصر فى أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ أبى الفداء ـ ٤ جـ ـ استانة (دار الطباعة الشاهانية) ١٢٨٦ هـ .

٢ ـ تقويم البلدان ـ نشرة رينو وديسلان ـ باريس (دار الطباعة السلطانية) ١٨٤٠ م .

(٣) Abulfeda, Descriptio Aegypti, Arabice et Latine; edidit, Ioannes David Michaelis. Goettingae, 1776.

أبو الفرج الملطى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) غريغوريوس أبو الفرج ابن أهرون :

تاريخ مختصر الدول ـ بيروت (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين) ١٨٩٠ م .

ابو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغرى بردى :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ٩ جـ - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٨ - ١٣٦١ هـ / ١٩٢٩ - ١٩٤٢ م .

ابو اليمن العليمى (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م) ابو اليمن عبد الرحمن بن مجير الدين :
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل - ٢ جـ - القاهرة (المطبعة الوهبية) ١٢٨٣ هـ .

الادريسى (ت ٥٦٠ هـ/١١٦٦م) ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس :
١ - صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق - نشر هذا القسم وقدم له وترجمه إلى الفرنسية دوزى ودى غويه - ليدن (مطبعة بريل) ١٨٦٦ م .
٢ - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، أنظر : Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. IV. PP. 827 - 845) .

الاسفراينى (ت ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ - ٩ م) ابو المظفر عماد الدين :
التبصير فى الدين ، وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين - القاهرة (مطبعة الأنوار) ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م .

الاصطخرى (عاش فى القرن الرابع هـ / القرن العاشر م) ابو اسحق ابراهيم ابن محمد :
مسالك الممالك ، أنظر . Kamal, Mon. Cart. III, fasc. II, (PP. 584–586).

البخارى (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩ - ٨٧٠ م) محمد بن ابى الحسن اسماعيل بن ابراهيم :
صحيح البخارى - القاهرة (المطبعة الأميرية) ١٣٠٥ هـ .

الترمذى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ - ٣ م) ابن عيسى بن محمد ن عيسى بن سورة :

الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى - ٢ ج ، حققه احمد محمد شاكر - الطبعة الأولى - القاهرة (مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده) ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

الذهبى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م) ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان قايماز شمس الدين :

دول الإسلام - ٣ ج - الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر اباد الدكن) ١٣٣٧ هـ .

السبكى (ت ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م) تاج الدين ابو النصر عبد الوهاب بن ابى الحسن :

طبقات الشافعية الكبرى - ٦ ج - القاهرة (المطبعة الحسينية) ١٣٢٤ هـ .

السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن ابى بكر جلال الدين :

١ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - ٢ ج - القاهرة (المطبعة الشرفية) ١٣٢٧ هـ .

٢ - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين - القاهرة (المطبعة اليمنية) ١٣٠٥ هـ .

٣ - كتاب بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة - مصر (مطبعة السعادة) ١٣٢٦ هـ .

٤ - لب اللباب فى تحرير الأنساب - قام على نشره وعلق عليه بطرس يوحنا فيث Petrus Johannes Veth - ليدن (مطبعة بريل) ١٨٥١م .

الشهرستانى (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) محمد بن عبد الكريم :

كتاب الملل والنحل - جزءان فى مجلد - ليبزج ١٩٢٣ م .

الصفدى (ت ٧٦٤ هـ/١٢٦٣م) صلاح الدين ابو الصفاء خليل بن عز الدين ايبك:
نكت الهميان فى نكت العميان ـ مصر (المطبعة الجمالية) ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م .

الاصفهانى (٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد :
١ ـ الفتح القسى فى الفتح القدسى ـ القاهرة (مطبعة الموسوعات) ١٣٢١ هـ .
٢ ـ تاريخ دولة آل سلجوق ـ القاهرة (مطبعة الموسوعات) ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م .

العمرى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) شهاب الدين ابو العباس المعروف بابن فضل الله .
١ ـ رسالة تشتمل على كلام إجمالى فى أمر مشاهير ممالك الفرنج عباد الصليب فى البر دون البحر ـ ومعها ترجمة باللغة الايطالية لميخائيل أمارى ـ روما ١٨٨٣ م .
٢ ـ مسالك الابصار فى ممالك الأمصار ـ ج١ ـ نشره المرحوم احمد زكى ـ القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين ابو محمد محمود بن احمد بن موسى :
منتخبات من عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان R. H. C.-H. Or, t II, Ier. partie. Paris, 1887. (pp. 181-250).

القزوينى (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود :
آثار البلاد وأخبار العباد ـ نسخة فى مجلد طبع جوتنجن ، لها مقدمة باللغة الالمانية للاستاذ وستنفلد غوتا ـ جوتنجن ١٨٤٨ م .

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) احمد بن على بن احمد عبد الله :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا - ١٤ جـ - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠م / ١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ .

الكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر بن احمد بن عبد الرحمن فخر الدين :
فوات الوفيات - ٢ جـ فى مجلد واحد - القاهرة (بولاق) ١٢٩٩ هـ .

المقدسى (عاش فى القرن الرابع هـ / القرن العاشر م) شمس الدين ابو عبد الله المعروف بالبشارى :
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - الطبعة الثانية - ليدن (مطبعة بريل) ١٩٠٦ م .

المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقى الدين ابو العباس احمد :
١ - المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار - ٢ جـ - القاهرة (بولاق) ١٢٧٠ هـ .
٢ - السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزءان الأول والثانى إلى سنة ٧٤١هـ - نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ - ١٩٤٢ م .
٣ - البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب - مصر (مطبعة المعارف) ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م .
٤ - النقود القديمة والاسلامية ، أو نبذة العقود فى أمور النقود - قسطنطينية (مطبعة الجوائب) ١٢٩٨ هـ .
٥ — Histoire d' Égypte de Makrizi, traduite de l' arabe

et accompagnée de notes historiques et géographiques par E. Blochet. Paris, 1908.

٦ — Histoire des Sultans Mamlouks de l' Égypte, écrite en Arabe par Taki – Eddin - Ahmad - Makrizi, et traduite en Français par M. Ouatrèmere. 2 vols. Paris, 1845.

المهلبى (عاش فى القرن الرابع هـ / العاشر م) ابو الحسن المهلبى :

كتاب المسالك والممالك ، ويعرف بالكتاب العزيزى . أنظر : Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. II, 1932 (pp. 683-4).

ناصر خسرو علوى (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م) ابو معين الدين :

سفر نامة ـ نقله إلى العربيـة وقدم له وعلق عليه الدكتور يحى الخشاب ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

اليافعى اليمنى (ت ٧٦٨ هـ/١٣٦٦ م) ابو محمد عبدالله بن اسعد بن على بن سليم :

مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ـ ٤ جـ ـ الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر اباد الدكن) ١٣٣٧ هـ .

ياقوت الرومى الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين :

معجم البلدان ـ ٤ جـ وفهرس ـ ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧٠ م .

اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧م) احمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح :

كتاب البلدان . أنظـــر : Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. I, 1930 (pp, 540-2).

(٥)

المراجع الثانوية الأوروبية

Archer, T. A. & Kingsford, C. L, The Crusades : The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem; 5 th. impression. London, 1919.

Arnold, T. W., The Preaching of Islam. London, 1935.

Atiya, A. S.,

1- The Crusade of Nicopolis. London, 1934.

2- The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

3- Egypt and Aragon- Embassies & Diplomatic Corr-espondence between 1300 & 1330. Leipzig, 1938.

Bailly, A., Saint Louis. Paris, 1949.

Bainville, J., Histoire de France. Paris, 1925.

Balzani, U., Early Chroniclers of Europe, Italy. London, 1883.

Barker, E., The Crusades. London, 1925.

Barthold, W.,

1- Turkestan down to the Mongol Invasion. Revised edition & tr. by H. A. R. Gibb. London, 1928.

2- Histoire des Turcs d'Asie Centrale. Adaptation française par Mme M. Donekis. Paris, 1945.

Bell, M. I., A Short History of the Papacy. London, 1921.

Berchem, Max van, Épigraphie des Assassins de Syrie (Extrait du J. A. Mai-Juin 1897). Paris, 1897.

Bergr, É., Saint Louis et Innocent IV-Étude sur les Rapports de la France et du Saint - Siège. Paris, 1893.

Bertrand, L. & Petrie, C., The History of Spain. The English tr. by W. B. Wells. London, 1934.

Besant, W. & Palmer, E., Jerusalem, the City of Herod and Saladin. London, 1899.

Blanchet, D. & Pinard. J., Cours Complet d'Histoire de France. Paris, 1912.

Bordeaux, H., Un précurseur : Vie, mort et survie de Saint Louis, Roi de France. Paris, 1949.

Bouchier, E., A Short History of Antioch 300 B. C. - A. D. 1268. Oxford, 1921.

Boulenger, J., La vie de Saint Louis. Paris, 1929.

Bray, A., The Good St. Louis and his Times. London, 1870.

Bréhier, L., L' Église et l' Orient au Moyen âge : Les Croisades. 5me. éd, Paris, 1928

Brockelmann, C., Geschichte der Arabischen Litteratur. 5 vols. Leiden, 1937-1948.

Browne, E., A Literary History of Persia. 3 vols. Cambridge, 1951.

Cahun, L., Introduction a l'histoire de l'Asie, Turcs et Mongols, des Origines à 1405. Paris, 1896.

Calmette, J., Le Monde Féodal, Avant- Propos de S. Charléty. Paris, 1937.

Calthrop, M., The Crusades. London (N. D.) (The People's Books),

Campbell, G., The Crusades. London, 1935.

Chalondon, F.,

1- Essai sur le Règne d'Alexis 1er. Comnène. Paris, 1900.

2- Histoire de la Première Croisade jusqu' à l'election de Godefroi de Bouillon. Paris, 1925.

Chanteur, C., Petite histoire de Syrie et du Liban. Beyrouth, 1924.

Combe, E., Sauvaget, J. & Wiet, G. (pub.), Répertoire Chr- onologique d'Épigraphie Arabe. 14 vols. Le Caire, 1931 - 43.

Conder, C. R.,

1- The City of Jerusalem. London, 1909.

2- The Latin Kingdom of Jerusalem. 1099-1291 A. D. London, 1897.

Coulton, G., The Inquisition. London, 1929.

Daniel - Rops, L' Église de la Cathédrale et de la Croisade. Paris, 1952.

Daru, Le Comte, Histoire de la républlque de Venice, 10 tomes. Bruxelles, 1840.

Davis, E. J, The Invasion of Egypt in A. D. 1249 (A. H. 647)

by Louis IX of France (St. Louis) and a history of the contemporary sultans of Egypt. London, 1897.

Davis, H. W. C.,

1- England under the Normans and Angevins. 1066-1272. 9 th. ed. London, 1928. Cf. A History of England in 7 vols. (vol. II.).

2- Medieval Europe. London, 1941.

Defrémery, M. C., Nouvelles Recherches sur les Ismaéliens ou Bathiniens de Syrie, plus, connus sous le nom d'Assassins, et principalement sur leurs rapports avec les états Chrétiens d'Orient. Cf. J. A. 5 e. serie, t. V, 1855, pp. 5-76.

Deguignes, C. L., Histoire générale des Huns, des Turcs, des Mongols, et des autres Tartares occidentaux avant et depuis Jesus - Christ jusqu' à present. 4 t. en 5 vols. Paris, 1756-8.

Delaville Le Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre (1100-1310). Paris, 1904.

d' Ohsson, C , Histoire des Mongols, depuis Tchinguiz - khan jusqu' à Timour Bey ou Tamorlan. 3 rd. ed. 4 vols. Amsterdam, 1852.

Dubeux, M. & Valmont, M., Tartarie, Béloutchistan, Butan et Népal. Paris, 1848.

Dussaud, R., Topographie historique de la Syrie Antique et Médiévale. Paris, 1927.

Fisher, H., A History of Europe. 3 vols. London, 1935.

Funck – Brentano, F., Les Croisades. Paris, 1934.

Gibbon, E., The Crusades A. D. 1095–1291. London, 1870.

Grébaut, S., L'expansion nestorienne en Asie par F. Nau. Cf. R. O. C., 2e. Série, t. IX, 1914. pp. 334-6.

Grousset, R.,

1 - Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem 3 vols. Paris, 1948.

2- L' Épopée des Croisades . Paris, 1947.

3- The Sum of History. English Version by A. and H. Temple Patterson. Oxford, 1951.

Guérin, V., Jérusalem, son histoire, sa description, ses établissements religieux. Paris, 1889.

Guizot, M., Saint Louis and Calvin. London, 1869.

Guyard, M. S., Un Grand Maiter des Assassins au temps de Saladin. Cf. J. A. 7e. série, t. IX, 1877. pp. 324–489.

Hammer, J. de, Histoire de l'Ordre des Assassins. Ouvrage traduit de l'Allemend et augmenté de pièces justificatives, par J. J. Hellert et P. A. de la Nourais. Paris, 1833.

Hardwick, C , A History of the Christian Church. Middle Age. 2 nd. ed. London, 1881.

Hassall, A., France, Mediaeval and Modern Oxford, 1918.

Hastings, J. (ed.), Encyclopaedia of Religion and Ethics. 12 vols. & Index vol. Edinburgh, 1925–1940.

Hélyot, Le R. P., Dictionnaire des Ordres Religieux. 4 vols.

Paris, 1847-1859.

Heyd, W., Histoire du commerce de Levant au moyen age. 2 vols. Leipzig, 1885–1886.

Higgs, H, Palgrave's Dictionary of Political Economy. 3 vols. London, 1926.

Hitti, P., History of Syria including Lebanon and Palestine. London, 1951.

Howorth, H., History of the Mongols from the 9 th. to the 19 th. Century. 4 parts in 5 vols. London, 1876–1927.

Huzayyin, S. A., Arabia and the Far East. Cairo, 1942.

Iorga, N., Brève Histoire des Croisades et de leurs fondations en Terre Sainte. Paris, 1924

Jacobs, J., Geographical Discovery : How the World became known. London, 1909.

Jullien, P., Note sur l'emplacement de l' ancienne Damiette. Le Caire, 1887, Cf. Bulletin de l'Institut Égyptien. 2e. Série. No. 7. Année 1886. pp. 72–7.

King, E., The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.

Kitchin, G., A History of France. vol. I (B C. 58-A. D. 1453) 4 th. ed. revised. Oxford, 1899.

Knox, W., The Court of a Saint. London, 1909.

Lacroix, P.,

1- Vie militaire et religieuse au moyen age et a l'époque de la Renaissance. 2e. ed. Paris, 1873.

2- La Chevalerie et les Croisades. Féodalité, Blason, Ordres Militaires. Paris, 1887.

Lamartine, de, Voyage en Orient 1832-1833. 2 vols. Paris, 1875.

Lamb, H., The Crusades : The flame of Islam. London, 1931.

Lammens, H., La Syrie-Précis Historique. 2 vols. Beyrouth, 1921.

Lane-Poole, St.,

1- A History of Egypt in the Middle Ages. 5 th. ed. London, 1936.

2- The Story of Cairo. London, 1902.

3- The Mohammadan Dynasties, chronological and genealogical tables with historical instructions. Paris, 1925.

Lavisse, E., Histoire de France depuis les origines jusqu'à la revolution. 9 vols. Cf. t. III, II, par Ch.-V. Langlois. Paris, 1911.

Le Bas, M., Annales historiques de France. t. I. Paris, 1840.

Ludlow, J. M., The Age of the Crusades. Edinburgh, 1897.

Mahler, Ed., Wüstenfeld-Mahler'sche Vergleichungs - Tabellen der mohammedanischen und christlichen zeitrechnung. Leipzig, 1926.

Maillet, de, Description de l'Égypte, composée sur les mémoires de Mr. Maillet par Le Mascrier. 2 t. en 1, vol. Le Haye, 1740.

Maimbourg, P., Histoire Universelle des Croisades d'après les principaux historiens. Paris, 1868.

Mas Latrie, M. L. de.,

1 - Histoire de l'île de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan. 3 vols. Paris, 1851, 52, 54.

2- Les Patriarches Latins de Jérusalem. Cf. R. O. L., t. I, 1893. pp. 16-41.

3- Les Patriarches Latins d' Antioche. Cf. R. O. L., t. II, 1894, pp. 192-205.

Maspero, J. & Wiet, G., Matériaux pour servir à la Géographie de l' Égypte. 2 fasc.-Mémoires publiés par les Membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire. t. XXXVI. Le Caire, 1914-1919.

Masson, G., Mediaeval France, from the reign of Hugues Capet to the beginning of the 16th. century. London, 1888.

Maycock, A., The Papacy. London, 1928.

McKilliam, A., A Chronicle of the Popes from St. Peter to Pius X. London, 1912.

Michaud, M., Histoire des Croisades. 7 t. Paris, 1819-1822.

Michelet, M., The History of France, tr. by Walter K. Kelly. 2 vols. London, 1844-6.

Miller., G, History, philosophically illustrated from the fall of the Roman Empire to the French Revolution. 4 vols. London, 1849-1852.

Miller, W., Mediaeval Rome from Hildebrand to Clement VIII

(1073 - 1600). London, 1901.

Molinier, A., Les sources de l'histoire de France depuis les origines jusqu'en 1815 Cf. vol. III : Les Capétiens, 1180-1328. Paris, 1903.

Moule, A., Christians in China before the year 1550. London, 1930.

Newton, A. (ed.), Travel and Travellers of the Middle Ages. London, 1930.

Oman, C., A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols, 2nd. ed. revised and enlarged. London, 1924.

Omar Tousson, Mémoire sur l' histoire du Nil. 3 t. Le Caire, 1925.

Paris, G , Mediaeval French Literature, tr. from the French by H. Lynch. London, 1903.

Pelliot, P., Les Mongols et la Papauté. Three extracts from R. O. C. Paris, 1923-4.

Perry, F., Saint Louis (Louis IX of France) the most Christian King New York, London, 1901.

Petit-Dutaillis, C., La Monarchie Féodale en France et en Angleterre (Xe-XIIIe siècle). Paris, 1933.

Pirenne, J., Les Grands Courants de l'Histoire Universelle. Cf. T. II : de l'expansion Musulmane aux traités de Westphalie. 3e. ed. Neuchatel, 1947.

Pococke, R.; Voyages en Orient. Tr. de l' Anglais sur la 2e. ed. par un Société de Gens de Lettres. 7 vols. Paris, 1772-73.

Power, E., The Opening of the Land Routes to Cathay. Cf. Travel and Travllers of the Middle Ages, pp. 124 - 158.

Previté-Orton, C., A History of Europe from 1198 to 1378. London, 1937.

Réshad, M., Note sur la prison de Louis IX à Mansourah. Tr. et présenté à l' Institut Égyptien par Yacoub Artin. Le Caire, 1887. Cf. Bulletin de l'Institut Égyptien. 2e. Série.- No. 7. Année 1886, pp. 78-89.

Rey, E. G.,

1- Essai sur la domination française en Syrie durant le moyen age. Paris, 1866.

2- Les Familles d'Outre-Mer de Du Cange, publiées par M. E. G. Rey. Paris, 1869.

3- Étude sur les Monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie et dans l'Ile de Chypre. Paris, 1871.

4- Les Colonies franques de Syrie aux XIIme. et XIIIme. Siècles. Paris, 1883.

5- Résumé Chronologique de l' Histoire des Princes d' Antioche, Cf. R. O. L., t IV, 1896, pp. 321-407.

6- Les dignitaires de la principauté d'Antioche. Grands-Officiers et patriarches (XIe–XIIIe siècle) Cf. R. O. L., t. VIII, 1900–1901, pp. 116–157.

Röhricht, R.,

1- Études sur les derniers temps du royaume de Jérusalem. Cf. A. O. L. t. I, pp. 617-652.

2- Geschichte des königreichs Jerusalem (1100-1291). Innsbruck, 1898.

Ross, E., Prester John and the Empire of Ethiopia. Cf. « Travel and Travellers of the Middle Ages, pp. 174-194».

Runciman, S.,

1- Byzantine Civilisation. London, 1948.

2- The First Crusade, vol. I. Cambridge, 1951.

Schefer, C., Étude sur la Devise des Chemins de Babiloine, Mémoire envoyé en Europe vers 1289 – 1290 par les Hospitaliers. Cf. A. O. L., t. II, pp. 89–101. Paris, 1884.

Schlegel, F. von, The Philosophy of History, tr. from the German by J. B. Robertson. London, 1846.

Schlumberger, G.,

1– Campagnes du Roi Amaury Ier. de Jérusalem en Égypte, au XIIe. siècle. Paris, 1906.

2- Les principautés franques du Levant d'après les plus récentes découvertes de la numismatique. Paris, 1877.

Sedillot, L., Histoire générale des Arabes. 2e. ed. T. I. Paris, 1877.

Sepet, M., Saint Louis. London, 1899.

Shaw, T., Travels or observations, relating to several parts of Barbary and the Levant. 3rd. ed. vol. II, Edinburgh, 1808.

Smith, G., The Historical Geography of the Holy Land, 15th. ed. London, 1909.

Stevenson, W., The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Stubbs, W.,

1- Germany in the Early Middle Ages, 476–1250, ed. by A. Hassall. London, 1908.

2- Germany in the Later Middle Ages, 1200-1500. by A. Hassall. London, 1908.

Sykes, N., The History of England. London (N.D.)

Sykes, P.,

1- A History of Exploration from the Earliest Times to the Present Day. London, 1933.

2- A History of Persia. 2 vols. London, 1951.

Taylor, I., The Alphabet : An account of the origin and development of letters. 2 vols. London, 1883.

Taylor, W., The History of Mohammedanism and its Sects. 3rd. ed. London, 1851.

Tenison, E., Chivalry and the Wounded. The Hospitallers of St. John of Jerusalem (1014-1914). London, 1914.

Tilley, A., Medieval France. Cambridge, 1922.

Tout, T,

1- The history of England from the accession of Henry III. to the death of Edward III. (1216-1377). London, 1905.

2- The empire and the papacy, European history, 918–1273. London, 1909.

3- France and England. Their relations in the Middle Ages and now. Manchester, 1922.

Trudon des Ormes, A., Listes des maisons et de quelques dignitaires de l'ordre du Temple, en Syrie, en Chypre, et en France, d'après les pièces du procès. Cf. R. O. L., t. V, 1897, pp. 389-459.

Turberville, A., Mediaeval Heresy and the Inquisition. London, 1920.

Vambery, A., History of Bokhara from the earliest period down to the present. London, 1873.

Vasiliev, A., Histoire de l'Empire Byzantin, tr. du Russe par P. Brodin et A. Bourguina. Préface de M. Ch. Diehl. 2 vols. Paris, 1932.

Wallon, H., Saint Louis et son temps. 2 vols. Paris, 1875.

Walsh, Le Vicomte, Saint Louis et son siècle. Tours, 1876.

Watson, C., The Story of Jerusalem. London, 1929.

Wiet, G., T. IV de l'histoire de la Nation Égyptienne, L'Égypte Arabe de la conquête Arabe a la conquête Ottoman. Paris, 1937.

Woodhouse, F., The military religious orders of the middle ages: The Hospitallers, The Templars, The Teutonic Knights, and others. London, 1879.

Youssouf Kamal, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti. t. III. Époque Arabe, 5 fasc. (1930-5).

Zambaur, E. ed., Manuel de généalogie et de chronologie pour l' histoire de l' Islam. Hanovre, 1927.

(٦)

المراجع الثانوية العربية

احمد بن زينى دحلان :

الفتوحات الاسلامية ـ ٢ جـ ـ القـــاهرة (المطبعة الحسينية والمطبعة الشرقية) ١٣٢٣ هـ .

احمد عارف الزين :

تاريخ صيدا ـ صيدا (مطبعة العرفان) ١٣٣١ هـ .

ارنولد (سير توماس) :

الدعـوة إلى الاسلام ـ ترجمه إلى العربية الدكتـور حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى ـ القاهرة (مطبعة الشبكشى بالأزهر) ١٩٤٧ م .

الاسحاقى :

لطائف أخبـار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ـ القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣١٠ هـ .

اسطفان الدويهى :

١ ـ تاريخ الطائفة المارونية ـ عنى بطبعه وعلق حواشيه رشيد الخـورى الشرتونى ـ بيروت (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين) ١٨٩٠ م .

٢ ـ سلسلة بطاركة الطائفة المارونية ـ نشرها رشيـــد الشرتونى ـ أنظر مجلة المشرق ـ السنة الأولى ـ ١٨٩٨ م ص ٢٤٧ - ٢٥٢ و ٣٠٨ - ٣١٣ و ٣٤٧ - ٣٥٣ و ٣٩٠ - ٣٩٦ .

اسماعيل سرهنك :

حقائق الأخبار عن دول البحار ـ ٢ جـ ـ القاهرة (بولاق) ١٣١٢-١٣١٤ هـ.

انطون خانجى :

مختصر تواريخ الأرمن ـ اورشليم (دير الآباء الفرنسيسكانيين)
١٨٦٨ م .

باركر (ايرنست) :

الحروب الصليبية ـ عربة على احمد عيسى ـ أنظر : تراث الاسلام الجزء الأول ص ٨١ - ١٤٧ ـ القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٣٦ م .

جرجى ينى :

تاريخ سوريا ـ بيروت (المطبعة الأدبية) ١٨٨١ م .

جمال الدين الشيال (الدكتور) :

مجمل تاريخ دمياط ـ الاسكندرية (مطبعة مدرسة دون بوسكو) ٩٤٩، م.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ ـ العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ـ الطبعة الثانية ـ الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧ .

٢ ـ الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى ـ الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧ .

٣ ـ العدوان الصليبى والرأى العام الغربى ـ محاضرة من سلسلة المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية للعام الجامعى ١٩٦٨/٦٧ ـ الاسكندرية (مطبعة جامعة الاسكندرية) ١٩٦٨ (ص ٢٩ - ٥٢) .

٤ ـ العدوان الصليبى على مصر : هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور ـ الاسكندرية (دار الكتب الجامعية) ١٩٦٩ .

حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :
انتشار الاسلام بين المغول والتتار - القــاهرة (المطبعة المتوسطة بالعشماوى) ١٩٣٣ .
حسن حبشى (الدكتور) :
١ - الحرب الصليبية الأولى - الطبعة الأولى - القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٤٧ م ، والطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٨) .
٢ - نور الدين والصليبيون - القـاهرة (مطبعة الاعتمـاد) ١٩٤٨ م .
٣ - الشرق العربى بين شقى الرحى - حملة القديس لويس على مصـــر والشام - القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٤٩ م .
الديار بكرى :
الخميس فى أحوال أنفس نفيس -٢جـ - القاهرة (المطبعة العثمانية)١٣٠٢هـ.
رباط انطون :
العلاقات بين الشرق والغرب - أنظر مجلة المشرق - السنة الرابعة عشرة ١٩١١ م العدد ٧ ص ٥٤٨ - ٥٥٢ .
الرمزى :
تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار - ٢جـ - اورنبورغ (المطبعة الكريمية والحسينية) ١٩٠٨ م .
زكى محمد حسن (الدكتور) :
الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى - القاهرة (دار المعارف بمصر) ١٩٤٥ م .
سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
١ - قبرس والحروب الصليبية - القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٥٧ .
٢ - الحركة الصليبية - صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور

الوسطى ـ جزءان ـ القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٦٣ ·

سيد أمير علي :

مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ـ نقله إلى العربية رياض رأفت ـ القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٣٨ ·

طوبيا العنيسى :

سلسلة تاريخية للبطاركة الأنطاكيين الموارنة ـ رومية (مطبعة السفناتو) ١٩٢٧ م ·

على ابراهيم حسن (الدكتور) :

مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ـ القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٤٧ م ·

على مبارك :

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، وتعرف بخطط على مبارك ـ ٢٠ ج ـ القاهرة (بولاق) ١٣٠٤-١٣٠٦ هـ ·

عمر طوسون :

كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن ـ الاسكندرية (مطبعة صلاح الدين الكبرى) ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م ·

غوستاف لوبون (الدكتور) :

حضارة العرب ـ نقله إلى العربية محمد عادل زعيتر ـ القاهرة (دار إحياء الكتب العربية) ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م ·

فشر (هـ . ا . ل) :

تاريخ اوربا فى العصور الوسطى ـ القسم الأول ـ نقله إلى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى ـ القاهرة (دار المعارف بمصر) ١٩٥٠ م ·

فنسنك (ا . ى) :

مفتاح كنوز السنة ، هو معجم مفهرس عام تفصيلى وضع للكشف عن الأحاديث النبوية الشريفة المدونة فى كتب الائمة الاربعة عشر الشهيرة - نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقى - القاهرة (مطبعة مصر) ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .

فيليب حتى (الدكتور) :

تاريخ العرب - ٢ ج - ترجمة محمد مبروك نافع - الطبعة الثانية - القاهرة (مطبعة العالم العربى) ١٩٤٩ م .

كارل بروكلمان :

تاريخ الشعوب الاسلامية - نقله إلى العربية نبيه امين فارس ومنير البعلبكى - ٣ ج - بيروت (دار العلم للملايين) ١٩٤٨ - ١٩٤٩ م .

كامل بن حسين الشهير بالغزى :

نهر الذهب فى تاريخ حلب - ٣ ج - حلب (المطبعة المارونية) ١٣٤٢ هـ .

لويس شيخو :

١ - مجلة المشرق - صاحب امتيازها الاب لويس شيخو - من السنة الاولى إلى السنة السادسة والعشرين - بيروت (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين) ١٨٩٨ - ١٩٢٨ م .

٢ - النصرانية بين قدماء الاتراك والمغول - أنظر مجلة المشرق - السنة السادسة عشرة - ١٩١٣م - العدد١٠ ص ٧٥٤ - ٧٧٢ .

٣ - أثر جديد لقدماء النصارى فى الصين - أنظر مجلة المشرق - السنة العشرين - ١٩٢٢م - العدد ١١ - ص ٩٢٩ - ٩٣٨ .

٤ - جولة فى الدولة العلوية - أنظر مجلة المشرق - السنة ٢٢ - ١٩٢٤ م - العدد ٧ ص ٤٨١ - ١٩٣ .

٥ - بيروت : أخبارها وآثارها - أنظــر مجلة المشرق - السنة ٢٣ - ١٩٢٥ م - الأعداد ١ ص ٤٤ - ٥٤ و ٢ص ١٤٤ - ١٥٠ و٣ ص١٩٤ - ٢٠٤ و ٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٨ و ٥ ص ٣٧٢ - ٣٧٧ و٦ ص ٤٥٨ - ٤٦٣ و٧ص٥١٧ - ٥٢٣ و ٨ ص٦١٨ - ٦٢٥ و٩ ص٦٦٨ - ٦٧٢ و ١٠ص ٧٧٤ - ٧ و ١١ ص ٨٦٤ - ٨ و ١٢ ص ٩٤٤ - ٨ .

٦ - نبذة فى ترجمة وتآليف العلامة غريغوريوس ابى الفرج بن اهرون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٨٩٨ م .

لينبول (ستانلى) :

سيرة القـــاهرة - ترجمه عن الانجليزية الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن وادوار حليم - القاهرة ١٩٥٠ .

مارى جوزيف الكرملى :

حيفا : ماضيها ومستقبلها - أنظر بمجلة المشرق - السنة السابعة - العدد ٢ص ٦٨ - ٧٣ .

محمد راغب بن محمود بن هاشم :

اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء - ٧ ج - حلب (المطبعـــة العلمية) ١٣٤٢ - ١٣٤٥هـ

محمد رمزى :

استدراك على كتاب المسيو اميلينو الخاص بجغرافية مصر فى عهد القبط - القاهرة ١٩٣٥ م.

محمد عبد الله عنان :

١ - بين الشرق والغرب : فكرة الحروب الصليبية - مجلة الهلال - ج ٧- السنة ٣٤ - ابريل ١٩٢٦ / رمضان ١٣٤٤ - ص ٧٠٩ - ٧١٤ .

٢ - مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام - الطبعة الثانية - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٥٢ هـ / ١٩٤٣ م .

٣ - تراجم إسلامية شرقية وأندلسية - القاهرة (دار المعارف بمصر) ١٩٤٧ م .

محمد كرد على :

كتاب خطط الشام - ٦ ج فى مجلدين - دمشق (دار المطبعة الحديثة) ١٣٤٣ - ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٥ - ١٩٢٨ م .

محمد مصطفى زيادة (الدكتور) :

١ - المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القرن التاسع الهجرى) - القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٤٩ م .

٢ - حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة - القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٦١ م .

مكسيموس مونروند :

تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب - ترجمه من الفرنسية إلى العربية مكسيموس مظلوم - ٢ ج فى مجلد واحد - اورشليم ١٨٦٥ م .

ميخائيل شاروبيم :

الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث - ٤ ج - القاهرة (بولاق) ١٨٩٨ م / ١٣١٥ هـ .

ميخائيل عواد :

المآصر فى بلاد الروم والاسلام ـ (مطبعة المعارف) ١٩٤٨ م .

هنرى لامنس :

١ ـ المذكرات الجغرافية فى الأقطار السورية ـ أنظر مجلة المشرق ـ السنة العاشرة ـ ١٩٠٧ م ـ أعداد ٣ ص ١٠٥ ـ ١١١ و ٤ ص ١٦١ ـ ١٦٩ و ٦ ص ٢٦٥ ـ ٣٧٣ و ١١ ص ٤٥٨ ـ ٤٦٢ .

٢ ـ السواحل اللبنانية ـ أنظر مجلة المشرق ـ السنة السابعة ـ العدد ٢٠ ص ٩٣٩ ـ ٩٤٩ .

يوحنا ابكاريوس :

قطف الزهور فى تاريخ الدهور ـ بيروت ١٨٧٣ م .

يوسف أشباخ :

تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ـ ترجمه ووضع حواشيه محمد عبد الله عنان ـ ٢ ج ـ القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٥٩ ـ ١٣٦٠ هـ / ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ م .

يوسف اليان سركيس :

معجم المطبوعات العربية والمعربة ـ ١١ ـ ج ـ القاهرة (مطبعة سركيس) ١٣٤٦ ـ ١٣٤٩ هـ .

يوسف الدبس :

تاريخ سورية ـ ٨ ج ـ بيروت ١٨٩٣ ـ ١٩٠٥ م .

يوسف دريان :

١ ـ لباب البراهين الجلية عن حقيقة أمر الطائفة المارونية منذ أوائل القرن الخامس إلى أوائل القرن الثالث عشر من القرون المسيحية ـ وهو

درس تاريخى انتقادى فى أصل الطائفة المارونية واسمها وديانتها وأحوالها
(تاريخ الطبع غير معلوم) .
٢ - نبذة تاريخية فى أصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان من
قديم الدهر حتى الآن - القاهرة (مطبعة الأخبار) ١٩١٦ م .
يوسف كرم :
تاريخ الفلسفة اليونانية - القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
١٣٥٥ ه / ١٩٣٦ م .

(٧)

الأطالس والخرائط

عمر طوسون :
أطلس تاريخى لأسفل الأرض (الوجه البحرى) من القرن الأول
الهجرى (السابع الميلادى) إلى سنة ١٣٠٣ ه (١٩٣٤ م) [تاريخ
ومكان الطبع غير معلومين] .

Andrees,

Handatlas. Bielefeld und Leipzig, 1937.

Anville, Mons. d',

A Complete Body of Ancient Geography. London, 1812.

Droysens, G.,

Allgemeiner Historischer Handatlas. Bielefeld und Leipzig, 1886.

Hazard, H. W,

Atlas of Islamic History. Maps executed by H. L. Cooke. 2nd. ed. Princeton, 1952.

Previté-Orton, C. W. & Brooke, Z.D. (eds.),
The Cambridge Medieval History, planned by J. B. Bury. Volume of Maps. Cambridge, 1936.

Saint-Martin, M. V. de,
Atlas dressé pour l'histoire de La géographie et des découvertes géogra_hiques depuis les temps les plus reculés jusqu' à nos jours Paris, 1874.

Schrader, F. & Gallouédec, L., Atlas classique de géographie ancienne et moderne. Paris, 1925.

Sprüner - Mencke, Handatlas des Mittelalters (N. D.)

فهرس عام

(ب)

(ح)

(خ)

(س)

(ق)

(ك)

(هـ)

طبع



تليفون ٨٠١٤٩١ اسكندرية

رقم الايداع بدار الكتب ٢٩٨ لسنة ١٩٧

دار الكتب الجامعية

الادارة : ١٨ شارع سيزوستريس
٢٥ شارع طلعت حرب
تليفون ٣٥٨٢٠ اسكندرية

توزيع القاهرة
دار المطبوعات المصرية
٥٠ شارع قصر النيل

مكتبة هواة الكتب
بالاسكندرية
٣٤ شارع سعد زغلول
تليفون ٣٣٠١٣